

مِنْ مَفَاهِيمِ عَقِيدَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ

الْإِلَاءُ وَالْبِرُّ فِي الْإِسْلَامِ

تَأَلَّفَ
مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ الْقُحْطَانِي

تَقْدِيمُ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ
عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَفَّيْفِي

الْفَتْحُ لِلْأَعْلَامِ الْعَرَبِيَّةِ
الْقَاهِرَةِ

الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ
الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ
الطبعة الثالثة ١٤٠٩ هـ
الطبعة الرابعة ١٤١١ هـ
الطبعة الخامسة ١٤١٢ هـ
الطبعة السادسة ١٤١٣ هـ
الطبعة السابعة ١٤١٤ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ تَعَالَى :-

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى
أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ
فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٥﴾

المائدة

وَقَالَ تَعَالَى :-

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ
إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ كُفِّرْنَا بَأْسَكُمْ وَبَدَأْنَا بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ
وَالْبُغْضَاءَ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ

آية ٤ المتحنة

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

« أَوْثَقُ عُمَرَى الْإِيمَانِ الْمَوَالَاةُ فِي اللَّهِ وَالْمَعَادَاةُ
فِي اللَّهِ وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ »

حديث حسن

هَذَا الْكِتَابُ

رِسَالَةٌ عِلْمِيَّةٌ تَقَدَّمُ بِهَا الْمُؤَلِّفُ لِئَيْلِ دَرَجَةِ
التَّخَصُّصِ الْأَوَّلِ " الْمَاجِسْتِير " مِنْ جَامِعَةِ
أُمِّ الْقُرَى بِمَكَّةِ الْمَكْرَمَةِ ، فَرَعَ الْعَقِيدَةِ
وَقَدْ تَكُونَتْ لَجَنَةُ الْمُنَاقَشَةِ مِنْ :

١ - فَضِيلَةُ الشَّيْخِ الْأَسَازِ مُحَمَّدٍ قُطْبِ الْمَشْرِفِ
عَلَى الرِّسَالَةِ : رَئِيسًا .

٢ - فَضِيلَةُ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَفِيْفِي : عَضْوًا .

٣ - فَضِيلَةُ الدُّكْتُورِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عُبَيْدٍ : عَضْوًا .

وَمُنِحَ صَاحِبُهَا دَرَجَةُ الْمَاجِسْتِيرِ بِتَقْدِيرِ مُنْتَازِ
وَذَلِكَ لَيْلَةَ السَّبْتِ ٤ / ٨ / ١٤٠١ هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة فضيلة الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فموضوع هذا الكتاب له شأنه وله أهميته في نفسه، وبالنسبة لكتابته في هذا الوقت، فبين كتابته وبين الوقت الذي نعيش فيه الآن مناسبة قوية. أما أهميته في نفسه: فذلك لأنه في أصل من أصول الإسلام هو: "الولاء والبراء".

وهما مظهران من مظاهر إخلاص المحبة لله، ثم لأنبيائه وللمؤمنين. والبراء: مظهر من مظاهر كراهية الباطل وأهله. وهذا أصل من أصول الإيمان، وأما أهميته بالنظر للوقت الحاضر: فلأنه قد اختلط الحابل بالنابل، وغفل الناس عن مميزات المؤمنين التي يتميزون بها عن الكافرين، وضعُف الإيمان في قلوبهم حتى ظهرت فيهم مظاهر يكرهها المؤمن.

والوا الكافرين أمماً ودولاً، وزهدوا في كثير من المؤمنين، وحطّوا من قدرهم، وساموهم سوء العذاب.

ومن هنا: تأتي أهمية نشر هذا الكتاب في هذا الوقت الحاضر بالذات.

ولقد جاء المؤلف على جوانب الولاء والبراء، ونقل في ذلك كثيراً من كلام العلماء، وقدم له ومهد، وعقب عليه وعلّق، وأستدل على ما جاء به من مبادئ الولاء والبراء بآيات من القرآن، وبأحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ، وبكثير من آثار الصحابة ومن تبعهم من السلف.

وبين وجه الاستشهاد بهذا وبهذا، ورقم للآيات وبين سورها، وأخرج الأحاديث والآثار وبين درجتها في الغالب الكثير.

وبرزت شخصية الباحث في كتابه مما يدل على سعة اطلاعه وقوة بحثه.

وأسأل الله جلّ شأنه أن ينفع المسلمين بهذا الكتاب، وأن يهيئ لمؤلفه إخواناً ينهجون نهجه، فالأمل كبير، الأمل في الله عظيم أن ينشأ كثير من شباننا الحاضر على هذا المبدأ القيم، مبدأ نصرة دين الإسلام وإحياء ما أندرس منه فإن ربّي مجيب الدعاء.

عبد الرزاق عفيفي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضلل الله فلا تجمد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله وآتدى بهداه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد :

فإنه من رحمة الله سبحانه وتعالى وعظيم لطفه بخلقه: أن جعل الرسالة المحمدية هي خاتمة الرسالات السماوية، وجعلها سبحانه وتعالى كاملة صافية نقية لا يزيغ عنها إلا هالك. وكتب تبارك اسمه وتعالى جده السعادة في الدارين لأتباع هذه الرسالة الذين قدروها حق قدرها، وقاموا بها على وفق ما أراد الله وعلى هدي نبي الله ﷺ وسماهم أولياء الله وحزبه. وكتب عز وجل الشقاء والذل على من حاد عن هذه الشريعة وتنكب الصراط المستقيم وسماهم أولياء الشيطان وجنده.

وأصل هذه الرسالة الخالدة: كلمة التوحيد "لا إله إلا الله محمد رسول الله" هذه الكلمة العظيمة - كما يقول آبن القيم -:

(التي لأجلها نصبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنة

والنار، وبها أنقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، وأمسست الملة، ولأجلها جردت السيوف للجهاد، وهي حق الله على جميع العباد.

(وحقيقة هذه الكلمة: مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً، والتصديق به عقداً، والإقرار به نطقاً، والانقياد له محبة وخضوعاً، والعمل به باطناً وظاهراً، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان، وكماله في الحب في الله، والبغض في الله، والعطاء لله، والمنع لله، وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده.

(والطريق إليه: تجريد متابعة رسوله ﷺ ظاهراً وباطناً، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله)^(١).

هذه الكلمة العظيمة بكل مفاهيمها ومقتضياتها قد غابت عن حس الناس اليوم إلا من رحم الله، ومن هذه المفاهيم بل من أهمها موضوع: "الولاء والبراء".

ولئن كان هذا المفهوم العقدي ألهم قد غاب اليوم عن واقع حياة المسلمين — إلا من رحم ربك — فإن ذلك لا يعير من حقيقته الناصعة شيئاً

ذلك أن الولاء والبراء: هما الصورة الفعلية للتطبيق الواقعي لهذه العقيدة. وهو مفهوم ضخم في حس المسلم بمقدار ضخامة وعظمة هذه العقيدة.

ولن تتحقق كلمة التوحيد في الأرض إلا بتحقيق الولاء لمن يستحق الولاء، والبراء ممن يستحق البراء.

وبحسب بعض الناس أن هذا المفهوم العقدي الكبير يدرج ضمن القضايا الجزئية أو الثانوية ولكن حقيقة الأمر بعكس ذلك.

(١) «الفوائد» تحقيق جابر يوسف: (ص ١٢٣)

إنها قضية إيمان وكفر كما قال الله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءِآبَاءَكُمْ
وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ
وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن
كَانَ ءِآبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتٌ تَبْنُونَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ
تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ
فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ءِوَالَهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

[سورة التوبة: ٢٣ - ٢٤]

وقال جل جلاله :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاِنَّهُمْ فَاِنَّهُمْ بِكُمْ فَاِنَّهُمْ بِكُمْ فَاِنَّهُمْ بِكُمْ
الظَّالِمِينَ

[سورة المائدة: ٥١]

وقد قال أحد العلماء - وهو الشيخ حمد بن عتيق رحمه الله - : (إنه
ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم
- أي الولاء والبراء - بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده)^(١).

ولقد قامت الأمة الإسلامية بقيادة البشرية دهرًا طويلاً حيث نشرت هذه
العقيدة الفراء في ربوع المعمورة، وأخرجت الناس من عبادة العباد إلى عبادة
رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

(١) النجاة والفكاك: (ص ١٤).

ثم ما الذي حدث؟

- * لقد تقهقرت هذه الأمة إلى الوراء بعد أن تركت الجهاد وأخذت بأذئاب البقرا
- * تراجعت بعد أن زهدت في الجهاد وهو ذروة سنام الإسلام.
- * تبعت الأمم الأخرى بعد أن ركنت إلى حياة الدعة والرفاهية والبذخ والمجون.
- * تبلبلت أفكارها بعد أن خلطت نبعها الصافي بالفلسفات الجاهلية والمهرطقة البشرية.
- * دخلت هذه الأمة في طاعة الكافرين وأطمأنت إليهم، وطلبت صلاح دنياها بنهاب دينها فخسرت الدنيا والآخرة.

وبرزت صور موالاة الكفار في أمور شتى منها :

- (١) محبة الكفار وتعظيمهم ونصرتهم على حرب أولياء الله، وتنحية شريعة الله عن الحكم في الأرض، ورميها بالقصور والجمود، وعدم مسايرة العصر ومواكبة التقدم الحضاري.
- (٢) ومنها : استيراد القوانين الكافرة - شرقية كانت أم غربية -، وإحلالها محل شريعة الله الغراء، وغمز كل مسلم يطالب بشرع الله بـ "التعصب والرجعية والتخلف"
- (٣) ومنها : التشكيك في سنة رسول الله ﷺ، والطمع في دواوينها الكريمة، والخط من قدر أولئك الرجال والأعلام الذين خدموا هذه السنة حتى وصلت إلينا.
- (٤) قيام دعوات جاهلية جديدة تعتبر ردة جديدة في حياة المسلمين، مثل: دعوة القومية الطورانية، والقومية العربية، والقومية الهندية، و... إلخ.
- (٥) إفساد المجتمعات الإسلامية عن طريق وسائل التربية والتعليم، وبث سموم

الغزو الفكري في المناهج والوسائل الإعلامية بكل أصنافها.

وأمام هذه الصور وغيرها من الصور الكثيرة، تنشأ أسئلة كثيرة نحتاج إلى إجابات صادقة وافية، يدعمها الدليل من الكتاب والسنة، والاسترشاد بآراء العلماء الأعلام، ومن هذه الأسئلة:

لمن ينتمي المسلم؟

ولمن يكون ولاؤه؟

وممن يكون براؤه؟

ما حكم تولي الكفار ونصرتهم؟

ما حكم الإسلام في المذاهب الفكرية التي يروج لها المستغفلون أو الخاقلون من أبناء أمتنا وممن ينطقون بالستنا؟

كيف ينبغي أن تكون صورة الولاء للمسلمين الذين يضطهدون اليوم وغير اليوم في مشارق الأرض ومغاربها، حيث تكالبت عليهم قوى الشر والكفر؟

ما هو طريق الخلاص بعدما تقبل المسلمون لباس العبودية العقلية الذي خلعت عليهم المدنية الأجنبية؟

يستثير هذه الأسئلة وغيرها غياب المفهوم الصحيح لكلمة التوحيد، وبعد ذلك عن واقع المسلمين اليوم، حيث مسخت مفاهيمها حتى صار من يقر بتوحيد الربوبية فقط دون توحيد الألوهية يعتبر موحداً عند كثير من الناس!!!

أما كون لا إله إلا الله ولاء وبراء، أما كونها توحيد ألوهية وعبادة: فهذه معان لا تخطر على أذهان الكثير - إلا من رحم الله -.

ورحم الله الإمام الداعية شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب حين قال:

(إن الإنسان لا يستقيم له إسلام ولو وحّد الله وترك الشرك إلا بعداوة المشركين كما قال تعالى في سورة المجادلة :

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

[سورة المجادلة: ٢٢] (١).

وأنطلاقاً من مجموع هذه الأمور، وحجاً في خدمة هذه العقيدة، ورغبة في تنفيذ الباطل وبيان الحق: عقدت العزم واستعنت بالله وكتب هذا الموضوع وسميته: "الولاء والبراء في الإسلام".

وأنا أعلم — يقيناً — أن مثلي لا يعطي هذا الموضوع حقه من البحث والدراسة نظراً لقلّة البضاعة وسعة الموضوع، ولكنني بذلت جهد المقل، وأجتهدت أن أصل به إلى الصورة التي تليق به، فإن أصبت فذاك ما أردت والفضل لله أولاً وآخرًا.

وإن كانت الأخرى فأستغفر الله لذنبي. وحسبي أنني بذلت طاقتي ووضعت لبنّة في طريق من يريد إكمال البناء.

وأقول كما قال سلفنا الصالح: (رحم الله امرأً أهدي إلى عيوبي).
كما أنني أطلب من كل قارئ كريم — عالم أو متعلم — قرأ هذا الكتاب ووجد فيه خللاً أن يبينني إلى ذلك، وله من الله الأجر والمثوبة على قامه بواجب النصيح، ثم له مني الدعاء بظاهر الغيب.

وأخيراً أتقدم بخالص الشكر والتقدير لأستاذي الكبير العالم العامل الشيخ محمد قطب حفظه الله لما أسداه إلي من نصيح وتوجيه، وإرشاد وتنبية إبان إشرافه على هذا البحث، سائلاً الله العليّ القدير أن يجزيه عني خير ما جازى معلماً عن تلميذه، والله الهادي إلى سواء السبيل.

(١) مجموعة التوحيد: (ص ١٩) ط. دار المكر بالقاهرة.

اللهم أجعل عملنا خالصاً صائباً، خالصاً لوجهك الكريم صائباً وفق كتابك وسنة نبيك ﷺ.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به وأعف عنا وأغفر لنا وآرحمنا أنت مولانا فأنصرنا على القوم الكافرين.

محمد بن سعيد بن سالم القحطاني

مكة المكرمة

١٤٠٢/٥/١٥ هـ

التمهيد

التمهيد

لكي نتحدث عن الولاء والبراء من واقع التصور الإسلامي الصحيح، لا بد أن نتحدث في هذا التمهيد عن حقائق ثلاث هي:

(١) حقيقة الإسلام الممثلة في كلمة التوحيد "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ومدلول هذه الكلمة وشروطها.

(٢) الولاء والبراء من لوازم كلمة التوحيد.

(٣) نواقض الإسلام: الشرك والكفر والنفاق والردة.

وهدفنا من هذا هو: أن أحاول - بقدر الطاقة - إبراز حقيقة الإسلام، وحقيقة ما يناقضه. مع إبراز حقيقة قضية الولاء والبراء ودورهما في حياة المسلمين. لأن الولاء والبراء جزء من هذه العقيدة، فالحديث عنه يستلزم الحديث عن أساس هذه العقيدة وهي كلمة التوحيد. ومعرفة هذه العقيدة - معرفة صحيحة أمر ضروري للمسلم ليكون ولاؤه وبرأؤه بحسبها. إذ من المحال أن تكون هناك عقيدة سليمة بدون تحقيق الموالاة والمعاداة الشرعية.

ثم إن الوقوف على حقيقة دعوة رسول الله ﷺ وما أحدثته هذه الدعوة من تحول في تاريخ البشرية، وما بنته من حضارة سَعَدَ بها الإنسان المسلم منذ أول لحظة عرف فيها ربّه ودينه ونبيّه: لأمر جدير بالتأمل، تلك الدعوة التي جاءت وقد كان الناس يعيشون في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، ثم أنقذتهم وأحيتهم بعد ممات:

أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي
النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا

[سورة الأنعام: ١٢٢]

ولقد أوضح حقيقة تلك الحال التي كانوا عليها الصحابي الجليل المقداد^(١) بن الأسود رضي الله عنه فقال فيما رواه أبو نعيم في «الحلية»: (وَاللَّهِ لَقَدْ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَشَدِّ حَالٍ بُعِثَ عَلَيْهِ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فِي فِتْرَةٍ وَجَاهِلِيَةٍ. مَا يَرُونَ دِينًا أَفْضَلَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَجَاءَ بِفِرْقَانٍ فَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ، حَتَّى أَنَّ الرَّجُلَ لِيرَى وَالِدَهُ أَوْ وَلَدَهُ أَوْ أَخَاهُ كَافِرًا - وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى قَفْلَ قَلْبِهِ لِلْإِيمَانِ - لِيَعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ مِنْ دَخَلِ النَّارِ، فَلَا تَقَرُّ عَيْنُهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ حَمِيمَهُ فِي النَّارِ، وَأَنَّهَا لِلَّتِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قِسْرَةً كَمَا هَبْ

[سورة الفرقان: ٧٤] - (٢).

هذه الجاهلية التي تحدث القرآن عنها وهو يمتن على المسلمين بالهداية. قال

تعالى :

وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا
وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ
فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

[سورة آل عمران: ١٠٣].

- (١) هو المقداد بن الأسود. أسلم قديماً وشهد بدرًا والمشاهد، وكان فارساً يوم بدر. توفي سنة ٣٣ هـ قال بعضهم وهو ابن سبعين سنة. وكان ذلك بالخوف على بعد ثلاثة أميال من المدينة وحمل إلى المدينة ودفن بها. انظر «تهذيب التهذيب» لابن حجر العسقلاني: (ج ١٠/ ٢٨٥).
- (٢) «حلية الأولياء» لأبي نعيم: (ج ١/ ١٧٥) وذكره صاحب كتاب «حياة الصحابة»: (ج ١/ ٢٤١) وقال إن الطبراني أخرجه أيضاً بمعناه بأسانيد في أحدهما يحيى بن صالح. وثقه الذهبي، وقد تكلموا فيه، وبقي رجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (ج ٦/ ١٧).

ولما عرف الصحابة رضوان الله عليهم الجاهلية، ثم عرفوا الإسلام، خرجوا نتيجة للتربية القرآنية والعناية النبوية - وهم أعظم جيل عرفه تاريخ هذه الدعوة.

ترى، ما سیر تلك العظمة التي نقرأ عنها ونسمع، وكأنها شبه أحلام، نظراً للهوة السحيقة التي وصلنا إليها؟ ذلك الجيل الذي كان الواحد منهم إذا دخل في الإسلام خلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية، وأنتقل نقلة بعيدة من عالم مظلم سحيق، وتصور قاصر، ومفاهيم كليلية، وعبودية للمال والعبيد، إلى حياة رحة فسيحة، وعالم يملؤه نور الله، وتصور كامل شامل، وأستعلاء على كل عبودية إلا العبودية لله عز وجل^(٣).

إن سیر ذلك النجاح، وتلك العظمة هو نقطة البدء التي بدأ بها رسول الله ﷺ وهي كلمة "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، هذه الكلمة التي مزقت كل رابطة، وأهدرت كل وشيجة إلا وشيجة العقيدة. رابطة الحب في الله، رابطة المؤاخاة الإيمانية التي يتهاوى دونها كل عرق ودم وتراب وجنس ولون. ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي. اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»^(٤).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن من عباد

(٣) انظر «معالم في الطريق» للاستاذ سيد قطب: (ص ١٦) فصل حيل قرآني فريد. طبع دار الشروق، وانظر كتاب «أبو بصير قمة في العزة الإسلامية» للاستاذ محمد حسن بريغش: (ص ٤٧) ط. ٢. سنة ١٣٩٧ هـ الناشر مكتبة الحرمين بالرياض.

(٤) «صحيح مسلم» تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى: (ج ٤/ ١٩٨٨ ح ٢٥٦٦) كتاب البر. الطبعة الأولى سنة ١٣٧٤ هـ دار إحياء الكتب العربية، وانظر المسند للإمام أحمد تحقيق الشيخ أحمد شاكر: (ج ١٦/ ١٩٢ ح ٨٤٣٦) ط. ٤. سنة ١٣٧٣ هـ دار المعارف بمصر، والموطأ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى: (ج ٢/ ٩٥٢).

آلله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من آله تعالى» قالوا: يا رسول آله تخبرنا من هم؟ قال: «هم قوم تحابوا بروح آله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم على نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» وقرأ هذه الآية :

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

[سورة يونس: ٦٢].

ولقد مكث رسول آله ﷺ بمكة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس إلى هذه العقيدة ويمكنها في نفوس العصابة المسلمة، مما جعل آثار ذلك تنعكس في أفعالهم الحميدة، وجهادهم المستمر لنشر كلمة آله في الأرض، حين قامت دولة المصطفى ﷺ في المدينة المنورة.

إن الذي يجعلنا نتحدث عن قضية الألوهية، ومفهومها الصحيح الذي جاء به الإسلام هو الحاجة الماسة لشرحها اليوم، وبيانها للناس. بعد أن آنحرف الناس - إلا من رحم آله - عن العقيدة الصافية التي جاء بها الرسول ﷺ.

لقد أصبحت هذه القضية عند سواد الناس اليوم مجرد لفظة ترددها الألسنة دون وعي وتدبر لمعناها ولوازمها، ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب، بل تعداه إلى إيراد بعض النصوص للاستشهاد بها على ما يرون من معتقد، دون نظر لكامل النصوص في هذه القضية، ودون رجوع إلى بيان ذلك في كتب أهل العلم من كتب الحديث وشروحها وكتب التفسير وشروح جهابذة رجال الدعوة والإصلاح على مدار تاريخ هذه الأمة.

ومسح أيضاً مفهوم العبادة الشامل الكامل للحياة الدنيا والآخرة إلى جزء

(٥) سنن أبي داود: (ج ٣/ ٧٩٩ ح ٢٥٢٧) كتاب البيوع. وإسناده صحيح. تعليق عزت الدعاس الطبعة الأولى سنة ١٣٩١ هـ الناشر محمد علي السيد بسوريا.

يسير منها وهو الشعائر التعبدية من صلاة وصيام وزكاة وحج.

أما النظام الذي تقوم عليه الحياة. أما الولاء لمن يكون؟ والبراء ممن يكون؟
أما الحب لمن؟ والبغض لمن؟ فهذه معانٍ بعيدة عن تصورهم ومجال تفكيرهم!!
إن هذا الدين لم يكن توحيد ربوبية فحسب. وإنما هو أيضاً توحيد ألوهية
وتوحيد أسماء وصفات تليق بجلال الله وعظمته.

وتأمل — كما يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله — :

(حال رسول الله ﷺ لما قام ينذر المشركين عن الشرك، ويأمرهم
بضده وهو التوحيد، لم يكرهوا وأستحسنوا، وحدثوا أنفسهم بالدخول فيه،
إلى أن صرح بسب دينهم وتجهيل علمائهم، فحيث شمرؤا له ولأصحابه
عن ساق العداوة، وقالوا: سفه أحلامنا، وعاب ديننا، وشتم آلهتنا، ومعلوم
أنه ﷺ لم يشتم عيسى وأمه، ولا الملائكة، ولا الصالحين، ولكن لما ذكر
أنهم لا يدعون ولا ينفعون، ولا يضرون: جعلوا ذلك شتماً.

(فإذا عرفت هذا، عرفت أن الإنسان لا يستقيم له إسلام — ولو وحده
الله وترك الشرك — إلا بعداوة المشركين، والتصريح لهم بالعداوة والبغض،
كما قال تعالى في سورة المجادلة :

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
كَادَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
الْإِيمَانَ

[سورة المجادلة: ٢٢].

(فإذا فهمت هذا جيداً عرفت أن كثيراً من الذين يدعون الدين
لا يعرفونها — أي لا إله إلا الله — وإلا فما الذي حمل المسلمين على الصبر
على ذلك والعذاب والأسر، والضرب، والهجرة للحبشة، مع أنه ﷺ أرحم

الناس لو يجد لهم رخصة لأرخص لهم (٦).

وما دام أن هناك من يجهل حقيقة "لا إله إلا الله" فلا بد من الشرح لها، والبيان لمدلولها وحقيقتها، وشروطها ونواقضها ولوازمها وإليك ذلك مفصلاً.

ومن الله نستمد العون والسداد.

(٦) «مجموعة التوحيد» لابن تيمية وابن عبد الوهاب وغيرهم: (ص ١٩) الناشر دار الفكر بالقاهرة.

كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله)

ومعناها: لا معبود بحق إلا الله، وبذلك تنفي الإلهية عما سوى الله
تثبته الله وحده^(٧).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(ليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله، والتقرب إليه بما
يحب، ولا تمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذا حقيقة
”لا إله إلا الله“ وهي ملة إبراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء
 والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين)^(٨) أما شيقها الثاني ”محمد
رسول الله“ فمعناه تجريد منابته ﷺ فيما أمر والانتفاء عما نهى عنه
وزجر.

ومن هنا كانت ”لا إله إلا الله“ ولاء وبراء، نفياً وإثباتاً.

ولاء لله ولدينه وكتابه وسنة نبيه وعباده الصالحين.

وبراء من كل طاغوت عبد من دون الله^(٩).

فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى

[سورة البقرة: ٢٥٦]

(٧) انظر «فتح المجدد»: (ص ٣٦).

(٨) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»: (ج ٢٨/٣٢). جمع عبدالرحمن بن
قاسم ط. أولى مطبعة الحكومة سنة ١٣٨١هـ.

(٩) عرف ابن القيم الطاغوت تعريفاً جامعاً فقال: الطاغوت كل ما تجاوز به العبد
حده من معبود أو متبوع أو مطاع فطاغوت كل قوم من يتحكمون إليه غير =

وفي هذا يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: وأعلم أن الإنسان ما يصير مؤمناً بالله إلا بالكفر بالطاغوت والدليل هذه الآية^(١٠) يعني الآية السابقة ٢٥٦ سورة البقرة.

وكلمة التوحيد ولاء لشرع الله :

اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ
مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ

[سورة الأعراف: ٣]

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا

[سورة الروم: ٣٠]

وبراء من حكم الجاهلية :

أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ

[سورة المائدة: ٥٠]

وبراء من كل دين غير دين الإسلام :

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ
دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ

[سورة آل عمران: ٨٥]

ثم هي نفي وإثبات تنفي أربعة أمور. وثبتت أربعة أمور.

= الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله. انظر «فتح المجيد» لعبد الرحمن بن حسن: (ص ١٦) ط. ٧ سنة ١٣٧٧هـ مطبعة أنصار السنة.
(١٠) «الدرر السنية»: (ج ١/٩٥) جمع عبد الرحمن بن قاسم.

(تنفي: الآلهة، والطواغيت، والأنداد، والأرباب.
 فالآلهة: ما قصدته بشيء من جلب خير أو دفع ضرر، فأنت متخذة إلهاً.
 والطواغيت: من عبد وهو راض، أو رُشح للعبادة.
 والأنداد: ما جذبك عن دين الإسلام، من أهل، أو مسكن، أو عشيرة،
 أو مال فهو نذ لقوله تعالى :

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْبَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ

[سورة البقرة: ١٦٥]

والأرباب: من أفتاك بمخالفة الحق وأطعته، مصداقاً لقوله تعالى :

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ

[سورة التوبة: ٣١]

وثبت أربعة أمور :

القصد: وهو كونك ما تقصد إلا الله.

والتعظيم والمحبة: لقوله تعالى :

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ

[سورة البقرة: ١٦٥]

والخوف والرجاء: لقوله تعالى :

وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

[سورة يونس: ١٠٧]

فمن عرف هذا قطع العلاقة مع غير الله ولا تكبر عليه جهامة الباطل،

كما أخبر تعالى عن إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام بتكسير الأصنام
وثبّره من قومه :

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ
إِنَّا بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْعَصَاةُ أَتَدَّخِنُ تُوْمُنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ

[سورة الممتحنة: ٤] (١١).

ولقد جاء القرآن من أوله إلى آخره يبيّن معنى لا إله إلا الله، ينفي الشرك
وتوابعه، ويقرر الإخلاص وشرائعه، فكل قول وعمل صالح يحبه الله ويرضاه
هو من مدلول كلمة الإخلاص، لأن دلالتها على الذين كله إما مطابقة وإما
تضمناً وإما ألتراماً^(١٢)، يقرر ذلك أن الله سماها كلمة التقوى.

والتقوى: أن يتقي سخط الله وعقابه بترك الشرك والمعاصي، وإخلاص
العبادة لله، واتباع أمره على ما شرعه. كما قال آس مسعود رضي الله عنه: «أن
تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله،
على نور من الله، تخاف عقاب الله»^(١٣).

أما كيف تم لأصحاب رسول الله ﷺ معرفة هذه الكلمة والالتزام
أحكامها والعمل بمقتضاياتها ولوارمها فيشرح ذلك الإمام الجليل سفيان بن

(١١) بصع رسائل في عقائد الإسلام للشيخ/ محمد بن عبد الوهاب: (ص ٣٥) تحقيق

رضا رشيد رضا، الطبعة الأولى ١٣٤٩ هـ مطبعة المنار بمصر.

(١٢) دلالة المطابقة: هي دلالة اللفظ على كل معناه.

دلالة التضمن: هي دلالة اللفظ على جزء معناه.

دلالة الالتزام: هي دلالة اللفظ على معنى خارج عنه لكنه لازم له.

(١٣) انظر المورد العذب الزلاله ضمن مجموعة الرسائل والمسائل النجدية:

(ج ٩٩/٤) تحقيق رشيد رضا الطبعة الأولى سنة ١٣٤٦ هـ مطبعة المنار بمصر.

عينة (١٤):

(حدث محمد بن عبد الملك المصيصي قال: كنا عند سفيان بن عيينة في سنة سبعين ومائة، فسأله رجل عن الإيمان؟ فقال: قول وعمل. قال: يزيد وينقص؟ قال: يزيد ما شاء الله، وينقص حتى لا يبقى منه مثل هذه، وأشار سفيان بيده. قال الرجل: كيف نصنع بقوم عندنا يزعمون: أن الإيمان قول بلا عمل؟ قال سفيان: كان القول قولهم قبل أن تقرر أحكام الإيمان وحدوده. إن الله عز وجل بعث نبينا محمداً ﷺ إلى الناس كلهم كافة أن يقولوا: لا إله إلا الله، وأنه رسول الله. فلما قالوها عصموا بها دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل، فلما علم الله عز وجل صدق ذلك من قلوبهم، أمره أن يأمرهم بالصلاة، فأمرهم ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم (١٥).

(فلما علم الله جل وعلا صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالهجرة إلى المدينة فأمرهم ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم، فلما علم الله تبارك وتعالى صدق ذلك من قلوبهم أمرهم بالرجوع إلى مكة ليقاتلوا آبائهم وأبناءهم حتى يقولوا كقولهم، ويصلوا صلاتهم ويهاجروا هجرتهم، فأمرهم ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم، ولا قتالهم، فلما علم الله عز وجل صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالطواف بالبيت تعبدًا، وأن يحلقوا

(١٤) هو الإمام أبو محمد سفيان بن عيينة الملالى، الحافظ، أحد أعلام الإسلام ولد سنة ١٠٧هـ وتوفي سنة ١٩٨هـ وله إحدى وتسعون سنة قال فيه الشافعي: لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز وقال فيه أحمد بن حنبل: ما رأيت أحدًا أعلم بالسنن من ابن عيينة وكان كبير القدر. من العباد. حج سبعين سنة. انظر «شذرات الذهب»: (ج ١/٣٥٤)، و«الأعلام»: (ج ٣/١٠٥) ط. ٤.

(١٥) هكذا بالنص، والذي يدل لي — والله أعلم — أن سياق الكلام يقتضي أن يكون هكذا "ما نفعهم الإقرار الأول" يدل على ذلك ما سيأتي في بقية النص.

رؤوسهم تذلاً ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول، ولا صلاتهم، ولا هجرتهم، ولا قتلهم آباءهم، فلما علم الله عز وجل صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم بها، فأمرهم ففعلوا حتى أتوا بها قليلاً وكثيراً، والله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم، ولا هجرتهم، ولا قتلهم آباءهم ولا طوافهم. فلما علم الله تبارك وتعالى الصدق من قلوبهم فيما تتابع عليهم من شرائع الإيمان وحدوده قال عز وجل: قل لهم :

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا

[سورة المائدة: ٣]

(قال سفيان: فمن ترك خلة من خلال الإيمان كان بها عندنا كافراً، ومن تركها كسلاً أو تهاوناً بها، أدبناه وكان بها عندنا ناقصاً. هكذا السنة أبلغها عني من سألك من الناس) (١٦).

وقد ذكر العلماء رحتهم الله شروطاً سبعة لـ "لا إله إلا الله" لا تنفع صاحبها إلا بآجتماع هذه الشروط. وإليك شرحها :

(١٦) كتاب «الشرعة» لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري: (ص ١٠٤) الطبعة الأولى سنة ١٣٦٩ هـ تحقيق محمد حامد الفقي. الناشر: مطبعة أنصار السنة المحمدية بمصر.

شروط (لا إله إلا الله)

ينبغي أن نعلم أنه :

(ليس المراد من هذا عدّ ألفاظها وحفظها، فكم من عامي اجتمعت فيه وآلتزمها، ولو قيل له أعددها لم يُحسن ذلك، وكم حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها والتوفيق بيد الله) (١٧).

وقد قال وهب بن منبه^(١٨): لمن سأله :

(أليس ”لا إله إلا الله“ مفتاح الجنة؟ قال: بلى. ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك) (١٩)

وأسنان هذا المفتاح هي شروط ”لا إله إلا الله“ الآتية :

الشرط الأول: العلم بمعناها المراد منها نفيًا وإثباتًا، المنافي للجهل بذلك قال تعالى :

قَاتِلُوا أَتْلَٰهٖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ

[سورة محمد: ١٩]

(١٧) «معارج القبول» للشيخ حافظ الحكمي: (ج ١/٣٧٧) الطبعة الأولى تصوير إدارات البحوث العلمية بالرياض.

(١٨) وهب بن منبه بن كامل الجمالي الصنعاني روى عن أبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس وابن عمر وعمرهم. قال النعجلي: نابهي بعة وكان على قضاء صنعاء ووثقه أيضاً: أبو زرعة والنسائي وابن حبان. كان مولده سنة ٣٤ هـ ووفاته سنة ١١٠ هـ. انظر «مذهب التهذيب»: (ج ١١/١٦٧).

(١٩) رواه البخاري تعليقاً في كتاب الجنائز باب من كان آخر كلامه لا إله إلا الله: (ج ٣/١٠٩).

وقال تعالى :

إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ

[سورة الزخرف: ٨٦]

أي: بـ "لا إله إلا الله" "وهم يعلمون" بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم.

وقال تعالى :

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ

[سورة آل عمران: ١٨]

وفي الصحيح عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»^(٢٠).

الشرط الثاني: اليقين المنافي للشك. ومعنى ذلك: أن يكون قائلها مستيقناً بدلول هذه الكلمة، يقيناً جازماً، فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن^(٢١) قال تعالى :

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَنَّهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ

[سورة الحجرات: ١٥]

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول

(٢٠) «معارج القبول»: (ج ١/٣٧٨)، وانظر «الجامع الفريد» (ص ٣٥٦). والحديث مروي في «صحيح مسلم» تحقيق محمد فؤاد عبدالباق: (ج ١/٥٥ ح ٢٦) كتاب الإيمان.

(٢١) «معارج القبول»: (ج ١/٣٧٨).

الله ﷻ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقي الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة»^(٢٢). وفي رواية: «لا يلقي الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة». وعن أبي هريرة أيضاً من حديث طويل: «من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة»^(٢٣).

وقال القرطبي: في «المفهم على صحيح مسلم»: (باب لا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين، بل لا بد من آستيقان القلب. وهذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف في الإيمان، وأحاديث هذا الباب تدل على فساده. بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها، ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق، والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح وهو باطل قطعاً) ^(٢٤).

الشرط الثالث: القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه، وقد قصّ الله عزّ وجلّ علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاء من قبلها، وأنتقامه ممن ردّها وأبأها كما قال تعالى:

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا
إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾
﴿ قُلْ أُولَٰئِكَ حَتَّٰثُوكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِمْ آثَرًا ۚ كَرَّالُوا
إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٣﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُكُمْ كَيْفَ
كَانَ عَذَابُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾

[سورة الزخرف: ٢٣ - ٢٥]

(٢٢) «صحيح مسلم»: (ج ١/ ٥٦ ح ٢٧) كتاب الإيمان.

(٢٣) «صحيح مسلم»: (ج ١/ ٦٠ ح ٣١) كتاب الإيمان.

(٢٤) «فتح المبهدة»: (ص ٣٦).

وقال تعالى:

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ

[سورة يونس: ١٠٣]

ويقول تعالى:

إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾
وَيَقُولُونَ آيُنَا لَنَارِكُوا إِلَهَيْنَا لِنُشَاقِبَهُمَا فَيُجَنَّبُونِ ﴿٣٦﴾

[سورة الصافات: ٣٥ - ٣٦] (٢٥).

الشرط الرابع: الانقياد لما دلت عليه، المنافي لترك ذلك.

قال تعالى:

وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لِلَّهِ

[سورة الزمر: ٥٤]

وقال:

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ

[سورة النساء: ١٢٥]

وقال تعالى:

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ

[سورة لقمان: ٢٢]

أي بلا إله إلا الله.

وفي الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به» (٢٦).

(٢٥) «معارج القبول»: (ج ١/ ٣٨٠).

(٢٦) «معارج القبول»: (ج ١/ ٣٨١)، وانظر الرسالة الخامسة حول لا إله إلا الله = .

وهذا هو تمام الانقياد وغايته.

وقال تعالى:

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَحَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

[سورة النساء: ٦٥]

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيرها: يقسم الله تعالى نفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكّم الرسول ﷺ في جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً، ولهذا قال: ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ أي: إذا حكموك بطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به، ويتقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة، ولا منازعة، كما ورد في الحديث: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» (٢٧).

الشرط الخامس: الصدق المتالي للكذب، وهو أن يقولها صدقاً من قلبه، يواطئ قلبه لسانه، قال تعالى:

الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾

= المطبوعة مع «الكلمات النافعة» للشيخ/ عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب (ص ٧٣) ط. ٢. سنة ١٤٥٠ هـ السلفية بمصر.
والحديث، مروي في: «الأربعين النووية» للإمام النووي: (ص ١٣٤) الحديث الحادي والأربعون الطبعة الثانية سنة ١٩٧٣م الناشر مطابع قطر. قال النووي: وهو حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجّة باسناد صحيح.
(٢٧) «تفسير القرآن العظيم» للمحافظ ابن كثير: (ج ٢/ ٣٠٦) تحقيق عبدالعزيز غنيم ومحمد عاشور ومحمد البنا. مطبعة الشعب.

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٨﴾

[سورة العنكبوت: ١ - ٣] (٢٨).

وقال تعالى:

وَمِنَ النَّاسِ

مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا النَّبِيُّ آمُرْنَا بِالْعَمَلِ وَاصْطَلِبْ لَنَا ذَنْبًا نَحْمِلَهُ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُدْعَوْنَ إِلَىٰ إِيْمَانٍ إِلَّا لِنُؤْمِنَ بِمَا كُنَّا عَلَىٰ فِتْنَةٍ يَدْعُونَ ﴿٢٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٠﴾

[سورة البقرة: ٨ - ١٠]

وفي «الصحيحين» عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار» (٢٩).

قال العلامة ابن القيم:

(والتصديق بلا إله إلا الله يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة، بالتصديق بجميع أخباره وأمثال أوامره وأجتناب نواهيه.. فالمصدق بها على الحقيقة هو الذي يأتي بذلك كله، ومعلوم أن عصمة المال والدم على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبإلزام بحققها، وكذلك النجاة من العذاب على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبحققها) (٣٠).

(٢٨) «معارج القبول»: (ج ١/ ٣٨١).

(٢٩) «صحيح البخاري»: (ج ١/ ٢٢٦ ح ١٢٨) كتاب العلم. تحقيق محمد فؤاد

عبدالباق المطبوع مع فتح الباري بالمطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٨٠ الطبعة

الأولى. وانظر «اللزوم والمرجان» فيما اتفق عليه الشيخان» للشيخ محمد فؤاد

عبدالباق: (ج ١/ ٨ ح ٢٠) تصوير المكتبة الإسلامية — بيروت.

(٣٠) «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم: (ص ٤٣) تعليق طه يوسف شاهين.

وفي الحديث، قال ﷺ: «شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه» (٣١).

وقال آبن رجب:

(أما من قال: لا إله إلا الله بلسانه، ثم أطاع الشيطان وهواه في معصية الله ومخالفته فقد كذب فعله قوله، ونقص من كمال توحيده بقدر معصية الله في طاعة الشيطان والهوى

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يُغَيِّرُ هُدًى مِّنَ اللَّهِ

[سورة القصص: ٥٠]

وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

[سورة سورة ص: ٢٦] (٣٢)

الشرط السادس: الإخلاص، وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك (٣٣). قال تعالى:

أَلَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ خَلَقُوا

[سورة الزمر: ٣]

وقال تعالى:

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ

[سورة البينة: ٥]

وفي «الصحيح» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي

(٣١) أخرجه الحاكم في «المستدرک»: (ج ١/٧٠) كتاب الإيمان. وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٣٢) «كلمة الإخلاص»: (ج ٢٨).

(٣٣) «معارج القبول»: (ج ١/٣٨٢)، وانظر «الجامع الفريد»: (ص ٣٥٦).

من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه «أو نفسه» (٣٤).

وفي «الصحيح» عن عتبان بن مالك (٣٥) رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله عز وجل» (٣٦).

وللنسائي في «اليوم والليلة» من حديث رجلين من الصحابة عن النبي ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير مخلصاً بها قلبه، يصدق بها لسانه، إلا فتق الله لها السماء فتقاً حتى ينظر إلى قائلها من أهل الأرض، وحق لعبد نظر الله إليه أن يعطيه سؤله» (٣٧).

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله:

(إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة) (٣٨).

(٣٤) «صحيح البخاري»: (ج ١/ ١٩٣ ح ٩٩) كتاب العلم باب الحرص على الحديث.

(٣٥) هو عتبان بن مالك بن العجلان الخزرجي السلمي الأنصاري. بدري عند الجمهور. كان إمام قومه في بني سالم. وذكر ابن سعد أن النبي ﷺ آخى بينه وبين عمر. وقد مات في خلافة معاوية.

انظر «الإصابة» لابن حجر: (ج ٢/ ٤٥٢).

(٣٦) «صحيح مسلم»: (ج ١/ ٤٥٦ ح ٢٦٣) كتاب المساجد.

(٣٧) أورد هذا الحديث ابن رجب في «كلمة الإخلاص»: (ص ٦١). وقال فيه الأبي: عزاه في الجامع الكبير (١/ ٤٧٧) عن يعقوب بن عاصم قال: حدثني رجلان من الصحابة. ويعقوب هذا من رجال مسلم ووافقه ابن حبان فإن كان السند إليه صحيحاً فالحديث ثابت.

(٣٨) «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية: (ص ٤٥١) تحقيق محمد حامد الفقي. الطبعة الثانية سنة ١٣٦٩ هـ، مطبعة أنصار السنة.

ولقد ضرب الله سبحانه في القرآن العظيم مثلاً واضحاً للمخلص في توحيده وللمشرك قال تعالى:

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ
شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا

[سورة الزمر: ٢٩]

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تفسيرها:

(هذا مثل يضربه الله للعبد الموحّد والعبد المشرك، بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه، وهو بينهم موزّع، ولكلّ منهم فيه توجيه، ولكلّ منهم عليه تكليف، وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق ولا يملك أن يرضى أهواءهم المتنازعة المتشاكسة.. وعبد يملكه سيد واحد، وهو يعلم ما يطلبه منه، ويكلفه به، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح، هل يستويان؟ لا. لأن الذي يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين، وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه، ووضوح الطريق. والذي يخضع لسيادة مشتركين معذب مقلقل، لا يستقر على حال، ولا يرضى واحداً منهم فضلاً عن أن يرضى الجميع. وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد، وحقيقة الشرك في جميع الأحوال. فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يسير على هدى من الله يستمد منه وحده ويتجه إليه وحده) (٣٩).

ويقول الشيخ القاسمي رحمه الله:

(إن القصد هو توحيد المعبود في توحيد الوجهة، ودرء الفرقة كما قال تعالى:

(٣٩) وفي ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب: (ج ٥/ ٣٠٤٩)، الطبعة المشروعة، الناشر: دار الشروق. وانظر التفسير القيم لابن القيم: (ص ٤٢٣) جمع محمد أويس الندوي، تحقيق محمد حامد الفقي، الناشر: لجنة التراث — بيروت.

ءَأَزَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّٰهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

[سورة يوسف: ٣٩] (٤٠).

(إن الإسلام لا بد فيه من الاستسلام لله وحده، وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة "لا إله إلا الله" فمن أسلم لله ولغير الله فهو مشرك، والله لا يغفر أن يشرك به، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ

[سورة غافر: ٦٠] (٤١).

الشرط السابع: المحبة لهذه الكلمة، ولما اقتضته ودلت عليه، ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها، وبغض ما ناقض ذلك، قال تعالى:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ

[سورة البقرة: ١٦٥] (٤٢).

وقال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّونَهُ
وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي

(٤٠) «محاسن التأويل» للشيخ محمد جمال الدين القاسمي: (ج١٤/٥١٣٨)، تحقيق

محمد فؤاد عبد الباقي. الطبعة الأولى سنة ١٣٧٦هـ، دار إحياء الكتب.

(٤١) انظر «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص٤٥٤)، و«التحفة المراقية لابن تيمية: (ص٤١).

(٤٢) «أعلام السنة المنشورة لحافظ المحكمي: (ص١٤)، الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٩هـ،

الناشر: إدارات البحوث العلمية بالرياض، وانظر «معارج القبول»: (ج١/٣٨٣)، و«الجامع القريده»: (ص٣٥٦).

سَبِيلَ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ

[سورة المائدة: ٥٤]

وفي الحديث: «ثلاث من كنَّ فيه وُحِدَ بِهِنَّ حُلَاوَةُ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَقْبَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يَقْذَفَ فِي النَّارِ»^(٤٣).

قال الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله^(٤٤):

(وعلامة حب العبد ربّه: تقديم محابه وإن خالفت هواه، وبغض ما يبغض ربّه وإن مال إليه هواه. وموالاة من والى الله ورسوله، ومعاداة من عاداه. وآتباع رسوله ﷺ، وأقتفاء أثره، وقبول هداه)^(٤٥).

ويقول ابن القيم في «التبوية»:

شرط المحبة أن توافق من تحب	على محنته بلا عصبان
فإذا آدعت له المحبة مع خلا	فك ما يحب فأنّت ذو بهتان
أتحب أعداء الحبيب وتدعي	حبا له ما ذاك في إمكان
وكذا تعادي جاهداً أحبابه	أين المحبة يا أخا الشيطان
ليس العبادة غير توحيد المحبة	مع خضوع القلب والأركان

(٤٣) «صحيح البخاري»: (ج ١/٦٠، ح ١٦) كتاب الإيمان، و«صحيح مسلم»: (ج ١/٦٦، ح ٤٣) كتاب الإيمان.

(٤٤) هو الشيخ العلامة حافظ بن أحمد الحكمي. عالم سلفي من منطقة تهامة ولد سنة ١٣٤٢هـ بقرية السلام بالقرب من جيزان. كان آية في الذكاء وسرعة الحفظ والفهم. تتلمذ على الشيخ الداعية عبد الله القرعاوي. وكان ذا علم وتقوى وعفة. وتوفي رحمه الله سنة ١٣٧٧هـ وعمره ٣٥ سنة. انظر ترجمته بقلم ابنه أحمد بن حافظ في أول معارج القبول الجزء الأول.

(٤٥) «معارج القبول»: (٣٨٣/١).

إلى أن يقول:

ولقد رأينا من فريق يدعي الإ سلام شركاً ظاهراً التبيان
جعلوا له شركاء والوهم وسو وهم به في الحب لا السلطان^(٤٦)

(٤٦) والنونية: (ص ١٥٨).

الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله

(لما كان أصل الموالاة: الحب. وأصل المعاداة: البغض. وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة كالنصرة والأنس والمعاونة، وكالجهاد، والهجرة، ونحو ذلك) (٤٧). فإن الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله. وأدلة ذلك كثيرة من الكتاب والسنة.

أما الكتاب فمن ذلك قوله تعالى:

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ
يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ
تَقَةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ

[سورة آل عمران: ٢٨]

ويقول تعالى:

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ
فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْكَافِرِينَ

[سورة آل عمران: ٣١ - ٣٢]

(٤٧) الرسائل المفيدة للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ:
(ص ٢٩٦)، تصحيح عبد الرحمن الرويشد، طبع سنة ١٣٩٨هـ بدار العلوم
بمصر.

ويقول تباركت أسماؤه عن أهداف أعداء الله:

وَدُّوا أَنْ تَكْفُرُوا كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ
حَتَّى يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

[سورة النساء: ٨٩]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَبِمَا مَنَعَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ

[سورة المائدة: ٥١]

ويقول تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ رَدَّدَ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ
وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ

[سورة المائدة: ٥٤]

أما الأحاديث والآثار فكثيرة وأذكر منها:

- (١) ما رواه الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ بايعه على أن «تنصح لكل مسلم، وتبرأ من الكافر»^(٤٨).
- (٢) روى ابن أبي شيبة بسنده قال: قال رسول الله ﷺ: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»^(٤٩).

(٤٨) «المسند للإمام أحمد: (ج ٤/٣٥٧، ٣٥٨)، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨هـ، الناشر

المكتب الإسلامي وهو حديث حسن.

(٤٩) «الإيمان» لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، توفي سنة ٢٣٥هـ: (ص ٤٥)،

تحقيق الألباني وقال: أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود مرفوعاً وهو حسن، الطبعة المصمومة بدمشق وانظر «المسند»: (٤/٢٨٦).

(٣) روى الطبراني في «الكبير» عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله»^(٥٠).

(٤) أخرج ابن جرير ومحمد بن نصر المروزي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبداً طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»^(٥١).

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في شرح قول آس عباس هذا:

(قوله: «ووالى في الله» هذا بيان لل لازم المحبة في الله، وهو الموالاة فيه، إشارة إلى أنه لا يكفي في ذلك مجرد الحب، بل لا بد مع ذلك من الموالاة التي هي لارم الحب. وهي النصرة والإكرام، والاحترام والكون مع المحبوبين باطنياً وظاهراً. وقوله: «وعادى في الله» هذا بيان لل لازم البغض في الله، وهو المعاداة فيه. أي إظهار العداوة بالفعل كالجهاد لأعداء الله، والبراءة منهم، والبعد عنهم باطنياً وظاهراً، إشارة إلى أنه لا يكفي مجرد بغض القلب، بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازمه كما قال تعالى:

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا الْقَوْمِ هُمْ
إِنَّا بَرَاءُكُمْ وَآيَاتُنَا عَلَيْهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ هُمْ يَكْفُرُونَ

(٥٠) ذكر السيوطي في «الجامع الصغير»: (٦٩/١) وقال الألباني: حديث حسن.

انظر «صحيح الجامع الصغير»: (٣٤٣/٢)، ح (٢٥٣٦).

(٥١) «حلية الأولياء»: (٣١٢/١) عن ابن عباس، و«جامع العلوم والحكم» لابن

رجب الحنبلي: (ص ٣٠)، الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٢هـ، الناشر: مصطفى الباني

الحلبي بمصر.

وَيَبِّئُكُمْ الْعَذَابَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

[سورة الممتحنة: ٤]

قلت: ومما سبق يتضح أن الولاء في الله هو: محبة الله ونصرة دينه، ومحبة أوليائه ونصرتهم. والبراء هو: بغض أعداء الله ومجاهدتهم. وعلى ذلك جاءت تسمية الشارع الحكيم للفريق الأول: بـ "أولياء الله"، والفريق الثاني: بـ "أولياء الشيطان" قال تعالى:

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ
النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ

[سورة البقرة: ٢٥٧]

وقال تعالى:

الَّذِينَ آمَنُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَائَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ
الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا

[سورة النساء: ٧٦]

وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ سبحانه لم يبعث نبياً بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء، كما قال تعالى:

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ
يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا

[سورة الأنعام: ١١٢]

(٥٢) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: (ص ٤٢٢)، الناشر: إدارات البحوث العلمية بالرياض بدون تاريخ.

(وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة، وكُتب وحُجج كما قال

تعالى:

فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ
مِنَ الْعِلْمِ وَسَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ

[سورة غافر: ٨٣]

(والواجب على المسلم أن يتعلم من دين الله ما يصير له سلاحاً يقاتل
به هؤلاء الشياطين، ومن ثم لا خوف ولا حزن لأن:

كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا

[سورة النساء: ٧٦]

(والعامي من الموحدين يغلب الألف من علماء المشركين كما قال

تعالى:

وَلَيْدٌ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ

[سورة الصافات: ١٧٣]

(فجدد الله هم الغالبون بالحجة واللسان، كما أنهم الغالبون بالسيف
والسنان) (٥٣).

وإذا كانت أهداف أعداء الإسلام من ملحدين ويهود ونصارى
ومستعربين وصهيونية عالمية وشيوعية عالمية هي تميع عقيدة المسلمين،
وتذويب شخصيتهم المتفردة، لجعلهم حميراً للشعب المختار كما تنص على
ذلك "بروتوكولات حكماء صهيون". فإنه يتضح لدى المسلم أهمية هذا

(٥٣) بتصرف: انظر «كشف الشبهات» للإمام محمد بن عبد الوهاب: (ص ٢٠)،
الطبعة الثالثة سنة ١٣٨٨هـ، الناشر: مؤسسة النور بالرياض. وانظر «مجموعة
الرسائل والمسائل النجدية»: (ج ٤/٤٦).

الموضوع حتى يحذر هو ومن معه، بل يحذر المسلمون عامة، من الانزلاق في مهاوي الردى خاصة وإن الدعوات المشبوهة الملحدة تدعو إلى ما يسمى بالأخوة والمساواة وإن الدين لله والوطن للجميع! وسوف أتعرض لهذا بالتفصيل إن شاء الله في الباب الأخير.

فَبَانَ بهذه الأدلة الواضحة من الكتاب والسنة أن الولاء والبراء من لوازم "لا إله إلا الله" وهو أيضاً تحقيق معناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(إن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي أن لا يحب إلا الله، ولا ينفض إلا الله، ولا يوالي إلا الله، ولا يعادي إلا الله، وأن يحب ما أحبه الله ويغض ما أبغضه الله) (٥٤) ويوالي المؤمنين في أي مكان حلوا، ويعادي الكافرين ولو كانوا أقرب قريب.

ثم إن من الولاء والبراء ما هو شطر العقيدة. وركنها الثاني الذي لا تتم إلا به وهو الكفر بالطاغوت. قال تعالى:

فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى

[سورة البقرة: ٢٥٦]

فلا يكون مؤمناً من لا يكفر بالطاغوت، وهو كل متبوع أو مرغوب أو مرهوب من دون الله.

فقبول الإيمان والاستمسك بالعروة الوثقى مستلزم للكفر بالطاغوت كما نصت على ذلك الآية الكريمة.

(٥٤) «الاحتجاج بالقرآن» (ص ٦٢)، طبعة سنة ١٣٩٣ هـ المكتب الإسلامي.

الرد على من زعم أن كلمة التوحيد لفظ فقط مع بيان المذهب الصحيح في الأحاديث الواردة بخصوصها

يقول العلامة آبن القيم رحمه الله:

(ليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه: لا خالق إلا الله، وأن الله رب كل شيء ومليكه، كما كان عبّاد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن من محبة الله، والخضوع له، والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء، والحب والبغض، ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها، ومن عرف هذا عرف قول النبي ﷺ: «إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»^(٥٥) وقوله: «لا يدخل النار من قال لا إله إلا الله»^(٥٦). وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث، التي أشكلت على كثير من الناس، حتى ظننها بعضهم منسوحة! وظننها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي وأستقرار الشرع، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأول بعضهم الدخول بالخلود وقال: المعنى لا يدخلها خالداً، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة. فإن الشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، لأن المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار.

بل لا بد من قول القلب، وقول اللسان.

وقول القلب: يتضمن من معرفتها والتصديق بها، ومعرفة حقيقة

(٥٥) سبق تخريجه (ص ٣٧).

(٥٦) سبق الكلام عليه في شروط لا إله إلا الله.

ما تضمنته من النفي والإثبات، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله، المختصة به، التي يستحيل ثبوتها لغيره، وقيام هذا المعنى بالقلب علماً ومعرفةً و يقيناً وحالاً: ما يوجب تحريم قائلها على النار.

(وتأمل حديث البطاقة^(٥٧) التي توضع في كِفَّةٍ، ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يعذب صاحبها ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة... ولكن السر الذي ثقل بطاقة ذلك الرجل هو أنه حصل له ما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات.

(وتأمل أيضاً ما قام بقلب قاتل المائة^(٥٨) من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية فجعل ينوء بصدره، ويعالج سكرات الموت، لأن ذلك كان أمراً آخر، وإيماناً آخر ولذلك ألحق بأهل القرية الصالحة. وقريب من هذا ما قام بقلب البغي^(٥٩) التي رأت ذلك الكلب وقد آشد به العطش، يأكل الثرى — فقام بقلبها ذلك الوقت — مع عدم الآلة، وعدم المعين، وعدم من ترائيه بعملها ما حملها على أن غررت بنفسها في نزول البئر وملء الماء في خُفِّها، ولم تعباً بتعرضها للتلف وحملها خفها يفيها وهو ملآن حتى أمكنها الرقي من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه، فأمسكت له الخُفَّ بيدها حتى شرب من غير أن ترحو منه جزاء ولا شكوراً. فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغفر لها)^(٦٠).

(٥٧) أخرجه الإمام أحمد في «مسند عبد الله بن عمرو»: (ج٢، ص٢١٣)، الطبعة الثانية، وسنده حسن. وأخرجه الترمذي في «الإيمان»: (ج٧/٢٩٥، ح٢٦٤١) ورحاله ثقات، فالحديث صحيح.

(٥٨) «صحيح البخاري»: (ج٦/٥١٢، ح٣٤٧٠) كتاب الأنبياء، و«صحيح مسلم»: (ج٤/٢١١٨، ح٢٧٦٦) كتاب التوبة.

(٥٩) «صحيح مسلم»: (ج٤/١٧٦١، ح٢٢٤٥) كتاب السلام.

(٦٠) «مدارج السالكين» لابن القيم: (ج١/٣٣٠ — ٣٣٢) بتصرف بسيط.

وقد ورد في «صحيح مسلم» قوله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه وحسانه على الله» (٦١).

يقول محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

(وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه) (٦٢).

ومن هنا نعلم فساد عقيدة المرجئة (٦٣): الذين يقولون: إن الإيمان هو المعرفة فقط، والكفر هو الجهل فقط، وأخروا العمل عن الإيمان.

ومن المعلوم أن كفار مكة قد علموا مراد النبي ﷺ من كلمة لا إله إلا الله، فأبوا وأستكبروا ولم يك ينفعهم إيمانهم بأن الله واحد رازق محيي مميت. ولما قال لهم النبي ﷺ قولوا: لا إله إلا الله قالوا:

أَجْمَلُ الْآيَةِ إِلَهًا وَنَسُوا أَنَّ هَذَا شَيْءٌ مُجَاب

[سورة ص: ٥]

(فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك، فالعجب ممن يدعي الإسلام، وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفار، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب بشيء من المعاني،

(٦١) «صحيح مسلم»: (ج ١/٥٣، ح ٢٣) كتاب الإيمان.

(٦٢) «كتاب التوحيد»: (ص ١١٥)، المطبوع مع «فتح المجيد» الطبعة السابعة سنة ١٣٧٧هـ بتحقيق محمد حامد الفقي. الناشر: مطبعة أنصار السنة بمصر.

(٦٣) المرجئة: من الإرجاء. بمعنى التأخير، وهم يقولون إن الإيمان هو الإقرار فقط. انظر «مقالات الإسلاميين» للأشعري: (ج ١/٢١٤)، «الفرق بين الفرق» للبغدادي: (ص ٢٠٢).

والحاذق من يظن أن معناها: لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت ولا يدبر الأمر كله إلا الله، فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله (٦٤).

ويتابع الإمام محمد بن عبد الوهاب رده عليهم فيقول:

(وهنا شبهة: وهي قول من يقول: إن النبي ﷺ أنكر على أسامة قتل من قال: «لا إله إلا الله» (٦٥). وكذلك قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» (٦٦). وأحاديث أخرى، في الكف عن قالها؟).

(ومراد هؤلاء الجهلة: أن من قالها لا يكفر، ولا يقتل ولو فعل ما فعل (٦٧). فيقال لهؤلاء المشركين الجاهل: معلوم أن رسول الله ﷺ قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون «لا إله إلا الله»، وأن أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويصلون ويدعون الإسلام، وكذلك الذين حرقهم علي بن أبي طالب بالنار (٦٨). وهؤلاء الجهلة مقرون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال لا إله إلا الله، وأن من جحد شيئاً من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها. (فكيف لا تنفعه إذا جحد فرعاً من الفروع وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين الرسل ورأسه؟).

(ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث. فمعلوم أن الرجل إذا أظهر

(٦٤) «مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب»: (ج ٥/١٥) الطبعة الأولى، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٦٥) في «صحيح مسلم»: (ج ١/٩٧، ح ٩٧).

(٦٦) انظر «صحيح مسلم»: (ج ١، ص ٥١، ح ٢٠) كتاب الإيمان.

(٦٧) وهذه هي دعوى المرجئة. أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

(٦٨) هم الفلاة الذين ادعوا ألوهية علي رضي الله عنه.

الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك كما قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا

[سورة النساء: ٩٤]

(أي فتثبتوا. فدللت الآية على وجوب الكف حتى يتثبت منه، فإذا تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل لقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى.

(وأيضاً أمره ﷺ بقتل الخوارج «أينما لقيتموهم فاقتلوهم» لأن أدركهم لأقتلهم قتل عاد» (٦٩) مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً وتسيحاً، حتى أن الصحابة يحقرون صلاتهم عندهم. وقد تعلموا العلم من الصحابة، فلم تفهمهم "لا إله إلا الله" ولا كثرة العبادة ولا آداء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة (٧٠). ١.هـ.

ويعلم كل ذي لب أنها لو كانت كلمة -- مجرد كلمة -- لكان أمرها على قريش سهلاً فتنطقها وتتخلص من هذا العناء وتسفيه الآلهة!

ولكها تعلم أن هذه الكلمة لها مدلولها الذي يغير أوضاع قريش الجاهلية ولها مقتضياتها التي تحطم طغيان قريش وأستعبادها للناس.

ولها أهميتها في تحرير الناس من عبودية بعضهم لبعض إلى عبودية الواحد القهار وجعل التقوى هي الميزان والفخار الذي ينشده الناس، وليس العادات والتقاليد الجاهلية التي توارثها الأبناء عن الآباء والأجداد.

فحررني بكل مسلم جاد في إسلامه أن يقدر لهذه الكلمة قدرها حتى يكون ممن عبّد الله على بصيرة وعلم ويقين.

(٦٩) صحيح مسلم: (ج ٢/٧٤٢، ح ١٠٦٤).

(٧٠) كشف الشبهات: (ص ٤٠).

آثار الإقرار بـ «لا إله إلا الله» في حياة الإنسان

ذكر الأستاذ المودودي رحمه الله في كتابه القيم «مبادئ الإسلام»^(٧١)
تسعة آثار لكلمة التوحيد أذكر ملخصها فيما يلي:

(١) إن المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضيق النظر، بخلاف من يقول بآلهة
متعددة. أو من يجحدّها.

(٢) إن الإيمان بهذه الكلمة ينشئ في النفس من الأنفة وعزة النفس
ما لا يقوم دونه شيء، لأنه لا نافع إلا الله ولا ضار إلا الله، وهو
المحيي المميت. وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة. ومن ثم ينزع
من القلب كل خوف إلا منه سبحانه، فلا يطأطئ الرأس أمام أحد
من الخلق، ولا يتضرع إليه، ولا يتكفف له، ولا يرتعب من كبريائه
وعظمته. لأن الله هو العظيم القادر. وهذا بخلاف المشرك والكافر
والملحد.

(٣) ينشأ من الإيمان بهذه الكلمة مع أنفة النفس وعزتها: تواضع من غير
ذل، وترفع من غير كبر، فلا يكاد ينفخ أوداجه شيطان الغرور ويزهيه
بقوته وكفاءته لأنه يعلم ويستيقن أن الله الذي وهبه كل ما عنده قادر
على سلبه إياه إذا شاء. أما الملحد فإنه يتكبر ويبطر إذا حصلت له
نعمة عاجلة.

(٤) المؤمن بهذه الكلمة: يعلم علم اليقين أنه لا سبيل إلى النجاة والفلاح

(٧١) «مبادئ الإسلام» لأبي الأعلى المودودي: (ص ٨٠ - ٨٧)؛ الناشر: مؤسسة
الرسالة سنة ١٣٩٧هـ.

إلا بتركية النفس والعمل الصالح، أما المشركون والكفار فإنهم يقضون حياتهم على أمانى كاذبة. فمنهم من يقول: إن آبن الله قد أصبح كفارة عن ذنوبنا، عند أبيه، ومنهم من يقول: نحن أبناء الله وأحباؤه فلن يعذبنا بذنوبنا. ومنهم من يقول: إنا سنستشفع عند الله بكبرائنا وأتقيائنا، ومنهم من يقدم النذور والقرايين إلى آلهته زاعماً أنه قد نال بذلك رخصة في العمل بما يشاء. أما الملحد الذي لا يؤمن بالله فيعتقد أنه حر في هذه الدنيا غير مقيد بشرع الله وإنما إلهه هواه وشهوته وهو عبدهما.

(٥) قائل هذه الكلمة لا يتسرب إليه اليأس، ولا يقعد به القنوط، لأنه يؤمن أن الله له خزائن السموات والأرض. ومن ثم فهو على طمأنينة وسكينة وأمل، حتى ولو طرد وأهين وضاعت عليه سبل العيش.

(٦) الإيمان بهذه الكلمة يربي الإنسان على قوة عظيمة من العزم والاقدام والصبر والثبات والتوكل حينما يضطلع بمعالي الأمور آتقاء مرضاة الله. إنه يشعر أن وراءه قوة ممالك السماء والأرض. فيكون ثباته ورسوخه وصلابته التي يستمدّها من هذا التصور، كالجبال الراسية، وأنى للكفر والشرك بمثل هذه القوة والثبات؟

(٧) هذه الكلمة تشجع الإنسان وتملأ قلبه جرأة. لأن الذي يحجب الإنسان ويوهن عزمه شيطان: حبه للنفس والمال والأهل، أو اعتقاده أن هناك أحداً غير الله يميمت الإنسان، فإيمان المرء بلا إله إلا الله ينزع عن قلبه كلاً من هذين السببين؛ فيجعله موقناً أن الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله فعندئذ يضحى في سبيل مرضاة ربه بكل غال ورخيص عنده. وينزع الثاني بأن يلقى في روعه أنه لا يقدر على سلب الحياة منه إنسان ولا حيوان ولا قبلة ولا مدفع، ولا سيف ولا حجر وإنما يقدر على ذلك الله وحده.

من أجل ذلك لا يكون في الدنيا أشجع ولا أجراً ممن يؤمن بالله تعالى، فلا يكاد يخيفه أو يثبت في وجهه زحف الجيوش، ولا السيوف المسلحة، ولا مطر الرصاصات والقنابل، فإنه عندما يتقدم في سبيل الله للجهاد، يهزم قوة تزيد على قوته بعشر مرات وأنى بمثل هذا للمشركين والكفار والملحدين؟

(٨) الإيمان بـ "لا إله إلا الله" يرفع قدر الإنسان وينشئ فيه الترفع والقناعة والاستغناء، ويطهر قلبه من أوساخ الطمع والشره والحسد والدناءة واللؤم. وغيرها من الصفات القبيحة.

(٩) وأهم شيء وأجدره في هذا الصدد: أن الإيمان بـ "لا إله إلا الله" يجعل الإنسان متقيداً بشرع الله ومحافظاً عليه، فإن المؤمن يعتقد بيقين أن الله خير بكل شيء، وهو أقرب إليه من حبل الوريد وأنه إن كان يستطيع أن يفلت من بطش أي كان، فإنه لا يستطيع أن يفلت من الله عز وجل.

وعلى قدر ما يكون هذا الإيمان راسخاً في ذهن الإنسان يكون متبعاً لأحكام الله، قائماً عند حدوده لا يجرؤ على اقتراف ما حرم الله، ويسارع إلى الخيرات والعمل بما أمر الله.

ومن أجل ذلك جعل الإيمان بـ "لا إله إلا الله" أول ركن وأهمه ليكون الإنسان مسلماً. والمسلم هو: العبد المطيع المتقاد لله تعالى ولا يكون كذلك إلا إذا كان مؤمناً من قلبه بأن لا إله إلا الله. وهذا هو أصل الإسلام، ومصدر قوته، وكل ما عداه من معتقدات الإسلام وأحكامه إنما هي مبنية عليه، ولا تستمد قوتها إلا منه، والإسلام لا يبقى منه شيء لو زال هذا الأساس^(٧٢).

(٧٢) «مبادئ الإسلام»: (ص ٨٧).

ومن فضائلها ما ذكره آبن رجب، حيث أُورد قول سفيان بن عيينة:
ما أنعم الله على عبد من العباد نعمة أعظم من أن عرفهم لا إله إلا الله، وأن
لا إله إلا الله لأهل الجنة كالماء البارد لأهل الدنيا، ولأجلها أعدت دار الثواب
ودار العقاب، ولأجلها أمرت الرسل بالجهاد، فمن قالها عصم ماله ودمه،
ومن أبأها فماله ودمه هدر، وهي مفتاح الجنة، ومفتاح دعوة الرسل^(٧٣).
ولو أردت أن أذكر ما أورده العلماء، رحمهم الله تعالى حول فضلها
وما في ذلك من الأحاديث النبوية وآثار السلف لطال المقام.

(٧٣) «كلمة الإخلاص»: (ص ٥٣).

نواقض «لا إله إلا الله» (حرص الإسلام على بيان حقيقته وحقيقة ما يناقضه)

سبق الكلام على مفهوم "لا إله إلا الله" وشروطها، وحقيقتها، وآثارها. وهنا أذكر نواقضها، من أجل أن تتضح معالم الصورة الكاملة لحقيقة "لا إله إلا الله"، ذلك أن معرفة الضد يميز الشيء المراد إيضاحه. كما قيل "وبضدها تتميز الأشياء". ومعلوم أن الكفر والشرك والنفاق والردة هي نواقض الإسلام، بشتى صورها، وقبل إيراد ذلك، لا بد من أن نورد - قاعدة جلية لأهل السنة والجماعة - بها تنضبط المسائل أصولاً وفروعاً. وسيتضح من خلال هذه القاعدة الرد على فرقة المرجئة، الذين ميعوا وضيعوا مفهوم هذه العقيدة. والرد أيضاً على الخوارج الذين غلوا وحادوا عن الصراط. ودين الإسلام وسط بين الإفراط والتفريط.

وقد كثر كلام الناس حول هذا في القديم والحديث، ولكل وجهة هو موليها. بيد أنني وجدت للعلامة آبي القيم كلاماً قيماً في هذا الموضوع - وهو القاعدة التي أشرت إليها آنفاً - سأورده كاملاً على الرغم من طوله: قال رحمه الله في كتاب «الصلوة»:

(الكفر والإيمان متقابلان، إذا زال أحدهما خلفه الآخر. ولما كان الإيمان أصلاً له شعب متعددة، وكل شعبة منها تسمى إيماناً: فالصلوة من الإيمان، وكذلك الزكاة والحج والصيام، والأعمال الباطنة كالحياء، والتوكل، والخشية من الله، والإنابة إليه، حتى تنتهي هذه الشعب إلى إمطة الأذى عن الطريق فإنه شعبة من شعب الإيمان.

(وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة. ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إمطة الأذى عن الطريق. وبينهما شعب متفاوتة

تفاوتاً عظيماً. منها ما يلحق بشعبة الشهادة ويكون إليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إمامة الأذى ويكون إليها أقرب. وكذلك الكفر ذو أصل وشعب، فكما أن شعب الإيمان إيمان فشعب الكفر كفر. والحياء شعبة من الإيمان، وقلة الحياء شعبة من شعب الكفر. والصدق شعبة من شعب الإيمان، والكذب شعبة من شعب الكفر، والصلاة والزكاة والحج والصيام من شعب الإيمان، وتركها من شعب الكفر، والحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان، والحكم بغير ما أنزل الله من شعب الكفر، والمعاصي كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان.

(وشعب الإيمان قسمان: قولية وفعلية، وكذلك شعب الكفر نوعان: قولية وفعلية. ومن شعب الإيمان القولية شعب يوجب زوالها زوال الإيمان، فكذلك من شعب الفعلية ما يوجب زوالها زوال الإيمان، وكذلك شعب الكفر القولية والفعلية. فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر اختياراً - وهي شعبة من شعب الكفر - فكذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه كالسجود للصم، والاستهانة بالمصحف، فهذا أصل.

(وما هنا أصل آخر: وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل، والقول قسمان: قول القلب: وهو الاعتقاد. وقول اللسان: وهو التكلم بكلمة الإسلام.

(والعمل قسمان: عمل القلب: وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح. فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله. وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة، وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق: فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة. فأهل السنة: مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته وأنقياده، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين وللذين كانوا يمتقدون صدق الرسول، بل ويقرون به سراً وجهرًا ويقولون: ليس بكاذب ولكن لا تتبعه ولا تؤمن به.

(وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب، فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح، ولا سيما إذا كان ملزوماً لعدم محبة القلب وأنقياده، الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم كما تقدم تقريره، فإنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح، إذ لو أطاع القلب وأنقاد أطاعت الجوارح وأنقادت، ويلزم من عدم طاعته وأنقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة، وهو حقيقة الإيمان. فإن الإيمان ليس مجرد التصديق - كما تقدم - وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد. وهكذا الهدى ليس هو مجرد معرفة الحق وتبينه، بل هو معرفته المستلزمة لاتباعه والعمل بموجبه، وإن سمي الأول هدى فليس هو الهدى التام المستلزم للاهتمام، كما أن اعتقاد التصديق وإن سمي تصديقاً، فليس هو التصديق المستلزم للإيمان. فعليك بمراجعة هذا الأصل ومراعاته.

(وها هنا أصل آخر: وهو أن الكفر نوعان: كفر عمل، وكفر جحود وعناد. فكفر الجحود: أن يكفر بما علم أن الرسول جاء به من عند الله جحوداً وعناداً، من أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه. وهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه وأما كفر العمل: فينقسم إلى ما يضاد الإيمان، وإلى ما لا يضاده. فالسجود للصنم، والاستهانة بالمصحف، وقتل النبي ونسبه يضاد الإيمان.

(وأما الحكم بغير ما أنزل^(٧٤) الله، وترك الصلاة فهو من الكفر العملي قطعاً، ولا يمكن أن ينفي عنه أسم الكفر بعد أن أطلقه الله ورسوله عليه. فالحكم بغير ما أنزل الله كافر، وتارك الصلاة كافر بنص رسول الله ﷺ، ولكن هو كفر عمل لا كفر اعتقاد. ومن الممتنع أن يسمى الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً، ويسمى رسول الله ﷺ تارك الصلاة

(٧٤) سيأتي بعد تمام هذا النص إن شاء الله مزيد من التفصيل في هذه الفقرة وبيان متى يكون ذلك مخرجاً من الملة ومتى لا يكون.

كافراً^(٧٥)، ولا يطلق عليهما اسم الكفر. وقد نفى رسول الله ﷺ الإيمان عن الزاني والسارق وشارب الخمر، وعن لا يأمن جاره بوائقه. وإذا نفى عنه اسم الإيمان فهو كافر من جهة العمل، وانتفى عنه كفر الجحود والاعتقاد.

وكذلك قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٧٦) فهذا كفر عمل. وكذلك قوله: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول أو أتى امرأته في دبرها فقد برئ مما أنزل على محمد»^(٧٧) وقوله: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما»^(٧٨).

(وقد سمي الله سبحانه وتعالى من عمل ببعض كتابه، وترك العمل ببعضه مؤمناً بما عمل به وكافراً بما ترك العمل به فقال تعالى:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقَرَّرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾
ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ قَرِيبًا
مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ فَظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أَسْرَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ
إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ
بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ
وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

[سورة البقرة: ٨٤ - ٨٥]

-
- (٧٥) انظر صحيح مسلم: (ج ١/ ٨٨، ح ٨٢) كتاب الإيمان.
(٧٦) صحيح مسلم: (ج ١/ ٨١، ح ٦٥) كتاب الإيمان.
(٧٧) أبو داود في الطب: (ج ٤/ ٢٢٥، ح ٣٩٠٤). وانظر «مشكاة المصابيح»:
(١٢٩٤/٢، ح ٤٥٩٩)، وقال الألباني: إسناده صحيح.
(٧٨) صحيح مسلم: (ج ١/ ٧٩، ح ٦٠) كتاب الإيمان.

(فأخبر سبحانه أنهم أقرؤا بميثاقه الذي أمرهم به وألزموه، وهذا يدل على تصديقهم به أنهم لا يقتل بعضهم بعضاً، ولا يُخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، ثم أخبر أنهم عصوا أمره وقتل فريق منهم فريقاً وأخرجوهم من ديارهم. فهذا كفرهم بما أخذ عليهم في الكتاب. ثم أخبر أنهم يفتنون من أسر من ذلك الفريق، وهذا إيمان منهم بما أخذ عليهم في الكتاب، فكانوا مؤمنين بما عملوا به من الميثاق، كافرين بما تركوه منه.

(فالإيمان العملي يضاده الكفر العملي، والإيمان الاعتقادي يضاده الكفر الاعتقادي. وقد أعلن النبي ﷺ بما قلناه في قوله في الحديث الصحيح: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»^(٧٩) ففرّق بين قتاله وسبابه. وجعل أحدهما فسوقاً لا يكفر به، والآخر كفراً. ومعلوم إنما أراد الكفر العملي لا الاعتقادي^(٨٠)، وهذا الكفر لا يخرج من الدائرة الإسلامية والملة بالكلية، كما لا يخرج الزاني والسارق والشارب من الملة وإن زال عنه اسم الإيمان.

(وهذا التفصيل هو قول الصحابة الذين هم أعلم الأمة بكتاب الله وبالإسلام والكفر ولوازمهما فلا تتلقى هذه المسائل إلا عنهم، فإن المتأخرين لم يفهموا مرادهم فأنقسموا فريقين: فريقاً أخرجوا من الملة بالكبائر، وقضوا على أصحابها بالخلود في النار^(٨١)، وفريقاً جعلوهم مؤمنين كاملي الإيمان^(٨٢) فهؤلاء غلوا، وهؤلاء جفوا. وهدى الله أهل السنة للطريقة المثلى

(٧٩) «صحيح مسلم»: (ج ١/٨١، ح ٦٤) كتاب الإيمان.

(٨٠) لعن ابن القيم يقصد قتال المسلمين مع بعضهم البعض كما حصل بين الصحابة رضي الله عنهم، أما من يريد قتال المؤمنين ويشن الحرب على الإسلام والمسلمين فهذا لا شك في كفره المخرج من الملة. كما هو حال أعداء الإسلام الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة بل هدفهم «ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكفرون سواء» [النساء: ٨٩].

(٨١) يريد فرقة الخوارج.

(٨٢) يقصد المرجئة.

والقول الوسط الذي هو في المذاهب كالإسلام في الملل. فها هنا كفر دون كفر، ونفاق دون نفاق، وشرك دون شرك، وفسوق دون فسق، وظلم دون ظلم. قال سفيان بن عيينة: عن هشام بن حجير عن طاووس عن أبيه عباس في قوله تعالى:

وَمَنْ لَّمْ يَخُصَّكُمْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ

[سورة المائدة: ٤٤]

(قال: هو بهم كفر، وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وقال في رواية أخرى عنه: كفر لا ينقل عن الملة. وقال طاووس: ليس بكفر ينقل عن الملة^(٨٣). وقال وكيع بن سفيان عن أبي جريح عن عطاء: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق^(٨٤)، وهذا الذي قاله عطاء بين في القرآن لمن فهمه، فإن الله سبحانه سمي الحاكم بغير ما أنزله كافراً، وسمى جاحد ما أنزله على رسوله كافراً. وليس الكافران على حد سواء.) وسمى الكافر ظالماً كما في قوله تعالى:

وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ

[سورة البقرة: ٢٥٤]

(وسمى متعدي حدوده في النكاح والطلاق والرجعة والخلع ظالماً فقال: وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ

[سورة الطلاق: ١]

وقال نبيه يونس:

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ [سورة الأنبياء: ٨٧]

(٨٣) تفسير ابن كثير: (ج ٣/١١١).

(٨٤) المصدر السابق: (ج ٣/١١١).

وقال صفيه آدم:

رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا [سورة الأعراف: ٢٣]

وقال كليمه موسى:

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي

[سورة القصص: ١٦]

وليس هذا الظلم مثل ذلك الظلم.

(ويسمى الكافر فاسقاً: كما في قوله:

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ
اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ

[سورة البقرة: ٢٦ - ٢٧]

وقال:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ

[سورة البقرة: ٩٩]

(وهذا كثير في القرآن. ويسمى المؤمن فاسقاً كما في قوله تعالى:

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَ كُرْفَاسِقٌ يُنَافِقُ فَيَقِيْنُوْا
أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَالِهِمْ فَنُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْنَا تَنْدِيمِينَ

[سورة الحجرات: ٦]

(نزلت في الحكم بن أبي العاص. وليس الفاسق كالفاسق. وقال تعالى:

وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَزِمْنَها فَاَبْرَءُوْا بَازِرَةً مِّمَّا هَلَّ
فَاجِلُهُمْ يُزْمَنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوْا لَهُمْ شَهَادَةً اَبَدًا وَلِلّٰهِ هُمُ الْفٰسِقُوْنَ

[سورة النور: ٤]

وقال عن إبليس:

فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ

[سورة الكهف: ٥٠]

وقال:

فَمَنْ رَضَ فِيهِمْ الْحِجَّ فَلَارَفَتْ وَلَا فُسُوقَ

[سورة البقرة: ١٩٧]

وليس الفسوق كالفسوق.

(والكفر كفران، والظلم ظلمان، والفسق فسقان، وكذا الجهل جهلان: جهل كفر كما في قوله تعالى:

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ

[سورة الأعراف: ١٩٩]

وجهل غير كفر كقوله تعالى:

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ

[سورة النساء: ١٧]

(وكذلك الشرك شركان: شرك ينقل عن الملة وهو الشرك الأكبر، وشرك لا ينقل عن الملة وهو الشرك الأصغر، وهو شرك العمل كالرياء.

قال معاني في الشرك الأكبر:

إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ
الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ

[سورة المائدة: ٧٢]

وقال: وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَارٍ سَحِيقٍ

[سورة الحج: ٣١]

وفي شرك الرياء:

فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا

[سورة الكهف: ١١٠]

ومن هذا الشرك الأصغر قوله ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك» رواه أبو داود وغيره^(٨٥) ومعلوم أن حلفه بغير الله لا يخرج عن الملة، ولا يوجب له حكم الكفار. ومن هذا قوله ﷺ: «الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل»^(٨٦).

(فأنظر كيف أنقسم الشرك والكفر والفسوق والظلم والجهل إلى ما هو كفر يتقل عن الملة، وإلى ما لا يتقل عنها. وكذا النفاق نفاق: نفاق اعتقاد، ونفاق عمل، فنفاق الاعتقاد: هو الذي أنكره الله على المنافقين في القرآن وأوجب لهم الدرك الأسفل من النار.

(ونفاق عمل كقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أئتمن خان»^(٨٧). وفي «الصحيح»

(٨٥) أبو داود: (ج ٣/ ٥٧٠، ح ٣٢٥١) كتاب الإيمان والنذور. وأخرجه الترمذي: (ج ٥/ ٢٥٣، ح ١٥٣٥) في النذور والإيمان، واللفظ عنده: فقد كفر أو أشرك وقال: حديث حسن. وقال الشوكاني: صححه الحاكم. انظر «نيل الأوطار»: (ج ٨/ ١٥٧).

(٨٦) «المسند»: (ج ٤/ ٤٠٣). قال الألباني: صحيح، انظر «صحيح الجامع الصغير»: (٣/ ٢٣٣، ح ٣٦٢٤).

(٨٧) «صحيح البخاري»: (ج ١/ ٨٩، ح ٣٣، ٣٤) كتاب الإيمان. و«صحيح مسلم»: (ج ١/ ٧٨، ح ٥٨، ٥٩) كتاب الإيمان.

أيضاً «أربع من كن في كان مناقماً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا أتمن خان» فهذا نفاق عمل، قد يجتمع مع أصل الإيمان، ولكن إذا استحکم وکمل فقد یسلخ صاحبه عن الإسلام بالکلیة، وإن صلی وصام وزعم أنه مسلم، فإن الإيمان ینهی المؤمن عن هذه الخلال، فإذا کملت فی العبد ولم یکن له ما ینهاه عن شيء منها فهذا لا یكون إلا منافقاً خالصاً.

(وکلام الإمام أحمد يدل علی هذا، فإن إسماعیل بن سعید الشالنجي^(٨٨) قال: سألت أحمد بن حنبل عن المصير علی الکبائر یطلبها بجهده، إلا أنه لم یرک الصلاة والزکاة والصوم، هل یكون مصراً من كانت هذه حاله؟ قال: هو مصر مثل قوله: «لا یزني الزاني حين یزني وهو مؤمن»^(٨٩)، یمخرج من الإيمان ویقع فی الإسلام، ونحو قوله: «لا یشرب الخمر حين یشربها وهو مؤمن ولا یسرق حين یسرق وهو مؤمن»^(٩٠). ونحو قول ابن عباس فی قوله تعالى:

وَمَنْ لَّمْ یَعْمَلْ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ

[سورة المائدة: ٤٤]

(قال إسماعیل: فقلت له ما هذا الکفر؟ قال: لا ینقل عن الملة، مثل الإيمان بعضه دون بعض، فکذلك الکفر حتی یجیء من ذلك أمر لا یختلف فيه.

(٨٨) هو إسماعیل بن سعید الشالنجي أبو إسحاق ذكره أبو بکر الخلال فقال: عنده مسائل كثيرة، ما أحسب أحداً من أصحاب أبي عبد الله — أحمد بن حنبل — روي عنه أحسن مما روي هذا، ولا أشيع ولا أكثر مسائل منه. وكان عالماً بالرأي، كبير القدر عندهم معروفاً، له كتاب ترجمه به البيان علی ترتيب الفقهاء. انظر «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى: (ج ١/ ١٠٤).

(٨٩)(٩٠) «صحيح مسلم»: (ج ١/ ٨٦، ح ٥٧) كتاب الإيمان.

(وما هنا أصل آخر: وهو أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان. وهذا من أعظم أصول أهل السنة، وخالفهم فيه غيرهم من أهل البدع كالخوارج والمعتزلة^(٩١)، والقدرية^(٩٢).

(ومسألة خروج أهل الكبائر من النار وتخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل، وقد دل عليه القرآن والسنة والفطرة وإجماع الصحابة. قال تعالى:

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ

[سورة يوسف: ١٠٦]

فأثبت لهم إيماناً به سبحانه مع الشرك، وقال تعالى:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَلَنْ يُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

[سورة الحجرات: ١٤]

فأثبت لهم إسلاماً وطاعة لله ورسوله مع نفي الإيمان عنهم وهو الإيمان المطلق الذي يستحق اسمه بمطلقه

الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

[سورة الحجرات: ١٥]

(٩١) المعتزلة: هم الذين قالوا بخلق القرآن وححدوا الرؤية. ويكذبون بعذاب القبر والشفاعة، والحوض، ولا يرون الصلاة خلف أحد من أهل القبلة، ولا الجمعة إلا وراء من كان على أهوائهم. انظر في ذلك «السنة للإمام أحمد: (ص ٨١)، وتلبيس إبليس» لابن الجوزي: (ص ٣٠).

(٩٢) القدريّة: هم الذين يزعمون أن إلههم الاستطاعة والمشيئة والقدرة، وأنهم يملكون لأنفسهم الخير والشر، والضر والنفع، والطاعة والمعصية، والمهدي والضلال، وأن العباد يعملون بدءاً من غير أن يكون سبق لهم ذلك من الله عز وجل أو في علمه وقولهم يضارع قول المجوسية. انظر «السنة للإمام أحمد: (ص ٨١).

وهؤلاء ليسوا منافقين في أصح القولين، بل هم مسلمون بما معهم من طاعة الله ورسوله، وليسوا مؤمنين. وإن كان معهم جزء من الإيمان أخرجهم من الكفار.

(قال الإمام أحمد: من أتى هذه الأربعة أو مثلهن أو فوقهن - يريد الزنا والسرقة وشرب الخمر والانتهاج - فهو مسلم ولا أسميه مؤمناً، ومن أتى دون ذلك - يريد دون الكبائر - سميته مؤمناً ناقص الإيمان، فقد دل على هذا قوله ﷺ «فمن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق». فدل على أنه يجتمع في الرجل نفاق وإسلام.

كذلك الرياء شرك، فإذا رأى الرجل في شيء من عمله آجتماع فيه الشرك والإسلام.

وإذا حكم بغير ما أنزل الله، أو فعل ما سماه رسول الله ﷺ كفراً، وهو ملتزم للإسلام وشرائعه فقد قام به كفر وإسلام.

وقد بينا أن المعاصي كلها شعب من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها شعب من شعب الإيمان فالعبد تقوم به شعبة أو أكثر من شعب الإيمان، وقد يسمى بتلك الشعبة مؤمناً، وقد لا يسمى. كما أنه قد يسمى بشعبة من شعب الكفر كافراً، وقد لا يطلق عليه هذا الاسم. فهذا هنا أمران: أمر أسمى لفظي، وأمر معنوي حكمي.

فالمعنوي: هل هذه الخصلة كفر أم لا؟

واللفظي: هل يسمى من قامت به كافراً أم لا؟.

فالأمر الأول: شرعي محض، والثاني لغوي وشرعي.

(وما هنا أصل آخر: وهو أنه لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان بالعبد أن يسمى مؤمناً وإن كان ما قام به إيماناً، ولا من قيام شعبة من شعب الكفر أن يسمى كافراً، وإن كان ما قام به كفراً. كما أنه لا يلزم من قيام

جزء من أجزاء العلم به أن يسمى عالماً: ولا من معرفة بعض مسائل الفقه والطب أن يسمى فقيهاً ولا طبيباً، ولا يمنع ذلك أن تسمى شعبة الإيمان إيماناً، وشعبة النفاق نفاقاً، وشعبة الكفر كفراً.

(وقد يطلق عليه الفعل كقوله: «فمن تركها فقد كفر» و «من حلف بغير الله فقد كفر» وقوله: «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر ومن حلف بغير الله فقد كفر» رواه الحاكم في «صحيحه» بهذا اللفظ. فمن صدر منه خلة من خلال الكفر فلا يستحق أسم كافر على الإطلاق، وكذا يقال لمن ارتكب محرماً أنه فعل فسوقاً وأنه فاسق بذلك المحرم، ولا يلزمه أسم فاسق إلا بغلبة ذلك عليه) (٩٣) ١.هـ.

ولي على هذا النص تعليق:

(٩٣) كتاب الصلاة للعلامة محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية: (ص ٢٥ - ٣١)، الطبعة الثانية سنة ١٣٩١ هـ المكتبة السلفية بمصر.

تعليق لا بد منه

في النص المتقدم بعض العبارات التي قد توهم بعض الناس في قضية "الحاكمية" حيث ذكر آبن القيم أن الحكم بغير ما أنزل الله كفر دون كفر. وهنا لا بد من إيضاح هذه القضية حتى يزول ما قد يحصل من إشكال.

إن المجتمع الإسلامي منذ قيامه على يد رسول الله ﷺ قد قام على الحكم بشريعة الله، ومضى على ذلك خلفاؤه الراشدون، ثم الخلفاء الأمويون مضوا على ذلك وإن كان بَدَرُ منهم بعض الانحرافات، إلا أن الحكم الذي يتحاكم إليه الناس هو شرع الله، يظلمهم برايته ويرعاهم بحكمته وعدالته. ثم جاءت الدولة العباسية وكان الشرع أيضاً هو نظام الحكم مع وجود ثغرات قوية بعض الشيء. ثم جاء التتار، وأتى "هولاكو" بـ "الياسق" - وسيرد كلام العلماء بخصوصه في مكانه المناسب إن شاء الله -.

ولما كان الأمر كذلك فإن كلام السلف ومنهم آبن القيم كلام لا غبار عليه، فإذا حكم الحاكم برشوة أو لقرابة، أو شفاعة أو ما أشبه ذلك فلا شك أن ذلك كفر دون كفر.

وأما ما جدَّ في حياة المسلمين - ولأول مرة في تاريخهم - وهو تنحية شريعة الله عن الحكم ورميها بالرجعية والتخلف، وأنها لم تعد تواكب التقدم الحضاري، والعصر المتطور فهذه ردة جديدة في حياة المسلمين. إذ الأمر لم يقتصر على تلك الدعاوى التافهة، بل تعداه إلى إقصائها فعلاً عن واقع الحياة وأستبدال الذي هو أدنى بها، فحل محلها القانون الفرنسي أو الانجليزي أو الأمريكي أو الاشتراكية الإلحادية وما أشبه ذلك من تلك النظم الجاهلية الكافرة.

ولي على هذا الكلام أدلة كثيرة منها:

(١) ما أورده ابن القيم نفسه رحمه الله من قول الإمام أحمد الذي تقدم ص ٦٥ وهو قوله: (حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه) .
نعم إنه أمر لا يختلف فيه أبداً وهو أن تنحية الشريعة ورميها بالقصور والنقصان وأن القانون أكمل منها، وألين منها في مسامرة تطورات العصر كفر صريح.

(٢) ما أورده ابن القيم أيضاً ص ٦٧ من أن الكفر الذي هو كفر دون كفر ينطبق على الحاكم ”الملتزم للإسلام وشرائعه“ فهذا إذا خالف النص أو حاد عنه - كما تقدم شرحه - هو الذي ينطبق عليه هذا الحكم. وليس الأمر سارياً على من يحل القانون محل شرع الله.

(٣) قضية التحليل والتحريم، والتشريع للناس، اتفقت أقوال العلماء قديماً وحديثاً على أن ذلك من خصائص رب العالمين جلّ جلاله فمن أدعاهما لنفسه فقد آله نفسه ونصبها ندّاً يُعبد من دون الله وسيرد إيضاح هذا قريباً.

(٤) إن إقصاء الشريعة الربّانية وإحلال أهواء البشر محلها هذا من الأشياء التي كفر العلماء قديماً وحديثاً فاعلمها لأنها من المعلوم من الدين بالضرورة. وهل يجادل أحد في ذلك والله يقول:

أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْآخِرُ

[سورة الأعراف: ٥٤]

فكما أنه سبحانه - وباعتراف الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم - هو خالق السماء والأرض، فهو أيضاً صاحب الأمر والسلطان، والحكم والسيادة^(٩٤).

(٩٤) انظر تفسير هذه الآية للشيخ سيد قطب رحمه الله في كتابه وفي ظلال القرآن: (ج ٣/ ١٢٩٧)، طبع دار الشروق، وتفسير ابن كثير.

(٥) يوضح كلمة الإمام أحمد رحمه الله وهي قوله: "حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه"، علم من أعلام المسلمين هو الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله حيث يقول:

(إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين) (٩٥).

(٦) ما ذكره أيضاً ابن القيم رحمه الله في كتاب «مدارج السالكين» حيث قال بعد أن أورد الأقوال في قضية الحكم قال:

(والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكافرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصياناً مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر. وإن اعتقد أنه غير واجب وأنه مخير فيه مع تيقنه أنه حكم الله، فهذا كفر أكبر. وإن جهله وأخطأه: فهذا مخطيء له حكم المخطئين) (٩٦).

(٧) ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتاب «منهاج السنة» حيث قال:

(ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر. فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر. فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل، وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم، بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله، كسواليف البادية (٩٧) وكانوا الأمراء المطاعين، ويرون أن هذا هو الذي ينبغي

(٩٥) «تحكيم القوانين»: (ص ١)، طبع سنة ١٣٨٠هـ، مطابع الثقافة بمكة.

(٩٦) «مدارج السالكين»: (ج ١/٣٣٧).

(٩٧) أي عادات وتقاليد أهل البادية.

الحكم به دون الكتاب والسنة، وهذا هو الكفر، فإن كثيراً من الناس أسلموا ولكن لا يحكمون إلا بالعادات الجارية التي يأمر بها المطاعون، فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز لهم الحكم إلا بما أنزل الله، فلم يلتزموا ذلك، بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار (٩٨).

(٨) يقول: العلامة آبن القيم في تفسير قوله تعالى:

تَاللَّهِ إِن كُنتَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ تُسَوِّىكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ

[سورة الشعراء: ٩٧ - ٩٨]

(هذه التسوية إنما كانت في الحب والتأليه واتباع ما شرعوا، لا في الخلق والقدرة والربوبية، وهي العدل الذي أخبر به عن الكفار كقوله:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ
وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ

[سورة الأنعام: ١]

وأصح القولين: أن المعنى: ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، فيجعلون له عدلاً يحبونه ويقدسونه ويعبدونه، كما يعبدون الله ويعبدونه. ويعظمون أمره وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات، بحيث آعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه في أفعاله وصفاته، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية والتعظيم مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها، فتصحیح هذه: هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله (٩٩).

وإن مما يزيد إيضاح الحقيقة في أمر إحلال القانون والهوى محل الشرع، ما ذكره العلماء من أن كفر الاعتقاد ينقسم إلى خمسة أنواع

(٩٨) «مجموعة التوحيد» الرسالة الثانية عشرة: (ص ٢٧٨)، طبعة دار الفكر.

(٩٩) «التفسير القيم»: (ص ٣٩٦).

هي (١٠٠):

(١) كفر تكذيب: وهو اعتقاد كذب الرسل. وهذا القسم قليل في الكفار، فإن الله تعالى أيد رسله، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة وأزال به المذرة. قال تعالى عن فرعون وقومه:

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُتًً

[سورة النمل: ١٤]

وقال لرسوله ﷺ:

فَأَنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتُوا لِلَّهِ يَسْتَحْذُونَ

[سورة الأنعام: ٢٣]

(٢) كفر إباء واستكبار: مثل كفر إبليس: ومن هذا كفر من عرف الرسول ولم ينقد له إباءً واستكباراً وهو الغالب على كفر أعداء الرسل كما قال تعالى عن فرعون وقومه:

فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ

[سورة المؤمنون: ٤٧]

ومنه كفر أبي طالب فإنه صدقه ولم يشك في صدقه ولكن أخذته الحمية، وتعظيم آباءه أن يرغب عن ملتهم.

(٣) كفر إعراض: مثل من يعرض عن الرسول ﷺ لا يسمعه، ولا يصدقه، ولا يكذبه، ولا يواليه، ولا يعاديه، ولا يصغي إلى ما جاء به آلبته، كما قال أحد بني عبد ياليل للنبي ﷺ (والله أقول لك كلمة: إن كنت صادقاً فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك وإن كنت كاذباً فأنت

(١٠٠) أوردتها العلامة ابن القيم في مدارج السالكين: (ج ١/ ٢٣٧ — ٢٣٨).

أُحَقِّرُ مِنْ أَنْ أُكَلِّمَكَ^(١٠١).

(٤) كُفْرُ الشُّكِّ: حيث لا يجزم بصدقه، ولا يكذبه، بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شكّه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ جملة، وأما مع آتفاته إليها ونظره فيها فإنه لا يبقى معه شك لأنها مستلزمة للصدق.

(٥) كُفْرُ نِفَاقٍ: وهو أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوي بقلبه التكذيب وهذا هو النفاق الأكبر.

وبعد أن وضعنا الكفر بنوعيه - نعوذ بالله منه - نتقل إلى تبيان الشرك - نعوذ بالله منه - وهو كما ورد سابقاً في كلام ابن القيم ينقسم إلى أكبر مخرج من الملة، وإلى أصغر وهو الرياء.

فأما الشرك الأكبر: فدليله قوله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ

[سورة النساء: ١١٦]

وهو أربعة أنواع كما ذكر ذلك الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهي:

(١) شرك الدعاء: قال تعالى:

فَإِذَا رَكِعُوا فِي الْفَلَاحِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
فَلَمَّا تَجَسَّسْتُمْ إِلَى الْبَرَاءِ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ

[سورة النكبوت: ٦٥]

(١٠١) علق الشيخ محمد حامد الفقي على هذا بقوله: (وهو كفر الملحدين اليوم من المتسمين بأسماء إسلامية، المقلدين للإفراج من اليهود والنصارى، المنحلين عن كل خلق وفضيلة، زاعمين بجاهليتهم وسفاههم أن هذا هو سبيل الرقي والمدنية) مدارج السالكين: (ج ١/ ٢٢٨) الحاشية.

(٢) شرك الية والإرادة والقصد: قال تعالى:

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ
﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ
مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

[سورة هود: ١٥ - ١٦]

(٣) شرك الطاعة: قال تعالى:

اتَّخِذُوا أَنْبَاءَهُمْ وَرُؤُسَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

[سورة التوبة: ٣١]

وفي الحديث: عن عدي بن حاتم حين سمع رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخِذُوا أَنْبَاءَهُمْ وَرُؤُسَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم؟ فقال: «بلى إنهم أحرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فأتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»^(١٠٢). قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسيرها: إنهم أتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

(٤) شرك المحبة: قال تعالى:

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ

[سورة البقرة: ١٦٥] ^(١٠٣).

(١٠٢) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير: (ج ٨/٢٤٨، ح ٣٠٩٤) تحقيق الدعاس، قال الترمذي: هذا حديث غريب، وأورده ابن كثير في تفسير هذه الآية: (ج ٤/٧٧)، وعزاه للإمام أحمد وابن جرير. وقال الشيخ الألباني: حديث حسن. انظر «غاية المرام في تخرج الحلال والحرام»: (ص ٢٠).
(١٠٣) «مجموعة التوحيد»: (ص ٣).

وأما النفاق: فمنه ما هو مخرج من الملة، وهذا هو النفاق الأكبر وفيه يقول شيخ الإسلام بن تيمية:

(والنفاق منه ما هو أكبر، يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، كنفاق عبد الله بن أبيي وغيره، بأن يظهر تكذيب الرسول، أو جحود بعض ما جاء به، أو بفضه، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المسرة بأنخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه، ونحو ذلك مما لا يكون صاحبه إلا عدواً لله ورسوله) (١٠٤). ومنه ما هو نفاق أصغر وهو الرياء وقد سبق عليه الكلام.

وأما الردة: فهي الكفر بعد الإيمان فمن قال الكفر أو فَعَلَهُ أو رضي به مختاراً كَفَرَ، وإن كان مع ذلك يفيض بقلبه، وبهذا قال علماء السنة والحديث، وذكروا ذلك في كتبهم فقالوا: إن المرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه إما نطقاً، وإما فعلاً، وإما اعتقاداً. وقرروا أن من قال الكفر كَفَرَ وإن لم يعتقد أنه لم يعمل به إذا لم يكن مكرهاً.

وكذلك إذا فعل الكفر كفر وإن لم يعتقد ولا نطق به، وكذلك إذا شرح بالكفر صدره أي فتحه ووسعه وإن لم ينطق بذلك ولم يعمل به. وهذا معلوم قطعاً من كتبهم ومن له ممارسة في العلم فلا بد أن يكون قد بلغ طائفة من ذلك (١٠٥).

ومن باب التفصيل والتوضيح وذكر التفصيل بعد الإجمال: إليك نواقض الإسلام العشرة كما قررها أهل العلم.

(١٠٤) الفتاوى: (ج ٢٨/ ٤٣٤).

(١٠٥) الدفاع للشيخ حمد بن عتيق: (ص ٢٨)، وانظر التشريع الجنائي:

(ج ٧٠٨/ ٢)، وكتاب الردة بين الأسس واليوم: (ص ٣٣).

نواقض الإسلام

ذكر أهل العلم أن هناك عشرة نواقض هامة هي:

- (١) الشرك في عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى:
- إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَكَ
ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ

[سورة النساء: ١١٦]

- (٢) من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة. كفر إجماعاً.
- (٣) من لم يكفر المشركين، أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم. كفر إجماعاً.
- (٤) من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه فهو كافر.
- (٥) من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به كفر إجماعاً. والدليل قوله تعالى:

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ

[سورة محمد: ٩]

- (٦) من استهزأ بشيء من دين الله، أو ثوابه، أو عقابه كفر، والدليل قوله تعالى:

قُلْ أَيُّ اللَّهِ وَهَآئِذِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ
لَا تَقْصُرُوا دِينَكُمْ أَنْتُمْ بِدِينِكُمْ

[سورة التوبة: ٦٥ - ٦٦]

(٧) السحر، ومنه الصرف، والمطف فمن فعله أو رضي به كفر، الدليل قوله تعالى:

وَمَا يُجْلِيَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ

[سورة البقرة: ١٠٢]

(٨) مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين والدليل قوله تعالى:

وَمَنْ يَتَوَلَّمْ يَنْكُرْ فَأْتَهُمُ مِنَ الْبَغْضَاءِ لَا يَشْعُرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ أَنْ لَا يَهْدَى الْقَوْمُ الْفَاسِقِينَ

[سورة المائدة: ٥١]

(٩) من اعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه اتباع النبي ﷺ وأنه يسهل الخروج من شريعته كما وسع الخضر الخروج من شريعة موسى عليهما السلام، فهو كافر.

(١٠) الإعراض عن دين الله لا يتعلمه، ولا يعمل به، والدليل قوله تعالى:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ آيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِشُونَ

[سورة السجدة: ٢٢]

ولا فرق في جميع هذه النواقض بين المازل والمجاد والخائف إلا المكره، وكلها من أعظم ما يكون خطراً، ومن أكثر ما يكون وقوعاً، فينبغي للمسلم أن يحذرهما ويخاف منهما على نفسه^(١٠٦).

ويحذر هنا ونحن نستعرض هذه النواقض أن نقف عند اثنين منها، نظراً لأهميتهما وخطورتهما على حياة المسلمين، وليتضح سبب الإسهاب في قضية الحاكمية وعلاقة الولاء والبراء بذلك.

الأول: (من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن

(١٠٦) الدرر السنية: (ج ٨/ ٨٩ - ٩٠)، وانظر مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب: (ج ٥/ ٢١٢ - ٢١٤).

حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه
فهو كافر) .

إن تنحية شريعة الله عن مجرى الحياة، واستيراد قوانين البشر القاصرة:
رِدَّةٌ جديدة برزت في القرون الأخيرة من حياة المسلمين، ذلك أن المجتمع
الإسلامي عاش قروناً طويلاً يستظل بشرع الله وتهيمن الشريعة على حياة
أفراده حكماً ومحكوماً - مع وجود بعض المعاصي سواء كانت كبائر أم
صغائر - . ولكن نظام حياة الناس، والتشريع المنفذ في أمورهم هو شرع الله
وحكمه، وكذلك جهاد الكفار ونشر كلمة الإسلام في الأرض كانت كل
هذه الأمور في ازدياد وتوسع. أما رمي الشريعة الإسلامية بالقصور والرجعية
وعدم مسايرة تطورات العصر فهذا شيء لم يحدث إلا بعد أن مكن
المسلمون الاستعمار العالمي من ذلك وبعد أن نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

ولقد جاء القرآن الكريم والسنة المطهرة بنصوص كثيرة صريحة واضحة
حول قضية الحكم وأنها من عقيدة المسلم، ومن أهم أمور الدين قال تعالى:

وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ

[سورة المائدة: ٤٤]

وقال تعالى:

وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

[سورة المائدة: ٤٥]

وقال تعالى:

وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ

[سورة المائدة: ٤٧]

وقال تعالى:

أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ

وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

[سورة المائدة: ٥٠]

وقال تعالى:

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكُمْ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٠﴾

[سورة النساء: ٦٥]

وقال تعالى:

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ

[سورة الشورى: ٢١]

وقال تعالى:

وَيَقُولُونَ
إِنَّمَا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ فِرْقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِنْهُمْ مُتَعَرِّضُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَٰئِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحُكْمُ
يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعَبِينَ ﴿٥٣﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرَأَيْتُمْ أَنَّهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ
أَنْ يَحْلِفُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ أَلَّا يَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

[سورة النور: ٤٧ - ٥١]

ويقول سبحانه:

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ
قُلُوبُهُ مَأْتُولٌ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا [سورة النساء: ١١٥]

ثم يبين سبحانه وتعالى ريف زعم من يدعي الإيمان ويريد التحاكم إلى
الطاغوت فيقول:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ
وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ
ضَلًّا بَعِيدًا إِنَّهُ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ
صُدُودًا

[سورة النساء: ٦٠ - ٦١]

ولقد أحسن أحد العلماء في وصف من طمست بصيرته فاستبدل
بالشريعة القانون حيث قال: إن مثل هذا مثل (الجعل يتأذى من رائحة
المسك والورد الفواح، ويحيا بالعدرة والغائط في المستراح) (١٠٧).

ولقد قال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ

[سورة المجادلة: ٢٠]

ومن أعظم المحادة لله ورسوله التولي عن حكم الله وشرعه وسنة نبيه ﷺ
وما هذه الذلة التي يعيشها المسلمون اليوم في الأرض إلا نتيجة طبيعية لترك
شرع الله فيها هم أولاء اليوم كثير ولكنهم غشاء كغشاء السيل، طمعت فيهم
أحقر الأمم وسيطرت عليهم أراذل الناس، ولقد صدقت فيهم نبوة محمد ﷺ
حين قال: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» فقال
قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغشاء
السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم

(١٠٧) «الرسائل المنيرة»: (١٣٩/١).

الوهن، فقال قائل: يا رسول الله: وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكرهية الموت» (١٠٨).

وإن جزءاً كبيراً من هذا الانحراف الذي سيطر اليوم على حياة المسلمين يتحمله الذين يتزيفون بزي العلماء ويحسنون للناس أن يستبدلوا بشرع الله أهواء البشر، إن هؤلاء ليحملون أوزارهم كاملة ومن أوزار الذين يضلونهم إلى يوم القيامة والإسلام بريء من هؤلاء. ويرحم الله علماء السلف الذين كانوا حماة على ثغور الإسلام حتى لا يورق الإسلام من قبل أحدهم.

فهذا الإمام الجليل الحافظ ابن كثير رحمه الله يذكر في كتابه «تفسير القرآن العظيم» ما حلُّ بالأمة الإسلامية أيام التار، وذلك عند قوله تعالى:

أَفَحُكْمَ الْجَهْلِ يَتَّبِعُونَ

[سورة المائدة: ٥٠]

قال: (ينكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بأرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان، الذي وضع لهم الياسق، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في نفيه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن فعل ذلك

(١٠٨) «سنن أبي داود»: (ج٤/٤٨٤، ح٤٢٩٧) كتاب الملاحم. وقال في «مشكاة المصابيح»: رواه البيهقي في «دلائل النبوة». ثم قال الشيخ الألباني: وهو حديث صحيح. انظر «مشكاة المصابيح»: (ج٣/١٤٧٥).

منهم فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم
سواه في قليل ولا كثير (١٠٩).

ويوضح الشيخ محمد بن إبراهيم (١١٠) رحمه الله الحالات التي إن
فعلها الحاكم دخلت في الكفر المخرج من الملة وهي:

(١) إذا جحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله. وهو معنى
ما روي عن ابن عباس، وأختاره ابن جرير، وجحد ما أنزل الله من
الحكم الشرعي لا نزاع فيه بين أهل العلم، فإن الأصول المتقررة المتفق
عليها بينهم، أن من جحد أصلاً من أصول الدين أو فرعاً مجمعاً عليه،
أو أنكر حرفاً مما جاء به الرسول ﷺ قطعاً فإنه كافر كفاً ينقل عن
الملة (١١١).

(٢) إن لم يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أن حكم الله ورسوله حق، ولكنه
أعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حكمه، وأتم وأشمل لما
يحتاجه الناس وما استجد لهم من حوادث نشأت عن تطور الزمان،
وتغير الأحوال فهذا أيضاً لا ريب في كفره لتفضيله أحكام المخلوقين
التي هي زبالة الأذهان وحثالة الأفكار على حكم الحكيم الخبير. فإنه
ما من قضية كائنة ما كانت إلا وحكمها في كتاب الله تعالى وسنة
رسوله ﷺ نصاً أو ظاهراً أو استنباطاً أو غير ذلك، علم ذلك من علمه
وجهله من جهله.

(١٠٩) «تفسير ابن كثير»: (ج ٣/ ١٢٣).

(١١٠) هو الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار السعودية، ولد سنة
١٣١١هـ، ونشأ في بيت علم وفضل. وحفظ القرآن وهو في الحادية عشرة
من عمره، وكف بصره وهو في الرابعة عشرة من عمره فصير واحتسب.
وتعلم على الشيخ سعد بن عتيق. وتوفي في رمضان سنة ١٣٨٩هـ عن عمر
يناهز الثمانين عاماً. انظر ترجمته في كتاب «علماء نجد» للباسم: (١/ ٨٨).

(١١١) «تحكيم القوانين»: (ص ٥).

(٣) أن لا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله، لكن أعتقد أنه مثله، فهذا كالتوعين السابقين كفراً ينقل عن الملة لما في ذلك من تسوية المخلوق بالخالق.

(٤) من أعتقد جواز الحكم بما يحالف حكم الله ورسوله فهو كالذي قبله.

(٥) من أعظم ذلك وأظهرها معاندة للشرع ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله: إيجاد المحاكم الوضعية التي مراجعها القانون الوضعي، كالقانون الفرنسي أو الأمريكي أو البريطاني أو غيرها من مذاهب الكفار، وأي كفر فوق هذا الكفر؟! وأي مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقصة؟! (١١٢).

(٦) ما يحكم به كثير من رؤساء الفشائر والقبائل من البوادي ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعاداتهم التي يسمونها "ملومهم" يتوارثون ذلك منهم ويحكمون به رغبة وإعراضاً عن حكم الله.

(أما الكفر الذي لا ينقل عن الملة: والذي ورد عن آبن عباس رضي الله عنهما بأنه كفر دون كفر، وقوله أيضاً: ليس بالكفر الذي تذهبون إليه فذلك مثل، أن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضية بغير ما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق، وأعتزله على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى. وهذا وإن لم يخرج كُفْرَهُ عن الملة فإنه معصية عظيمة أكبر من الكبائر كالزنا وشرب الخمر والسرقه وغيرها، فإن معصية سماها الله في كتابه كفراً أعظم من معصية لم يسمها الله كفراً (١١٣).

وإن الذي جعلنا نسهب في ذكر شؤون الحاكمية وتفصيل أحوالها هو خطورتها وعظمتها. فإن موالاة الحاكم بغير ما أنزل الله وإقرار تشريعه للناس

(١١٢) المصدر السابق: (ص٧).

(١١٣) المصدر السابق: (ص٨).

من عند نفسه وتحليله وتحريمه ما لم يأذن به الله، مناقضة للشهادة بأن الله هو الإله الذي تأله القلوب بالحب والتعظيم والطاعة والانقياد، ومناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله فهو المطاع فيما أمر ونهى عنه وزجر ولو فهم الناس هذا لما بقي لطاغية في الأرض حق الوجود والتشريع. وإقرار الكفر وتنحية شرع الله المحكم.

الثاني: من الأمور التي يجب أن تدبرها بروية - من نواقض الإسلام - مظاهرة المشركين ومعلوتهم على المسلمين، والدليل قوله تعالى:

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ أَجْمَعِينَ

[سورة المائدة: ٥١]

وهذا من أعظم النواقض التي وقع فيها سواد الناس اليوم في الأرض، وهم بعد ذلك يحسبون على الإسلام ويتسمون بأسماء إسلامية، فلقد صرنا في عصر يستحي فيه أن يقال للكافر: يا كافر!! بل زاد الأمر عتواً بنظرة الإعجاب والإكبار والتعظيم والمهابة لأعداء الله، وأصبحوا موضع القدوة والأسوة لضعاف الإيمان، ينظرون إلى أعداء الله نظرة أنهار ملؤها التمني أن يكونوا مثلهم حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه.

مظاهرة أخذت صبوراً شتى فمن الميل القلبي إلى أنتحال مذاهبهم الإلحادية إلى مجاراتهم في تشريعاتهم، إلى كشف عورات المسلمين لهم، إلى كل صغير وكبير في حياتهم. وسيأتي تفصيل الحديث في هذا الأمر - إن شاء الله - في فصل صور الموالاة.

من هنا فإن إدراك حقيقة هذه العقيدة ونواقضها، أمر كفيل بأن يجعل المسلم على بصيرة من أمره في عقيدة الولاء والبراء. حسب المقياس الشرعي الصحيح، وليس حسب مقياس أهواء البشر. إنه لا ولاء إلا لله ولرسوله ودينه والمؤمنين. والبراء من كل متبوع أو مرغوب أو مرهوب بخلاف الله ورسوله.

الباب الأول

مفهوم الولاء والبراء

الفصل الأول

تعريفه وأهميته في الكتاب والسنة

الولاء في اللغة: جاء في «لسان العرب»: الموالاة - كما قال ابن الأعرابي - : أن يتشاجر آثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح، ويكون له في أحدهما هوى فيواليه أو يحاييه. ووالى فلان فلاناً: إذا أحبه.

والمولى: اسم يقع على جماعة كثيرة، فهو: الرب، والمالك، والسيد، والمنعم، والمعتق، والناصر، والمحِب، والتابع، والجار، وأبن العم، والحليف، والعقيد، والصهر، والعبد، والمعتق، والمنعم عليه. ويلاحظ في هذه المعاني أنها تقوم على النصرة والمحبة^(١).

والتولية: - بالفتح - في النسب والنصرة والعق.

والموالاة: - بالضم - من والى القوم. قال الشافعي في قوله ﷺ «من كنت مولاة فعلي مولاة»^(٢) يعني بذلك ولاء الإسلام، كقوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ

[سورة محمد: ١١]

(١) «لسان العرب» لابن منظور: (ج ٣/ ٩٨٥ - ٩٨٦)، وانظر «القاموس المحيط»: (٢٩٤/ ٤) الطبعة الثالثة.

(٢) أخرجه أحمد في «المسند»: (ج ٤/ ٢٨١) عن البراء، وأيضاً عن زيد بن أرقم ٣٦٨/ ٤، ٣٧٠، ٣٧٢، والترمذي في «المنقب»: (ج ٩/ ٣٣٠، ح ٣٧١٤)، وقال حديث حسن صحيح غريب. وقال الألباني: صحيح. انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج ٦/ ٣٥٣، ح ٦٣٩٩).

والموالة ضد المعادة، والولي ضد العدو، قال تعالى:

يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا

[سورة مريم: ٤٥]

قال ثعلب: كل من عبد شيئاً من دون الله فقد آخذ به ولياً. وقوله تعالى:

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا

[سورة البقرة: ٢٥٧]

ولهم في نصرهم على عدوهم، وإظهار دينهم على دين مخالفيهم.

وقيل: ولهم أي: يتولى ثوابهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم.

والولي: القرب والدنو^(٣). والموالة: المتابعة.

والتولي: يكون بمعنى الإعراض، ويكون بمعنى الاتباع. قال تعالى:

وَلَا تَتَوَلَّوْا سُبُلَ قَوْمٍ آخَرِكُمْ

[سورة محمد: ٣٨]

أي: إن تعرضوا عن الإسلام.

وقوله تعالى:

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَبِمَا كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

[سورة المائدة: ٥١]

معناه - من يتبعهم وينصرهم^(٤).

(٣) لسان العرب: (ج ٣/٩٨٦).

(٤) لسان العرب: (ج ٣/٩٨٨).

وقال صاحب «المصباح المنير» الولي: فعيل بمعنى فاعل، من وليه إذا قام به، ومنه قوله تعالى:

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا

[سورة البقرة: ٢٥٨]

ويكون الولي: بمعنى مفعول، في حق المطيع، فيقال: المؤمن ولي الله. ووالاه موالاة وولاء: من باب «قاتل»، أي تابعه^(٥).

تعريف البراء في اللغة: قال ابن الأعرابي: برىء إذا تخلص، وبرىء، إذا تنزه وتباعد، وبرىء: إذا أعذر وأنذر، ومنه قوله تعالى:

بِرَأَةِ اللَّهِ مِنْ رَسُولِهِ

[سورة التوبة: ١]

أي إعذار وإنذار.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه لما دعاه عمر إلى العمل فأبى قال عمر: إن يوسف قد سأل العمل، فقال أبو هريرة: إن يوسف مني برىء وأنا منه برىء^(٦). أي برىء عن مساواته في الحكم وإن أقاس به، ولم يرد براءة الولاية والمحبة لأنه مأمور بالإيمان به، انتهى من «النهاية».

والبراء والبرىء سواء.

وليلة البراء: ليلة يتبرأ القمر من الشمس، وهي أول ليلة من الشهر^(٧).

تعريف الولاء بالمعنى الاصطلاحي: الولاية هي النصرة والمحبة والإكرام

(٥) «المصباح المنير» للفيومي: (ج ٢/ ٨٤١).

(٦) هذا الأثر ذكره ابن الأثير في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (ج ١/ ١١٢)،

تحقيق الزاوي والطناحي.

(٧) «لسان العرب»: (ج ١/ ١٨٣)، و«القاموس المحيط»: (ج ١/ ٨).

والاحترام والكون مع المحبوبين ظاهراً وباطناً. قال تعالى:

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ
النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ

[سورة البقرة: ٢٥٧] (٨).

فمؤالاة الكفار تعني التقرب إليهم وإظهار الود لهم، بالأقوال والأفعال
والتوايا (٩).

تعريف البراء بالمعنى الاصطلاحي: هو البعد والخلاص والعداوة بعد
الإعذار والإنذار.

شرح تعريف الولاء والبراء: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الولاية: ضد
العداوة. وأصل الولاية: المحبة والتقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد..
والولي: القريب يقال: هذا يلي هذا: أي يقرب منه، ومنه قوله ﷺ «الحقوا
الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر» (١٠) أي لأقرب رجل إلى
الميت.

فاذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه، ويبغضه ويسخطه
ويأمر به وينهى عنه، كان المعادي لوليّه معادياً له. كما قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ

[سورة الممتحنة: ١]

(٨) شرح الطحاوية: (ص ٤٠٣)، وتهنيس العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد: (ص ٤٢٢).

(٩) كتاب الإيمان لنعيم ياسين: (ص ١٤٥).

(١٠) هذا الحديث أخرجه البخاري: (ج ١١/١٢، ح ٦٧٣٢) كتاب الفرائض،
ومسلم: (ج ٣/١٢٣٣، ح ١٦١٥) كتاب الفرائض.

فمن عادى أولياء الله فقد عاداه، ومن عاداه فقد حاربه ولهذا جاء في الحديث «ومن عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة»^(١١).

ومسمى الموالاة «لأعداء الله»: يقع على شعب متفاوتة منها ما يوجب الردة وذهاب الإسلام بالكلية، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات^(١٢). ولما عقد الله الأخوة والمحبة والموالاة والنصرة بين المؤمنين، ونهى عن موالاة الكافرين كلهم من يهود ونصارى وملحدين ومشركين وغيرهم؛ كان من الأصول المتفق عليها بين المسلمين: أن كل مؤمن موحد تارك لجميع المكفرات الشرعية تجب محبته وموالاته ونصرته، وكل من كان بخلاف ذلك وجب التقرب إلى الله ببيغضه ومعاداته، وجهاده باللسان واليد بحسب القدرة والإمكان.

وحيث أن الولاء والبراء تانعان للحب والبغض، فإن أصل الإيمان أن تحب في الله أنبياءه وأتباعهم، وتبغض في الله أعداءه وأعداء رسله^(١٣).

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله «من أحب في الله، وأبغض في الله ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»^(١٤).

وإذا كان حبر هذه الأمة يذكر أن مؤاخاة الناس في زمانه قد أصبحت على أمر الدنيا وأن ذلك لا يجدي على أهله شيئاً، وهذا في القرن الذي هو

(١١) «الفرقان» لابن تيمية: (ص ٧)، أما الحديث فقد رواه البخاري: (ج ١١/٣٤١،

ح ٦٥٠٢) كتاب الرقائق، باب التواضع.

(١٢) انظر «الرسائل المفيدة» للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: (ص ٤٣).

(١٣) انظر «الفتاوى السعدية» للشيخ عبد الرحمن بن سعدي: (ج ١/٩٨).

(١٤) سبق تخريجه (ص ٤٤).

خير القرون: فجدير بالمؤمن أن يعي ويعرف من يحب ومن ييغض، ومن يوالي
ومن يعادي ثم يزن نفسه بميزان الكتاب والسنة ليرى أواقف هو في صف
الشيطان وحزبه أم في صف عباد الرحمن وحزب الله الذين هم المفلحون،
وما عداهم فأولئك هم الذين خسروا الدنيا والآخرة!

وإذا أصبحت المؤاخاة والمحبة على أمر الدنيا - كما قال الصحابي الجليل
عبد الله بن عباس - فإن تلك المحبة والمؤاخاة لا تلبث أن تزول بزوال العرض
الزائل وحيث لا يكون للأمة شوكة ومنعة أمام أعدائها.

وفي عصرنا الحاضر عصر المادة والدنيا قد أصبحت محبة الناس في الأغلب
على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً.

ولن تقوم للأمة الإسلامية قائمة إلا بالرجوع إلى الله والاجتماع على الحب
فيه والبغض فيه والولاء له والبراء ممن أمرنا الله بالبراء منه، وعندئذ يفرح
المؤمنون بنصر الله.

أهمية هذا الموضوع في الكتاب والسنة ونصيبه من الدراسة والتأليف

إنه من الجدير بالذكر أن هذا الموضوع - الولاء والبراء - رغم أهميته ووضوحه في الكتاب والسنة إلا أن نصيبه من الدراسة والتأليف في الكتب العقدية القديمة قليل جداً. وذلك راجع في نظري إلى ثلاثة أمور:

(١) إن هذا المفهوم العقدي كان من الوضوح والنصاعة عند المسلمين الأولين بمكان، حيث إنهم - من خلال سيرتهم وتاريخهم الوضيء - كانوا على درجة عالية جداً من الصفاء العقدي، والتميز الواضح، وقيامهم أيضاً بالجهاد في سبيل الله. كل ذلك جعل هذا الأمر واضحاً وجلياً في حسهم وأيضاً رجوعهم للكتاب والسنة في كل شيء.

(٢) إن طبيعة المجتمع الإسلامي الأول خاصة بعد الخلافة الراشدة لم تبرز فيه مشاكل عقدية حول هذا الموضوع وإنما نشأت حول صفات الله جلّ جلاله، وقامت الفرق المختلفة بالخوض فيها. فكان لا بد أن يتصدى أهل السنة والجماعة لمعالجة ذلك الانحراف بأن يبينوا للناس أن لله صفات تليق بجلاله وعظمته. تثبتها له كما جاءت في الكتاب والسنة من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكيف ولا تشبيه ولا تمثيل. من هنا زخرت مؤلفاتهم رحمهم الله بالحديث في هذا الشأن، ولا تجد لهم ذكراً لقضية الولاء والبراء إلا في كلمات موجزة صغيرة كقولهم (ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخبر يذكرهم)^(١٥).

(١٥) الطحاوية مع شرحها: (ص ٢٥٨)، الطبعة الرابعة.

(٣) وبعد دخول علم الكلام في مؤلفات المسلمين العقديّة، وتعكير صفوها بما ليس منها: لم يعد لهذا الموضوع ذكر آلبته: وليس هو المنفرد بهذا الإقصاء، بل إنه تابع لإقصاء موضوع "لا إله إلا الله" وما تقتضيه من توحيد الألوهية وما يضاد ذلك من نواقض الإسلام، التي لو شغل المسلمون أنفسهم ببيانها وعرضها للناس عرضاً صحيحاً سليماً بدلاً من تحويلها إلى قضايا ذهنية تحريرية لا علاقة لها بالسلوك الواقعي ولا بمعاني الإسلام الحقيقية لكان ذلك أجدي وأنفع للناس، وأقوم للقيام بما أَرَادَهُ اللهُ مِنْهُمْ. ولو أن الأمة الإسلامية تقيدت بقول رسولها ﷺ «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»^(١٦). وعصّت على ذلك بالنواخذ ما طمع فيها شرق ولا غرب، ولا تخبطت في متاهات التنعية العمياء للإلحاد والفكر الجاهلي سواء كان شرقياً أم غربياً على حدّ سواء.

وحين اقتصر المسلمون الأوائل على الوحيين العزيزين خرج منهم جيل فريد ليس له مثال لا سابق ولا لاحق، جيل اعترى بانتمائيه لدينه الخالص، ففتح الدنيا ومزق ظلام الكفر والشرك وصدع باسم الله في الأرض من مشارف فرنسا غرباً إلى حدود الصين شرقاً.

ولعل من المناسب هنا أن نتحدث - ولو قليلاً - عن طريقة القرآن والسنة في عرض العقيدة بصفة عامة وجباية علم الكلام على المسلمين لنقف من خلال هذه النبذة على مدى الهوة بين صعاء البيع العقدي الرباني وبين جهالات علم الكلام.

(١٦) «مسند أحمد»: (ج٤/١٢٦)، و«جامع بيان العلم» لابن عبد البر: (ج٢/٢٢٢)، و«سنن ابن ماجه»: المقدمة (ج١/١٦)، ح٤٣، وفي سننه عبد الرحمن بن عمرو السلمي لم يوثقه غير ابن حبان. وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب»: (ج١/٤٦) عن أبي عاصم في كتاب «السنة» وقال: إسناده حسن. انظر «جامع الأصول»: (ج١/٢٩٣) حاشية.

لقد أدرك سلف هذه الأمة رحمهم الله أن كتاب الله العزيز: هو: كتاب هداية وليس كتاب فلسفة ونظريات فارغة لا تمس الواقع. وأيقن ذلك الجيل أن الله هو خالق النفس البشرية وأنه هو العليم وحده بما يصلحها، فلما أنزل كتابه على رسوله ﷺ كان هو النور الهادي للنفوس، ومصدر كل خير لها، وهو أيضاً النذير لها من كل ما يوردها موارد الهلاك والخسران. وميزة الخطاب القرآني: أنه يخاطب "الإنسان" كوحدة متصلة فيها الروح والجسد وفيها العقل والعاطفة، وفيها حب الخير وكره الشر:

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴿٧﴾ فَأَلَمَّهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا

[سورة الشمس: ٧ - ١٠].

هكذا هي الطريقة القرآنية في عرضها للعقيدة:

١. (طريقة لا تخاطب الذهن المجرد ولكنها تخاطب "الإنسان" كله، وتخاطبه - أول ما تخاطبه - عن طريق الوجدان ولا يمنع هذا أن تدعو عقله للمشاركة في الأمر، ولكنها لا تخاطبه منفرداً إنما تخاطبه دائماً والوجدان مستحاش، فيأخذ دوره في التلقي منفصلاً بالقضية، متحركاً للإيمان بها، لا محرد مُسَاجِلٍ فيها بالمنطق والبرهان: والقرآن حين يصنع ذلك فهو يستجيب للفطرة البشرية كما خلقها الله، فالله الذي خلق هذه الفطرة هو الذي أنزل هذا القرآن مفصلاً على قدها، مستجيباً لها، ومحياً لها، وباعثاً ومقوماً في آن. رنقل جزء من هذه الفطرة ولا شك، وله دوره في قضية الإيمان.. ولكن الله يعلم الشروط اللازمة لهذا العقل حين يتناول قضية من قضايا "الحياة" أنه يمكن أن يعمل وحده حين يكون دوره هو التعرف على سنة من سنن الكون لا مجال فيها للوجدان، أما في قضية الإيمان فإنه لا يستقل بهذا الأمر وحده، بل تشاركه العاطفة والوجدان (١٧).

(١٧) «دراسات قرآنية» للأستاذ محمد قطب: (ص ١٤٩) بقليل من التصرف.

وإذا تصفحنا التاريخ الإسلامي لنسحّث عن تاريخ الانحراف في الدراسات العقدية لوحداً أن ذلك قد وقع في العهد الأموي بشكل بسيط، ولكنه بلغ قمته في العهد العباسي إبان ترجمة العلوم اليونانية والهندية والفارسية إلى اللغة العربية. فبعد أن اتسعت الفتوحات وامتدت رقعة الدولة الإسلامية ودخل في الإسلام أناس أظهروا الإسلام وأبطنوا المفاق والزندقة حصل خلط في المترجمات، فلم يفرق بين الغث والسمين من تلك العلوم الأجنبية.

ولما أصبح شغل أكثر الناس هو الترف العقلي: رأوا أن يستوردوا غناء الجاهلية الإغريقية وسمي ذلك عند المخدوعين به "فلسفة"!! وأنهبوا بهذا المستورد الدخيل وما فيه من عجمة وتعقيد ولعب بالألفاظ ودلالاتها. وقادهم هذا الانبهار إلى إلباس التصور الإسلامي قناعاً غريباً عليه. غريباً عليه في ذاته، وغريباً عليه في عرضه، وغريباً أيضاً على أهله. وسر ذلك:

أن (هناك جفوة أصيلة بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة وبين أسلوب الفلسفة وأسلوب العقيدة، وبين الحقائق الإيمانية الإسلامية وتلك المحاولات الصغيرة المضطربة المفتعلة التي تتضمنها الفلسفات والمباحث اللاهوتية البشرية) (١٨).

وحرّني بنا أن نسأل: ما هو سرّ محاولة التوفيق بين الفلسفة البشرية الجاهلية التي نمت وترعرعت في جو وثني كافر، وبين المورد العذب دين الله "الإسلام"؟

هل كان ذلك نتيجة للتقليد الأعمى والسعي وراء كل ناعق؟
أم أنه كان نتيجة للقعود عن الجهاد ونشر العقيدة في ربوع الأرض؟

(١٨) «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» للأستاذ سيد قطب: (ص ١٠ - ١١)، دار الشروق.

أم هو الترف العقلي ومجابهة أصحاب الجدل بنفس أسلوبهم؟
أم أن وراء ذلك كيداً من أعداء الإسلام في محاولة تشويه صفاء هذه
العقيدة وخلطها بالشوائب الغريبة عنها؟!
والذي يظهر لي - والله أعلم - أن هذه الأسباب مجتمعة لها دورها كل
بحسب أهميته، إلا أنه من خلال تتبع قصة الترجمة في عهدها الأول يظهر لي:
أن كيد أعداء الدين وافق هوى عند بعض المسلمين خاصة بعض الحكام في
العهد العباسي - كالمأمون مثلاً - فحدث ما حدث من ترجمة لكتب المباحث
السوفسطائية اليونانية وغيرها.

ويصدق ذلك: أن المأمون بعث إلى حاكم صقلية المسيحي يطلب منه أن
يبادر بإرسال مكتبة صقلية الشهيرة الغنية بكتب الفلسفة!!

وتردد الحاكم في إرسالها، وجمع رجال دولته واستشارهم حول هذا
الطلب فأشار عليه المطران الأكبر بقوله: (إرسالها إليه، فوالله ما دخلت هذه
العلوم في أمة إلا أفسدتها) فاذعن الحاكم لمشورته وعمل بها. ثم أحضر
المأمون حنين بن إسحاق^(١٩) - وكان فتي لسناً - وأمره بنقل ما يقدر عليه
من كتب حكماء اليونان إلى العربية، فآمثل لأمره. وكان المأمون يعطيه من
الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلاً بمثل. مما جعل حينئذ يكتب
على ورق غليظ ويأعد بين الأسطر ويكتب بالحروف الكبيرة^(٢٠)!!

(١٩) هو حنين بن إسحاق، طبيب، مؤرخ، مترجم، كان أبوه صيدلاناً من أهل
الحيرة، أخذ العربية عن الخليل بن أحمد، وأخذ الطب عن يوحنا بن ماسويه
وغيره، وتمكن من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية فاتتته إليه رئاسة
المترجمين في عهد المأمون الذي عينه رئيساً لديوان الترجمة وبذل له الأموال
والعطايا.

لخص كثيراً من كتب أبقراط وجالينوس، وكان يحفظ الياذة هوميروس
ومترجماته تزيد على المائة. انظر «الأعلام» للزركلي: (ج ٢/٢٨٧)، الطبعة
الرابعة.

(٢٠) انظر كتاب «عصر المأمون»: (ص ٣٧٥ - ٣٧٧) للدكتور أحمد مزيد رفاعي.
الطبعة الثانية سنة ١٣٤٦ هـ، الناشر: دار الكتب المصرية.

وصدق - وآله - المطران الصقلي: إن هذه الكتب ما دخلت أمة إلا أفسدتها. ترى من أين جاءت محنة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في مسألة خلق القرآن؟ ومن أين جاء اضطهاد علماء السنة ومحاربتهم وظهور المبتدعة أيام المأمون وغيره؟ ومن أين جاءت المصطلحات المبتدعة كالجوهر والعرض والواجب والممكن وغيرها؟ إنه لم يأت كل ذلك إلا من ترجمة الفلسفة الجاهلية وخلطها بالعقيدة الإسلامية ليصنع من ذلك كله ما سمي بـ "الفلسفة الإسلامية"!!

وإذا علمنا: أن المترجمين كان جلهم نصارى^(٢١). وقد كتبوا في الترجمة العربية ما لا يعلمونه ويدينون به. فكيف يوثق بنصراني يعتقد التثليث وهو يترجم للمسلمين؟ ليتعلمونها ويعلمونها أبناءهم ويستفيدون منها في مؤلفاتهم؟ لقد صدق الشاعر حين قال:

ومن جعل القرب له دليلاً
يمر به على جيف الكلاب

ولمزيد من إيضاح وبيان البون الشاسع بين طريقة القرآن والسنة في عرض العقيدة وبين علم الكلام، نذكر الأمور التالية في المباينة بينهما، لا من باب المقارنة، فلا وجه للمقارنة في الحقيقة، إذ الأمور كما يقول الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره
إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

وإنما من باب التنبيه والتذكير^(٢٢).

(١) في المصدر: فمصدر العقيدة القرآنية: الله رب العالمين. أما مصدر "علم

(٢١) انظر في هذا كتاب الجانب الإلهي للأستاذ محمد البهي: (ص ١٧٧).

(٢٢) ينظر في هذا الموضوع كتاب العقيدة في الله للأستاذ عمر سليمان الأشقر:

(ص ٢٧ - ٣٨)، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٩هـ، الناشر: مكتبة الفلاح بالكويت.

الكلام“ فمقول البشر الفاصلة الهزيلة.

(٢) في المنهج والسييل: فغاية علم الكلام: إثبات وحدانية الخالق، وأنه لا شريك له ويظن المتكلمون أن هذا هو المراد بـ ”لا إله إلا الله“ بينما المراد منها ما سبق أن شرحناه في التمهيد ثم إن علم الكلام يسمى لتحقيق ”المعرفة“ في الوقت الذي نجد فيه الطريقة القرآنية تهدف إلى ”الحركة“ من وراء المعرفة، فتحول تلك المعرفة إلى قوة دافعة لتحقيق مدلولها في عالم الواقع وتستجيش الضمير الإنساني لتحقيق وجوده في الأرض حسب الخطة التي رسمها له التصور الرباني، وحينئذ ترجع البشرية إلى ربها، ونحيا حياة كريمة رفيعة تتفق مع الكرامة التي كتبها الله للإنسان^(٢٣).

ثم إن المنهج القرآني يدعو إلى ”عبادة الله وحده“ قال تعالى:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ

[سورة الأنبياء: ٢٥]

وأوصى المصطفى ﷺ معاذاً حين بعثه إلى اليمن: أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فإذا عرفوا ذلك دعاهم للزناض^(٢٤) ولم يأمره أن يدعوهم أولاً إلى ”الشك“ أو ”النظر“ كما هي طريقة المتكلمين!!

(والله سبحانه عندما يبعث الناس لا يسألهم عن العلوم الحسية والبدئية، والمنطق، والطبيعي، والجوهر والعرض - بل يسألهم عن استجابتهم للرسول أو عدمها

(٢٣) انظر «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته»: (ص ١٠ - ١١).

(٢٤) الحديث موجود في «صحيح البخاري»: (ج ٣/٣٢٢، ح ١٤٥٨)، و«صحيح مسلم»: (ج ١/٥٠، ح ١٩) كتاب الإيمان.

كَلَّمَ الَّذِينَ فِيهَا فَوَجَّاهُمْ سَاءَ مَوْجِزَتْنَاهَا لَنَذِيرٍ ﴿٨﴾
 قَالُوا بَلْ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ
 السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْرِضْ أَيْدِيَهُمْ فَسَاحَقًا لِلْأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

[سورة الملك: ٨ - ١١] (٢٥).

ووحداية الخالق التي هي غاية علم الكلام: لم تنفع المشركين الذين حاربهم رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا يقولون بها كما أخبر الله عنهم:

وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

[سورة لقمان: ٢٥]

(٣) قوة التأثير: الذي هو طابع العقيدة الربانية: مما يجعل لها سلطاناً قوياً على نفوس معتقبيها. بعكس الفلسفة والكلام اللذين يدلان على جهل أصحابهما كما قال أحدهم - وهو سقراط - "الشيء الذي لا أزال أعلمه جيداً هو أنني لست أعلم شيئاً"، (٢٦).

(٤) الأسلوب: فالعقيدة الربانية تخاطب الكينونة الإنسانية بأسلوبها الخاص، وهو أسلوب يمتاز بالحيوية والإيقاع. واللمسة المباشرة والإيجاء بالحقائق الكبيرة، مع بساطة في العرض ووضوح في البيان وإعجاز في اللفظ والمعنى. مما يجعل إدراك هذه العقيدة سهلاً لكافة المستويات البشرية. وهذا كله بخلاف الفلسفة والكلام، وبخلاف تلك المصطلحات المعقدة التي لا تزيد الشك إلا شكاً وحيرة وضلالاً (٢٧).

(٢٥) «العقيدة في الله للأشقر: (ص ٣١).

(٢٦) المصدر السابق: (ص ٣٢).

(٢٧) انظر «خصائص التصور الإسلامي والعقيدة للأشقر: (ص ٣٥).

وأسلوب المتكلمين يسير على نمط واحد في كل قضية يتحدث عنها فهو لا يخرج عن قوله: "فإن قيل لنا كذا: قلنا لهم كذا".

أما الأسلوب القرآني فإنه يعرض العقيدة على نمطين:

الأول: توحيد في الإثبات والمعرفة: أي إثبات حقيقة الرب وصفاته وأفعاله وأسمائه كما أخبر به عن نفسه وكما أخبر رسوله الكريم، وهذا موجود في أول سورة الحديد وطه، وآخر الحشر، وأول السجدة، وأول آل عمران، وسورة الإخلاص بكاملها^(٢٨).

الثاني: توحيد الطلب والقصد: وهذا ما تضمنته سورة الكافرون

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ

و قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا

مُسْلِمُونَ [سورة آل عمران: ٦٤]

وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها، وأول سورة يونس وأوسطها وآخرها،
وأول سورة الأعراف، وآخرها، وجملة سورة الأنعام.

ويعرف الأول: بأنه توحيد علمي خبري، والثاني بأنه: توحيد إرادي
طلبي^(٢٩).

ونظرة واحدة إلى سيرة المصطفى ﷺ في عرضه لهذه العقيدة وتربيته
الفذة لصحابته كافية في الدلالة على أن من سلك طريقاً غير طريق القرآن
والسنة في عرض العقيدة فقد سلك "سبلاً"، لا تلتقي مع صراط الله المستقيم.

(٢٨) شرح العقيدة الطحاوية: (ص ٨٨) طبع المكتب الإسلامي.

(٢٩) المصدر السابق: (ص ٨٨).

روى الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كان
رجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل
بهن» (٣٠).

وقال أبو عبد الرحمن السلمي (٣١): «حدثنا الذين كانوا يقرئونا: أنهم
كانوا يستقرون من النبي ﷺ فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى
يعلموا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً» (٣٢).

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله:

(لقد كان تلقي صحابة رسول الله ﷺ لهذه العقيدة أشبه ما يكون
بتلقي الجندي في الميدان "الأمر اليومي" ليعمل به فور تلقيه، ولذلك لم
يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر
من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه، فكان يكتفي بعشر آيات حتى
يحفظها ويعمل بها كما جاء في حديث ابن مسعود (٣٣).

هكذا كان صدر هذه الأمة مقتصرًا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ
في عقيدته. ولكن الانحراف الذي طرأ على المسائل العقدية في العصور
المتأخرة سببه حركة الترجمة والانبهار بفلسفة اليونان وعلومهم. ولو كان
هناك وعي وتفكير في الأشياء المترجمة لاقتصر على ترجمة العلوم البحتة
كالهندسة والكيمياء والطب وغيرها من العلوم النافعة وبشرط أن تكون صياغة
ترجمتها متفقة مع عقيدة المسلمين. ولكن الخطأ الذي حصل كان ترجمة
جميع العلوم ومنها "الإلهيات" عند أرسطو وأفلاطون وغيرهم!

(٣٠) مقدمة الحافظ ابن كثير لنفسه: (ج ١/١٣).

(٣١) هو عبد الله بن حبيب السلمي القاري. لأبيه صحبة. روى عن مجموعة من
كبار الصحابة. وهو تابعي ثقة توفي سنة ٧٢ هـ وقيل ٨٥ هـ. انظر تهذيب
التهذيب: (ج ٥/١٨٣).

(٣٢) المصدر السابق: (ج ١/١٣).

(٣٣) معالم في الطريق: (ص ١٥).

إنه خطأ فاحش وقع فيه من وقع وإلا فما هو الدافع لاستيراد ما عند الوثنيين واستخدام أهل الكتاب في ذلك؟

وصدق حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حين قال محذراً .. أولاً ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذي أنزل إليكم^(٣٤).

والذي حصل كما يقول الشيخ محمد الغزالي:

(إن صفو هذه العقيدة قد تعكر بالفكر الأجنيبي الذي أتحم على الحياة الإسلامية وبضروب الجدل التي زجى بها المتبطلون أوقات فراغهم) ^(٣٥).

ولكن رحمة الله بعباده وتكفله جل جلاله بحفظ الدين تجلت في إيجاد علماء أعلام، في كل عصر ومصر، قاموا بواجب الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله وتبصير الأمة بما شردت عنه، وزهدت فيه.

لذلك حين رأى كثير من الأئمة رحمهم الله هذا الداء الدخيل يستل على المسلمين في تصورهم وعقيدتهم قاموا بواجبهم الجهادي نحوه.

فهذا الإمام الجليل الشافعي رحمه الله يقول:

(حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والذمال ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال: هذا جزء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام) ^(٣٦).

ويقول أبو يوسف صاحب أبي حنيفة رحمه الله:

(العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم) ^(٣٧).

(٣٤) صحيح البخاري: (ج ١٣/٤٩٦، ح ٧٥٢٣) كتاب التوحيد.

(٣٥) الإسلام والطاغات المعطلة: (ص ١١٢)، الطبعة الثانية.

(٣٦) شرح الطحاوية: (ص ٧٢).

(٣٧) المصدر السابق: (ص ٧٢).

ثم عقب شارح الطحاوية على ذلك بقوله:
(كيف يراد الوصول إلى علم الأصول بغير اتباع ما جاء به
الرسول) (٣٨).

وذكر ابن الجوزي رحمه الله:
(أن أصل الدخول في العلم والاعتقاد: من الفلسفة، وذلك أن خلقاً من
العلماء في ديننا لم يقنعوا بما قنع به رسول الله ﷺ من الانعكاف على
الكتاب والسنة، بل أوغلوا في النظر في مذاهب أهل الفلسفة وخاضوا في
الكلام الذي حملهم على مذاهب ردية أفسدوا بها العقائد) (٣٩).

أما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فيقول:
(هؤلاء أهل الكلام المخالفون للكتاب والسنة الذين ذمهم السلف
والأئمة، إنهم لم يقوموا بكمال الإيمان ولا بكمال الجهاد، بل أخذوا
بناظرون أقواماً من الكفار وأهل البدع الذين هم أبعد عن السنة منهم، بطريق
لا يتم إلا برد بعض ما جاء به الرسول، وهذا لا يقطع أولئك الكفار بالعقول
فلا آمنوا بما جاء به الرسول حق الإيمان، ولا جاهدوا الكفار حق الجهاد.
وأخذوا يقولون: إنه لا يمكن الإيمان بالرسول ولا جهاد الكفار، والرد على
أهل الإلحاد والبدع إلا بما سلكناه من المعقولات!! وإن ما عارض هذه
المعقولات من السمعية يجب رده تكذيباً، أو تأويلاً، أو تفويضاً. لأنها
أصل السمعية، وإذا حقق الأمر عليهم وجد الأمر بالعكس) (٤٠).

وكلمة أخيرة نذكرها للعبارة والعظة، وهي كلمة لأحد أولئك الذين
خاضوا في بحر الكلام اللجي ثم خرجوا منه يطلبون النجاة. إنها كلمة أبي

(٣٨) المصدر السابق: (ص ٧٢).

(٣٩) وصيد الخاطرة: (ص ٢٠٥) تحقيق الطنطاوي، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨ هـ.

(٤٠) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول: (٢٣٨/١) تحقيق محيي الدين
عبد الحميد ومحمد حامد الفقي.

عبد الله محمد بن عمر الرازي حيث قال:

(لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عيلاً، ولا تروي غليلاً. ورأيت أقرب الطرق. طريقة القرآن.. ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي) (٤١). هذا وإنه لحري بالأمّة، بعد أن عاشت قروناً من الضياع والتخبط أن تعود إلى المشكاة الربانية كتاب الله وسنة رسوله، فتدبر معانيها، وتعمل بما فيها، ففي ذلك النجاح والفلاح وطمأنينة القلب

أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ

[سورة الرعد: ٢٨]

وعلى الرغم من أنه سيتضح للقارئ - إن شاء الله - من خلال قراءة هذا البحث: طريقة القرآن والسنة في غرس عقيدة "الولاء والبراء" في النفوس، وذلك من خلال سيرة رسول الله ﷺ في المهدين المكي والمدني، ومن خلال الأمثلة والصور الكثيرة في هذا الشأن، إلا أنني أرى أنه لا بأس بأن أورد هنا طرفاً من هذا الموضوع خاصة وأنتني قد تكلمت حول عقم علم الكلام وجنائته على الأمة الإسلامية.

إن من أولى البدهيات في هذا الشأن أن الإسلام قد حرص على أن يكون انتماء المسلم لدينه فقط منذ أول لحظة يعلن فيها "لا إله إلا الله محمد رسول الله". والبراء من كل معبود أو متبوع أو مطاع سوى الله تعالى. والأدلة على ذلك كثيرة جداً في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قال تعالى:

فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ

(٤١) شرح الطحاوية: (ص ٢٢٧).

اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ

[سورة البقرة: ٢٥٦]

وقال:

وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا
وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ بِيَعْتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ
فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

[سورة آل عمران: ١٠٣]

ويقول سبحانه:

قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَهُوَ الْهُدَىٰ
وَأَمْرًا لِلْمُسْلِمِينَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ

[سورة الأنعام: ٧١]

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ

[سورة لقمان: ٢٢]

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ
دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ

[سورة آل عمران: ٨٥]

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا
وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ

[سورة فصلت: ٣٣]

فهذه النصوص الكريمة تثبت مدى منة الله سبحانه وتعالى بإنعامه على المسلمين بهذا الدين، فالولاء له مصدر القوة والعزة.

فمن آستمسك بهذا الولاء، وحققه فقد آستمسك بالعروة الوثقى. أما الحديث - فمن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية»^(٤٢)، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، أو فاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها التن»^(٤٣). وحرص المصطفى ﷺ على تربية أمته والبعد بها عن مفاجر الأنساب والأحساب التي لا تستمد قوتها وحيويتها من هذا الدين القيم، فنجده عليه الصلاة والسلام يحثهم على أن يكون آتائهم للصف الإسلامي وحسب. ففي الحديث عن أبي عقبة - وكان مولى من أهل فارس - قال: شهدت مع رسول الله ﷺ أحداً، فضربت رجلاً من المشركين، فقلت: خذها مني وأنا الغلام الفارسي! فالتفت إلي رسول الله ﷺ وقال: «فهلأ قلت خذها مني وأنا الغلام الأنصاري»^(٤٤).

ولقد كان ديدن العقيدة الإسلامية هو: إفراد الله تعالى بالتعلق والحب والتعظيم والطاعة والإنابة والخشوع والخوف والرجاء، وتجريد النفس من كل محبوب أو مرهوب أو مرغوب سوى الله تعالى، قال جل شأنه:

وَلَا يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاسُفَ لَهُ وَلَا هُورٌ
وَأَنْ يُّرْدَكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ.

[سورة يونس: ١٠٧]

- (٤٢) العبة - كما قال الخطابي -: الكبر والنخوة. انظر «سنن أبي داود»: (ج ٣٤٠/٥).
- (٤٣) «سنن أبي داود»: (ج ٣٤٠/٥، ح ٥١١٦) كتاب الأدب. وأخرجه الترمذي في المناقب: (ج ٤٣٠/٩، ح ٣٩٥٠) وقال: حديث حسن.
- (٤٤) «سنن أبي داود»: (ج ٣٤٣/٥، ح ٥١٢٣)، وقال الشيخ الألباني في «المشكاة»: (ج ١٣٧٤/٣): في إسناده عن عنة محمد بن إسحاق. وأخرجه ابن ماجه في الجهاد: (ج ٩٣١/٢، ح ٢٧٨٤).

وقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» (٤٥).

(فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله، بل يفرد الله بالمخافة.. ويتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلاً، واشتغاله به عن غيره، فيرى أن أعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه، واشتغاله به من نقص توحيده (٤٦) وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل، والله يتولى حفظه والدفع عنه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا.. ومعلوم أن التوحيد حصن الله الأعظم من دخله كان من الآمنين. قال بعض السلف: من خاف الله خافه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء) (٤٧).

هذا طريق من طرق منهج العقيدة في غرسها للولاء والبراء في النفوس. وطريق آخر: وهو استخدام مشاهد يوم القيامة، لتصوير الخصومة والعداء بين الأتباع والمتبوعين - الذين سلكوا غير منهج الله في الدنيا ووالوا وعادوا حسب العادات ودين الآباء - وتبرؤ كل فريق من صاحبه.

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْمَكْدَابَ
وَنَقَطَعتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٣٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَتَيْنَا
لَنَاكِرَةً فَتَنَبَّرْنَا مِنْهُمْ كَمَا تَنَبَّرَ وَإِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ

(٤٥) «سنن الترمذي»: (ج ٧/٢٠٤، ح ٢٥١٨) في أبواب صفة القيامة، وقال:

حديث حسن صحيح.

(٤٦) يشترط في هذا عدم ترك الأسباب لأن فعل السبب من باب التوكل «إعقلها وتوكل».

(٤٧) «بدائع الفوائد» لابن القيم: (ج ٢/٢٤٥) بتصرف.

أَعْمَلُهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

[سورة البقرة: ١٦٦ - ١٦٧]

ولا شك أن هذه حال من آتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء، يوالي لهم ويعادي لهم، ويرضى لهم، ويغضب لهم، فإن أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها، وشدة تعبها ونصبه، إذ لم يخلص موالاته ومعاداته، ومحبته وبغضه، وانتصاره وإثارة الله ورسوله.

ويوم القيامة ينقطع كل سبب ووسيلة وموالة كانت لغير الله، ولا يبقى إلا من كان له سبب يصل بينه وبين ربه، وهو حظه من الهجرة إلى الله ورسوله وعبادة الله وحده وما يلزم ذلك من الحب والبغض والعطاء والمنع والولاء والعداء والقرب والبعد وتجريد متابعة رسول الله ﷺ والإعراض والترك لما يخالف سنته وهديه (٤٨).

ومن منهج القرآن أيضاً في موضوع الولاء والبراء ضرب المثل، وهذا كثير في القرآن الكريم، وأبرز مثال في هذه القضية هو إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن وأبو الأنبياء. فإنه هو القدوة الأولى في الولاء والبراء. ونظراً لأهمية ذلك أترك الحديث عنه إلى فصل مستقل في هذا الباب إن شاء الله.

وإذا وجدت محبة الله في القلب، تحمل المؤمن حينئذ وتقبل تكاليف هذه المحبة ولوازم عبادته لله تعالى، ومن ذلك جهاد أعداء الله وبغضهم وهجرهم والصبر على الأذى في سبيل الله.

ثم يمضي القرآن الكريم في أسلوب عرض هذه العقيدة مستخدماً التهديد والوعيد بعد البيان والإيضاح وإقامة الحجة على الناس فيقول عز وجل:

(٤٨) انظر الرسالة التبوكية: (ص ٥١).

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ رَبِّكَ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ
وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ

[سورة المائدة: ٥٤]

أما المستجيبون لأمر الله فإن الله يحبهم وهو ناصرهم ومولاهم
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ
بُيُوتُهُمْ مَرْمُوسًا

[سورة الصف: ٤]

بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ

[سورة آل عمران: ١٥٠]

وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ

[سورة الحج: ٧٨]

ومن لوازم محبة الله اتباع رسول الله ﷺ

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ
فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

[سورة آل عمران: ٣١]

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

(فاتباع سنة رسوله ﷺ واتباع شريعته باطنياً وظاهراً هو موجب محبة
الله، كما أن الجهاد في سبيل الله، وموالاته أوليائه ومعاداة أعدائه هو
حقيقتها) (٤٩).

(٤٩) التحفة المراقبة: (ص ٧٦).

ويقول الحسن البصري رحمه الله:

(زعم قوم أنهم يحبون الله فآبأهم الله بهذه الآية: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (٥٠). لقد ربي الكتاب والسنة الأمة على الحب في الله والبغض في الله، والولاء في الله والبراء في الله، حتى وصلت إلى حد أن لو قذفت في النار لكان أحب إليها من أن تعود في الكفر بعد إذ أنقذها الله منه.

ولئن كان الولاء والبراء قد غاب اليوم في واقع حياة المسلمين - إلا من رحم ربك - فإن هذا الغياب لا يغير من الحقيقة الناصعة الجليلة شيئاً لأن هذا الأمر العظيم كما يقول الشيخ حمد بن عتيق (٥١):
(ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده) (٥٢). وما سر استيراد مذاهب البشر الإلحادية وأفكارهم القاصرة إلا نتيجة حتمية لغياب ولائهم لله ورسوله وعدم براءتهم من الطواغيت المقنعة ببهرج الباطل وزيف الحقيقة.

(٥٠) «تفسير ابن كثير»: (ج ٢/٢٥).

(٥١) ستأتي ترجمته قريباً.

(٥٢) «النجاة والفكاك»: (ص ١٤).

الفصل الثاني

أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

وطبيعة العداوة بينهما

إن وجود أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أمر قديم نشأ منذ خلق آدم عليه السلام وأمر الله للملائكة بالسجود له فسجدت إلا إبليس أبى وأستكبر. وقد تحدث القرآن الكريم عن قصة هذه العداوة بين آدم وإبليس في سور شتى من أبرزها سورة البقرة وسورة الأعراف وسورة طه وغيرها. قال تعالى:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِئِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٦﴾
وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٧﴾
فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٨﴾
فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٩﴾
قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ
هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

[سورة البقرة: ٣٤ - ٣٨]

وفي سورة الأعراف يأتي بيان عدم سجد إبليس:

قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ
وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ

[سورة الأعراف: ١٢]

لقد كان أمر الله لإبليس أن يسجد فكان ردّه لعنه الله الامتناع والاستكبار
مستخدماً في ذلك قياسه الفاسد: إن النار اشرف من الطين! وهو بهذا ينصب
نفسه نداً لله سبحانه وتعالى: الله يقول كذا. فيقول إبليس أنا أرى كذا. ولذلك
استحق اللعنة والطرده من رحمة الله.

وآزبم الناس إلى فريق الهدى وفريق الضلال بدا بهذه البداية كما ذكر
ذلك المولى سبحانه:

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُكِرْكُمْ كَافِرٌ
وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَازِنُ بَصِيرٌ

[سورة التغابن: ٢].

فأما الفريق الذي أجاب دعوة الرسل وآمن بكتب الله المنزل ورسله
المبعوثين رحمة للناس فهؤلاء أولياء الرحمن.

وأما الفريق الذي أعرض وأستكبر فهم أولياء الشيطان.

وقبل الحديث عن الفريقين لا بد أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أقام
الحجة على عباده عيّن لهم عداوة الشيطان - حتى بعد قصته مع آدم -.

فهو سبحانه ! يذكر قصة آدم وعداوة إبليس له عدة مرات في القرآن
فحسب، بل زاد الأمر بياناً فحذر بني آدم في مواضع كثيرة من القرآن أن
يستمعوا لبراءة الشيطان، يعرضه عن طريق الله المستقيم قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا
فِي آلِيهِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ

[سورة البقرة: ٢٠٨].

ثم يأتي التذكير مع التحذير في قوله تعالى:

يَنْبِئُكَ أَدَمُ لَا يَفْنَىٰ كُمْ
الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا
لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرِنُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْوُونَهُ
إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

[سورة الأعراف: ٢٧].

ولم يقتصر البيان القرآني الكريم على هذا بل قد كشف للناس المخطط الشيطاني، حتى يبصر كل ذي عينين ويتفكر أولوا الأبواب فقال تعالى عن إبليس:

وَقَالَ لَا تَخْذَنَ
مِنْ عِبَادِي نَصِيْبًا مَّقْرُوصًا ﴿١٨﴾ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَيَّيْنَتْهُمْ
وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلْيَئْتِكُنَّ ءَاذَانُكَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرَّتْهُمْ
فَلْيَغْيِرْ رُبُّكَ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانُ وَلِيًّا
مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرًا مُبِينًا ﴿١٩﴾
يَعِدُّهُمْ وَيُمَيِّنُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٢٠﴾

[سورة النساء: ١١٨ - ١٢٠].

ثم يذكر الله للناس مشهداً من مشاهد يوم القيامة حين ينلم أولياء الشيطان ولآت ساعة مندم فيقول سبحانه:

وَأَمْسَرُوا الْيَوْمَ
أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ ﴿٢١﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَنْبِئُكَ أَدَمُ أَن لَّا
تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي

هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ

[سورة يس: ٥٩ - ٦١].

ومشهداً آخر لإبليس حين يتبرأ من أتباعه:

وَقَالَ الشَّيْطَانُ

لَمَاقُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ
فَأَسْتَجِبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا
بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا
أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الْفُلُكِلَيْتَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

[سورة إبراهيم: ٢٢].

إنه ليس بعد بيان الله بيان. والأشياء لأصلها تعود كما يقولون فما دام
أن إبليس عدو لآدم فلا شك أن أتباع إبليس وحزبه أعداء لأولياء الرحمن
وأتباع المرسلين. ومن ثم فلا ألتقاء بين الفريقين ولا هوادة بينهما.

إنها الحرب والعداوة والحسد والاستهزاء والسخرية والمكر والخديعة وكل
ما يوحى به إبليس لأتباعه ذلك سلاح حزب الشيطان.

وحزب الشيطان أناس يتربصون بالمؤمنين يحاولون ما استطاعوا أن
يصلوهم عن ذكر الله، ولقد أخبرنا الله جلَّ جلاله بذلك في مواضع عدة
من كتابه الكريم فقال سبحانه عن سخرية أعداء الله بحزب الله:

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَسَخَّرُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلِلَّذِينَ
آمَنُوا قُوَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

[سورة البقرة: ٢١٢].

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّكُم مَرْسُوكُمْ فِي

سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكُمْ مِنَ الْكَذِبِينَ [سورة الأعراف: ٦٦].

إِنَّ الَّذِينَ
 أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ
 يَتَّبِعُهُمْ وَكُنَّ عَيْنُهُمْ إِنْ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَاهُ مِنْ رَبِّهِمْ
 وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَّبِعُهُمْ وَكُنَّ عَيْنُهُمْ إِنْ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَاهُ مِنْ رَبِّهِمْ
 وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَّبِعُهُمْ وَكُنَّ عَيْنُهُمْ إِنْ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَاهُ مِنْ رَبِّهِمْ

[سورة المطففين: ٢٩ - ٣٢].

وأنظر إلى تصوير القرآن لعداوة حزب الشيطان، وما تنطوي عليه
 نفوسهم ضد المؤمنين في قوله تعالى:

وَإِذْ تُلْقِي عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَتَخَفَتُونَ فِيهَا
 الْفُجُورَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمْ يَكْفُرُوا بِالْكَافِرِينَ يَسْتُكْبِرُونَ
 بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشِيرِينَ
 ذَلِكَمُ النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأُولَئِكَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

[سورة الحج: ٧٢].

وها هنا حقيقة هامة هي: أن العداوة التي وقعت بين آدم عليه السلام
 وبين إبليس هي عداوة قائمة بين إبليس وبني آدم إلى أن يرث الله الأرض
 ومن عليها. وتاريخ البشرية كله ما هو إلا مصداق لحقيقة انقسام الناس إلى
 فريق الهدى والرشد وفريق الهوى والشهوة والشيطان.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنَسَخَكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمُنُّ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

[سورة التغابن: ٢].

وعلى ذلك فإنه لا آلتقاء بين الفريقين في الدنيا ولا في الآخرة ولذلك
 يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:
 (ومن سنة الله: إنه إذا أراد إظهار دينه، أقام من يعارضه فيحق الحق
 بكلماته، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) (٥٣).

(٥٣) «مجموع الفتاوى»: (ج ٢٨/٥٧).

وأنظر إلى عداوة قوم نوح عليه السلام له وقوم عاد وقوم صالح وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى ثم محمد ﷺ، ثم العداوة التي تقابل بها الجاهلية أهل الإيمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإذا كان أولياء الرحمن مُصْرِّين على اتباع هدى ربهم فإن أولياء الشيطان يصرون أيضاً على التردى في حماة الجهل والضلال، عابدين للطاغوت سواء كان هذا الطاغوت نذاً يُعبد أو شهوة يراد إشباعها أو جنساً أو لغة أو سلطة أو أرضاً أو دين الآباء الأولين. وصدق الله العظيم إذ يقول:

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ
النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ

[سورة البقرة: ٢٥٧].

أما حزب الرحمن فهم (الذين يتمون إليه سبحانه، ويستظلون برأيه، ويتولونه ولا يتولون أحداً غيره، وهم أسرة واحدة وأمة واحدة من وراء الأجيال والقرون، ومن وراء المكان والأوطان، ومن وراء القوميات والأجناس، ومن وراء الأورمات والبيوت) (٥٤).

وقد جاء الدين الإسلامي بفيصل التفرقة بين الحق والباطل، وبين الإسلام والجاهلية فلم يجعل آلتقاء الناس على أساس العرق أو اللون أو الجنس أو التراب - كما تفعل ذلك الجاهليات القديمة والحديثة على السواء - بل جعل آلتقاء الناس على العقيدة في الله، وجعل المفاضلة بينهم بالعمل الصالح قال تعالى:

يَتَّبِعُنَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ

(٥٤) «في ظلال القرآن»: (ج ١/٤١٣).

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

[سورة الحجرات: ١٣]

وقال ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى. كلكم لآدم وآدم من تراب»^(٥٥).

وقال أيضاً: «إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي أو فاجر شقي»^(٥٦). ولقد تبرأ المصطفى ﷺ من أقرباء له ليسوا على دينه، ليضع من نفسه قدوة للمؤمنين فقال فيما رواه عمرو بن العاص رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول جهاراً من غير سر: «إن آل فلان - أناس من أقاربه - ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين» متفق عليه^(٥٧).

وقال ﷺ: «إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا»^(٥٨) وهذا موافق لقوله تعالى:

فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ

[سورة التحريم: ٤]

من هنا: كان المؤمنون هم أولياء الله لأنهم استجابوا لما أراد الله فخلقوا منه وحده، وعملوه وحده، وخافوه وحده. بعكس الفريق الثاني فإنهم كلما

(٥٥) «مسند الإمام أحمد»: (ج ٥/٤١١) عن أبي نضرة، وإسناده صحيح إلا أنه مرسل لأن أبا نضرة ليس صحابياً.

(٥٦) سبق تخريجه: (ص ١٠٨).

(٥٧) «صحيح البخاري»: (ج ١٠/٤١٩) كتاب الأدب، ومسلم: (ج ١/١٩٧)، ح ٢١٥ في الإيمان.

(٥٨) «مسند أحمد»: (ج ٥/٢٣٥)، وهو حديث صحيح. انظر تخريج كتاب «فقه السيرة» للغزالي: (ص ٤٨٥)، و«صحيح الجامع الصغير»: (ج ٢/١٨١)، ح ٢٠٠٨.

دعاهم رسول من رسل الله قالوا:

قَالُوا بَلْ نَسْمِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا
أَوَلَوْ كُنَّا ءَابَاءَهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ

[سورة البقرة: ١٧٠].

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا
حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كُنَّا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ

[سورة المائدة: ١٠٤].

ومن صفات أولياء الرحمن: الاستجابة والانقياد لحكم الله وشرعه
وآتباع أمره، قال تعالى:

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

[سورة النور: ٥١].

أما أولياء الشيطان: فمن سماتهم الإعراض عن حكم الله وشرعه، وآتباع
الهوى والشيطان قال تعالى:

وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَآسَمِعَ غَيْرُ مُسْمِعٍ وَآعَيْنَا لِيَا لَيْسَنَّهُمْ
وَطَعْنَا فِي الدِّينِ

[سورة النساء: ٤٦].

وقال:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ
أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّمَا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُتَنَقِمُونَ

[سورة السجدة: ٢٢].

يقول العلامة آبن القيم:

(كل من كذب رسول الله ﷺ، وأعرض عن متابعتة، وحاد عن شريعته، ورغب عن ملته، وآتبع غير سنته، ولم يتمسك بعهده، ومكن الجهل من نفسه، والهوى والفساد من قلبه، والجحود والكفر من صدره، والعصيان والمخالفة من جوارحه فهو ولي الشيطان) (٥٩).

ومن سمات أولياء الشيطان أنهم:

(إذا جاء الحق معارضاً في طريق رياستهم طحنوه، وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى، وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان، فإذا لم يجدوا منه بدءاً أعطوه السكة والخطبة، وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء ناصرٌ لهم، وكان لهم صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مدعين لا لأنه حق بل لموافقته غرضهم وأهوائهم،

وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ

لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ ﴿٥٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ جَاءُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ أَوْلَىٰ تَكْوِينًا هُمْ الْغَالِبُونَ

[سورة النور: ٤٨ — ٥٠] (٦٠).

(٥٩) «مدية الحيارى»: (ص ٧).

(٦٠) «مدارج السالكين»: (ج ١/ ٥٣).

طبيعة العداوة بين الفريقين

بعد أن بينا سمات الفريقين، نتحدث الآن عن العداوة بينهما، ومعرفة هذه العداوة أمر لا بد منه لتمييز الخبيث من الطيب

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا
أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ

[سورة آل عمران: ١٧٩].

ومعرفة العداوة بين الفريقين أمر هام يكشف ألوية بعض المتسمين بأسماء إسلامية وهم يسعون لتزويب المسلم في خضم الجور الجاهلي المعاصر وتميع ولائه لربه وإخوانه المسلمين، وأمانة براءته وعداوته لكل عدو لهذا الدين.

هذه الحقيقة الهامة الناصعة يحاول أعداؤنا تزييفها: بأن الكفار أصدقاء أوفياء شرفاء يجب أن يكون لهم الحب والتقدير، والإجلال والإكبار والتعظيم، يقولون إننا متأخرون وهؤلاء القوم متقدمون يجب أن نسلك مسلكهم، وننهج نهجهم نفتي آثارهم في كل وضع وحال، نأخذ حضارتهم بكاملها حلوها ومرها، حقها وباطلها، بل إنه لا باطل فيها^(٦١).

ولكن هيهات خسثوا وخابوا، إن حزب الله هم الأعلون عند الله قدرًا، وهم الأعلون ولو كانوا أقل عددًا، وحزب الشيطان هم الخاسرون ولو كانوا عدد الحصى.

ولا بد أن يسبق حديث العداوة بين الفريقين، نبذة بسيطة عن عداوة

(٦١) من تزعم هذا الاتجاه طه حسين وأضرابه. وانظر إذا شئت كتابه «مستقبل الثقافة في مصر».

إبليس للإنسان، حتى نعلم مداخل الشيطان لهذه النفس البشرية، ومدى تليسه الحق بالباطل على أوليائه فيبين الحق للمؤمن فيأخذ الحذر على نفسه ومن معه، ويبعد الله على بصيرة منه ونور من شرعه.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن عداوة الشيطان للإنسان تتمثل في سبع مراتب أذكرها هنا بالاختصار:

(١) الكفر والشرك، ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر الشيطان بذلك من ابن آدم برد أنينه، وأستراح من تعبته معه، وهو أول ما يريد من العبد، فإن ظفر به صيره من عسكره ونوابه، فصار من دعاة إبليس، فإن يمس من ذلك نقله للمرتبة الثانية من الشر وهي.

(٢) البدعة: لأنها أحب إليه من الفسوق والعصيان، وذلك أن ضررها في نفس الدين وهو ضرر متعدد، وهي مخالفة لدعوة الرسل، فإن كان الشخص ممن يعادي أهل البدع والضلال نقله إلى المرتبة الثالثة وهي:

(٣) الكبائر: على اختلاف أنواعها، فيحرص أن يوقعه فيها، خاصة إذا كان عالماً متبوعاً لينفر الناس عنه. ومن المعلوم أن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم، هذا إذا أحبوا إشاعتها، فكيف إذا تولوا هم إذاعتها؟ فإن عجز عن هذه نقله للتي بعدها وهي:

(٤) الصغائر: التي إذا اجتمعت ربما أهلكت صاحبها، كما قال النبي ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإن مثل ذلك قوم نزلوا بفلاة من الأرض»^(٦٢). وذكر حديثاً معناه أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا ناراً عظيمة فطبخوا وأشتروا. ولا يزال يسهل عليه أمر

(٦٢) الحديث في «مسند أحمد»: (ج ٥/ ٣٣١) وهو حديث صحيح، انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (ج ٣٨٩)، و«صحيح الجامع»: (ج ٢/ ٣٨٦)، ح ٢٦٨٣ و ٢٦٨٤.

الصغائر حتى يستهين بها، فيكون صاحب الكبيرة الخائف أحسن حالاً منه، فإن أعجزه العبد عن هذه نقله للخامسة.

(٥) إشغاله بالمباحات: التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه بآشتغاله بها، فإن أعجزه العبد عن هذه بأن كان حافظاً لوقته شحيحاً به، يعلم مقدار أنفاسه وأنقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله للتي بعدها.

(٦) إشغاله بالعمل المفضول عن الفاضل: ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل، ويفتح له أبواب خير كثيرة، كما ورد أنه يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير إما ليتوصل إلى باب واحد من الشر وإما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين وأجل وأفضل. وهذا أمر لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد، يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله، وأحبها إليه، وأرضاهها له، وهذا لا يعرفه إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة، وخلفائه في الأرض والله يمن بفضله على من يشاء من عباده (٦٣).

(٧) فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست: سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه وقصد إخماله وإطفاءه ليشوش عليه قلبه، ويمنع الناس من الانتفاع به فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه لا يفتر ولا يني فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب ولا يضعها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أسر أو أصيب فلا يزال في جهاد حتى يلقي الله. وما دام أن هذا هو كيد الشيطان للإنسان فما هو سبب العداوة ومثيرها

(٦٣) «بدائع الفوائد»: (ج ٢/ ٢٦٠ - ٢٦٢) بتصرف.

بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان؟
والجواب على ذلك أحد أمور أربعة أو الأربعة مجتمعة:
(١) الكبر: فأولياء الشيطان استكبروا على الحق وعلى الرسول وعلى
الرسالة. قال الله تعالى فيهم:

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَكَ فِي مَا أَنْتَ
بِهِ بَاطِلٌ أَلَّفَ بَيْنَ صُورِهِمْ
مَّا لَهُمْ بِبَاطِلِهِ أَفَاسْتَعِذَ بِاللَّهِ
إِنَّهُمْ هُمُ السَّامِعُونَ
الْبَصِيرُ

[سورة غافر: ٥٦].

وقال تعالى:

أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ
أَنْتَكِبْتُمْ وَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ

[سورة البقرة: ٨٧].

وقال تعالى:

وَإِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَئِنْ مُسْتَكْبِرًا
كَانَ لَنَرِيحُهَا كَانٍ فِي آذَانِهِ وَقَدْ فِشْرَهُ بَعْدَ آلِ يُوسُفَ

[سورة لقمان: ٧].

(٢) استحباب الحياة الدنيا على الآخرة، واللصوق بالشهوات واللذائذ قال
تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

[سورة النحل: ١٠٧].

الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ

[سورة إبراهيم: ٣]

وإذا وجد الكبر وحب الدنيا على الآخرة أو أحدهما: فإن أرباب ذلك ينزعجون من وجود عباد الله المخلصين، حتى ولو لم يظهر لهم منهم أي احتكاك فإن وجودهم بهذا النقاء وبهذه الطهارة وبذلك الاستعلاء أمر يغيظ أعداء الله قال تعالى:

وَدُّوا أَنْ تَكْفُرُوا كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً

[سورة النساء: ٨٩].

ذلك أن وجود الفريق الطاهر يشمر الفريق الدنس بخبث طويته وقبيح فعله، فمن هنا يبدأ كيد أعداء الله لأوليائه الله بكل ما تعني كلمة "كيد" سواء كان ذلك بالسخرية أو الاستهزاء، أو العذاب والاضطهاد، أو التريص للمؤمنين بكل ما يسوء.

(٣) الحسد: فثائرة أولياء الشيطان لا تهدأ، ولذلك يكون للمؤمنين الحسد والحق، وقد بين الله ذلك في كتابه العزيز بقوله تعالى:

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ
الْكُتُبِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا
مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا
وَأَصْفَحُوا حَقَّ يَأْتِي اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

[سورة البقرة: ١٠٩].

أجل هذه هي أمنيته أن يكفر عباد الله ليتساوا معهم في الكفر والضلal، وقد بين الله عظيم حقدهم وحسدهم لو ظهروا على المؤمنين

فَقَالَ تَعَالَى:

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا تَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً

[سورة التوبة: ٨].

(٤) سلب الهيمنة والولاء: وهذا أمر يختص بـ "الملأ"، أي السادة والطواغيت الذين يستعبدون الناس، حيث يتقدم الناس لهم بالإجلال والتعظيم والرغبة والرغبة، والخوف والرجاء. فإذا جاء دين الله وشرعه الذي يحرر الناس من عبودية العبيد إلى عبادة الواحد القهار فإن "الملأ"، يثرون ويعادون دعاة الخير، لأنهم يشعرون حينئذ أن سلطانهم قد سلب وأن شرفهم قد زال، وأن الناس لم يعودوا يخشونهم أو يرهبونهم، لأن دين الله قد حررهم وأعزهم وعبدتهم الله فخوفهم من الله، وحبيهم لله، وولاؤهم لله، وبغضهم في الله.

ودليل هذا فعل كسرى حين جاءه كتاب رسول الله ﷺ يدعو إلى الدخول في الإسلام فاستكبر في نفسه وكأنه يقول: أمر عجيب الأعراب الذين كانوا رعاة لنا يأتون إليّ لأدخل في دينهم الجديد! وظن أن ملكه سيزول إذا دخل في الدين الجديد، فما كان منه إلا أن مزق الكتاب. وقد استجاب الله دعوة نبيه ﷺ فمزق الله ملك كسرى شر ممزق، فوكذا الطواغيت التي لا تدين لله بالولاء والسلطة والحاكمة تعادي أولياء الرحمن وتصب عليهم أشد أنواع العذاب كما قال تعالى:

وَمَا تَشْعُرُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ

[سورة البروج: ٨].

(والجاهلية لا تكره الإسلام لأنها - في دخيلة نفسها - لا تعرف ما فيه من الحق والخير، أو لأنها - بينها وبين نفسها - تعتقد حقاً أن باطلها الذي تعيش فيه أصوب وأقوم من الإسلام! كلاً! فهي تكرهه وهي عالمة بما فيه من الحق والخير وبأنه هو الذي يقوم ما أعوج من شؤون الحياة،

وإنما تكرهه لأنها حريصة على هذا العوج لا تريد تقويمه، وتود أن تبقى الأمور على أعوجاجها ولا تستقيم، تكرهه لأنها هي الجاهلية.. وهو الإسلام!

وَأَمَّا نُمُودُ فَمَهْدِيَّتُهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى

[سورة فصلت: ١٧] (٦٤).

أما طبيعة عداوة أولياء الرحمن لأعدائهم: فهي جزء من عقيدتهم، وأحسب أنني فصلت القول في هذا في التمهيد حين تكلمت عن لوازم لا إله إلا الله أنهم يفضون في الله من حاد الله ورسوله قال تعالى:

لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٦﴾

[سورة المجادلة: ٢٢].

إنهم لا يلتقون مع أعدائهم في منتصف الطريق بل يقولون كما قال إمامهم إبراهيم على السلام:

إِنَّا بَرَاءٌ وَأَوْامِكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ

[سورة الممتحنة: ٤].

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله:

(٦٤) «جاهلية القرن العشرين» للأستاذ محمد قطب: (ص ٣٢٢).

(إنه لا يستقيم للإنسان إسلام - ولو وُحِد وترك الشرك - إلا بعداوة
المشركين والتصريح لهم بالعداوة والبهض كما قال تعالى:

لَا تَجِدُ قَوْمًا

[سورة المجادلة: ٢٢] (٦٥).

وما دمتنا قد عرفنا منطلق العداوة وحقيقتها فيجب أن نعلم أن هذا هو
”القاسم المشترك“ بين أعداء الإسلام بشتى أصنافهم كفار ومشركين
ومنافقين وكل من كره الإسلام وعاداه.

إن طبيعة المنهج الإسلامي التي يعرفها جيّدًا أصحاب المناهج الأخرى
طبيعة الإصرار على إقامة مملكة الله في الأرض، وإخراج الناس كافة من
عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وتحطيم الحواجز المادية التي تحول بين
الناس كافة وبين حرية الاختيار الحقيقية.. ثم إنها طبيعة التعارض بين منهجين
للحياة، لا ألتقاء بينهما في صغيرة ولا كبيرة وحرص أصحاب المناهج
الأرضية على سحق المنهج الربّاني الذي يهدد وجودهم ومنهجهم
وأوضاعهم قبل أن يسحقهم، فهي حتمية لا اختيار فيها في الحقيقة لهؤلاء
ولا لهؤلاء.. وهذه الظاهرة يقرها القرآن بقوله ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى
يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ (٦٦).

ونذكر بعض عداوات هذه الأصناف حسبما نصّ عليها القرآن الكريم.
فأما ”الكفار“ فقد قال الله تعالى عنهم:

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ

[سورة الصف: ٨].

وقال في شأن ”المشركين“:

(٦٥) «مجموعة التوحيد»: (ص ١٩) (سنة مواضع من السيرة)، طبعة دار الفكر.

(٦٦) انظر «طريق الدعوة في ظلال القرآن»: (ج ١/ ٨٠).

مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الشِّرْكَاءِ
أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ

[سورة البقرة: ١٠٥].

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَنُكَفِّرَنَّ الْفَاسِقِينَ

[سورة الصف: ٩].

وأما عداوة "أهل الكتاب" فالله يقول عنهم:

وَلَنْ رَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ

[سورة البقرة: ١٢٠].

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ

[سورة المائدة: ٨٢].

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ
الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ

[سورة النساء: ٤٤].

وَإِذَا الْقَوْمُ كَفَرُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَابِلَ
مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠٩﴾

[سورة آل عمران: ١١٩].

أما عداوة "المنافقين" فقد نبّه القرآن الكريم على ذلك في مواضع كثيرة، ومن ذلك ما ورد في أول سورة البقرة، حيث ذكروهم في ثلاث عشرة آية من آية ٨ - ٢٠ وذلك لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً، لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته وموالاته وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب،

يظن الجاهل أنه علم وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد.
(فله كم معقل للإسلام قد هدموه! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه
وخربوه، وكم من لواء مرفوع قد وضعوه.. آتفقوا على مفارقة الوحي فهم
على ترك الاهتداء به مجتمعون:

فَنَقُطِعُوا دُورَهُمْ بِبَيْنِهِمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ

[سورة المؤمنون: ٥٣].

(رأس مالهم الخديعة والمكر، وبضاعتهم الكذب والختر، وعندهم
العقل المعيشي: إن القرابين عنهم راضون وهم بينهم آمنون.

يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَلَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ

[سورة البقرة: ٩].

(من عقلت مخالبا شكوكهم بأديم إيمانه مزقته كل تمزيق، ومن تعلق
شرر فتنتهم بقلبه ألقاه في عذاب الحريق، خرجوا في طلب التجارة البائرة
في بحار الظلمات فركبوا مراكب الشبه والشكوك، تجري بهم في موج
الخيالات، فلعبت بسفنهم الريح العاصف، فألقتهما بين سفن الهالكين.

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ
بِالْهُدَىٰ فَكَارِهُوا بَيْعَهُمْ بِمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ

[سورة البقرة: ١٦] (٦٧).

وقد نزل بخصوصهم سورة كاملة في القرآن هي سورة "المنافقون"
وقد ورد فيها صريح عداوتهم للمؤمنين في قوله تعالى عنهم:

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ

(٦٧) «مدارج السالكين»: (ج ١/ ٣٤٧ - ٣٤٩) بتصرف.

لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا ۚ وَاللَّهُ
 خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ
 ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ
 مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ
 الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ

[سورة المنافقون: ٧ - ٨].

وما دمنا قد عرفنا عداوات هذه الأصناف للإسلام، فإنه لجدير بنا أن
 نؤكد خطورة عداوة اليهود والنصارى؛ لأنهم هم المسيطرون اليوم على
 معظم بقاع الأرض، وهم الذين يتنون غزوهم بشتى الأساليب، وهم رمز
 "اليهراج والانبهار" أمام المخدوعين من أبناء المسلمين.

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله:

(إن حقيقة المعركة التي يشنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي
 كل وقت ضد الجماعة المسلمة هي من أجل العقيدة. وهم قد يختصمون
 فيما بينهم ولكنهم يلتقون دائماً في المعركة ضد الإسلام والمسلمين.

(وقد يرفعون لهذه المعركة أعلاماً شتى - في خبث ومكر وتورية -
 لأنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت
 راية العقيدة، فخوفاً من حماس العقيدة الإسلامية وجيشانها: أعلنوا الحرب
 باسم الأرض والاقتصاد والسياسة والمراكز العسكرية، وألقوا في روع
 المخدوعين منا: إن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها!
 ولا يجوز رفع رايته، وخوض المعركة باسمها، فهذه سمة المتخلفين
 المتعصبين! وذلك ليأمنوا جيشان العقيدة من جديد، بينما هم في قرارة
 نفوسهم جميعاً: يخوضون المعركة أولاً وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة
 العاتية التي نطحوها طويلاً فأدمتهم جميعاً!

(فإذا نحن خدعنا بخديعتهم فلا نلومن إلا أنفسنا، ونحن نبتعد عن

توجيه الله لنبه ﷺ ولأُمَّته وهو سبحانه أصدق القائلين:

وَلَنْ رَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَى حَتَّى تَبْعَ مِلَّتَهُمْ

[سورة البقرة: ١٢٠].

(هذا هو الثمن الوحيد الذي يرتضونه وما سواه فمرفوض ومردود. ولكن الأمر الحازم والتوجيه الصادق ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى﴾ على سبيل القصر والحصر هدى الله هو الهدى وما عداه فليس بهدى) (٦٨).

وختلاصة القول :

إن حقيقة العداوة وطبيعتها هو اختلاف الدينين، وأفراق المنهجين. فإما دين الله وآتباع شرعه وموالاته عباده المؤمنين. وإما دين الباطل وآتباع الهوى والشهوات والشيطان والانضمام إلى حزب الشيطان. فعلى أولياء الله أن يعتزوا بدينهم، وأن يستعلوا فوق وطأة الباطل فإنهم هم المنصورون، وإذا كان أعداء الله يتباهون بقوتهم وكثرة عددهم وعدتهم فإن المؤمنين يفخرون بنصر الله وكريم معيته وعونه لهم.

فقد ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما أفترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه» (٦٩).

(٦٨) «في ظلال القرآن»: (ج ١/ ١٠٨) بتصرف.

(٦٩) سبق تخريجه: (ص ٩١).

ويقول الله تبارك وتعالى:

إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ

[سورة النحل: ١٢٨].

ويقول تعالى:

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَتَيُتُوا الَّذِينَ آمَنُوا
سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبُ

[سورة الأنفال: ١٢].

ويقول تعالى:

فَلَا تَهَيَّئُوا لِلْعُزَّىٰ إِلَى النَّارِ
وَأَسْمَاءُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَهْلَكُمْ

[سورة محمد: ٣٥].

وإذا قلبنا صفحات التاريخ وجدنا مصداق ذلك، ففي غزوة بدر نصر الله القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة، وأعز دينه ونصر حزه، وفتوحات المسلمين شرقاً وغرباً وتحطيم عروش كسرى وقبصر ليست بغائبة عن الأذهان.

ونصر الله وتأييده للمؤمنين في معركتهم مع التار ومع الصليبيين الحاقدين. وغيرها من مئات الحوادث سواء كانت على مستوى الفرد أم الجماعة خير شاهد على ما نقول.

وسيبقى النصر والعون والمدد لأولياء الله إن شاء الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وما على المؤمنين إلا الصدق مع الله والإخلاص في العمل ابتغاء مرضاته هو وحده، والعمل وفق كتابه وسنة نبيه ولن يضيع الله أحر من أحسن عملاً.

الفصل الثالث

عقيدة أهل السنة والجماعة في الولاء والبراء

لا بد أن نذكر معتقد أهل السنة والجماعة في الولاء والبراء حتى يخرج بذلك أرباب البدع والأهواء التي لا تستند إلى دليل قوي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(على المؤمن أن يعادي في الله، ويوالي في الله، فإن كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه - وإن ظلمه - فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية، قال تعالى:

وَلِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا

[سورة الحجرات: ٩].

(فجعلهم إخوة مع وجود القتال والبغى، وأمر بالإصلاح بينهم، فليتدبر المؤمن: أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك وأعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك. فإن الله سبحانه بعث الرسل، وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه، والإكرام الثواب لأوليائه والإهانة والعقاب لأعدائه.

(وإذا اجتمع في الرجل الواحد: خير وشر، وفجور وطاعة، ومعصية وسنة وبدعة آستحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، وآستحق من المعادة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة كاللص تقطع يده لسرقته، ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته. هذا هو الأصل الذي آتفق عليه أهل السنة والجماعة،

وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم (٧٠).

ولما كان الولاء والبراء مبنيين على قاعدة الحب والبغض كما اسلفنا فيما سبق فإن الناس في نظر أهل السنة والجماعة - بحسب الحب والبغض والولاء والبراء - ثلاثة أصناف:

الأول: من يجب جملة. وهو من آمن بالله ورسوله، وقام بوظائف الإسلام ومبانيه العظام علماً واعتقاداً. وأخلص أعماله وأفعاله وأقواله لله، وأنقاد لأوامره وأنهى عما نهى الله عنه ورسوله، وأحب في الله ووالى في الله، وأبغض في الله وعادى في الله، وقدم قول رسول الله ﷺ على قول أحد كائناً من كان (٧١).

الثاني: من يجب من وجه ويبغض من وجه، فهو المسلم الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فيحب ويؤال على قدر ما معه من الخير، ويبغض ويعدى على قدر ما معه من الشر، ومن لم يتسع قلبه لهذا كان ما يفسد أكثر مما يصلح.. وإذا أردت الدليل على ذلك فهذا عبد الله بن حمار (٧٢). وهو رجل من أصحاب رسول الله ﷺ - كان يشرب الخمر، فأُتي به إلى رسول الله ﷺ فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: «لا تلعه فإنه يجب الله ورسوله» (٧٣)، مع أنه ﷺ لعن الخمر وشاربها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه (٧٤).

-
- (٧٠) انظر «مجموع الفتاوى»: (ج ٢٨/٢٠٨ - ٢٠٩).
(٧١) «إرشاد الطالب»: لابن سحمان: (ص ١٣).
(٧٢) عبد الله بن حمار. هكذا أورده ابن سحمان والموجود في «صحيح البخاري»: (٧٥/١٢) أنه عبد الله، كان يلقب حماراً. وقال ابن حجر: كان يهدي إلى النبي ﷺ ويضحكه في كلامه. انظر «الإصابة»: (ج ٤/٢٧٥) تحقيق البجاوي.
(٧٣) «صحيح البخاري»: (ج ١٢/٧٥، ح ٦٧٨٠) كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وإنه ليس بخارج من الملة.
(٧٤) «سنن أبي داود»: (ج ٤/٨٢، ح ٣٧٦٤) كتاب الأشربة، وابن ماجه: =

الثالث: من ينفض جملة، وهو من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولم يؤمن بالقدر خيره وشره، وأنه كله بقضاء الله وقدره، وأنكر البعث بعد الموت، أو ترك أحد أركان الإسلام الخمسة، أو أشرك بالله في عبادته أحداً من الأنبياء والأولياء والصالحين، وصرف لهم نوعاً من أنواع العبادة كالحب، والدعاء، والخوف، والرجاء، والتعظيم، والتوكل، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، والإنابة، والذل، والخضوع، والخشية، والرغبة، والرغبة، والتعلق، أو ألحد في أسمائه وصفاته، وأتبع غير سبيل المؤمنين، وأنتحل ما كان عليه أهل البدع والأهواء المضلة، وكذلك كل من قامت به نواقض الإسلام العشرة أو أحدها^(٧٥).

فأهل السنة والجماعة - إدن - يوالون المؤمن المستقيم على دينه ولاءً كاملاً، ويحبونه وينصرونه نصرةً كاملةً، ويتبرأون من الكفرة والملحددين والمشركين والمرتدين، ويعادونهم عداوةً وبغضاً كاملين. أما من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فيوالونه بحسب ما عنده من الإيمان، ويعادونه بحسب ما هو عليه من الشر.

وأهل السنة والجماعة يتبرأون ممن حادَّ الله ورسوله ولو كان أقرب قريب، قال تعالى:

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

[سورة المجادلة: ٢٢].

= (ج ١٢٢/٢، ح ٣٣٨٠) في الأثرية. وقال الشيخ الألباني: صحيح. انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج ١٩/٥، ح ٤٩٦٧).
(٧٥) «إرشاد الطالب»: (ص ١٩).

ويعتدلون لنبه تعالى في قوله:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ
وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ
وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْتُكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ
كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ
تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ
فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

[سورة التوبة: ٢٣ - ٢٤].

ويلخص الإمام ابن تيمية مذهب أهل السنة والجماعة فيقول:

(الحمد والذم والحب والبغض والموالة والمعاداة إنما تكون بالأشياء
التي أنزل الله بها سلطانه، وسلطانه كتابه، فمن كان مؤمناً وجبت موالاته
من أي صنف كان، ومن كان كافراً وجبت معاداته من أي صنف كان.
قال تعالى:

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ
يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٤﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ

[سورة المائدة: ٥٥ - ٥٦].

وقال:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

[سورة المائدة: ٥١].

وقال: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

[سورة التوبة: ٧١].

(ومن كان فيه إيمان وفيه فجور أُعطي من الموالاة بحسب إيمانه، ومن البغض بحسب فجوره، ولا يخرج من الإيمان بالكلية بمجرد الذنوب والمعاصي كما يقول الخوارج والمعتزلة.

(ولا يُجعل الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون بمنزلة الفساق في الإيمان والدين والحب والبغض والموالاة والمعاداة.

قال تعالى:

وَلَا تَأْخُذْ بَعِثَاتِ الْفُتَنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْسَلُوا فَأَصْلَحُوا إِنَّهُمْ

إلى قوله:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ

[سورة الحجرات: ٩ - ١٠].

فجعلهم إخوة مع وجود الاقتتال والبغى.

(... ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضاً موالاة الدين لا يعادون كمعاداة الكفار، فيقبل بعضهم بشاهدة بعض، ويأخذ بعضهم العلم من بعض، ويتوارثون ويتناكحون، ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك) (٧٦).

الولاء والبراء القلبي :

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة في هذا الموضوع أن الولاء القلبي وكذلك العداوة يجب أن تكون كاملة.

(٧٦) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية: (ص ١٠٨ - ٢٠١)، الطبعة الأولى سنة ١٣٤٩هـ، مطبعة النار بمصر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

(فأما حب القلب وبغضه، وإرادته وكراهته، فينبغي أن تكون كاملة جازمة، لا توجب نقص ذلك إلا بنقص الإيمان، وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته، ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فإنه يعطى ثواب الفعل الكامل.

ذلك أن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها، لا بحسب محبة الله ورسوله، وبغض الله ورسوله وهذا نوع من الهوى، فإن أتبعه الإنسان فقد أتبع هواه ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هَدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [سورة القصص: ٥٠] (٧٧).

موقف أهل السنة والجماعة من أصحاب البدع والأهواء:

يدخل في معتقد أهل السنة والجماعة البراءة من أرباب البدع والأهواء. والبدعة: مأخوذة من الابتداع وهو الاختراع، وهو الشيء يحدث من غير أصل سبق، ولا مثال آتتدي، ولا ألف مثله، ومنه قولهم: آبتدع الله الخلق، أي خلقهم ابتداءً ومنه قوله تعالى:

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

[سورة البقرة: ١١٧].

وقوله:

قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ

[سورة الأحقاف: ٩].

أي لم أكن أول رسول إلى أهل الأرض.

(٧٧) «شذرات البلاتين»: (ج ١/٣٥٤)، وهو الأمر بالمعروف لاين تيمية.

وهذا الاسم يدخل فيما تخترعه القلوب، وفيما تنطق به الألسنة، وفيما
تفعله الجوارح^(٧٨).

قال ابن الجوزي:

(البدعة عبارة عن فعل لم يكن فابتدع. والأغلب في المبتدعات أنها
تصادم الشريعة بالمخالفة، وتوجب التعاطي عليها بزيادة أو نقصان)^(٧٩).

ولقائل أن يقول: ما شأننا الآن وأصحاب البدع لا سيما وأنت تتكلم
عن ولاء الكفار والبراء منهم وموالاة المؤمنين ونصرتهم؟؟

والجواب على ذلك:

أولاً: إن البدعة خطرهما عظيم وكبير، والدليل على ذلك أنها تنقسم إلى
رتب متفاوتة ما بين الكفر الصريح إلى الكبيرة والصغيرة، وفي هذا يقول الإمام
الشاطبي:

(البدعة تنقسم إلى رتب متفاوتة منها ما هو كفر صراح، كبدعة
الجاهلية التي نبه عليها القرآن بقوله:

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِثْلَ دَرَجَاتِهِ الْحُكْمَ وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْمُنِيبِينَ
نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْغَمِهِمْ وَهَذَا لِلشُّرَكَائِنَا

[سورة الأنعام: ١٣٦].

وقوله تعالى:

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا عَذَابٌ مُّهِينٌ
خَالِصَةٌ لِّلَّذِينَ كُفَرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنْ كَانَ
مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ

[سورة الأنعام: ١٣٩].

(٧٨) كتاب «الحوادث والبدع»: للطبرطوشي: (ص ٣٨ — ٣٩) تحقيق محمد الطالبي.

(٧٩) «تلبیس إبلیس»: (ص ٢٦).

وقوله:

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ

[سورة المائدة: ١٠٣].

وكذلك بدعة المنافقين حين اتخذوا الدين ذريعة بحفظ النفس والمال وما أشبه ذلك مما لا يشك أنه كفر صراح (٨٠).

وقضية التحليل والتحريم خصوصية لله عز وجل، فمن ادعى التحليل والتحريم فقد شرع، ومن شرع فقد آله نفسه. وكما أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق فهو أيضاً صاحب الأمر والسلطان، قال تعالى:

أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ

[سورة الأعراف: ٥٤].

وقال سبحانه:

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ
الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفَرِّقُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

[سورة النحل: ١١٦].

فهذه البدعة الكفرية وأمثالها لأصحابها منا العداوة والبغض والكره والجihad بعد الإعذار والإنذار، والبراءة منهم لا تختلف عن البراءة من الكافر الأصلي، فقد قال ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» (٨١).

قال البغوي:

(٨٠) الاعتصام: (ج ٢/ ٣٧).

(٨١) رواه البخاري: (ج ٥/ ٣٠١، ح ٢٦٩٧) في الصلح، ومسلم: (ج ٣/ ١٣٤٣، ح ١٧١٨) كتاب الأفضية.

(وقد آتفق علماء السنّة على معاداة أهل البدعة ومهاجرتهم) (٨٢) .

ونعود لرتب البدع كما ذكرها الشاطبي فقال:

(ومن البدع ما هو من المعاصي التي ليست بكفر أو يُختلف فيها هل هي كفر أم لا؟ كبدعة الخوارج والقدرية والمرجئة ومن أشبههم من الفرق الضالة.

ومنها ما هو معصية ويتفق على أنها ليست بكفر، كبدعة التبتل (٨٣)، والصيام قائماً في الشمس، والخصاء بقصد قطع شهوة الجماع.

ومنها ما هو مكروه كالاجتماع للدعاء عشية عرفة، وذكر السلاطين في خطبة الجمعة، على ما قاله آبن عبد السلام الشافعي (٨٤) وما أشبه ذلك (٨٥) .

فأرباب هذه البدع يتبرأ منهم أهل السنّة والجماعة.

ثانياً: لخطورة البدع على الدين أورد هنا نماذج من أقوال سلف الأمة في التحذير من البدع وأصحابها. ومن ذلك ما قاله الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث يقول:

(٨٢) «شرح السنّة»: (ج١/٢٢٧).

(٨٣) التبتل: هو الانقطاع عن الدنيا إلى الله. انظر «مختار الصحاح»: (ص٥٣).

(٨٤) هو سلطان العلماء عبد العزيز بن عبد السلام السلمى الدمشقي فقيه شافعي

بلغ رتبة الاجتهاد، ولد سنة ٥٧٧هـ، وتوفي سنة ٦٦٠هـ، من مؤلفاته «التفسير الكبير»، و«الإمام في أدلة الأحكام»، و«قواعد الشريعة»، و«قواعد الأحكام» و«الفتاوى». انظر «الأعلام» للزركلي: (ج٤/٢١)، الطبعة الرابعة، وفيه أن له ترجمة في «فوات الوفيات»: (ج١/٢٨٧)، و«طبقات السبكي»: (ج٥/٨٠)، و«النجوم الزاهرة»: (ج٧/٢٠٨)، و«ذيل الروضتين»: (ص٢١٦)، و«مفتاح السعادة»: (ج٢/٢١٢).

(٨٥) «الاعتصام»: (ج٢/٣٧).

«من كان مستثنى فليستن بمن قد مات: أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرأقهم، فهم كانوا على الهدى المستقيم»^(٨٦).

وقال سفيان الثوري رحمه الله:

(البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها)^(٨٧).

وقال الإمام مالك رحمه الله:

(من أحدث في هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله ﷺ خان الدين، لأن الله تعالى يقول:

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

[سورة المائدة: ٣].

فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً)^(٨٨).

وذكر الشاطبي رحمه الله أن مفاصد البدع تنحصر في أمرين:

(١) إنها مضادة للشارع، ومراغمة له، حيث نصب المتدع نفسه منصب المستدرك على الشريعة لا منصب المكتفي بما حد له.

(٢) إن كل بدعة - وإن قلت - تشريع زائد أو ناقص، أو تغيير للأصل الصحيح، وكل ذلك قد يكون على الانفراد، وقد يكون ملحفاً بما هو مشروع فيكون قادحاً في المشروع، ولو فعل أحد مثل هذا في نفس

(٨٦) «شرح السنة» للبغوي: (ج ١/٢١٤).

(٨٧) «شرح السنة» للبغوي: (ج ١/٢١٦).

(٨٨) «الاعتصام»: (ج ٢/٥٣).

الشرعة عامداً، لكفر، إذ الزيادة والنقصان فيها أو التغير - قل أو كثر - كفر^(٨٩). ويعضد هذا النظر عموم الأدلة في ذم البدع ومنها: قوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة»^(٩٠). وقوله ﷺ: «من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(٩١).

وقال أحد علماء السلف:

(لا تجالسوا أصحاب الأهواء، أو قال أصحاب الخصومات فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون)^(٩٢).
 فالخلاصة: إنه من معتقد أهل السنة والجماعة البراء من البدعيين، خاصة أصحاب البدع الكفرية، ولذلك سيرد مزيد من تفصيل هذا في الباب الثاني إن شاء الله.

(٨٩) «الاعتصام»: (ج ٢/٦١) بتصرف بسيط.

(٩٠) «صحيح مسلم»: (ج ٢/٥٩٢، ح ٨٦٧) كتاب الجمعة.

(٩١) «صحيح مسلم»: (٤/٢٠٦٠) ح ٢٦٧٤ كتاب العلم.

(٩٢) «شرح السنة للبغوي»: (ج ١/٢٢٧).

الفصل الرابع أسوة حسنة في الولاء والبراء من الأمم الماضية

(أ) إبراهيم الخليل عليه السلام:

لقد كان نبي الله إبراهيم عليه السلام: أسوة حسنة وفدوة طيبة في ولائه
لربه ودينه وعباد الله المؤمنين، وبرائه ومعاداته لأعداء الله ومنهم أبوه.
لقد كانت سيرة نبي الله إبراهيم عليه السلام مع قومه كأي نبي رسول،
حيث دعاهم بالتي هي أحسن إلى عبادة الله وتوحيده، وإفراده بالعبادة،
والكفر بكل طاغوت يعبد من دون الله.

قال تعالى:

وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ
لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۚ يَا أَبَتِ
إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا
سَوِيًّا ۖ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ
عَصِيًّا ۚ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۚ قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ الْهَيْقِ
يَا إِبْرَاهِيمُ لِمَ لَمْ تَتَّبِعْ لَأَنْجُسَكَ وَأَهْجُرْ فِي مِلَّةِ ۚ قَالَ
سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ۖ
وَأَعِزِّ لَكُمْ وَمَآ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ

أَلَا أَكُونُ بِدَعَائِهِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿١٨﴾ فَلَمَّا اعْتَرَضَهُمُ وَمَا يَعْبُدُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا

[سورة مريم: ٤١ - ٤٩].

تلك هي نقطة البدء في دعوة خليل الرحمن، دعوة بالحسنى، مبتدئاً بأقرب الناس إليه، فإن لم يكن هناك تجاوب مع هذه الدعوة فالاعتزال لهذا الباطل وأصحابه علٌّ في ذلك ردعاً وزجراً وتفكيراً في هذا الأمر الجديد، ونجاة للداعي من مشاركة أهل الباطل في باطلهم إذا كان لا بد له من مخالطتهم ومعاشرتهم وعدم تمكنه من الهجرة من أرضهم.

ثم يمضي القرآن في بيان دعوة إبراهيم عليه السلام، مبيناً أنه استخدم مع قومه كل حجة ودليل:

وَأَنزَلُ عَلَيْهِمْ

تَبَا أَيْزَاهِيمَ ﴿٦٦﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّبِهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا
تَعْبُدُ آبَاءَنَا مَا فَنَظَلُّ مَا عَنكِبِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَ نَكْرًا إِذْ
تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا
كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ
وَعِبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عُدُّوْنِي إِلَىٰ أَرْبِ الْعَالَمِينَ

[سورة الشعراء: ٧٠ - ٧٨].

ولما لم يجدوا حجة، وإنما هو التقليد الأعمى لفعل الآباء والأجداد، قال لهم إبراهيم عليه السلام: أنا عدو آلهم هذه، وهذا كما قال نوح عليه السلام فيما أخبر الله عنه

فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَارْكَبُوا لَّا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غِنَةً ثُمَّ اقْضُوا

وَلَا تُظْهِرُونَ

[سورة يونس: ٧١].

قال هود عليه السلام:

إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ
وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٦﴾ مِّنْ دُونِهِ فَكِدُّوْني
جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴿٥٧﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ وَرَبِّكُمْ مَّا
مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَّبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ

[سورة هود: ٥٤ - ٥٦].

وقال تعالى:

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ
إِنَّا بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفِّرْنَا بَكْرًا وَبَدَأْنَا
وَبَيْنَكُمْ أَلْعَادَؤُهُ وَالْبَعْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ

[سورة الممتحنة: ٤].

وعقيدة إبراهيم عليه السلام هذه هي التي عبر عنها علماؤنا الأجلاء
علماء سلف هذه الأمة بقولهم: لا موالاة إلا بالمعاداة كما قال العلامة آبن
القيم رحمه الله:

(لا تصح الموالاة إلا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الحنفاء
المحبين، أنه قال لقومه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ
فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾ فلم تصح لخليل الله هذه الموالاة والمخلّة
إلا بتحقيق هذه المعاداة. فإنه لا ولاء إلا لله، ولا ولاء إلا بالبراء من كل
معبود سواه قال تعالى:

إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ
﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

[سورة الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

(٩٣) انظر تفسير الآيات السابقة في ابن كثير: (ج ١٥٦/٦).

(أي جعل هذه الموالاة لله، والبراءة من كل معبود سواه، كلمة باقية في عَقْبِهِ يتوارثها الأنبياء بعضهم عن بعض، وهي كلمة لا إله إلا الله، وهي التي ورثها إمام الخنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة) (٩٤).

ويقول الإمام الطبري:

(قد كانت لكم يا أمة محمد أسوة حسنة في فعل إبراهيم والذين معه في هذه الأمور من مباينة الكفار، ومعاداتهم، وترك موالاتهم إلا في قول إبراهيم:

لَا تَسْتَفِرُّنَا لَكَ

[سورة الممتحنة: ٤].

(فإنه لا أسوة لكم فيه في ذلك لأن ذلك كان من إبراهيم عن موعدة وعدّها إياه، قبل أن يتبين له أنه عدو لله، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، فتبرؤا من أعداء الله، ولا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بالله وحده ويتبرؤا من عبادة ما سواه، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء) (٩٥).

وقد كان من نتيجة هذه المعادة وهذا البراء القوي أن أجمع الطغاة على قتل إبراهيم - كما هو حال كل طاغية على مر عصور التاريخ في إبادة الدعاة إلى الله، لا لشيء إلا لأنهم يدعونهم إلى عبادة الله وحده -

وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ

[سورة البروج: ٨].

وجمعوا له ناراً عظيمة فكانت رعاية الله وحفظه تحوطان خليله الصادق عليه الصلاة والسلام فصارت النار برداً وسلاماً عليه

(٩٤) «الجواب الكافي»: (ص ٢١٣)، وانظر «تفسير ابن كثير»: (ج ٧/ ٢١٢)،

و«مجموعة التوحيد»: (ص ١٣٣).

(٩٥) «تفسير الطبري»: (٦٢/ ٢٨).

قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ
فِي الْخَيْبِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ

[سورة الصافات: ٩٧ - ٩٨].

(لقد عدلوا عن الجدل والمناظرة لما أنقطعوا وغلبوا، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفهم وطفيانهم فكادهم الرب جلُّ جلاله، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كما قال تعالى:

قَالُوا خَرِقُوهُ وَانْصُرُوا الْهَيْكَلُ إِن كُنْتُمْ
فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا نَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾
وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ

[سورة الأنبياء: ٦٨ - ٧٠] (٩٦).

وتأتي التوجيهات الربانية لخاتم الأنبياء محمد ﷺ باتباع ملة أبيه إبراهيم عليه السلام

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ

[سورة النحل: ١٢٣].

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

[سورة آل عمران: ٩٥].

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ

(٩٦) وقصص الأنبياء، للحافظ ابن كثير: (ج ١/ ١٨١)، وانظر تفاصيل القصة في نفس المصدر.

حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

[سورة البقرة: ١٣٥].

إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ بِإِبْرَاهِيمَ لَازِمًا لِّلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ

[سورة آل عمران: ٦٨].

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا

[سورة النساء: ١٢٥].

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ
عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قَلِيلَةٌ أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ
الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ

[سورة الحج: ٧٨].

وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ

[سورة البقرة: ١٣٠].

فهذه الأخبار من الله لأمة محمد ﷺ عن فعل إبراهيم عليه السلام
من أجل الاقتداء به في الإخلاص، والتوكل على الله وحده، وعبادة الله وحده
والبراء من الشرك وأهله ومعاداة الباطل وحزبه.

(ب) أمثلة أخرى على طريق الحق والهدى :

كما سبق أن ذكرنا أن دعوة الأنبياء واحدة. دعوة لعبادة الله وحده
وإفراجه بالدينونة والتأله والحب والرضى بحكمه وشرعه، والبراءة من كل
طاغوت معبود من دون الله سواء بالرغبة أو الرهبة

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ

وَابْتَغُوا الْطَّهْرَةَ

[سورة النحل: ٣٦].

فإننا نجد أمثلة مشرقة ونماذج إيمانية رفيعة على طريق العقيدة الفراء. إنهم المؤمنون، أينما وحيثما كانوا وحلوا وفي أي عصر ومصر عاشوا. يوردها ربنا تبارك وتعالى في محكم تنزيله، حتى تكون لنا أسوة حسنة. وتسلياً لرسوله الكريم ﷺ عما كان يلاقيه هو وصحابته الأخيار.

وما أحوج الداعية المسلم - وهو الحريص على حب الخير لكل الناس - أن يتدبر هذه الأمثلة والنماذج الإيمانية فسيجد فيها العزاء والتسلياً فيما يلاقيه من مشقة وعنت. وإذا كانت هذه سنة الله في أنبيائه وعباده الصالحين أن يتعرضوا للأذى والعنت - وهم أكرم خلق الله على الله - فمن باب أولى أن يلاقي دعاة الهدى والخير صنوفاً شتى من الأذى والسخرية والاستهزاء والعذاب وسيجدون معية الله تصحبهم وترعاهم وحفظه وقدره يحوطهم. وكل ما يلقونه إنما هو ابتلاء واختيار كما قال تعالى:

مَا كَانَ لِلَّهِ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ
الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ

[سورة آل عمران: ١٧٩].

وحين يثبت المؤمنون على الحق، ويتوكلون على الله حق توكله، ويخافونه وحده، ولا يخافون إلا الله، فسيكون هذا دافعاً عظيماً لدخول الناس في دين الله، والاهتداء بهديه، والافتداء بهؤلاء الصادقين الذين ضحوا بكل غال ونفيس، وزهدوا فيما عند الناس راغبين ومؤملين فيما عند الله.

ومن هذه الأمثلة التي نريد الحديث عنها باختصار، نوح عليه الصلاة والسلام فقد دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً فلم يؤمن معه إلا القليل، والموقف الذي نريد أن نتحدث عنه من مواقفه عليه السلام هو موقفه مع

أبْنَهُ الَّذِي عَصَاهُ وَأَبْنَى أَنْ يَسْتَجِيبَ لِدَعْوَةِ أَبِيهِ. قَالَ تَعَالَى:

وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ

فِي مَقْزِلٍ يُنْبِئُ أَزْكَى مَعْنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾
قَالَ سَآوَيْتُنِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ
الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ
مِنَ الْمُفْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ اتْلِي مَاءَ لِي وَسَمَاءَ
أَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ
بَعْدَ اللَّقَوْمِ الطَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ
أَبْنَى مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾
قَالَ يُنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلِنِ
مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا
تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ

[سورة هود: ٤٢ - ٤٧].

(إن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين ليست وشيجة الدم والنسب، وليست وشيجة الأرض والوطن، وليست وشيجة القوم والعشيرة. وليست وشيجة اللون واللغة. ولا الجنس والعنصر، ولا الحرفة والطبقة إنها وشيجة العقيدة.

(أما الوشائج الأخرى فقد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد.

(وبين الله لنوح لماذا لا يكون أبنه من أهله؟ «إنه عمل غير صالح» فوشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما «فلا تسألن ما ليس لك به علم» إنه ليس من أهلك ولو كان هو أبوك من صلبك (٩٧).

(٩٧) في ظلال القرآن: (ج٤/١٨٨٧).

وهنا يأتي الإذعان الكامل والخوف من الله سبحانه وطلب مرضاته ورحمته فيقول عبده الصالح نوح ﴿رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾.

لقد استعلى نبي الله على العاطفة ورضي بحكم الله، فلا حاجة ولا آلتواء، ولا معذرة ولا تأويل، بل تسليم مطلق، واتباع لما يحب الله ويرضى، وإعراض عما يكره ويفض، وولاء لمن يحب الله، وبراء وعداء لمن حادَّ الله ولو كان أقرب قريب.

ولم يكن شأن نبي الله نوح عليه السلام مقصوراً على هذا الابن الكافر، بل أيضاً مع زوجته، ويا له من آمتحان عظيم في الزوجة والابن!

هذه الزوجة تحدث عنها القرآن وعن نظيرة لها وشبيهة بفعلها وهي زوجة لوط عليه السلام، فقد آتلي هذان النبيان بزوجتين فاسدتين ذكرهما الله لنا مثلاً في كتابه العزيز فقال:

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِينَ

[سورة التحريم: ١٠].

على أن مما يجب التنويه عنه هنا - استطراداً - أن هذه الخيانة في الدين، وليست في الفاحشة، فإن نساء الأنبياء معصومات من الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء عليهم السلام.

أما امرأة نوح فكانت تفشي سره، إذا آمن معه أحد أخبرت الجبابة من قومها، وأمرأة لوط تخبر قومها بضيوف زوجها من أجل فعل السوء القبيح^(٩٨).

(٩٨) انظر «تفسير ابن كثير»: ج ٨/ ١٩٨.

وعلى النقيض من هذا الفعل المشين من هاتين المرأتين يضرب لنا القرآن مثلاً عالياً في الإيمان والاستعلاء على الكفار من قبل امرأة مؤمنة هي زوجة فرعون اللعين قال تعالى:

رَبِّهِ أَتَىٰ لِي بِعِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجَّيْنِي مِنْ فِرْعَوْنَ
وَعَمَلِهِ وَنَجَّيْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

[سورة التحريم: ١١].

(إن هذه المرأة لم يصددها طوفان الكفر الذي تعيش فيه، في قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها، وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتاً في الجنة، وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه، وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به ﴿ونجني من فرعون وعمله﴾، وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم ﴿ونجني من القوم الظالمين﴾، إنه مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صورته، فقد كانت امرأة فرعون، أعظم ملوك الأرض يومئذ!! في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي! لقد استعلت على هذا بالإيمان ولم تعرض عنه فحسب، بل اعتبرته شراً وذنساً وبلاء تستعيز بالله منه.

(إنها امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية. وقفت وحدها في وسط ضغط المجتمع وضغط القصر، وضغط الملك، وضغط الحاشية، ورفعت رأسها للسماء! إنه التجرد الكامل من كل هذه المؤثرات والأواصر) (٩٩).

إن وقوف هذه المرأة أمام ذلك الجبار من الأهمية بمكان، عل في ذلك ما يدفع تشييط الشيطان وحزبه لبعض دعاة الإسلام وهم يخافون أن يمسهم الناس بشيء لم يكتبه الله عليهم.

ألا فلنأخذ من قرآننا عبرة وعظة، وشحنة عمل، ومنهاج دنيا وآخره حتى

(٩٩) «في ظلال القرآن»: (ج ٦/٣٦٢٢) بتصرف.

نقوم بما كلفنا الله به وشرفنا بالانتساب إليه وهي الدعوة إلى الله.

يقول قتادة:

(كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعده، فوالله ما ضر أمراته كفر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله حكم عدل، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه) (١٠٠).

وهناك أيضاً نموذج آخر، وعلم من أعلام دعاة صراط الله المستقيم. إنه مثل رفيع في الولاء لله ودينه وعباده الصالحين في النصرة والجهاد بقدر الطاقة لإعلاء كلمة الله، والبراءة من الكفار بعد إقامة الحجة والبرهان عليهم، إنه مؤمن آل فرعون.

لننظر في موقفه وفي ولائه حين عزم الطاغية فرعون على قتل رسول الله موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام. لقد قال مؤمن آل فرعون كما حكاها القرآن عنه:

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ
فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ
اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا
فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي
يَعِدُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ

[سورة غافر: ٢٨].

وأسم هذا الرجل حبيب النجار والمشهور أنه كان قبطياً من آل فرعون. وكان يكتُم إيمانه عن قومه القبط، ولم يظهره إلا هذا اليوم حين قال فرعون:

ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى

[سورة غافر: ٢٦].

(١٠٠) (تفسير ابن كثير: (ج ٨/ ١٩٩).

فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل و«أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائره»^(١٠١).

ولا أعظم من هذه الكلمة وهي قوله أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله^(١٠٢). فأنظر إلى ولاء هذا الرجل المؤمن لنبي الله موسى ونصرته له، وتدبر براءه من الطاغية حتى وهو يصب عليه العذاب.

وأخيراً نقف مع الفتية الصالحاء «أصحاب الكهف»، الذين تركوا الأهل والولد، والوطن والعشيرة؛ حين علموا أنه لا طاقة لهم بمواجهة ومجابهة قومهم، فنجوا بأنفسهم إلى ذلك الكهف، الذي تجلت فيه معجزة عظيمة، يسوقها الله لنا عبرة وعظة في حفظه لعباده الصالحين.

قال تعالى:

إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَا نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ
قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُواكَ عَلَيْهِمْ
سُلْطَانٌ بَيِّنٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾
وَاذْكُرْ لِمَ تَلْعَنُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُوكَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوْهَىٰ إِلَى الْكَهْفِ
يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئَ لَكُمْ مِنْ أَمْرٍ مُرْفَقًا

[سورة الكهف: ١٣ - ١٦].

(١٠١) أخرجه أبو داود: (ج٤/٥١٤، ح٤٣٤٤) في كتاب الملاحم، والترمذي: (ج٦/٣٣٨، ح٢١٧٥) في كتاب الفتن، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه، وابن ماجة: (ج٢/١٣٢٩، ح٤٠١١) في الفتن، و«مسند أحمد»: (ج٣/١٩)، والسنائي: (ج٧/١٦١) في البيعة، وقال الألباني: صحيح. انظر «المشكاة»: (ج٢/١٠٩٤).

(١٠٢) انظر «تفسير ابن كثير»: (ج٧/١٣٠).

لقد كان موقف هؤلاء الفتية صريحاً وواضحاً وحاسماً. وحين تتباين الطريقان ويختلف المنهجان لا يعود هناك سبيل إلى الالتقاء ولا للمشاركة في الحياة. بل لابد من الفرار بالعقيدة.

إنهم ليسوا رسلاً إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها، ويتلقوا ما يتلقاه الرسل، إنما هم فتية تبين لهم الهدى في وسط ظالم كافر، ولا حياة لهم في هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجأهروا بها. وهم أيضاً لا يطبقون مداراة قومهم، وعبادة آلهتهم على سبيل التقية وإخفاء عبادتهم لله. على أن الأرجح أن أمرهم قد كشف، فلا بد من الفرار بدينهم إلى الله. وقد فروا إلى كهف خشن ضيق، مؤثرين له على كل زينة من زينة الحياة الدنيا. إنهم يستروحون رحمة الله ويحسونها ظليلاً فسيحة ممتدة ﴿ينشر لكم ريكم من رحمته﴾، ولفظه ﴿ينشر﴾ تلقي ظلال السعة والبحوحة والانفساح فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب، تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها.

إنه الإيمان! وما قيمة الظواهر؟ وما قيمة القيم والأوضاع والمذلولات التي تعارف عليها الناس في حياتهم الأرضية؟

إن هنالك عالماً آخر في جنبات القلب المعمور بالإيمان، المأنوس بالرحمن عالماً تظله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان^(١٠٣).

وهكذا تعدد الأمثال في جميع الوشائج والروابط، وشيجة الأبوة في قصة نوح، وشيجة البنوة والوطن في قصة إبراهيم، وشيجة الأهل والعشيرة والوطن جميعاً في قصة أصحاب الكهف، ورابطة الزوجية في قصص أمراتي نوح ولوط وأمراة فرعون.

هكذا يمضي الموكب الكريم حتى تجيء الأمة الوسط، فتجد هذا الرصيد

(١٠٣) (الظلال: ج٤/٢٢٦٢) بتصرف بسيط.

من الأمثال والتماذج والتجارب، فتمضي على النهج الرباني للأمة المؤمنة وتفترق
العشيرة الواحدة والبيت الواحد حيث تفترق العقيدة.

لَا تَحِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَمَلَهُمْ

[سورة المجادلة: ٢٢]

لقد جمعت هذه العقيدة صهيياً الرومي وبلالاً الحبشي، وسلطان الفارسي
وأبا بكر العربي القرشي تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، وتوارث
عصبة القبيلة والجنس والأرض وقال لهم ﷺ: «دعوها فإنها منتنة» (١٠٤).
وقال: «ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية، وليس
منا من مات على عصبية» (١٠٥) فأنهى أمر هذا التنن، وماتت نكرة الجنس،
وانتفتت لوثة القوم، واستروح البشر أرج الآفاق العليا، ومنذ ذلك اليوم لم
يعد وطن المسلم هو الأرض وإنما وطنه هو «دار الإسلام»، تلك الدار التي
تسيطر عليها عقيدة، وتحكم فيها شريعة الله وتخلدها (١٠٦).

وتبقى سيرة المصطفى ﷺ وسيرة صحابته الأخيار منار هدى وإصلاح
لن سلك ذلك السبيل، ورضي بذلك النهج القويم.

أما من حاد عن ذلك وابتعد فالله ليس بولي، وإنما وليه «الطاغوت»

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ
النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ

[سورة البقرة: ٢٥٧]

(١٠٤) «صحيح البخاري»: (ج ٨/٦٤٨، ح ٤٠٩٥) كتاب التفسير، و«صحيح
مسلم»: (ج ٩/٩٩٩، ح ٢٥٨٤) كتاب البر والصلة.

(١٠٥) «صحيح مسلم»: (ج ٣/١٤٧٦، ح ١٨٤٨، وح ١٨٥٠) كتاب الإمارة، وأبو
داود: (ج ٥/٣٤٢، ح ٥١٢١) كتاب الأدب.

(١٠٦) انظر «معالم في الطريق»: (ص ٢٤٣).

الفصل الخامس

الولاء والبراء في العهد المكي

كان الحديث في الفصل السابق عن أمثلة مشرقة، وصور مضيئة من ولاء وبراء الأنبياء والرسل، والصالحين عبر تاريخ البشرية الطويل.

وتحدث هنا عن الولاء والبراء من خلال سيرة نبينا محمد ﷺ، مستمدين ذلك من الوحيين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكتب السير والمغازي.

وقد اعتمدنا في تقسيم الآيات إلى مكّي ومدني، على ما ذكره العلماء في كتب التفسير وعلوم القرآن من أن المكّي - على الأشهر - هو ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها (١٠٧).

وسبق أن قلنا في التمهيد: أن المسلم منذ أن يعلن شهادة "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، فإن ذلك يعني أفراد الله سبحانه وتعالى بالوحدانية والألوهية والربوبية، وخلع كل ولاء وعبودية وطاعة وخضوع وخوف ورجاء لأي معبود أو متبوع أو مطاع من دون الله. وقصر هذا الولاء والحب والتعظيم لله سبحانه وتعالى.

وقد نزل الوحي الإلهي أول ما نزل على المصطفى ﷺ في غار حراء بقوله سبحانه:

(١٠٧) انظر «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي: (ج ١/ ٣٧) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

أَفَرَأَيْتُم مَّن مَّالِكِ الَّذِي مَخْلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۚ أَفَرَأَوْوْا رَبَّكَ
الْأَكْرَمُ ۚ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۚ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝

[سورة العلق: ١ - ٥].

ثم بعد ذلك قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۖ قُمْ فَأَنذِرْ

[سورة المدثر: ١ - ٢].

وبدأ المصطفى ﷺ يدعو الناس سرًا إلى الإسلام، وأسلم معه نفر قليل، منهم أبو بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وخديجة بنت خويلد زوجته رضي الله عنهم جميعاً. وبدأ رسول الله ﷺ يغرس في نفوس أصحابه محبة الله ومحبة رسوله، والاجتماع على ذلك، وإخلاص الحب والولاء والبصرة للمؤمنين، ويغرس الكفر والشرك وأهله، وهذا هو لازم كلمة التوحيد "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

وهنا نشأت الوشيجة الجديدة، وشيجة العقيدة في نفوس المؤمنين، وبدأ يقر في نفوسهم أن هذه هي الرابطة الحقيقية، هي الرابطة التي تطمئن لها نفس المؤمن، ومع نمو هذه الفرسة الجديدة؛ بدأت تذبل شجرة العصية الجاهلية، وانثروابط الجاهلية، وبدأت نظرة الريب والاحتقار لتلك الروابط تكبر يوماً فيوماً في نفس كل من آمن بالله ورسوله.

الملتقى الأول وأولى خطوات الطريق

آختر المصطفى ﷺ دار الأرقم لتلقي من آمن معه أمور هذا الدين. ولقد كانت هذه الدار هي الملتقى الأول لأولئك القادة العظام، كانت هي الدار التي بدأ يشع منها ذكر الله وتوحيده في الأرض.

تري ما هو حال المسلمين آنذاك؟ وماذا بعد النطق بالشهادتين؟

يجيب على ذلك الأستاذ سيد قطب رحمه الله فيقول:

(إنه لم يكن للإسلام والمسلمين في مكة شريعة ولا دولة، ولكن الذين كانوا ينطقون بالشهادتين كانوا يسلمون قيادهم من فورهم للقيادة المحمدية، ويمنحون ولاءهم من فورهم للعصبة المسلمة. وكان الرجل حين يدخل الإسلام يخلع على عتبه كل ماضيه في الجاهلية، ويبدأ عهداً جديداً، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية. إنه يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف.

(لقد كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه، ونشأت عن هذه العزلة، عزلة في صلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الاجتماعية أيضاً.

(إنه قد انفصل نهائياً من بيئة الجاهلية، وآنصل نهائياً ببيئته الإسلامية، حتى لو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم التجارة والتعامل اليومي.

فالعزلة الشعورية شيء، والتعامل اليومي شيء آخر.

(وحين آنخلع المسلم من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن تصور

الجاهلية إلى تصور الإسلام، فإنه أيضاً كان يتسلخ من القيادة الجاهلية، ويتزع ولأه من الأسرة والعشيرة والقبيلة، ويترجم ذلك إلى واقع وحقيقة يقوم عليها الإسلام. وهذا هو الذي أزعج "الملأ" من قريش!

(أزعجهم زحف الإسلام، وأزعجهم القرآن، ولم يزعجهم من قبل أن "الحنفاء" أعترلوا معتقدات المشركين وعباداتهم، وأعتقدوا بالوهمية آله وحده، وقدموا له الشعائر وحده فهذا لا يهم الطاغوت، كما يفهم بعض الدالسين الخيرين اليوم الذين لا يدركون ولا يعرفون حقيقة الإسلام.

(إنما الإسلام هو تلك الحركة المصاحبة للنطق بالشهادتين، ثم الانخلاع من المجتمع الجاهلي وتصوراته وقيمه وقيادته وسلطانه وشرايعه. والولاء لقيادة الدعوة الإسلامية التي تريد أن تحقق الإسلام في عالم الواقع، ولذلك ذارم "الملأ" من قريش هذه الدعوة بشتى الأساليب (١٠٨)، وآلتنى الدّرمون على حب آله ورسوله، فكان لقاءً عميقاً لأن كلاً منهم جاء إلى آله ورسوله يتلقى منه، ويرتدي بهديه، ويتوجه إليه، وأحس كل منهم زحزح أخيه برياط من نوع جديد، يربله بأخوته في آله، إنه يحبه كنفسه مع أنه ليس من قبيلته ولا بينهما آصرة دم (١٠٩).

وأخذ القرآن الكريم ينزل حسب النوازل والحوادث على ما يشاء آله سبحانه وتعالى لتربية الأمة على أسس العقيدة، فكان الولاء والبراء يزيد كلما ازدادت التكاليف. وكان من الطرق التي سلكها القرآن في عرض هذه العقيدة ضرب المثل، لأنه كما يقال: بالمثل يتضح المقال. ومعلوم أن كلام آله واضح ولكن سياق المثل يستثير في الإنسان نوعاً من التفكير وتدبر العبرة والعظة لتغيير المسار الخاطيء والانجاء في الطريق الصحيح.

(١٠٨) وفي ظلال القرآن: (ج٣/١٥٠٣)، وسالم في الطريق: (ص١٧، ٥٠).

(١٠٩) انظر منهج التربية الإسلامية، للاستاذ محمد قطب: (ج٢/٣٨ - ٤٠).

ومن هذه الأمثلة في موضوعنا قوله تعالى:

مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَشَلِّ
الْعَنَكُبُوتِ أَخَذَتْ يَتَاسَلُونَ أَوَّهًا بَشِيرًا
وَلَيْسَ
الْمَكِيدُونَ إِلَّا كُنُودًا يَعْلَمُونَ

[سورة العنكبوت: ٤١].

وبتقرير هذه الحقيقة الصَّخْمَةُ فِي الْقُفُوسِ؛ كان المؤمنون أقوى من جميع القوى التي وقفت في طريقهم، وداسوا بها على كبرياء الجبارة في الأرض، ودكوا بها المعاقل والحصون. إن قوة الله وحدها هي القوة، وولاية الله وحدها هي الولاية وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل، مهما علا وأستطال، ومهما تجبر وطفى ومهما ملك من وسائل البطش والظغيان والتكيل^(١١٠).

ومكث المصطفى ﷺ في دعوته للناس بالسر ثلاث سنوات، كما قال ذلك علماء السير والمغازي^(١١١).

وبعد أن فشا ذكر الإسلام في مكة، وتحدث الناس به أمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يادى الناس بأمره، وأن يدعو إليه ونزل قوله تعالى:

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمِرُ وَأَعِزْ لِنَا فِي الْفُتُورِ

[سورة الحجر: ٩٤].

وَقَالَ اللَّهُ لَنِي وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٩٥﴾ وَخَفِضْ
جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

[سورة الشعراء: ٢١٤ - ٢١٥].

(١١٠) انظر آلي ظلال القرآن: (ج ٥/٢٧٣٧).

(١١١) انظر السورة النبوية لابن هشام: (ج ١/٢٨٠).

(١١٢) المصدر السابق: (ج ١/٢٨٠).

وهنا بدأ الابتلاء للمسلمين، وهذا الابتلاء الذي ظاهره الشدة هو في حقيقته نعمة، لأنه يتضح من خلاله: الصادق من الكاذب، والخبيث من الطيب. قال تعالى:

﴿أَحِبَّ النَّاسَ أَنْ يَرْضَوْاكَ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ

[سورة العنكبوت: ١ - ٣].

وحدث لأصحاب رسول الله ﷺ من الابتلاء والشدة الشيء الكثير، حتى إنهم كانوا يذهبون للشعاب يستخفون بصلاتهم عن قومهم^(١١٣).

صدق التحمل

ماذا فعل المؤمنون تجاه العذاب الذي صبه عليهم أعداء الله؟ ما الذي حصل من ما فعل بهم عامة، وما فعل ببلال وآل ياسر وغيرهم من المستضعفين خاصة؟

إنه الصبر على الأذى والهجر الجميل. قال تعالى:

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾^(١) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا

[سورة المزمل: ١٠ - ١١].

وصبر المصطفى ﷺ وكانت تربيته الربانية كفيلة بتطهير نفوس المؤمنين معه، فكانوا كل يوم يزداودن من سمو الروح ونقاء القلب ونظافة الخلق والتحرر من سلطان الماديات والشهوات شيئاً كثيراً.

(١١٣) المصدر السابق: (ج ١/ ٢٨٢).

(كان ﷺ يأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل، وقهر النفس مع أنهم قوم قد رضعوا حب الحرب، وكأنهم ولدوا مع السيف، وهم أمة من أيامها حرب البسوس وداحس والغبراء. وما يوم الفجار ببعيد!!
ولكن رسول الله ﷺ قهر طبيعتهم الحربية، وكبح نخوتهم العربية فأنقهروا لأمره، وكفوا أيديهم وتحملوا من قريش ما تسيل منه النفوس، في غير جبن وفي غير عجز (١١٤). هذا بالنسبة لموقف المسلمين من أعدائهم.

أما ولاؤهم فيما بينهم، فنقول: إن المصطفى ﷺ قد حرص على غرس ركيزتين أساسيتين في نفوسهم هما:

(١) الإيمان بالله، ذلك الإيمان المنبثق من معرفته سبحانه، وتمثل صفاته في الضمائر، وتقواه، ومراقبته، مع اليقظة والحساسية التي بلغت في نفوسهم حدًا غير معهود إلا في النادر من الأحوال.

(٢) الحب الفياض، والتكافل الجاد العميق، حيث بلغت فيه الجماعة المسلمة مبلغاً لولا أنه وقع بالفعل لعد من أحلام الحالين (١١٥).

إن نقطة الحب في الله التي ألتقى عليها هؤلاء المؤمنون، كانت أيضاً لقاء على ما يتبع هذه الدعوة من جهد أو غم، وما يستتبع ذلك من ألم أو سرور وجعل العاطفة الإنسانية تحب وتبغض تبعاً لما يصيب الإسلام من خير أو شر (١١٦).

ولكي يكون لهذا الكلام ما يدعمه من الدليل، وحتى نعلم ما هي نتائج تربية "دار الأرقم"، أذكر موقفاً واحداً لصديق هذه الأمة، أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(١١٤) «ماذا خسر العالم بالمخطاط المسلمين» لابي الحسن الندوي: (ص ٩٧) بتصرف.

(١١٥) انظر «طريق الدعوة في ظلال القرآن»: (ج ١/ ١٨٨).

(١١٦) انظر «هذا ديننا» للشيخ محمد الغزالي: (ص ١٧٨).

وُطِيَءُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَكَّةَ يَوْمًا بَعْدَ مَا أَسْلَمَ، وَضُرِبَ ضَرْبًا شَدِيدًا، وَدَنَا مِنْهُ عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ بِنَعْلَيْنِ مَخْصُوفَيْنِ، وَيَحْرِفُهُمَا لَوَجْهِهِ، ثُمَّ نَزَا عَلَى بَطْنِ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى مَا يَعْرِفُ وَجْهَهُ مِنْ أَنْفِهِ، وَحَمَلَتْ بَنُو تَيْمٍ أَبَا بَكْرٍ فِي ثَوْبٍ حَتَّى أَدْخَلُوهُ مَنْزِلَهُ، وَلَا يَشْكُونَ فِي مَوْتِهِ، فَتَكَلَّمَ آخِرَ النَّهَارِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَمَسُوا مِنْهُ بِالْأَسْتِثْمِ وَعَذَلُوهُ، ثُمَّ قَامُوا، وَقَالُوا لِأُمِّهِ أُمِّ الْخَيْرِ: أَنْظِرِي أَنْ تَطْعَمِيهِ شَيْئًا أَوْ تَسْقِيهِ إِيَّاهُ، فَلَمَّا خَلَتْ بِهِ الْأَحْتَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ يَقُولُ: مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا لِي عِلْمٌ بِصَاحِبِكَ فَقَالَ: أَذْهَبِي إِلَى أُمِّ جَمِيلَ بِنْتِ الْخَطَّابِ فَاسْأَلِيهَا عَنْهُ، فَخَرَجَتْ حَتَّى جَاءَتْ أُمَّ جَمِيلَ فَقَالَتْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ يَسْأَلُكَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَتْ: مَا أَعْرِفُ أَبَا بَكْرٍ وَلَا مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ تَحْبِينُ أَنْ أَذْهَبَ مَعَكَ إِلَى ابْنِكَ ذَهَبْتَ قَالَتْ: نَعَمْ فَمَضَتْ مَعَهَا حَتَّى وَجَدَتْ أَبَا بَكْرٍ صَرِيحًا دَنَفًا، فَدَنَتْ أُمَّ جَمِيلَ وَأَعْلَنْتْ بِالصِّيَاحِ وَقَالَتْ: وَاللَّهِ إِنْ قَوْمًا نَالُوا مِنْكَ هَذَا لِأَهْلِ فَسَقٍ وَكَفَرٍ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَنْتَقِمَ اللَّهُ لَكَ مِنْهُمْ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: هَذِهِ أُمُّكَ تَسْمَعُ!! قَالَ: فَلَا شَيْءَ عَلَيْكَ مِنْهَا، قَالَتْ: سَالِمٌ صَالِحٌ، قَالَ: أَيْنَ هُوَ؟ قَالَتْ: فِي دَارِ آيِنِ الْأَرْقَمِ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيَّ أَنْ لَا أَذُوقَ طَعَامًا وَلَا أَشْرِبَ شَرَابًا أَوْ آتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأُهْلِكَ حَتَّى إِذَا هَدَأَتِ الرَّجُلَ وَسَكَنَ النَّاسُ خَرَجْنَا بِهِ يَتَكَيَّ عَلَيْهِمَا حَتَّى أَدْخَلْتَاهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (١١٧).

يَا اللَّهُ! رَجُلٌ مَضْرُوبٌ، مَثْخَنٌ بِالْجِرَاحِ لَا يَتَنَاوَلُ حَتَّى شَرِبَ الْمَاءَ وَهُوَ أَشَدُّ مَا يَكُونُ حَاجَةً إِلَيْهَا حَتَّى يَرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟
حَقًّا إِنَّهَا تَرْبِيَةٌ دُونَهَا كُلُّ تَرْبِيَةٍ. وَحَقًّا نَقُولُ إِنَّ ذَلِكَ الْجِيلَ الَّذِي رَبَّاهُ الْمُصْطَفَى ﷺ جِيلٌ فَرِيدٌ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ وَلَا لَاحِقٍ.

(١١٧) «الْبَدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ» لِابْنِ كَثِيرٍ: (ج ٣/٣٠)، وَانْظُرْ «مَاذَا خَسِرَ الْعَالَمُ لِلنَّدْوِيِّ: (ص ١١٣).

سمات العلاقة بين المسلمين وأعدائهم في العهد المكي

إن المرحلة المكية كانت تقتضي أن تكون العلاقة بين المسلمين والمشرّكين علاقة غير قتالية، علاقة يّيان للحق، وصبر على الأذى فيه، وآحتساب لكل ما عرفته رباع مكة ورمضاؤها والطائف وفجأجها من أذى للمصطفى ﷺ وعذاب وأضطهاد لبلال وعمار وخباب وآل ياسر وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

ذلك أن ظروف تلك المرحلة كانت تقتضي آتخاذ الأساليب السلمية، وعرض الحقائق الإيمانية عرضاً مؤثراً، عله يكون في هذا وفيما أبداه المؤمنون الصابرون من تحمل وصبر، ما يرجع لأهل اللب صوابهم، وما أجدر ذلك بآستجابة القوم لولا آتباع الهوى وسلطان المصالح الزائلة من زعامة ووجاهة ومكاسب مادية، وما إلى ذلك^(١١٨).

والتربية النبوية في هذا العهد ذات شأن عظيم ذلك أنها كانت تربية تقوم على ضبط النفس، والصبر على الأذى، وإعداد العدة مع حبس دواعي الانطلاق، وكف حدة الإقدام، وآحتمال جهل الجاهلين وبغي الطاعين. وكل ذلك من غير ذل ولا آستخذاء، ولا يأس ولا وهن، بل إن عيونهم قريرة وقلوبهم مطمئنة إلى نصر الله ونفوسهم مستعلية على شرك المشرّكين وضلالهم وفتنتهم^(١١٩).

(١١٨) انظر «علاقة الأمة المسلمة بالأُمم الأخرى» للأستاذ أحمد محمود أحمد: (ص ٨ - ٩).

(١١٩) «سبيل الدعوة الإسلامية» للدكتور محمد أمين المصري: (ص ١١١، ١١٢) بتصرف.

ومن المهم في هذا الموضوع أن نلاحظ الحكمة الربانية في عدم فرضية القتال في مكة، فإنه إنما شرع في العهد المدني، أما حين كان المسلمون في مكة فقد كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمر المسلمون وهم أقل من العشر بقتال الباقيين لشق عليهم، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ وكانوا نيفاً وثمانين قالوا: يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي - يعنون أهل منى - ليألي منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أؤمر بهذا» (١٢٠).

ونحن حين نلتبس الحكمة في هذه الحالة وفي غيرها من التكليف الشرعية - كما يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله - لا نجزم بما نتوصل إليه، لأننا حينئذ نتألى على الله ما لم يبين لنا من حكمة. ونفرض أسباباً وعللاً قد لا تكون هي الأسباب والعلل الحقيقية، أو قد تكون.

ذلك أن شأن المؤمن أمام أي تكليف، أو أي حكم من أحكام الشريعة هو التسليم المطلق لأن الله سبحانه هو العليم الخبير، وإنما نقول هذه الحكمة والأسباب من باب الاجتهاد وعلى أنه مجرد احتمال لأنه لا يعلم الحقيقة إلا الله، ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح (١٢١).

وهذه الأسباب والعلل ذكرها الأستاذ سيد قطب رحمه الله في كتابيه القيمين: «في ظلال القرآن» عند تفسير سورة النساء، وفي «معالم الطريق» (١٢٢).

(١٢٠) «تفسير ابن كثير»: (ج ٥/٤٣١)، والحديث في «مسند أحمد»: (ج ٣/٤٦٢)، في سننه معبد بن كعب بن مالك، قال عنه ابن حجر في «التقريب»: مقبول. وذكر في «التهذيب» أن له حديثاً واحداً في «صحيح البخاري»، وأخرج له مسلم. ووثقه ابن حبان.

(١٢١) انظر «الظلال»: (ج ٢/٧١٤).

(١٢٢) «الظلال»: (ج ٢/٧١٤ - ٧١٥)، وفي «المعالم»: (ص ٦٩ - ٧١).

وسأوجزها فيما يلي:

(١) إن الكف عن القتال في مكة ربما كان لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد، في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة، ومن أهداف التربية في مثل هذه البيئة: تربية الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم حين يقع عليه أو على من يلوذون به؛ ليخلص من شخصه، ويتجرد من ذاته، فلا يندفع لأول مؤثر، ولا يحتاج لأول مهيج ومن ثم يتم الاعتدال في طبيعته وحركته. ثم تربيته على أن يتبع نظام المجتمع الجديد والتقيّد بأوامر القيادة الجديدة، حيث لا يتصرف إلا وفق ما تأمره - مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعاداته - وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي المسلم لإنشاء "المجتمع المسلم".

(٢) وربما كان ذلك أيضاً لأن الدعوة السلمية أشد أثراً وأنفذ في مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف، والتي قد يدفعها القتال معها - في مثل هذه الفترة - إلى زيادة العناد ونشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة أمثال داحس والغبراء وحرب البسوس، وحينئذ يتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات تنسى معها فكرته الأساسية.

(٣) وربما كان ذلك أيضاً اجتناباً لإنشاء معركة ومقتلة داخل كل بيت، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة هي التي تعذب المؤمنين، وإنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد. ومعنى الإذن بالقتال - في مثل هذه البيئة - أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت ثم يقال: هذا هو الإسلام!! ولقد قبلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال! فقد كانت دعاية قريش في المواسم، إن محمداً يفرق بين الوالد وولده فوق تفريقه لقومه وعشيرته! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي؟

(٤) وربما كان ذلك أيضاً لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ويعذبونهم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص، بل من قادته. ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء؟

(٥) وربما كان ذلك أيضاً لأن النخوة العربية في بيئة قبلية من عاداتها أن تنور للمظلوم الذي يحتمل الأذى، ولا يتراجع وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم. وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة في هذه البيئة - فابن الدغنة^(١٢٣) لم يرض أن يترك أبا بكر - وهو رجل كريم - يهاجر ويخرج من مكة، ورأى في ذلك عاراً على العرب! وعرض عليه جواره وحمايته.. وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب.

(٦) وربما كان ذلك أيضاً لقلّة عدد المسلمين حينذاك وأنحصارهم في مكة حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة، أو بلغت ولكن بصورة متناثرة، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها، لترى ماذا يكون مصير الموقف. ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة - حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم - ويبقى الشرك، ولا يقوم للإسلام في الأرض نظام، ولا يوجد له كيان واقعي، وهو دين جاء ليكون منهج حياة ونظام دنيا وآخر.

(٧) إنه لم تكن هناك ضرورة قاهرة ملحة، لتجاوز هذه الاعتبارات كلها، والأمر بالقتال، ودفع الأذى، لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة كان قائماً وعقفاً وهو "وجود الدعوة" ووجودها في شخص الداعية

(١٢٣) ابن الدغنة رجل جاهل أجار أبي بكر عندما أخرجه قومه وأراد المجرة للحبشة. انظر «الإصابة»: (ج ٢/٣٤٤).

محمد ﷺ، وشخصه في حماية سيوف بني هاشم، فلا تمتد إليه يد إلا وهي مهددة بالقطع. ولذلك لا يجزئ أحد على منعه من إبلاغ الدعوة وإعلانها في ندوات قريش حول الكعبة، ومن فوق جبل الصفا، وفي الاجتماعات العامة ولا يجزئ أحد على سجنه أو قتله، أو أن يفرض عليه كلاماً بعينه يقوله، بل إنهم حين طلبوا إليه أن يكف عن سب آلهتهم وعيها لم يكف، وحين طلبوا إليه أن يسكت عن سب دين آبائهم وأجدادهم لم يسكت، وحين طلبوا إليه أن يدهن فيدهنوا، أن يجاملهم فيجاملوه، بأن يتبع بعض تقاليدهم ليتبعوا بعض عبادته لم يدهن.

إن هذه الاعتبارات كلها - فيما نحسب - كانت بعض ما اقتضت حكمة الله - معه - أن يأمر المسلمين بكف أيديهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، لتتم تربيتهم، وإعدادهم، وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة، في الوقت المناسب، وليخرجوا أنفسهم من المسألة كلها، فلا يكون لذواتهم فيها حظ.. لتكون خالصة لله، وفي سبيل الله. انتهى ملخصاً من «الظلال».

والناظر في الفترة المكية والتي كانت ثلاثة عشر عاماً كلها تربية وإعداد وغرس لمفاهيم لا إله إلا الله يدرك ما لأهمية هذه العقيدة من شأن في عدم الاستعجال وأستباق الزمن، فالعقيدة بحاجة إلى غرس يتعهد بالرعاية والعناية والمداومة بحيث لا يكون للعجلة والفوضى فيها نصيب. وما أجدر الدعاة إلى الله أن يقفوا أمام تربية المصطفى ﷺ لأصحابه على هذه العقيدة وقمة طويلة، فيأخذوا منها العبرة والأسوة، لأنه لا يقف في وجه الجاهلية - أيما كانت قديمة أم حديثة أم مستقبلية - إلا رجال اختلطت قلوبهم ببشاشة العقيدة الربانية، وعمقت جذور شجرة لا إله إلا الله في نفوسهم، فيصدق عليهم حينئذ أنهم: رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ

[سورة الأحزاب: ٢٣].

لا تهمهم قوة عدو، ولا تنقصهم عزيمة باسل لأن الله هو وليهم وناصرهم،

وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ

[سورة الحج: ٤٠].

قال ابن إسحاق:

(لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ثم من عمه أبي طالب، وإنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة في الإسلام^(١٢٤).

ثم إن لطف الله ورحمته غمرت المؤمنين المستضعفين وذلك بإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث أعز الله به الإسلام، ولذلك قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه»^(١٢٥). إنها نعمة كبرى تجلت في إسلام عمر، الذي منح ولاءه ونصرته المسلمين، وصير بغضه وعداوته وبراءه للكافرين، كيف لا وهو الذي آشتبك مع القوم بعد إسلامه ثم قال: «أفعلوا ما بدا لكم فوالله لو أن قد كنا ثلاث مئة رجل لقد تركناها - أي مكة - لكم أو تركتموها لنا»^(١٢٦).

وسمع المؤمنون بإسلام عمر رضي الله عنه وهم في الحبشة ففرحوا

(١٢٤) «السيرة لابن هشام: (ج١/٣٤٤).

(١٢٥) «السيرة لابن هشام: (ج١/٣٦٧)، وفي «صحيح البخاري»: (ج٦/٤١)، ح٣٦٨٤ مناقب عمر، عن ابن مسعود رضي الله عنه: «مازلنا أعزة منذ أسلم عمر».

(١٢٦) «السيرة لابن هشام: (ج١/٣٧٤).

بذلك ورجع منهم من رجع إلى مكة، ولكن قريشاً صبت عليهم ألواناً من العذاب والاضطهاد فلم يزد هم ذلك إلا صلابة في العود وثباتاً على الحق وأملاً في فرج من الله قريب.

ثم تعرض رسول الله ﷺ ومن معه للدرس آخر من دروس الابتلاء التي هي من سنن الدعوة إلى الله: ذلك الدرس هو موت أبي طالب عم رسول الله الذي كان مناصراً له وحامياً. وموت زوجة رسول الله خديجة رضي الله عنها أول امرأة أسلمت، وكانت مثلاً للمرأة المسلمة الصالحة، وهنا يطمع أعداء الله في رسول الله ﷺ، ولكن الله أكبر من كل شيء ثم رأى المصطفى ﷺ أن يتجه إلى غير قريش عسى أن يجد مجيئاً وناصراً فخرج إلى الطائف، ولكن ثقيفاً خيبت أمله وآذته وسخرت منهم، فأتجه إلى ربه قائلاً: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني؟ أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، إن يحل علي غضبك أو إن ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك» (١٢٧).

ثم رجع إلى مكة.

وعلى الدعاة أن يقفوا طويلاً عند قول المصطفى ﷺ: «إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي» فإن هم الداعية المسلم هو رضاء الله وكفى. ثم بعد ذلك ليكن ما يكون من أمر الناس فإن ذلك ليس له كبير حساب طالما أن الغاية هي رضاء الله.

(١٢٧) «السيرة لابن هشام: (ج٢/٦٠)، والحديث أورده الميثمي في «مجمع الزوائد: (ج٦/٣٥) ونسبه للطبراني وقال: «فيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقيه رجال ثقات» وحكم عليه الألباني في «تخريج قفه السيرة» للغزالي: (ص١٣٢) بالضعف. ولكن ألفاظ الحديث ينقدح منها «نور مشكاة النبوة».

بِرُّ الْأَقَارِبِ الْمُشْرِكِينَ

ومن خلال تتبع القرآن المكي نجد أنه رغم قطع الولاء سواء في الحب أو النصرة بين المسلم وأقاربه الكفار فإن القرآن أمر بعدم قطع صلتهم وبرهم والإحسان إليهم ومع ذلك فلا ولاء بينهم.

قال تعالى:

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ
بِرَّالْيَدِي حَسَنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

[سورة العنكبوت: ٨].

قال البغوي: إن هذه الآية وآية ١٥ من سورة لقمان وهي قوله تعالى:

وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا
وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ تَرْجِعُكُمْ فَأَنْتُمْ كُنْتُمْ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وأمه حمنة بنت أبي سفيان، فقد كان سعد من السابقين الأولين للإسلام، وكان باراً بأمه.

قالت له أمه: ما هذا الدين الذي أحدثت؟ والله لا آكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه، أو أموت فتعير بذلك أهد الدهر، يقال: يا قاتل أمه. ثم إنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل، فأصبحت قد جهدت ثم مكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب، فجاء سعد إليها وقال: يا أمه! لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني، فكلي

وإن شئت فلا تأكلي، فلما أيسست منه أكلت وشربت، فأنزل الله هذه الآية وأمره بالبر بوالديه، والإحسان إليهما، وعدم طاعتها في الشرك لأنه «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» (١٢٨).

لذلك فالولاء لله ودينه والمؤمنين شيء لا طاعة لمخلوق في مخالفته، وبر القريب المشرك شيء. قد يكون من باب تأليفه وترغيبه في الإسلام.

(١٢٨) «تفسير البغوي»: (ج ٥/ ١٨٨)، وانظر «أسباب النزول» للواحدي: (ص ١٩٥)،
فقد ذكر نحو هذا والحديث: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» حديث صحيح
انظر «مشكاة المصابيح»: (ج ٢/ ١٠٩٢، ح ٣٦٩٦).

كيف كانت صورة البراء في العهد المكي؟

(١) إن المسلم من حين أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وهو يحس بأنه قد دخل في دين جديد غير دين آبائه وأجداده، إنه يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهداً جديداً منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية. وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام. وبهذا الإحساس كان يتلقى هدي الإسلام الجديد.. ويمكننا أن نسمي هذا بـ "العزلة الشعورية" فالمسلم قد آنحلع من البيئة الجاهلية، وعرفها وتصورها وعاداتها وروابطها. وأنحلع من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام عن الحياة والوجود، وأنضم إلى التجمع الإسلامي الجديد بقيادته الجديدة. ومنح هذا التجمع وهذه القيادة كل ولائه وطاعته وحبه وتبعيته (١٢٩).

(٢) بعد ذلك جاء الأمر بالإعراض عن الكفار:

فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ مُرَدِّلاً إِلَى الْحَيَوةِ
الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ
سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى

[سورة النجم: ٢٩ - ٣٠].

(٣) وجاء الأمر أيضاً بالصبر والهجر الجميل قال تعالى:

(١٢٩) «معالم في الطريق»: (ص ١٦ - ١٧) بتصرف بسيط.

وَأَصْدِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرَ آبَائِكَ

[سورة المزمل: ١٠].

فَأَصْدِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
وَلَا يَسْتَحْفِظُكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ

[سورة الروم: ٦٠].

ثم يُذَكِّرُ الله سبحانه المؤمنين بفعل أبيهم إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ليأخذوا منه أسوة وقدوة فيقول سبحانه:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ
إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ
﴿١٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

[سورة الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

(٤) وإلى جانب هذا التذكير الرباني، يضرب أيضاً المثل المحسوس والملموس في حياة الناس لمن يوزع ولائه بين أرباب متفرقة، ومن يكون ولاؤه لرب واحد، واتجاه واحد.

صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ
شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

[سورة الزمر: ٢٩].

فقد وضع الله في هذا المثل القرآني حال المشرك الذي لا يؤمن بالله ولا يكون ولاؤه وحبه لله وفي الله بحال العبد الذي تملكه جماعة مشتركين في خدمته لهم لا يمكنه إرضائهم أجمعين، وحال الموحد الذي يعبد الله وحده ويوالي في الله وحده، مثله كمثل عبد للمالك واحد قد سلم له وعلم مقاصده وعرف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه، بل هو سالم

لمالكه من غير منازع فيه، مع رأفة مالكه به ورحمته له وشفقته عليه وإحسانه إليه وتوليته بمصالحه، فهل يستوي هذان العبدان؟ لا. إنهما لا يستويات ﴿الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ (١٣٠).

وعلى طريقة القرآن في اهتمامه بقضية اليوم الآخر لما لها من أثر عظيم في قضية الإيمان: نجد القرآن الكريم يسوق مشهداً من مشاهد يوم القيامة لمن يكون ولاؤه لغير الله، وكيف أنقلب هذا الولاء إلى عداً وبغضاء. ثم كيف أصبحت الحلة عداوة وشحناء.

قال تعالى:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ لِجَعَلْنَاهُمْ نَارَ آفٍدَانٍ أَلَيْسَ لَكُنَّ عَاقِلِينَ

[سورة فصلت: ٢٩].

وقال:

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ

[سورة الزخرف: ٦٧].

وقال:

وَيَوْمَ يَعْصِيُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ
يَا بَنِيَّ اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّى بَنِيَّ لَوْ لَأَخَذَ
فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا

[سورة الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

(٥) ثم جاء التصريح الكامل لأعداء الله بأن دينكم باطل لا ندخل فيه، وديننا

(١٣٠) «أمثال القرآن» لابن القيم: (ص ٥٣) بتصرف بسيط، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ، تحقيق الدكتور ناصر الرشيد، الناشر: دار مكة.

هو الحق الذي ندين الله به، فلا نعبد ما تعبدون، ولا انتم عابدون ما نعبد.

لكم دينكم ولي دين

ولما رأى المشركون صلابة المسلمين وأستعلاءهم بديهم، ورفعة نفوسهم فوق كل باطل ولما بدأت خطوط اليأس في نفوسهم من أن المسلمين يستحيل رجوعهم عن دينهم سلكوا مهزلة أخرى من مهازلهم الدالة على طيش أحلامهم ورعونتهم الحمقاء.

فقد دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة فأنزل الله سورة الكافرون:

قُلْ يَتَّابِئُ الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝
وَلَا أَسْأَلُ عِبَادُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝

[سورة الكافرون: ١ - ٦] (١٣١)

ومثل هذه السورة آيات أخرى تشابهها في إعلان البراء من الكفر وأهله مثل قوله تعالى:

وَإِنْ كَذَّبْتُمْ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ
أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ

[سورة يونس: ٤١].

وقوله تعالى:

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

(١٣١) انظر تفسير ابن كثير: (ج ٨/ ٥٢٧).

أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا مَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾
 قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِنْدِيَ مَا
 تَسْتَغْلِبُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ يَقُضُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِيلِينَ

[سورة الأنعام: ٥٦ - ٥٧].

وقوله تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ
 تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم وَأُمِرْتُ
 أَن أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَن أَقْدِرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
 وَلَا تَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ

[سورة يونس: ١٠٤ - ١٠٥].

بهذه النصاعة وهذا الوضوح جاءت هذه الآيات الكريمات لترسم معالم
 الطريق بين الصف الإسلام والصف الكافر المشرك الذي لا يؤمن بالله ورسوله.
 ومع هذا الوضوح القرآني نجد أن بعض المتسبين للعلم قد فهم من هذه الآيات
 - وخاصة سورة الكافرون - إنها إقرار من رسول الله ﷺ للكفار على دينهم
 الباطل وهذا زعم باطل. يخالف حقيقة الإسلام، ودعوة رسول الإسلام.
 ومضاد لدعوة الرسل جميعاً.

يقول العلامة آبن القيم رحمه الله:

(إن هذه السورة - سورة الكافرون - تشتمل على النفي المحض وهذه
 خاصية هذه السورة، فإنها سورة براءة من الشرك كما جاء في وصفها (١٣٢)

(١٣٢) «سنن أبي داود»: (ج ٣/٥، ح ٥٠٥٥) في الأدب، والترمذي: (ج ٩/١١٠،
 ح ٣٤٠٠) في الدعوات، و«مسند الإمام أحمد»: (ج ٥/٤٥٦)، والدارمي:
 (ج ٢/٤٥٨) في فضائل القرآن، وقال الألباني: حديث حسن. انظر «صحيح
 الجامع الصغير»: (ج ١/١٤٠، ح ٢٨٩).

(ومقصودها الأعظم البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين، ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة. مع تضمنها للإثبات بأن له معبوداً يعبد، وأنتم يريون من عبادته، وهذا يطابق قول إمام الحنفاء ﴿إني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٧] فانتظمت حقيقة لا إله إلا الله.

(ولهذا كان النبي ﷺ يقرنها بسورة الإخلاص في سنة الفجر (١٣٣) وسنة المغرب (١٣٤) وحين أخبر الله أن لهم دينهم وله دينه: هل هو إقرار فيكون منسوخاً أو مخصوصاً؟ أو لا نسخ في الآية ولا تخصيص؟

(هذه مسألة شريفة من أهم المسائل، وقد غلط في السورة خلائق، وظنوا أنها منسوخة بآية السيف لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم! وظن آخرون: أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب!

وكلا القولين غلط محض، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص، بل هي محكمة وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها، فإن أحكام التوحيد التي آتفت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه.

(وهذه السورة أخلصت التوحيد، ولهذا تسمى أيضاً سورة الإخلاص. ومنشأ الغلط: ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم. ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف فقالوا: منسوخة!!

وقالت طائفة: زال عن بعض الكفار وهم من لا كتاب لهم فقالوا هذا مخصوص! ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريراً لهم أو إقراراً على دينهم أبداً. بل لم ينزل رسول الله ﷺ في أول الأمر وأشدّه عليه وعلى أصحابه

(١٣٣) «صحيح مسلم، بشرح النووي: (ج/٥)، و«المستد»: (ج/٤/٢٢٥) بطبع الساعاني.

(١٣٤) «مشكاة المصابيح»: (ج/١/٢٦٨)، وانظر «بدائع الفوائد»: (ج/١/١٣٨).

أشد على الإنكار عليهم، وعيب دينهم وتقييحه، والنهي عنه، والتهديد والتوعيد في كل وقت وفي كل ناد. فكيف يقال إن الآية، آقتضت تقريراً لهم؟ معاذ الله من هذا الزعم الباطل.

وإنما الآية آقتضت البراءة المحضة كما تقدم، وأن ما أنتم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبداً، فإنه دين باطل فهو مختص بكم لا نشركم فيه، ولا أنتم تشركوننا في ديننا الحق.

فهذه غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم، فأين الإقرار حتى يدعى النسخ أو التخصيص؟!

أفترى إذا جاهدوا بالسيف كما جاهدوا بالحجة لا يصح أن يقال: لكم دينكم ولي دين؟

بل هذه آية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يطهر الله منهم عباده وبلاده. وكذلك حكم هذه البراءة بين أتباع الرسول ﷺ أهل سنته وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به، الداعين إلى غير سنته إذا قال لهم خلفاء الرسول وورثته لكم دينكم ولنا ديننا لا يقتضي هذا إقرارهم على بدعتهم، بل يقولون لهم هذه براءة منها. وهم مع هذا منتصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الإمكان^(١٣٥).

وزاد هذا الأمر إيضاحاً وبياناً: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال: (قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ اللام في لغة العرب يدل على الاختصاص فأنتم مختصون بدينكم لا أشركم فيه، وأنا مختص بديني لا تشركوني فيه كما قال تعالى:

(١٣٥) «بدائع الفوائد»: (ج ١/ ١٣٨ - ١٤١) بتصرف بسيط.

لِيَعْمَلِيَ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ، وَأَنَا بَرِيءٌ
مِمَّا تَعْمَلُونَ

[سورة يونس: ٤١].

وليس في هذه الآية أنه رضي بدين المشركين، ولا أهل الكتاب، كما
يظنه بعض الملحدين، ولا أنه نهى عن جهادهم كما ظنه بعض الغالطين،
وجعلوها منسوخة. بل فيها براءة من دينهم، وبرأتهم من دينه، وأنه لا تضره
أعمالهم، ولا يجزون بعمله ولا ينفعهم. وهذا أمر محكم لا يقبل النسخ، ولم
يرض الرسول بدين المشركين، ولا أهل الكتاب طرفة عين قط.

ومن زعم أنه رضي الله بدين الكفار، وأحتج بقوله تعالى:

قُلْ يَتَّبِعُوا الْكُفْرَ وَلَا تَعْبُدُوا مَا تَعْبُدُونَ ۖ
وَلَا أَنْتُمْ عَائِدُونَ ۚ مَا أَعْبُدُ إِلَّا أَنْاءَ مَا عَبَدْتُكُمْ ۖ
وَلَا أَنْتُمْ عَائِدُونَ ۚ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۖ

[سورة الكافرون: ١ - ٦].

فظن هذا الملحد أن قوله ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ معناه أنه رضي بدين
الكفار، ثم قال هذه الآية منسوخة فيكون قد رضي بدين الكفار، فهذا من
أبين الكذاب والافتراء على محمد ﷺ، فإنه لم يررض قط إلا بدين الله الذي
أرسل به رسله، وأنزل به كتبه. ونظير هذه الآية قوله تعالى:

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ كَفَرْنَا بِهِ عَدُوٌّ لَنَا وَقَدْ كَفَرْنَا بِهِ عَدُوٌّ لَكُمْ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا
أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ

[سورة يونس: ٤١].

وقوله تعالى:

فَلِذَلِكَ فَادِّعْ وَأَسْتَفِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ
وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ
بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ

[سورة الشورى: ١٥].

وإذا كان الله سبحانه قد قال:

وَلَا تَخِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي
بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ

[سورة الشعراء: ٢١٥ - ٢٠٦].

فبرأه من معصية من عصاه من أتباعه المؤمنين، فكيف لا يرثه من كفر
الكافرين الذين هم أشد له معصية ومخالفة؟ (١٣٦).

ورحم الله عبد الله بن عباس حين قال في شأن هذه السورة «ليس في
القرآن أشد غيظاً لإبليس منها، لأنها توحيد وبراءة من الشرك» (١٣٧) وقال
الأصمعي: كان يقال لـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾
المقشقتان. أي أنهما تبرئان من النفاق (١٣٨).

فرج من الله قريب

قال ابن إسحاق: «فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ،
وإنجاز مواعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر
من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم،
فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً، فقال لهم

(١٣٦) «الجواب الصحيح لمن نزل دين المسيح» لابن تيمية: (ج ٢/ ٣٠ - ٣٢).

(١٣٧) «تفسير القرطبي»: (٢٠/ ٢٢٥).

(١٣٨) «تفسير القرطبي»: (٢٠/ ٢٢٥).

ﷺ من أنتم؟ قالوا: نفر من الخرج قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.. فقال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا والله إنه للبي الذي توعدكم به يهود فلا تسفنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام. وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فستقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجنبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا، فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم رسول الله ﷺ ودعواهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ (١٣٩).

أجل: بعد كل ذلك العناء وتلك المصابرة هياً الله اللطيف الخبير من ينصر هذا الدين ويعلي كلمته، ويشهره في الأرض بعد أن آوى رسول الله وأصحابه الأوائل. إنه لشرف دونه كل شرف أن يُسموا "الأنصار" أنصار الله، أنصار نبيه، أنصار دينه، أنصار عباده المؤمنين، وليسوا أنصار الجاهلية وطواغيتها وجابرتها الذين هم في أعين الناس كبار وهم في حقيقة الأمر صغار وأقزام!!

ولما كان العام المقبل وصل إلى مكة من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوا رسول الله ﷺ بالعقبة الأولى فبايعوه، وكانت البيعة على الإسلام وأرسل معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير (١٤٠) رضي الله عنه يقرئهم القرآن،

(١٣٩) السورة لابن هشام: (ج ٧٠/٢ - ٧١).

(١٤٠) هو مصعب بن عمير بن هشام نشأ في بيت ثري، مدلاً غاية الدلال، كان يُعرف بأنه أعطر أهل مكة ثم أسلم فانقلبت تلك النعومة إلى خشونة ورجولة كان من السابقين للإسلام ومن المهاجرين للحبشة في الهجرة الأولى، ثم هاجر للمدينة، وشهد بدرًا وحمل اللواء في أحد فاستشهد، وفي الصحيح أن مصعباً =

ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، ويؤمهم في الصلاة^(١٤١)

وقد مصعب رضي الله عنه ومعه وفد كريم من الأنصار في موسم الحج فكانت بيعة العقبة الكبرى حيث تساءلوا وهم خارجون من المدينة: حتى متى نترك رسول الله يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟

لقد بلغ الإيمان أوجه في هذه القلوب الفتية، وأن لها أن تنفس عن حماسها، وأن تفك هذا الحصار الخانق المضروب حول الدعوة والداعية^(١٤٢).

صيغة البيعة

تكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، فأخذ البراء بن معرور^(١٤٣) بيده ثم قل: نعم والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه أئزنا^(١٤٤) فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة^(١٤٥)، ورثناها كابراً عن كابر. فأعرض أبو الهيثم بن التيهان^(١٤٦)

= لم يترك إلا ثوباً فكان إذا غطوا رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطوا رجله خرج رأسه فقال رسول الله ﷺ: «اجعلوا على رجله شيئاً من الأذخر»، انظر «صحيح البخاري»: (ج ١٤٢/٣)، ح ١٢٧٦ كتاب الجنائز، و«الإصابة»: لابن عبد البر: (ج ٤٦٨/٣)، و«الإصابة»: لابن حجر: (ج ٤٢١/٣)، و«مصعب بن عمير» للاستاذ محمد بريغش وغير ذلك من كتب السير.

(١٤١) «السيرة لابن هشام»: (ج ٧٦/٢).

(١٤٢) «فقه السيرة» للشيخ محمد الغزالي: (ص ١٥٧).

(١٤٣) هو البراء بن معرور الخزرجي الأنصاري أول من بايع وأول من استقبل القبلة وأول من أوصى بثلاث ماله، وأحد النقباء من الاثنى عشر. انظر «الإصابة»: (ج ١٤٤/١)، و«الأعلام» للزركلي: (ج ٤٧/١) الطبعة الرابعة. والحديث في «المسند»: (ج ٤٦١/٣).

(١٤٤) أي نساءنا.

(١٤٥) أي السلاح.

(١٤٦) أبو الهيثم بن التيهان: مالك بن عتيك الأنصاري الأوسي: أحد النقباء. آخى =

فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حباً وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: قتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتهم وأسلم من سالمهم» (١٤٧).

قال ابن هشام: الهدم الهدم: يعني الحرمة، أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم (١٤٨).

ثم قام: أسعد بن زرارة (١٤٩) فقال: رويداً يا أهل يثرب: فإننا لم نصرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجهم اليوم مناواة للعرب كافة، وقتل خياركم وإن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جنة فبينوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله، فقالوا يا أسعد: أمط عنا يديك، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقبلها، ثم قاموا إليه رجلاً رجلاً فبايعوه (١٥٠).

= النبي ﷺ بينه وبين عثمان بن مظعون، وشهد المشاهد كلها، وهو القائل في رثاء رسول الله ﷺ (لقد جدعت أذاننا وأنوفنا غداة فجعنا بالنبي محمد)، توفي في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة سنة عشرين. انظر «الاستيعاب»: (ج ٤/٢٠٠)، و«الإصابة»: (ج ٤/٢١٢)، و«المعارف» لابن قتيبة: (ص ٢٧٠) تحقيق ثروت عكاشة، و«الأعلام» للزركلي: (ج ٥/٢٥٨).

(١٤٧) «السيرة» لابن هشام: (ج ٢/٨٤ - ٨٥)، والحديث في «المسند»: (ج ٢/٢٧٤) طبعة الساعاتي مع «الفتح الرباني».

(١٤٨) «السيرة» لابن هشام: (ج ٢/٨٤ - ٨٥)، والحديث في «المسند»: (ج ٢/٢٧٤) طبعة الساعاتي مع «الفتح الرباني».

(١٤٩) أسعد بن زرارة: أبو أمانة الأنصاري الخزرجي النجاري، شهد العقبتين، وكان نقيباً على قبيلته. ذكر الواقدي أنه مات على رأس تسعة أشهر من الهجرة. وقال البيهقي: بلغني أنه أول من مات من الصحابة بعد الهجرة وأنه أول ميت صلى عليه النبي ﷺ. قال ابن حجر: وقد اتفق أهل المغازي والتواريخ أنه مات في حياة النبي ﷺ قبل بدر. «الإصابة»: (ج ١/٣٤).

(١٥٠) «مسند أحمد»: (ج ٣/٣٢٢، ٣٣٩، ٣٩٤)، والحاكم: (ج ٢/٦٢٤ - ٦٢٥)، =

أجل: (إنه الإيمان بالله والحب فيه، والإخوة على دينه، والتناصر بأسمه، ذلك كله كان يتدافع في النفوس المجتمعة في ظلام الليل بجوار مكة السادرة في غيها، يتدافع ليعلم أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم، وسوف يمنعونه بأرواحهم، فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء) (١٥١).

تري: أي صورة أعظم من هذه الصورة لهذا الولاء الصادق؟ لقد كانت بيعة على دين الله ومرضاته. وأنظر إلى رد المصطفى ﷺ: «بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» هذه هي الصلة الحقيقية والوشيجة الصادقة لعلاقة المسلم بأخيه المسلم. لقد أصبح الدم واحداً. «أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم» وهكذا تنقطع علائق الدم الجاهلي والتناصر الجاهلي والولاء الجاهلي ليحل محلها الولاء الإسلامي والوقوف في الصف الإسلامي والبراءة من الكفر وأهله وأعتناق الإخوة الجديدة التي أمر الله بها. إنها البديل الصالح لتلك الوشائج الجاهلية كما قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» (١٥٢).

وهكذا نصل إلى معرفة ما فعل الله بنبيه ودعوته ومن معه، وما هياً لهم من النصر والمنعة والدار التي يقام فيها حكم الله وشريعته ومنهاجه في الأرض. أرض الأنصار. أرض الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

فإلى صورة جديدة مشرقة للولاء في العهد المدني.

= والبيهقي في «السنن الكبرى»: (ج ٩/٩).

(١٥١) «فقه السيرة» للشيخ الغزالي: (ص ١٦١).

(١٥٢) «صحيح البخاري»: (ج ١٠/٤٤٢، ح ٦٠٢٦) كتاب الأدب، و«صحيح مسلم»: (ج ٤/١٩٩، ح ٢٥٨٥) كتاب البر والصلة.

الفصل السادس

الولاء والبراء في العهد المئني

لما أراد الله إظهار دينه، وإعزاز عبده ورسوله محمد ﷺ ومن معه، أمره بالهجرة لتكون مبدأ فاصلاً بين الحق والباطل، وبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (١٥٣).

ولقد كانت الهجرة إيذاناً من المولى جلّ وعلا بقرب وعده الذي وعد به المؤمنين وهو وعد دائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قال تعالى:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا كَثُورًا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾

[سورة النور: ٥٥].

ولقد وقع هذا التمكين الرباني بالفعل ولذلك نجد القرآن يذكر المؤمنين بهذا التمكين والنصر فيقول:

وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّتَضَاعُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَكْهَنَ عَلَيْكُمُ النَّاسُ فَتَوَلُّوهُمْ وَابْتَدَأُكُمْ بِنَصْرِهِمْ لِيَبْزُقَكُمْ مِّنَ الْإِيمَانِ لَمَّا كُنْتُمْ تُشْكِرُونَ ﴿٢٦﴾

[سورة الأنفال: ٢٦].

(١٥٣) انظر نزول المائدة (ج ٢/٤٢) تحقيق الأرنؤوط

وسيقى هذا الوعد بالتمكين مادام المسلمون ملتزمون بالشرط وهو عبادته وحده لا شريك له.

نبذة تاريخية

لما أذن الله بالهجرة: خرج المسلمون إلى المدينة زرافات ووحدانا، ولم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي حيث أقاما بأمر منه ﷺ وإلا من أحببته المشركون كرهاً.

ولما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا، وخرجوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى المدينة، وعرفوا أنها دار منعة، وأن أهلها أهل حلقة وشوكة وبأس: خافوا خروج رسول الله ﷺ إليهم ولحقه بهم حيث سيشتد أمره وتقوى شوكته، فلذلك اجتمعوا في دار الندوة ولم يتخلف أحد من أهل الرأي والحج منهم ليشتاوروا في أمره.

وخرجوا من ذلك الاجتماع برأي واحد: وهو أن يقرم من كل قبيلة شاب ثم يضربوه ضربة رجل واحد ليتفرق دمه في القبائل.

ولكن حماية الله ونصرته لنبيه ﷺ أكبر من مكر أولئك المجرمين، فتد نزل جبريل عليه السلام على المصطفى ﷺ يأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة. وخرج رسول الله ﷺ ومعه صاحبه الأمين أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وبقي علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث نام تلك الليلة في فراش المصطفى ﷺ. وينتهي الأمر بخسارة وذلة "الملاء" من قريش (١٥٤).

ووصل المصطفى ﷺ إلى دار الهجرة، دار النصر والمنة، حيث وجد

(١٥٤). انظر السيرة النبوية لابن هشام: (ج ٢/ ١٢٤ - ١٢٧)، و زاد المعاد: (ج ٢/ ٥٠ - ٥١).

”أنصار الله“ فكانت هذه الهجرة نصراً للمؤمنين المهاجرين الذين وجدوا من يؤويهم وينصرهم ويشاركهم الأموال والمساكن وحتى الأزواج!! وكانت نصراً أيضاً للأنصار حيث قضى على الأحن والأحقاد الجاهلية بين أوسهم وخزرجهم، وعلى كيد اليهود الذين كانوا يشيعون بينهم الفرقة والفتنة.

وكان أول عمل قام به رسول الله ﷺ في المدينة هو بناء المسجد. لينطلق منه النداء الرباني ”الله أكبر الله أكبر“ وليكون هذا المسجد الطاهر هو الملتقى التربوي للأمة المسلمة يتلقون فيه وحي الله عن رسول الله، ويتعلمون أمور دينهم، وهذا المسجد هو أيضاً مكان القيادة العسكرية الإسلامية التي انطلقت للجهاد في سبيل الله.

وبعد ذلك: (أخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلاً نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار آخى بينهم على المواساة، يتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى حين وثمة بدر، فلما أنزل الله عز وجل:

وَأَزَلُّوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ

[سورة الأحزاب: ٦].

رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة (١٠٥).

إن هذه الإخوة الإيمانية هي الوشيجة العظمى، والرابطة الفريدة في علاقات البشر بعضهم مع بعض، فلقد أحس كل مؤمن - كما نال الأستاذ محمد قطب - سواء كان مهاجراً أم أنصارياً برابط جديد يربطه بأخوته في الله، فكل واحد منهم يحب أخاه كحبه لنفسه، مع أنه من قبيلته ولا بينهما آصرة دم بل أن آصرة الدم - حين كانت في الجاهلية - لم تكن تنشأ

في نفس أحدهم ذلك الحب الصافي العجيب الذي يحسه الآن لأخيه في العقيدة.

ترى ما الفرق بين لقاء الجاهلية ولقاء الإسلام؟

لماذا لا توجد هذه المشاعر إلا على العقيدة؟

والجواب: أن الأمر ليس سرًا، ولا سحرًا، ولكنه الإسلام يلتقي فيه الناس على العقيدة في الله، لأن كلاً منهم يحب الله ورسوله، فلا تكون ذواتهم بارزة ولا متوفرة لاقتناص المصلحة من الآخر كما هي الحال في العلاقات الجاهلية، وإنما الجانب البارز هو الحب في الله^(١٥٦).

وقفه عند المواخاة

بين المهاجرين والأنصار

إن هذه الأخوة جديرة بالدراسة والاعتبار. ذلك أنه نتج عنها أمور عظيمة في حياة المسلمين سواء في مستوى "الأمة والدولة" أم على مستوى الأفراد.

فأما ما يتعلق بهم أمة: فقد كانت هذه المواخاة هي الركيزة الأساسية في تكوين مفهوم "الأمة المسلمة" أمة آلتقت على العقيدة في الله، وعاشت لأجل تلك العقيدة وليس لرابطة الدم أو الحسب والنسب، أو الأرض أو اللون أو اللغة، أو الجنس فيها أي حساب يذكر إذا تعارض ذلك مع العقيدة. والله سبحانه وتعالى هو صاحب المنة والفضل في ذلك فهو القائل:

وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا
وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ

(١٥٦) منهج التربية الإسلامية: (ج ٢/ ٤٠ - ٤١).

فَأَنذَرْتُكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

[سورة آل عمران: ١٠٣ - ١٠٥].

لقد أصبح المؤمنون أولياء بعضهم لبعض، كل منهم يحب أخاه كحبه لنفسه، ويناصره ويجاهد من أجله، ويؤثره على كل قريب وحبيب من مال أو أهل أو عشيرة أو ولد

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

[سورة التوبة: ٧١].

وأشد كيانهم فكانوا كالجسد الواحد «المؤمن للمؤمن كالبيان الواحد يشد بعضه بعضاً ثم شبك ﷺ بين أصابعه» (١٥٧) وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «تري المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى» (١٥٨).

ولقد أثنى سبحانه وتعالى على المهاجرين والأنصار. فقال سبحانه عن المهاجرين:

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ
هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾

[سورة الحشر: ٨].

(١٥٧) سبق تخريجه: (ص ١٨٩).

(١٥٨) «صحيح البخاري»: (ج ١٠/٤٣٨، ح ٦٠١١) كتاب الأدب، و«صحيح مسلم»: (ج ٤/١٩٩٩، ح ٢٥٨٦) كتاب البر، واللفظ للبخاري.

ثم يشني سبحانه على الأنصار بقوله:

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ
يَجْعَلُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً
مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ
وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦١﴾

[سورة الحشر: ٩].

بل إن الأمر أصبح أكبر من ذلك. فهؤلاء الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ، ومن معه وآزروهم ونصروهم وبذلوا لهم النفس والنفيس آتقاء رضوان الله قد أصبح حبهم من العقيدة التي يدين بها المسلم ربه، وبغضهم وكراهيتهم نفاق ففي الحديث الصحيح «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار» (١٥٩).

وقال ﷺ: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله» (١٦٠).

وبهذه الأخوة تكون "المجتمع الإسلامي" ذلك المجتمع الذي تظلله راية لا إله إلا الله وتحكمه الشريعة الربانية، ويسوده الحب والتفاني، ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر، الجهاد رهبانيته، والدعوة إلى الله سبيله ومنهاج حياته، القوي فيه ضعيف حتى يؤخذ الحق منه، والضعيف فيه قوي حتى يأخذ حقه، ولاؤه لله ورسوله والمؤمنين وبغضه وكراهيته لأعداء الله ولو كانوا أقرب قريب، وحدوا حلاوة الإيمان وطعمه، وعرفوا الكفر وأهله حتى أن أحدهم

(١٥٩) «صحيح البخاري»: (ح/١ ٦٢ ح/١٧) كتاب الإيمان، و«صحيح مسلم»: (ح/١ ٨٥ ح/٧٤). واللفظ للبخاري.

(١٦٠) «صحيح البخاري»: (ح/٧ ١١٣ ح/٣٧٨٣) كتاب المناقب، و«صحيح مسلم»: (ح/١ ٨٥ ح/٧٥). واللفظ للبخاري.

يحب أن يلقي في النار ولا يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما قال ﷺ - وهذا ما تحقق فيهم - «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله، وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» (١٦١).

وبهذه المؤاخاة الإيمانية وجد "التكافل الاجتماعي" وبرزت فيه صور خالدة لم توجد قط إلا فيه وحده!!

ومنها ما رواه البخاري أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال سعد لعبد الرحمن: إنني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم مالي نصفين! ولي امرأتان فأنظر إلي أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها، فإذا أنقضت عدتها فتزوجها!! قال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع فلما أنقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدو حتى جاء يوماً وبه أثره صفرة، فقال النبي ﷺ: «مهم؟» قال: تزوجت. قال: «كم سقت إليها؟» قال: نواة من ذهب (١٦٢) (وإن إعجاب المرء بسماحة سعد لا يعدله إلا إعجابه بنبل عبد الرحمن الذي زاحم اليهود في سوقهم وبزهم في ميدانهم، وأستطاع بعد أيام أن يكسب ما يعف به نفسه ويحصن به فرجه، ذلك أن علو الهمة من خلائق الإيمان) (١٦٣).

وخلاصة القول: إن هذه المؤاخاة (كانت تدريباً عملياً على الأخوة الإسلامية التي تبعثها تلك العقيدة في نفوس المؤمنين بها ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وكان تدريباً ناجحاً نذراً في نجاحه، فريداً في التاريخ.

(١٦١) «صحيح البخاري»: (ج ١٠/٤٦٣ خ ٦٠٤١) كتاب الأدب، و«صحيح

مسلم»: (ج ١/٦٦ ح ٤٣). واللفظ للبخاري.

(١٦٢) «صحيح البخاري»: (ج ٧/١١٢ ح ٣٧٨٠) كتاب مناقب الأنصار.

(١٦٣) «فقه السيرة» للشيخ الغزالي: (ص ١٩٣)

وكانت كذلك تدريجاً عملياً على- "التكافل" وهو معنى من المعاني العميقة في بناء الجماعة الإسلامية. القادرون يكفلون غير القادرين على أساس الأخوة في الله من جانب وعلى أساس التصرف في مال الله بما يرضي الله من جانب آخر (١٦٤).

ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثاً جماعياً كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين. بهذا الحب الكريم. وبهذا البذل السخي. وبهذه المشاركة الرضية. وبهذا التسانق إلى الإيواء واحتمال الأعباء. حتى ليرى أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة.

سمات الولاء والبراء في العهد المدني

لئن كانت سمات العهد المكي - كما سبق القول في ذلك - هي: بيان الحجة وإقامتها. والصبر على الأذى وكف الأيدي، والهجر الجميل، فإن ذلك كان لحكمة ربانية، منها: أن ذلك كان لتربية الأمة على هذا الدين الحنيف، وصقل النفوس على ضوء منهاجه، والتقيد الكامل بأمر الله ورسوله في الفعل والترك على حد سواء.

ولكن الأمر أخذ صورة أخرى في العهد المدني، فمن الهجرة إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، إلى قيام الدولة المسلمة إلى الجهاد في سبيل الله وهيمنة الشريعة الإسلامية.

وأول ما نذكره في هذا العهد: هو الوثيقة التي كتبها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم، حيث وادع فيها اليهود، وعاهدهم، وتركهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم. وقد أوردها ابن

(١٦٤) «منهج الترية الإسلامية» للاستاذ محمد قطب: (ج٢/٦٩).

• والظلال: (ج٦/٣٥٢٦).

إسحاق دون سند^(١٦٥)، وأوردها البنا في شرح مسند الإمام أحمد^(١٦٦)، وأوردها أصحاب السير والمغازي.

على أنني سأقتصر على بعض فقراتها التي تخص موضوع الموالاة. جاء في أولها: «بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس»^(١٦٧).

«... وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن من دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة»^(١٦٨) ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وأن أيدىهم عليه جميعاً. ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم».

«وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين»^(١٦٩).

(١٦٥) «السيرة النبوية» لابن هشام: (ج ٢/١٤٧).

(١٦٦) «المسند» بشرح البنا: (ج ٢١/١٠).

(١٦٧) «السيرة» لابن هشام: (ج ٢/١٤٧).

(١٦٨) الدسيعة: العظيمة.

(١٦٩) «السيرة» لابن هشام: (ج ٢/١٤٨-١٤٩).

هذه الوثيقة هي الصورة الصادقة لحقوق الإنسان حيث وردت بما يجعل المجتمع الإسلامي مجتمعاً متلاحماً متماسكاً، وكفّلت - أيضاً - حقوق أهل الديانات الأخرى ما داموا يعيشون تحت مظلة الحكم الإسلامي.

وقد لخص الإمام آبن القيم رحمه الله صورة المجتمع المدني آنذاك بقوله: (لما قدم النبي ﷺ المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام: قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه، ولا يظاهروا عليه، ولا يوالوا عليه عدوه وهم على كفرهم، آمنون على دمائهم وأموالهم.

وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة.

وقسم تاركوه، فلم يصلحوه ولم يحاربوه، بل أنتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه، ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم، ومنهم من دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه في الباطن، ليأمن الفريقين وهؤلاء هم المنافقون. فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه تبارك وتعالى (١٧٠).

* * *

وقد أتضح لي من خلال هذا البحث أن هناك ثلاثة أمور هامة هي سمات هذا العهد:

(١) كيد أهل الكتاب للإسلام "ثم النهي والتحذير من موالاتهم وطاعتهم".

(٢) ظهور النفاق والمنافقين.

(٣) البراء من هؤلاء وأولئك: أي المفاصلة التامة بين المسلمين وأعدائهم ولها صور ترد في موضعها.

(١٧٠) فزاد المعاد: (ح ٣/١٢٦).

أولاً: كيد أهل الكتاب للإسلام وتحذير المسلمين من موالاتهم:

تتفق نظرة المنصفين الباحثين في التاريخ اليهودي: أن اليهود أمة حاقدة، الخداع طبعها، والغدر ديدنها، ومحادة الله ورسوله خلقها، ولحكمة الله يعلمها. أنتقلت الرسالة من بني إسرائيل فكان خاتم الأنبياء هو محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي العربي ﷺ وقد كان كيد اليهود - خاصة - قد بدأ منذ أن كان رسول الله ﷺ في مكة حيث كانت تُعاون قريشاً في أسئلة العناد التي توجه للمصطفى ﷺ، وذلك مثل قولهم لقريش: آسألوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وغير ذلك مما هو معلوم من سورة الكهف.

ولما هاجر رسول الله ﷺ ومن معه إلى المدينة، قامت قيامة اليهود، فلم يهدأ لهم بال، ولم يهنأ لهم عيش. ذلك أن قيام الدولة المسلمة في الأرض له أثره الكبير عليهم، فالإسلام هو الذي يكسر شوكتهم، ويفضح مكنوناتهم، ويحرر الناس من شرورهم، ويمزق شملهم وسيطرتهم وجبروتهم. ومن هنا لم يفتأوا يكيدون للإسلام ورسوله والمؤمنين، وينصبون العراقل في وجه من يريد الإسلام وولد النفاق والمنافقون في أحضانهم، وخانوا الله ورسوله فلم يتقيدوا بالوثيقة الآتفة الذكر، وغدروا بالمسلمين فوالوا المشركين والكفار، وآذوا رسول الله ﷺ وهموا بما لم ينالوا.

ولذلك عني القرآن المدني وخاصة أكبر سوره - وهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة - بكشف سترهم وفضحهم، وبيان كيدهم. والآيات الكريمة في هذا كثيرة جداً ولكنني أورد طرقاتاً منها هنا؛ لينضح "للمسلمين" المخدوعين بهم اليوم، الذين يوالونهم ويجلونهم بل يقتدون بهم. ما عليه أعداء الله الذين هم قلة الأنبياء ودعاة الفساد في الأرض.

قال تعالى:

وَذَكَرْتُ مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَوِيزُوا نَفْسَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَمَا رَاحِكُوا

مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا
وَأَصْفَحُوا حَقَّ يَأْتِي اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

[سورة البقرة: ١٠٩].

وفي سورة آل عمران:

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ
وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

[سورة آل عمران: ٦٩].

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا
بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجِءَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرُهُ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

[سورة آل عمران: ٧٢].

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

[سورة البقرة: ١٣٥].

مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

[سورة البقرة: ١٠٥].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْمُرُكُمْ بِحَبَالٍ
وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي

صُدُّوهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

[سورة آل عمران: ١١٨].

فهذه الآيات وغيرها مما في مثل معناها: تبين كيدهم وما يتربصون به للإسلام وأتباعه. ولذلك جاءت آيات كثيرة في تحذير المؤمنين ونهيهم عن الاستماع للكفار عامة ولأهل الكتاب خاصة، أو طاعتهم، أو اتخاذهم أولياء، أو الركون إليهم. وسأقتصر هنا أيضاً على بعض هذه الآيات لأنه سيأتي مزيد من تفصيل هذا في الفصل التالي إن شاء الله حول صور الموالاة.

قال تعالى:

وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَمَا لِي بِالَّذِينَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

[سورة البقرة: ١٢٠].

يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٢١﴾
بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ

[سورة آل عمران: ١٤٩ - ١٥٠].

يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا
فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يُرْدُّوكُمْ بِعَدَائِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٢٢﴾
وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ
رَسُولُهُ وَمَنْ يَنْصِبِ لِلَّهِ فَعْدٌ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٣﴾

[سورة آل عمران: ١٠٠ - ١٠١].

ورد في سبب نزول هاتين الآتين: أن شاس بن قيس اليهودي - وكان شيخاً قد أغبر في الجاهلية، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم - مر على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس جمعهم، يتحدثون فيه، فقاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم، وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة فقال: قد آتجمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار! فأمر شاباً من اليهود كان معه فقال: أعمد إليهم فأجلس معهم، ثم ذكرهم بعث - أحد أيامهم في الجاهلية - وما كان فيه، وأنشدهم بعض ما كانوا يقولوا فيه من الأشعار، ففعل. وتكلم القوم عند ذلك فتنزعوا وتفاخروا حتى تواب رجلان من الحيين، فتقاولا، وقال: أحدهما لصاحبه: إن شئت رددتها جذعة! وغضب الفريقان جميعاً وقالوا: أرجع السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة - وهي الحرة - فخرجوا إليها، وانضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية.

وبلغ رسول الله ﷺ ذلك فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين، حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين: الله الله أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً!!». فعرى القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم أنصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ الآية.

قال جابر بن عبد الله، ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله ﷺ، فأومأ إلينا بيده، فكففنا وأصلح الله تعالى ما بيننا، فما كان شخص أحب إلينا

من رسول الله ﷺ، فما رأيت يوماً أقبح ولا أوحش أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم^(١٧١).

ويوجه الله عباده المؤمنين ويرشدهم - بعد أن ذكر قصة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام في قصة ذبح البقرة - بقوله:

أَفَنظَمُونَ أَنْ تُوْصُوا بِكُمْ وَقَدْ كَانَ قَرِيبٌ مِنْهُمْ
يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذْ أَلْقَا الَّذِينَ آمَنُوا قُلُوبَهُمْ
وَإِذَا اخْلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ سَمْعًا
أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾
أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾

[سورة البقرة: ٧٥ - ٧٧].

ثم يأتي التحذير الأقوى في سورة المائدة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَبِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْقَوْمِ
الْقَلِيلِينَ

[سورة المائدة: ٥١].

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ
يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُغْلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلِسَانًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ مُوقِنِينَ ﴿٥٧﴾

[سورة المائدة: ٥٥ - ٥٧].

(١٧١) انظر «تفسير الطبري»: (ج ٤/٢٣)، و«أسباب النزول» للواحدي: (ص ٦٦)،
و«أحكام القرآن» للقرطبي: (ج ٤/١٥٥)، و«تفسير البغوي»: (ج ١/٣٨٩).
وقد بذلت جهدي في تخریج الحديث من المصادر الأصلية فلم أعثر على ذلك
فجزى الله من وجد تخریج هذا الحديث وسهني إلى ذلك خير الجزاء.

إن هذه النصوص وغيرها: قد ربت المسلمين على معرفة كيد أهل الكتاب للإسلام والمسلمين، فقطعت ما في نفوس بعض المسلمين من ود وولاء لهؤلاء الأعداء، من أجل أن يكون الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين فقط.

ثانياً: النفاق والمنافقون:

إن المؤمنين في العهد المكي كانوا مبتلين، يعذبون، ويضطهدون ومع ذلك صبروا وآتسبوا فلم يكن في مكة حينئذ إلا فريقان: فريق المؤمنين الصابرين، وفريق الكفار والمشركين الجابرة ولم يكن هناك «منافقون» لأن النفاق طبيعته المراوغة والاحتيال وهذا الدين لم يكن يقدر عليه في مكة إلا المؤمنون الصادقون.

أما في المدينة، وبعد قيام دولة المسلمين وهيمنة حكم الله وشرعه فقد وجد المنافقون وهذا أمر معهود من أصحاب النفوس الضعيفة الجبانة، التي تخاف السلطة الإسلامية فتظهر لها الإسلام، وتحب الكفر وأهله ولكنها لا تجرؤ على المصارحة به.

والمنافقون: (قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسوله، فهم في الدرك الأسفل من النار كما قال تعالى:

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْدِلَهُمْ فَصِيرًا ﴿١٤٥﴾

[سورة النساء: ١٤٥].

(فالكافرون المجاهرون أخف منهم، وهم فوقهم في دركات النار، لأن الطائفتين. أشركتنا في الكفر ومعاداة الله ورسوله، وزاد عليهم المنافقون بالكذب والنفاق. وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين ولهذا قال تعالى في حقهم:

هَرَّاعِدُوْا فَاَحْذَرُوْهُمْ

[سورة المنافقون: ٤].

ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر. أي: لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد هاهنا حصر العداوة فيهم، وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وإنه لا يتوهم بآتسابهم إلى المسلمين ظاهراً، وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها.

(فإن ضرر هؤلاء المخالطين المعاشرين لهم - وهم في الباطن على خلاف دينهم - أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم. لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، أما هؤلاء فمعهم في الديار والمنازل صباحاً ومساءً، يدلون العدو على عوراتهم، ويتدبسون بهم الدوائر ولا يمكنهم مناجزتهم.. صحبتهم توجب العار والشنار، ومودتهم تحل غضب الجبار، وتوجب دخول النار.

(من عقلت به كلاليب كليهم ومخاليب رأيهم مزقت منه ثياب الدين والإيمان وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان، فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذبالاً، ويمشي على عقبه القهقري إداراً منه وهو يحسب ذلك إقبالاً) (١٧٢).

وكان من نعمة الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة أن لا يتركها مختلطة بغير تمييز بين المؤمن والمنافق، ذلك أن عدم التمييز يؤدي إلى ضياع القدوة الحسنة في المجتمع الإسلامي، ويؤدي أيضاً إلى ذوبان الصورة الصادقة للمسلم الصادق.

(وفي المنتسبين للإسلام أناس "نفعيون" لا هم لهم إلا الحصول على المال أو أي مأرب من مآربهم الدنيئة، فإذا انتصر المؤمنون كانوا معهم، وإذا أسيوا كانوا عليهم، ثم إن منهم أصحاب الأهداف الخبيثة والأغراض

(١٧٢) انظر «طريق المجرتين وباب السعادتين» لابن القيم: (ص ٤٠٢-٤٠٨) الطبعة الأولى سنة ١٣٧٥هـ. السلفية بمصر.

الهدامة ممن قد آمتلأت قلوبهم بالحق والحسد، فهم يترصون بالمسلمين الدوائر، ويتظاهرون لهم بأنهم معهم، ولكنهم يحونونهم في أخرج المواقف (١٧٣).

ولما كان الأمر كذلك ميز الله الصادق من الكاذب عن طريق الابتلاء والامتحان قال تعالى:

﴿ أَحَبَّ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ

[سورة العنكبوت: ١ - ٣].

إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ
وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَتَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُرَكَاءَ ۖ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ
وَلَيُمَخِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ

[سورة آل عمران: ١٤٠ - ١٤١].

مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذَرَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ
الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ

[سورة آل عمران: ١٧٩].

أجل: إنه لا بد من التمييز بين الخبيث والطيب، فالابتلاء سنة ربانية في تمحيص النفوس وصقلها على الحق، ثم إن الله سبحانه يحب من عباده تكميل عبادتهم على السراء والضراء، وفي حال العافية والبلاء، فله سبحانه على العباد في كلتا الحالتين عبودية بمقتضى الحال.. لا تحصل إلا بها، ولا يستقيم القلب بدونها، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد، والجوع

(١٧٣) «المافقون في القرآن الكريم» للاستاد عبدالعزيز الحميدي: (ص ١١٦).

Y. Y.

[سورة المجادلة: ١٤].

ذكر السدي ومقاتل: أنها نزلت في عبد الله بن أبي وعبد الله بن نبتل المنافقين: فقد كان أحدهما يجالس النبي ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود^(١٧٦). وهذه الآية كقوله تعالى:

مَذْبَهِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ
وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

[سورة النساء: ١٤٣].

ولقد نزلت سورة كاملة فيهم هي سورة "المنافقون" بين الله فيها أنهم يظهرون ما لا يطنون، وأنهم يحرضون على إضعاف صف المسلمين

هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ
لَا تُفِيقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَيَلَهُ
حَرَائِمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ

[سورة المنافقون: ٧].

وفيها أيضاً:

يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ
مِنَهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ

[سورة المنافقون: ٨].

روى البخاري ومسلم في سبب نزولها عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال

(١٧٦) أسباب النزول، للواحدى: (ص ٢٣٥)، وتفسير القرطبي: (ج ١٧/٣٠٤)

رسول الله ﷺ: «دعوها فإنها منتنة» فسمعها عبد الله بن أبيي فقال. قد فعلوها، والله لكن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق: قال ﷺ: «دعه. لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» (١٧٧).

قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة: أن عبد الله بن عبد الله بن أبيي لما بلغه ما كان من أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إنه بلغني إنك تريد قتل عبد الله بن أبيي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالديه مني، أني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبيي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معناه» (١٧٨).

وذكر عكرمة وغيره: أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبيي على باب المدينة، وأستل سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبيي قال له أبنه: وراءك، فقال: مالك ويلك؟ قال: والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ - وكان إنما يسير ساقية - (١٧٩) فشكى إليه عبد الله بن أبيي أبنه، فقال الابن: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ، فقال: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن (١٨٠).

(١٧٧) (صحيح البخاري: (ج ٨/٦٥٢ ح ٤٩٠٧) كتاب التفسير، وصحيح مسلم: (ج ٤/١٩٩٩ ح ٢٥٨٤) واللفظ له.

(١٧٨) (السيرة لأبن هشام: (ج ٢/٢٩٢)، وتفسير ابن كثير: (ج ٨/١٥٩)، ولم يخرج - فيما أعلم - إلا ابن إسحاق.

(١٧٩) من صفته ﷺ أنه يسوق أصحابه. أي يقدمهم ويمشي خلفهم تواضعاً ولا يدع أحداً يمشي خلفه.

(١٨٠) (تفسير ابن كثير: (ج ٨/١٥٩).

وَحَقًّا إِنَّهَا صُورَةٌ رَاضِيَةٌ لَصَدَقِ الْإِيمَانُ أَنَّ يَقُولُ الْإِبْنُ لِرَسُولِ اللَّهِ: إِنْ كُنْتُ فَاعِلًا فَمَرْنِي بِهِ فَإِنَّا أَحْمِلُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ!! إِنَّهُ مَا حَمَلَ هَذَا الْإِبْنُ عَلَى هَذَا الْفِعْلِ إِلَّا قُوَّةَ الْإِيمَانِ وَعَمَقَ الْوَلَاءِ وَالْبِرَاءِ فِي نَفْسِهِ.

(٢) مَنْ أَقْبَحَ صِفَاتِهِمْ: رَفَضَ التَّحَاكُمَ إِلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ، وَالتَّحَاكُمَ إِلَى الطَّوَاغِيتِ الَّتِي تَحَقِّقُ رَغْبَاتِهِمْ، قَالَ تَعَالَى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ يَسْمَا قَدَمَتِ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَحْسَنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا

[سورة النساء: ٦٠ - ٦٣].

وَرَفَضَهُمْ لِحَاكِمِيَةِ اللَّهِ رَفَضَ لِلْإِيمَانِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

وَيَقُولُونَ
آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فِرْقٌ مِنْهُمْ مُتَعَرِّضُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذِيبِينَ ﴿٥١﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ نَعْلَمُ أَنَّ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٢﴾

[سورة النور: ٤٨ - ٥٠].

وَاللَّهُ قَدْ وَضَعَ مِيزَانًا دَقِيقًا فِي هَذِهِ الْقَضِيَةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ.

فأما المؤمن الصادق فإنه ينقاد إلى حكم الله ويرضى به ويقول: سمعت وأطعت:

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

[سورة النور: ٥١].

هذه هي صفة المؤمن، أما المنافق فصفته الإعراض والاستكبار عن حكم الله، قال تعالى:

وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ
[سورة النور: آية ٤٨]

(٣) من صفاتهم وأفعالهم الدنيئة: التخاذيل في صف المسلمين، والتجسس للكفار وكشف عورات المسلمين لهم. قال الله عنهم:

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
وَقَعَدُوا لَوْ آطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ
الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

[سورة آل عمران: ١٦٨].

ولقد أصيب المسلمون في غزوة أحد بالدهشة حين رجع ثلث الجيش
بزعامه ابن أبي. وكذلك قعودهم عن غزوة تبوك وغيرها.
وفي موالاتهم للكفار يقول الله في شأنهم:

بَشِّرِ الْمُتَفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ
يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُوهَا
عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

[سورة النساء: ١٣٨ - ١٣٩].

وأخبرنا سبحانه أنهم هم:

الَّذِينَ يَرْتَابُونَ يَكُفُّ عَنْكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ
تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ تَسْتَحِذْ
عَلَيْكُمْ وَنَسْتَعْلِكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَهُ بِحُكْمٍ يُبَيِّنُكُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

[سورة النساء: ١٤١].

ولقد فضحتهم سورة التوبة خاصة فقد ورد فيها قوله تعالى:

إِنَّمَا يَسْتَفْزِدُكَ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَنَاتٌ قُلُوبُهُنَّ فَهُنَّ
فِي رَيْبِهِمْ يَتَذَكَّرُ ﴿١٤٢﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ
لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ
وَقِيلَ أَفَعُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿١٤٣﴾ لَوْ خَرَجُوا فِىكُمْ
مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا إِلَىٰكُمْ يَتَفَوَّنَ كُمْ
الْفِتْنَةُ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾
لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿١٤٥﴾
وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنُنِي وَلَا نَقِيتُنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ
سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٤٦﴾
﴿١٤٧﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسَبِّحْهُنَّ وَإِنْ تُصِيبَكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَسْتَزِلُّوا
وَهُمْ قَرِحُونَ ﴿١٤٨﴾

[سورة التوبة: ٤٥ - ٥٠].

ففي هذه الآيات بيان من الله للمؤمنين أن هؤلاء المنافقين لو خرجوا
فيكم ما زادوكم إلا خبالاً لأنهم جبنا، مخذلون، ولأسرعوا بينكم بالثيمة

والبغضاء، والفتنة^(١٨١). وقال الله فيهم أيضاً:

وَإِذَا
أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنَّمَا أَمْرٌ بِاللَّهِ وَجَنَاحُ رُسُولِهِ اسْتَنْذَبَ
أُولُو الْأَلْطُولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾
رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾

[سورة التوبة: ٨٦ - ٨٧].

ولهم مواقف أخرى كبيرة، ولكنه سبحانه وتعالى حذر المؤمنين منهم وبين
لرسوله ﷺ أنه سبحانه وتعالى لو شاء لأراهم لرسول الله عياناً ولكنهم
يُعرفون بلحن القول:

وَلَوْ شَاءَ لَأَرْسَلْنَاكَهُمْ غُلَامًا مِّنْهُمْ يَتَّبِعُهُمُ الْغَيْبُ عَلَى خِلَافٍ مِّنَ الْغَيْبِ
لَاحِنَ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾

[سورة محمد: ٣٠].

وسنعرف بعد قليل كيف كان البراء منهم، وكيف كان هدي رسول
الله ﷺ معهم:

ثالثاً: البراء في العهد المدني أي: المفاصلة التامة بين المسلمين وجميع
أعدائهم:

لئن كانت التربية في العهد المكي تمتاز بضبط النفس، والصبر على
الأذى، وتبليغ الدعوة وإعداد العدة مع حبس دواعي الانطلاق، وكف حدة
الإقدام: فإن التربية في المدينة مبنية على هذه الأسس ولكن في شكل جديد،
حيث أنطلق المؤمنون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، والضرب على يد أعداء

(١٨١) انظر تفسير ابن كثير: (ج ٤/ ١٠٠).

الله بقوة لا تعرف الضعف، وعزيمة لا تعرف الوهن^(١٨٢). من ها كان
الجهاد في سبيل الله هو أبرز سمات هذا العهد الزاهر، وهو أول صورة من
صور البراء والمفاصلة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان في العهد الهمدني
وبعد الهجرة النبوية. والجهاد وجه جديد من وجوه الثبات على العقيدة،
وآحتمال المشقات والأذى في سبيل الذود عنها من الأعداء^(١٨٣).

والحديث عن الجهاد طويل طويل، وآياته كثيرة وكذلك الأحاديث
النبوية فيه، وفهم الناس لمقصده مختلف، خاصة في العصور المتأخرة، فقد
وجد من المسلمين أناس أصيبوا بالهزيمة النفسية أمام شبهات الكفار
والملاحدين والمستشرقين والمستغربين على حد سواء!.

ففي الوقت الذي يقول فيه أعداء الله. إن دين الإسلام أنتشر بالسيف،
وجد ممن ينتسبون للعلم والعلماء من يدافع - حسب زعمه - عن الإسلام؟
فيلوي أعناق النصوص الشرعية لتوافق ما زعمه دفاعاً عن الإسلام! ومن هنا
يوضع الإسلام في مقام الدفاع، ويصور على أنه كالذي يقاتل في معركة
آنسحاب حيث كلما طرأت شبهة آنبرى لها من يدافع!!

والذي نعتقد ونراه الحق في هذه القضية: أن هذه مهزلة سخيفة لم
تحدث إلا في القرون المتأخرة، حين صارت الغلبة للكفر وأربابه، وأنذر
المسلمون من مقام القيادة والجهاد إلى مقام الاستخذاء والضعف والدفاع
والتبعية العمياء.

وقد كتب علماء فضلاء من علماء المسلمين حول هذا الموضوع
ما يكفي ويشفي ويغني^(١٨٤). ومن المهم في هذا المقام: أن نعرف هدي

(١٨٢) انظر «سبيل الدعوة الإسلامية» د. محمد أمين المصري: (ص ١١٣) ط. (١)
سنة ١٤٠٠ هـ دار الأرقم بالكويت.

(١٨٣) انظر «منهج التربية الإسلامية» للاستاد محمد قطب: (ج ٢/٧٠).

(١٨٤) اذكر منهم شيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة ابن القيم والشيخ محمد بن =

المصطفى ﷺ وسيرته مع أعداء الله، وجهاده لهم. وللإمام آبن القيم رحمه الله تلخيص قيم أورده هنا بتسامه نظراً لأهميته.

قال رحمه الله في «زاد المعاد»:

(أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ. ثم أنزل عليه.

بَيِّنَاتٍ الْمَذْتَرَةِ ﴿قُرْآنًا﴾

[سورة المدثر: ١ - ٢].

(فنبأه بقوله: ﴿اقْرَأْ﴾ وأرسله بـ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَذْتَرُ﴾ ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين، فأقام بضعة عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال، ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح.

(ثم أذن له في الهجرة، وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله، ويكف عمن آتزره ولم يقاتله، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله. ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام:

(١) أهل صلح وهدنة.

(٢) وأهل حرب.

(٣) وأهل ذمة.

(فأمر أن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم به ما آستقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد. وأمر أن يقاتل من نقض عهده. ولما نزلت سورة

= عبد الوهاب وتلاميذه، ومن لمعاصرين الاستاذين الجليلين أبو الأعلى المودودي وسيد قطب والشيخ سليمان بن حمدان رحمهم الله. وغيرهم ممن لا يحضرني ذكره الآن.

”براءة“ نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين، والغلبة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان.

(وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار، ونبذ عهودهم إليهم، وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام.

(١) قسماً أمره بقتالهم، وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له فحاربهم وظهر عليهم.

(٢) وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه، ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم.

(٣) وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق فأمره أن يؤجلهم أربعة أشهر فإذا آنسلخت قاتلهم. وهي الأشهر الأربعة المذكورة في قوله:

فَإِذَا آنْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ

[سورة التوبة: ٥].

فالحرم ها هنا أشهر التسيير، أولها يوم الأذان وهو اليوم العاشر من ذي الحجة، وهو يوم الحج الأكبر الذي وقع فيه التأذين بذلك، وآخرها العاشر من ربيع الآخر. وليست هي الأربعة المذكورة في قوله تعالى:

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ
شَهْرًا فِي كَتَبِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ

[سورة التوبة: ٣٦].

فإن تلك: واحد فرد، وثلاثة سرد. رجب وذو القعدة وذو الحجة

والمحرم. ولم يسير المشركين في هذه الأربعة. فإن هذا لا يمكن لأنها غير متوالية، وهو إنما أجلهم أربعة أشهر، ثم أمره بعد أنسلاخها أن يقاتلهم، فقتل الناقض لمعهده، وأجل من لا عهد له، أو له عهد مطلق أربعة أشهر، وأمره أن يتم للموفي بمعهده عهده إلى مدته فأسلم هؤلاء كلهم، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم، وضرب على أهل الذمة الجزية.

(ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين: محاربين وأهل ذمة. والمحاربون له خائفون منه، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به ومسالم آمن وخائف محارب) (١٨٥).
وقد ركز القرآن الكريم على أهداف الجهاد في غير ما آية. فمنها قوله تعالى:

لَا تَكُونُ فِتْنَةً وَيَكُوناَ الَّذِينَ كُلهُ يَلُوهُمُ حَقٌّ

[سورة الأنفال: ٣٩].

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ويكون الدين كله لله﴾: لا يكون مع دينكم كفر (١٨٦).
وقال تعالى:

هُوَ الَّذِي

أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ

كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

[سورة التوبة: ٣٣].

(١٨٥) وزاد المعاد: (ج ٣/١٥٨-١٦٠).

(١٨٦) تفسير ابن كثير: (ج ٣/٥٩٧).

وقال:

وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ
صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ
كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ
عَزِيزٌ ﴿١٨٧﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ
وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ

[سورة الحج: ٤٠ - ٤١].

إن الجهاد في الإسلام: هدفه أن يعبد الله وحده في الأرض، وأن تهيم شريعته، ويتحرر الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن تأليه البشر إلى ألوهية الواحد الأحد (١٨٧).

ومن هدف الجهاد أيضاً إنقاذ المستضعفين في الأرض

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِّنْ لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ
نَصِيرًا

[سورة النساء: ٧٥].

واليك تفصيل صور البراء من كل طائفة، وكيفية جهاد المسلمين لهم:

(أ) صور البراءة من المشركين :

(١) بعد أن قامت الدولة المسلمة في المدينة، كان لابد من اجتثاث شجرة الشرك في مكة وغيرها وقد نزلت سورة التوبة بقتال المشركين،

(١٨٧) انظر «معالم في الطريق»: فصل الجهاد في سبيل الله، وطريق الدعوة في ظلال القرآن (ج/١/٢٨٩).

وتفصيل ذلك ورد في تلخيص آبن القيم الذي سبق ذكره. قال تعالى:

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾
فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي
اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذِّنْ لِلَّهِ وَاللَّهُ وَرَسُولِهِ
إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُمْ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَيُنْشِرُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ
شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِنْ
مُدتُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ
فَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَحُدُودَهُمْ وَاحْصِرُواهُمْ
وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَتُوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾
وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ
كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ آتِلْهُ مَّا مَنَعَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾
كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ
رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا
اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾
كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا تَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا
وَلَا ذِمَّةً يُرْصُونَكُمْ بِأُفُوهِهِمْ وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
فَنِيْقُونَ ﴿٨﴾ أَشْتَرُوا بِعَائِنِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا
عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ
فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾
فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْرِجُوهُمْ
فِي الَّذِينَ وَتَفَصَّلَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا

أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبِلُوا
 أَيْمَةَ الْكَافِرِ إِنَّهُمْ لَا يَأْمَنُ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ
 ﴿١٢﴾ أَلَا تَقْبَلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا
 بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدْعُكُمْ أَوْلَكُمُ مَرْفُ
 اتَّخَشَوْهُمْ قَالَهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾
 فَتِلْوُهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُكُمْ
 عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبِ
 غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

[سورة التوبة: ١ - ١٥].

(٢) منهم من دخول المسجد الحرام قال تعالى:

يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ
 نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا
 وَإِنْ خِفْتُمْ عِيلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ
 شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

[سورة التوبة: ٢٨].

قال ابن كثير: كان نزول هذه الآية سنة تسع. ولهذا بعث رسول
 الله ﷺ علياً صحبة أبي بكر رضي الله عنهما عامئذ، وأمره أن ينادي
 في المشركين، «أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت
 عريان» (١٨٨) فأتى الله ذلك وحكم به شرعاً وقدر (١٨٩).

(٣) منع النكاح بالمشركات: ذكر ابن جرير - وهو يتحدث عن صلح
 الحديبية - أنه جاء إلى النبي ﷺ نسوة مؤمنات فأنزل الله عز وجل:

(١٨٨) «صحيح البخاري»: (ج ٨/٣١٧ ح ٤٦٥٥) كتاب التفسير: تفسير سورة
 التوبة.

(١٨٩) «تفسير ابن كثير»: (ج ٤/٧٣).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ
 مِنْ جَزَائِرٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِسْنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ
 فَلَا يَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهْنَّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يُحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُهُمْ
 فَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أَجْرَهُنَّ
 وَلَا تُنْفِقُوا فِي عَصَمِ الْكَوَافِرِ وَتَسْتَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَتْ لَكُمْ أَنْفَقُوا
 ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يُخَوِّفُكُمْ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

[سورة الممتحنة: ١٠].

قال فطلق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك (١٩٠).

(٤) منع إقامة المسلم في دار الشرك، وذلك بعد أن أَعَزَّ الله دينه وعباده،
 وقامت لهم دولة فحيثُ تحرم الإقامة بدار الشرك خشية على المسلم
 أن يفتن، ولكي ينضم إلى جماعة المسلمين فهم أخوته وأولياؤه من
 دون الناس. قال ﷺ: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر
 المشركين» قالوا: يا رسول الله لم؟ قال: «لا تراءى ناراهما» (١٩١).

(ب) البراءة من أهل الكتاب :

كما سبق أن قلنا: أن الجهاد هو أكبر مظاهر المفاصلة بين المسلمين
 وجميع أعدائهم - ومنهم أهل الكتاب - فإنه لا بد أن نشير إلى بعض ما نزل
 في مفاصلة أهل الكتاب إضافة إلى مبدأ جهادهم.

ومن ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران التي عنيت بهم كثيراً
 وكشفت ما لديهم:

(١٩٠) «تفسير الطبري»: (ج ٢٦/ ١٠٠) وانظر «أحكام أهل الذمة» لابن القيم:
 (ج ١/ ٦٩).

(١٩١) «سنن أبي داود»: (ج ٣/ ١٠٥ ح ٢٦٤٥) كتاب الجهاد، والترمذي في «السير»: (ج ٥/ ٣٢٩ ح ١٦٠٤).

يَتَّاهِلَ
 الْكَذِّبِ لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ ﴿٧٠﴾
 يَتَّاهِلَ الْكَذِّبِ لَمْ تَلِْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُمُونَ الْحَقَّ
 وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

[سورة آل عمران: ٧٠ - ٧١].

قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَذِّبِ لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ
 عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَذِّبِ لَمْ تَصُدُّوا عَنْ
 سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ أَمْنٍ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ
 بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

[سورة آل عمران: ٩٨ - ٩٩].

وفي سورة المائدة قوله تعالى:

قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَذِّبِ هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَنَّا
 بِاللَّهِ وَمَا أُرِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٦٠﴾ قُلْ
 هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَ اللَّهُ وَغَضِبَ
 عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفُرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ
 مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦١﴾

[سورة المائدة: ٥٩ - ٦٠].

ففي هذه الآيات وغيرها نجد التفرقة لأهل الكتاب والتنديد بباطلهم
 ومخازيهم.

ثم يأتي النص القرآني للرسول ﷺ - وللمؤمنين من ورائه - بأن يقولوا
 لأهل الكتاب أنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا شرع الله ويحكموا كتابه:

= قال الألباني: هو حديث حسن. انظر: «صحيح الجامع الصغير»: (ج ٢/ ١٧)
 ح (١٤٧٤).

قُلْ يَٰ أَهْلَ

الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَٰكِن يَذَّكَّرُ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ
إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

[سورة المائدة: ٦٨].

وهذه الآية الكريمة من أعظم ما بين صورة البراء من أهل الكتاب. ولقد كان جهاد المصطفى ﷺ وأصحابه لأهل الكتاب - بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير - صورة واضحة في مفاصلاتهم وجهادهم والبراء منهم. وسيرد الحديث عن إجلالهم عن أرض الجزيرة في الفصل السادس من الباب الثاني.

(ج) البراء من المنافقين :

مفاصلة المنافقين والبراءة منهم تؤخذ من هدي رسول الله ﷺ معهم، وفي ذلك يقول العلامة آبن القيم:

(وأما سيرته ﷺ في المنافقين: فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة. وأمره أن يعرض عنهم، ويغفل عنهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهاه أن يءطي عليهم وأن يقوم على قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم) (١٩٢).

وقد قلنا فيما سبق: أن من أبرز صفات المنافقين موالاته الكفار، وكراهية دين الله والتخذييل في صف المسلمين لذلك حين بين الله حالهم للمؤمنين: كان لا بد من مفاصلتهم والبراءة منهم ونزل في ذلك آيات توضح صور هذه المفاصلة وذلك البراء ومنها:

(١) الإعراض عنهم والغلظة عليهم: وقد جاء ذلك مقروناً بجهاد الكفار،

(١٩٢) زاد المعاد: (ج ٣/ ١٦١).

فالغلظة على المنافق من أنواع الجهاد قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهَدُوا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ
وَمَا أَوْلَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾

[سورة التوبة: ٧٣].

”وهي نفس آية ٩ من سورة التحريم“ وسورة التوبة فضحتهم فضحاً عظيماً حتى إنها سميت بـ «الفاضحة». ففي صحيح البخاري عن سعيد بن جبير قال: «قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم، ومنهم حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكر فيها» (١٩٣). وفي سورة النساء:

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ
عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ
مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا

[سورة النساء: ٨١].

(٢) النهي عن الصلاة عليهم أو القيام على قبورهم:

وَلَا تَقْلُبْ عَلَى أَحَدِهِمْ مَاتَ أَمْ بَدَأُوا فَلَا تَكُنْ
عَلَى قَبْرِهِمْ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ

[سورة التوبة: ٨٤].

قال آبن كثير: وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين (١٩٤).

(٣) لا يقبل لهم عذر في التخلف عن الجهاد، ومن ثم عدم قبولهم فيه

(١٩٣) «صحيح البخاري»: (ج ٨/٦٢٩ ح ٤٨٨٢) كتاب التفسير: تفسير سورة
الحشر.

(١٩٤) «تفسير ابن كثير»: (ج ٤/١٣٢).

مرة أخرى. قال تعالى:

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ
مِنْهُمْ فَاسْتَشْذَوْكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ
تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا
مَعَ الْخُلَفَاءِ ﴿٨٣﴾

[سورة التوبة: ٨٣].

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ
تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى
اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلِيمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ سَيُخْلِفُونَ
بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنُتْرَضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا
عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآ وَهُمْ جَهَنَّمَ جُرَّاءٌ يَمَّاكَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٨٥﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ
تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ
أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً
 فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٦﴾

[سورة التوبة: ٩٤ - ٩٦].

(٤) عدم الاستغفار لهم. قال تعالى:

أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً
 فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

[سورة التوبة: ٨٠].

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاهُ وَرَأَاهُ

وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ
 أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ
 اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

[سورة المنافقين: ٥ - ٦].

(د) قطع الموالاة مع الأقارب إذا كانوا محادين لله ورسوله :

قلنا في العهد المكي: إن المؤمن كان مأموراً بصلة والديه الكافرين وإحسان معاشرتهما، وليس في ذلك ولاء على أية حال إلا إنه لم يؤمر بمقاطعتهم ومفاصلتهم، ولكن الصورة تختلف في العهد المدني بعد قيام الدولة المسلمة وجهاد الكفار والمشركين. حيث جاءت المفاصلة التامة بين المؤمن وقربيه المشرك أو الكافر أو المنافق ونزل في ذلك آيات كثيرة منها قوله تعالى:

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
 حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
 أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
 الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
 عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦٠﴾

[سورة المجادلة: ٢٢].

قال أهل العلم في سبب نزولها: إنها نزلت في أبي عبيدة عامر بن الجراح حين قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد، وفي أبي بكر حين دعا ابنه للمبارزة يوم بدر، وفي عمر حيث قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر، وفي علي وحمة حين قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر^(١٩٥). وقيل غير

(١٩٥) «أسباب النزول، للواحدي: (ص ٢٣٦)، وتفسير ابن كثير: (ج ٨/ ٧٩).

ذلك من الأسباب^(١٩٦).

وهذه الآية الكريمة تشير إلى المفصلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان، وأن المؤمن يجب عليه أن ينحاز إلى الصف المسلم متجرداً من كل عائق أو جاذب ومرتبطاً في العروة الواحدة بالحبل الواحد. ومن ثم فلا نسب ولا صهر، ولا أهل ولا قرابة، ولا وطن ولا جنس ولا عصبية ولا قومية حين تقف هذه الوشائج دون ما أراد الله. وإنما هي العقيدة من وقف تحت رايتها فهو من حزب الله، ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة^(١٩٧). وفي سورة التوبة يأتي الأمر الأخير بالمفصلة. وبيان أن القضية: قضية إيمان وكفر وليست قضية جزئية أو ثانوية. قال تعالى:

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ
وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ
وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن
كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتٌ تَبْنَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ
تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ
فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

[سورة التوبة: ٢٣ - ٢٤].

فهذا أمر من الله بمباينة الكفار وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهي عن موالاتهم إذا آخثاروا الكفر على الإيمان^(١٩٨).

قال القرطبي: وهذه الآية - آية ٢٣ - باقية الحكم إلى يوم القيامة في

(١٩٦) للاستزادة في هذا انظر «أحكام القرآن» للقرطبي: (ج ١٧/٣٠٧).

(١٩٧) انظر «الظلال»: (ج ٦/٣٥١٤-٣٥١٦).

(١٩٨) «ابن كثير»: (ج ٤/٦٦).

قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين^(١٩٩). وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾: هو مشرك مثلهم لأن من رضي بالشرك فهو مشرك^(٢٠٠).

وهذا السياق القرآني الكريم قد آستعرض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ ليضعها في كفه، ويضع العقيدة ومقتضياتها في الكفة الأخرى.

الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة "وشيجة الدم والنسب والقربة والزواج"، والأموال والتجارة "مطمع الفطرة ورغبتها"، والمساكن المريحة "متاع الحياة ولذتها".. كل ذلك في كفة وفي الكفة الأخرى: حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيله. الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشقاته وما يتبعه من نصب وتعبد، ومن تضيق وحرمان وألم وتضحية وجراح وأستشهاد. الجهاد المجرد من الصيت والذكر والظهور والمباهاة والفخر والرياء.

وما يكلف الله المؤمنين هذا التكليف إلا وهو يعلم أن فطرتهم تطيق ذلك، فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وإنه لمن رحمة الله بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال، وأودع فيها الشعور بلذة الاتصال بالله التي لا تعدلها أي لذة. لذة الاستعلاء على الضعف والهبوط والخلاص من ثقله اللحم والدم، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضي^(٢٠١).

وخلاصة القول: إن الولاء والبراء قد آكتملت صورته الحقيقية في العهد المدني حيث قامت دولة الإسلام الراشدة وأصبحت الأخوة الإيمانية فيها هي الرابطة الحقيقية، ودونها تهدر كل رابطة. وشرع الجهاد للكفار والمشركين ومن نقض عهده. وجاء الأمر بالغلظة على المنافقين والإعراض عنهم. وحصلت البراءة من كل قريب لا يؤمن بالله ورسوله ولا يدين دين الحق ولو كان أباً

(١٩٩) «أحكام القرآن» للقرطبي: (ج٨/٩٤).

(٢٠٠) «أحكام القرآن» للقرطبي: (ج٨/٩٤).

(٢٠١) «الظلال»: (ج٣/١٦١٥) بتصرف.

أَوْ أَخًا أَوْ زَوْجًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا تَعَارَفَ النَّاسُ عَلَيْهِ أَنَّهُ رَابِطَةٌ.

ولقد تميز المسلمون وأستعلوا بدينهم، وأفتخروا بالانتماء إلى هذا الدين الذي هو سبب تلك العزة والرفعة والسيادة حين فتحوا الشرق والغرب. ولن يكون للمسلمين اليوم أو غداً عز إلا بالرجوع إلى هذه العقيدة عن حب وولاء لدين الله والمؤمنين به، وبراء من كل كافر ومشرك ومنافق ولو كان أقرب قريب. أما الإحسان إلى الوالدين وبرهما - وهما كافران - فهذا أمر باق إلى قيام الساعة.

الفصل السابع

صور الموالاة ومظاهرها

إن جمع صور الموالاة ومظاهرها في فصل مستقل أمر له أهميته في مثل هذا البحث، وذلك حتى يكون القارئ على بينة من الأمور والقضايا التي تمسها قضية الولاء والبراء.

وأحب أن أُنبه في هذا المقام على أنني لم ألزم نفسي بتتبع الحكم الشرعي في كل صورة من هذه الصور، وذلك لصعوبة القطع بالحكم في كل قضية، لأنه - كما يقول أهل العلم - قد يكون القول أو الفعل كفرًا، ولكن هناك ما يصرفه عن ظاهره فيما بين العد وبين ربه، ولكن على العموم فهذه الصور تتفاوت من كون فاعلها خارجاً من الملة كمن يحب الكفار لأجل كفرهم إلى كبيرة من الكبائر كتعظيمهم والثناء عليهم^(٢٠٢). ذلك أن (مسمى الموالاة يقع على شعب متفاوتة منها ما يوجب الردة كذهاب الإسلام بالكلية، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات)^(٢٠٣). وقد حرص الدين الإسلامي على إخلاص العبادة «وهي الطاعة والانقياد» لله وحده والبراءة من كل متبوع أو مرغوب، أو مرهوب، وتعلق القلب بربه في الخشية والخوف والرجاء والعون والبصرة، لأن (كل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو يهدوه: خضع قلبه لهم، وصار فيه من

(٢٠٢) الدرر السنية: (ج٧/٢٠١)، والهدية الثمينة: للشيخ/ عبدالله السليمان بن

حميد: (ص ١٧).

(٢٠٣) الرسائل المفيدة للشيخ/ عبداللطيف بن عبدالرحمن آل الشيخ: (ص ٤٣).

العبودية لهم بقدر ذلك.. ومعلوم أن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استعبد بدنه وأسترق وأسر لا ييالي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص. أما إذا كان القلب متيمماً لغير الله فهذا هو الذل والأسر المحض (٢٠٤).

وخطورة موالاة الكفار تبرز في أن ضررها على المسلمين كافة أعظم من خطر من يكفر في نفسه فقط. ذلك أن (الإضرار بالمسلمين يزيد على تغيير الاعتقاد، ويفعله من يظن سلامة الاعتقاد، وهو كاذب عند الله ورسوله والمؤمنين في هذه الدعوى والظن، ومعلوم أن المفسدة في هذا أعظم من المفسدة في مجرد تغيير الاعتقاد) (٢٠٥) وإليك تفاصيل صور موالاة الكفار (٢٠٦).

(١) الرضى بكفر الكافرين وعدم تكفيرهم أو الشك في كفرهم أو تصحيح أي مذهب من مذاهبهم الكافرة (٢٠٧).

ويتضح هذا الأمر في كونه ولاء للكفار: إنه يسرهم ويسعدهم أن يروا من يوافقهم على كفرهم ويجاريهم على مذاهبهم الإلحادية.

وقد سبق في التمهيد القول بأن من معتقد أهل السنة والجماعة: أن حب القلب وبغضه يجب أن يكون كاملاً. فالذي يحب الكافر لأجل كفره فهو كافر بإجماع الأمة، ولم يخالف في ذلك أحد من علماء المسلمين.

يقول ابن تيمية رحمه الله:

(٢٠٤) رسالة العبودية لابن تيمية: ص ٩٥-٩٦.

(٢٠٥) الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية: (ص ٣٧١).

(٢٠٦) من أحسن من كتب في ذلك الإمام/ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وأبناؤه، لذلك فمعظم هذه الصور منقولة من كتبه.

(٢٠٧) انظر نواقض الإسلام في مجموعة الترتيب: (ص ١٢٩) مطبعة الحكومة بمكة.

(أما حب القلب وبغضه، وإرادته وكراهيته فينبغي أن تكون كاملة جازمة لا توجب نقص ذلك إلا بنقص الإيمان. وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته. ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل، ذلك أن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها، لا بحسب محبة الله ورسوله وبغض الله ورسوله، وهذا من نوع الهوى، فإن أتبعه الإنسان فقد أتبع هواه:

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَتَرَاهُ هُذًى مِّنَ اللَّهِ

[سورة القصص: ٥٠] (٢٠٨).

إذن: فالمحبة والرضى أمران جازمان لا يخرجان عن كونهما كفوفاً إذا كانا للكفار أو إيماناً إذا كانا للمؤمنين.

(٢) التولي العام واتخاذهم أعواناً وأنصاراً وأولياء أو الدخول في دينهم وقد نهى الله عن ذلك فقال:

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتِلُوا
تَقَاتِلُوا وَيُحْذِرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ

[سورة آل عمران: ٢٨].

قال ابن جرير في تفسيرها:

(من اتخذ الكفار أعواناً وأنصاراً وظهوراً يواليهم على دينهم ويظاهرهم على المسلمين فليس من الله في شيء. أي قد برىء من الله وبرىء الله منه، بآرتداده عن دينه ودخوله في الكفر. ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتِلُوا﴾ أي إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بالستكم

(٢٠٨) «شذرات البلاتين»: (ج ١/ ٣٥٤)، «رسالة الأمر بالمعروف».

وتتضمروا العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل (٢٠٩).

وقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

[سورة المائدة: ٥١].

قال ابن جرير رحمه الله في تفسيرها:

(من تولى اليهود والنصارى من دون المؤمنين فإنه منهم. أي من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متولاً واحداً إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض، وإذا رضي ورضي دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه وصار حكمه حكمه) (٢١٠).

وقال ابن حزم:

(صح أن قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ إنما هو على ظاهره: بأنه كافر من جملة الكفار، وهذا حق لا يختلف فيه آثنان من المسلمين) (٢١١).

وقال ابن تيمية:

(أخبر الله في هذه الآية: أن متوليهم هو منهم وقال سبحانه:

(٢٠٩) تفسير الطبري: (ج ٣/ ٢٢٨).

(٢١٠) المصدر السابق: (ج ٦/ ٢٧٧).

(٢١١) الخليل: (ج ١٣/ ٣٥) تحقيق حس زيدان سنة ١٣٩٢ هـ الناشر مكتبة الجمهورية العربية بمصر.

وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ
مَّا تَأْخُذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ

[سورة المائدة: ٨١].

فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده ولا يجتمع
الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب. فالقرآن يصدق بعضه بعضاً (٢١٢).

وقال آبن القيم:

(إن الله قد حكم ولا أحسن من حكمه أنه من تولى اليهود
والنصارى، فهو منهم ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُمْ مِنْهُمْ﴾، فإذا كان أولياؤهم
منهم بنص القرآن كان لهم حكمهم. وهذا عام، خص منهم من يتولاهم
ودخل في دينهم بعد التزام الإسلام فإنه لا يُقر ولا تُقبل منه الجزية. بل إما
الإسلام أو السيف لأنه مرتد بالنص والإجماع، ولا يصح إلحاق من دخل
في دينهم من الكفار قبل التزام الإسلام بمن دخل فيه من المسلمين؛ لأن
من دان بدينهم من الكفار بعد نزول القرآن فقد انتقل من دين إلى دين خير
منه - وإن كانا جميعاً باطلين -، وأما المسلم فإنه قد انتقل من دين الحق
إلى الدين الباطل بعد إقراره بصحة ما كان عليه وبطلان ما انتقل إليه فلا يقر
على ذلك (٢١٣).

ويستبعد الأستاذ سيد قطب أن يكون بين المسلمين، من يميل إلى اتباع
اليهود والنصارى في الدين. وإنما المراد ولاء التحالف والتناصر. يقول رحمه
الله:

(إن الولاية المنهي عنها هنا ولاية التناصر والتحالف معهم، ولا تتعلق
بمعنى اتباعهم في دينهم، فبعيد جداً أن يكون بين المسلمين من يميل إلى
اتباع اليهود والنصارى في الدين. إنما هو ولاء التحالف والتناصر الذي كان

(٢١٢) انظر «الإيمان» لاس تيمية: (ص ١٤) طبع المكتب الإسلامي.

(٢١٣) «أحكام أهل الذمة لابن القيم: (ج ١/٦٧، ٦٩).

يُنسب على المسلمين أمره، فيحسبون أنه جائز لهم بحكم ما كان واقعاً من تشابك المصالح والأوصار، ومن قيام هذا الولاء بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام. وفي أوائل العهد بقيام الإسلام في المدينة حتى نهاهم الله عنه وأمر بإبطاله. يوضح ذلك قوله تعالى بشأن المسلمين الذين لم يهاجروا:

مَا لَكُمْ مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يَهْجَرُوا

[سورة الأنفال: ٧٢].

أي ولاية التناصر والتعاون وليس ولاية الدين.

(نقول هنا: لأن البعض يخلط بين دعوة الإسلام إلى السمحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة. ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة، وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا الله يترك دينه ويتبع دينهم.

وسفاجة أية سفاجة، وغفلة أية غفلة: أن تغفل أن لنا وإيانهم طويلاً واحداً نسلكه للتمكين للدين!! أمام الكفار والملحدين. فهم مع الكفار والملحدين إذا كانت المعركة ضد المسلمين.

فلندع من يغفل عن هذا ولنكن واعين للتوجيه القرآني: ﴿لَا تَتَّبِعُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية: (٣١٤).

(٣) الإيذان ببعض ما هم عليه من الكفر، أو التحاكم إليهم فوق كتاب الله كما قال تعالى:

(٢١٤) وفي ظلال القرآن: (ج ٩/٩: ٩١٠) بتصرف. وسود مذهبهم القتل إنه شاء الله عند الحديث عن زمالة الأعداء!

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا
مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّعْنُوتِ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾

[سورة النساء: ٥١].

ونظير هذه الآية قوله تعالى عن بعض أهل الكتاب:

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ
مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَشِيرٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾
وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ

[سورة البقرة: ١٠١ - ١٠٢].

فأخبر سبحانه أنهم اتبعوا السحر وتركوا كتاب الله كما يفعله كثير من اليهود وبعض المنتسبين إلى الإسلام. فمن كان من هذه الأمة موالياً للكفار من المشركين أو أهل الكتاب ببعض أنواع الموالاة كإتيانه أهل الباطل واتباعهم في شيء من فعالهم ومقالهم الباطل: كان له من الذم والعقاب والنفاق بحسب ذلك^(٢١٥). وإن هذه الصورة من صور الخوالة فقد وقع فيها معظم المنتسبين إلى الإسلام اليوم، فالإيمان ببعض ما هم عليه أمر واقع في "العالم الإسلامي" لا ينكره إلا مكابر جاهل، فها هي البيغوات من أبناء أمتنا وممن ينطقون بالسنتنا قد آمنت بالشيوعية مثلاً تارة وبالاشتراكية تارة أخرى، وبالديمقراطية نظاماً أو العلمانية دستوراً، فأخذت هذه المبادئ الكافرة وطبقوها في بلاد المسلمين ملزمة الناس بعبادتها "في الطاعة والانقياد والتنفيذ" ونصبت العتاء لكل مسلم "موحدة" يتأذى في الأمة أن تعود إلى "كتاب الله وسنة رسوله ﷺ".

(٢٦٥) الطوطمة وفخاري: ابن تيمية: (ج ٢/ ١٩٩ - ٢٠١).

وهذه الردة الجديدة سيأتي تفصيل الحديث عنها إن شاء الله في الأخير.

وإن من الإيمان ببعض ما هم عليه: مسألة فصل الدين عن الدولة، وأنه لا علاقة للإسلام بالسياسة، فهذه أيضاً فرع للقضية السابقة، لم توجد إلا في أوروبا أيام الاضطهاد الكنسي لرجال العلم. ولكن أين الإسلام دين العدل ودين السياسة ودين القوة من "هرطقة" رجال الكنيسة حتى يأتي بعض الأقزام فيستورد تلك السموم من أوروبا ليلبس الإسلام قناعاً مزيفاً فيقول: الإسلام علاقة بين العبد وربّه والسياسة لها رجالها ولها قضاياها التي لا تمت إلى الدين بصلة^(٢١٦).

(٤) مودتهم ومحبتهم: وقد نهى الله عنها بقوله:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ
كَأَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ وَكُنتُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ
أَوْ إِخْوَانُهُمْ أَوْ عَشِيرَتُهُمْ

[سورة المجادلة: ٢٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

(أخبر الله أنك لا تجد مؤمناً يواد المعاديين لله ورسوله، فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر، فإذا وجد الإيمان أنتفى ضده، وهو موالات أعداء الله. فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه؛ كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب)^(٢١٧).

(٢١٦) هناك كتاب أجلاء أفاضوا الحديث في هذه القضية منهم الاساتذة: د. محمد الهي والاستاذ سيد قطب والاستاذ محمد قطب والاستاذ المودودي وغيرهم. ومن أراد التفصيل الدقيق فعليه بمراجعة كتاب «العلمانية وآثارها في العالم الإسلامي» للأخ الاستاذ/ سفر بن عبدالرحمن الحوالي.

(٢١٧) «الإيمان»: (ص ١٣).

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ
إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ

[سورة الممتحنة: ١].

(٥) الركون إليهم:

قال تعالى:

وَلَا تَزْكُرُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
فَتَنَسَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ
لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

[سورة هود: ١١٣].

قال القرطبي: الركون حقيقته: الاستناد والاعتماد، والسكون إلى الشيء
والرضا به^(٢١٨). وقال قتادة معنى الآية: لا توادوهم ولا تطيعوهم. وقال ابن
جريج: لا تميلوا إليهم.

وهذه الآية دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع
وغيرهم فإن صحبتهم كفر أو معصية. إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة كما
قيل:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي^(٢١٩)
وقال تعالى:

وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ لَقَدْ كُذِّبَتْ
تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ

(٢١٨) تفسير القرطبي: (ج ٩/١٠٨)، وانظر «البعوي والخازن»: (ج ٣/٢٥٦). أما
البيت فهو لطرفة بن العبد.

(٢١٩) المصدر السابق.

الْحَيَوَةُ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

[سورة الإسراء: ٧٤ - ٧٥].

وإذا كان هذا الخطاب لأشرف مخلوق صلاة الله وسلامه عليه فكيف بغيره؟ (٢٢٠).

(٦) مداهنتهم ومداراتهم ومجاملتهم على حساب الدين:

قال تعالى:

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾

[سورة القلم: ٩].

والمداهنة والمجاملة والمدارة على حساب الدين أمر وقع فيه كثير من المسلمين اليوم، وهذه نتيجة طبيعية للانهمام الداخلي في نفوسهم. حيث رأوا أن أعداء الله تفوقوا في القوة المادية فأنبهروا بهم، ولأمر ما رسخ وترسب في أذهان المخدوعين أن هؤلاء الأعداء هم رمز القوة ورمز القدوة - فأخذوا ينسلخون من تعاليم دينهم مجاملة للكفار ولئلا يصيبهم أولئك الكفرة بأنهم "متعصبون"! وصدق المصطفى ﷺ، إذ يقول في مثل هؤلاء: «لتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم».

قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟ (٢٢١).

إن المداهنة والمجاملة قد تبدأ بأمر صغير ثم تكبر وتنمو حتى تؤدي - والعياذ بالله - إلى الخروج من الملة. وهذه إحدى مزالق الشيطان فليحذر المسلم منها على نفسه، وليعلم أنه هو الأعز وهو الأقوى إذا أمثل منهج الله وتقيد بشرعه ومقتضيات عقيدته.

٢٢٠ «مجموعة التوحيد»: (ص ١١٧) ط. دار الفكر.
٢٢١ «صحيح البخاري»: (ج ١٣/ ٣٠٠، ح ٧٣٢) كتاب الاعتصام، و«صحيح مسلم»: (ج ٤/ ٢٠٥٤ ح ٢٦٦٩). واللفظ للبخاري.

ومن الأمور الواضحة في تاريخ المسلمين: أن من أكبر العوامل في انتصارهم - بعد الإيمان بالله ورسوله - الاعتزاز بالإسلام. يصدق ذلك ويؤيده قول الفاروق رضي الله عنه: «إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله» (٢٢٢).

(٧) اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين:

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

مَامُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ

[سورة آل عمران: ١١٨].

نزلت هذه الآية في أناس من المؤمنين كانوا يضافون المنافقين، ويواصلون رجلاً من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصدقة والجوار فأنزل الله هذه الآية تنهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة منهم عليهم (٢٢٣).

وبطانة الرجل: خاصته، تشبيهاً ببطانة الثوب التي تلي بطنه لأنهم يستبطنون أمره ويطلعون منه على ما لا يطلع عليه غيرهم. وقد بين الله العلة في النهي عن مباطنتهم فقال: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي لا يقصرون ولا يتركون. جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد، ثم إنهم يودون ما يشق عليكم من الضر والمهلك.

والعداوة التي ظهرت منهم: شتم المسلمين والوقعة فيهم، وقيل: بإطلاع المشركين على أسرار المسلمين (٢٢٤). وفي سنن أبي داود قوله ﷺ: «الرجل

(٢٢٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک»: (ج ١/٦٢) كتاب الإيمان. وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي في تلخيصه.

(٢٢٣) «أسباب النزول» للواحدي: (ص ٦٨).

(٢٢٤) انظر «تفسير البغوي»: (١/٤٠٩)، و«تفسير ابن كثير»: (٢/٨٩).

على دين خليله فليُنظر أحدكم من يخالفه» (٢٢٥).

(٨) طاعتهم فيما يأمرون ويشيرون به (٢٢٦):

قال تعالى ناهياً عن ذلك:

وَلَا تُطِيعُوا مَنْ أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٢٨﴾

[سورة الكهف: ٢٢٨].

وقال:

يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ هُمْ أَمْشَرُوا أَنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
يَرُدُّوكُمْ عَلَى آغْفٍ كُنْتُمْ فَتَنَقَّبُوا خِيسِرِينَ ﴿١٢٩﴾

[سورة آل عمران: ١٤٩].

وقال:

وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ
أُولَئِكَ يَهْتَكِمُونَ لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٣١﴾

[سورة الأنعام: ١٢١].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية:

(﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾) حيث عدلتهم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقد متم عليه غيره فهذا هو الشرك، كما قال تعالى:

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْطَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

[سورة التوبة: ٣١] (٢٢٧).

(٢٢٥) «سنن أبي داود»: (ج ٥/١٦٨، ح ٤٨٣٣) كتاب الأدب، وفي «المسند»:

(ج ١٦/١٧٨، ح ٨٣٩٨)، طبعة شاكر، والترمذي: (ج ٧/١١١، ح ٢٣٧٩)

في «الزهد»، وقال هـ: حديث حسن غريب.

(٢٢٦) «مجموعة التوحيد»: (ص ١١٧).

(٩) مجالستهم، والدخول عليهم وقت استهزائهم بآيات الله:

قال تعالى في النهي عن مجالستهم:

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي
الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا
تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِذَا إِثْلُكُمُ
إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

[سورة النساء: ١٤٠].

قال ابن جرير:

(قوله ﴿إِنكُمْ إِذَا مَثَلَهُمْ﴾ أي إنكم إذا جالستم من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها وأنتم تسمعون فأنتم مثلهم إن لم تقوموا عنهم في تلك الحال، لأنكم قد عصيتم الله بجلوسكم معهم وأنتم تسمعون آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها.

وفي الآية دلالة واضحة على النهي عن مجالسة اهل الباطل من كل نوع من الكفرة والمبتدعة والفسقة عند خوضهم في باطلهم (٢٢٨).

وفي الحديث: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابكم» (٢٢٩).

(١٠) توليتهم أمراً من أمور المسلمين:

كالإمارة والكتابة وغيرها، والتولية شقيقة الولاية لذلك فتوليتهم نوعاً

(٢٢٧) تفسير ابن كثير: (ج ٣/٣٢٢).

(٢٢٨) تفسير الطبري: (ج ٥/٣٣٠).

(٢٢٩) رواه أحمد في «المسند»: (ج ٨/٨٠، ح ٥٧٠٥) بتحقيق أحمد شاكر، و«صحيح البخاري»: (ج ٨/١٢٥، ح ٤٤١٩) كتاب المغازي، و«صحيح مسلم»: (ج ٤/٢١٨٥، ح ٢٩٨٠) كتاب الزهد.

من توليهم. وقد حكم الله أن من تولاهم فإنه منهم. ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم. والولاية تنافي البراءة فلا تجتمع البراءة والولاية أبداً.

والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبداً. والولاية صلة فلا تجتمع معادة الكافر أبداً. ولو علم ملوك الإسلام بخيانة النصارى الكتاب - مثلاً - ومكائبتهم الفرنج أعداء الإسلام، وتمنيهم أن يستأصلوا الإسلام وأهله، وسعيهم في ذلك بجهد الإمكان: لشاهم ذلك عن تقريرهم وتقليدهم الأعمال. فهذا الملك "الصالح" كان في دولته نصراني يسمى: محاضر الدولة أبا الفضل بن دخان ولم يكن في المباشرين أمكن منه. كان قذى في عين الإسلام، وبثرة في وجه الدين. بلغ من أمره أنه وقع لرجل نصراني أسلم برده إلى دين النصرانية وخروجه من الملة الإسلامية، ولم يزل يكتاب الفرنج بأخبار المسلمين، وأعمالهم، وأمر الدولة وتفاصيل أحوالها.

وكان مجلسه معموراً برسل الفرنج والنصارى وهم مكرمون لديه، وحوائجهم مقضية عنده، ويحمل لهم الإدرار والضيافات، وأكابر المسلمين محجوبون عن الباب لا يؤذن لهم، وإذا دخلوا لم ينصفوا في التحية ولا في الكلام. وحدث أن اجتمع في مجلس "الصالح" أكابر الناس من الكتاب والقضاة والعلماء فسأل السلطان بعض الجماعة عن أمر أفضى به إلى ذكر مخازي النصارى فبسط لسانه في ذلك وذكر بعض ما هم عليه من الأفعال والأخلاق. وقال من جملة كلامه: إن النصارى لا يعرفون الحساب، ولا يدرونه على الحقيقة لأنهم يجعلون الواحد ثلاثة والثلاثة واحداً. والله تعالى يقول:

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ

[سورة المائدة: ٧٣].

وأول أمانتهم وعقد دينهم: "بسم الآب والابن وروح القدس إله واحد" فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء وقال في قصيدة له:

كيف يدري الحساب من جعل الوا
حد رب الورى تعالى ثلاثة

ثم قال: كيف تأمن أن يفعل في معاملة السلطان كما فعل في أصل اعتقاده، ويكون مع هذا أكثر النصارى أمانة؟ وكلما استخرج ثلاثة دنانير دفع إلى السلطان ديناراً وأخذ لنفسه اثنين ولا سيما وهو يعتقد ذلك قرينة وديانة؟ وأنصرف القوم وأنفى أن كبت النصراني بطلته، وظهرت خيانتة فأريق دمه وسلط على وجوده عدمه (٢٣٠).

(١١) استثمانهم وقد حوّنهم الله:

قال تعالى:

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَاعٍ يُودِعُ إِلَيْكَ وَفِيهِمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدَسَارٍ لَا يُودِعُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِ سَكِينٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

[سورة آل عمران: ٧٥].

(١٢) الرضى بأعمالهم والتشبه بهم، والتزجي بزيهم (٢٣١):

(١٣) البشاشة لهم والطلاقة وأنشراح الصدر لهم وإكرامهم وتقريبهم (٢٣٢):

(١٤) معاونتهم على ظلمهم ونصرتهم:

ويضرب القرآن لذلك مثالين هما: امرأة لوط التي كانت ردة لقومها، حيث كانت على طريقتهن، راضية بأفعالهم القبيحة، تدل قومها على ضيوف لوط. وكذلك فعل امرأة نوح (٢٣٣).

(٢٣٠) «أحكام أهل الذمة» لابن القيم: (ج ١/ ٢٤٢ — ٢٤٤) بتصرف بسيط.

(٢٣١) «مجموعة التوحيد»: (ص ١١٧).

(٢٣٢) «مجموعة التوحيد»: (ص ١١٧).

(٢٣٣) «تفسير ابن كثير»: (ج ٦/ ٢١٠) وقد سبق الحديث عنهما.

(١٥) مناصحتهم والثناء عليهم ونشر فضائلهم^(٢٣٤):

وهذه الصورة ظهرت واضحة في المصور الأخيرة فقد رأينا "أفراخ المستشرقين" - مثلاً - ينشرون فضائلهم وأنهم أصحاب المنهج العلمي السديد و.. و.. إلخ. كذلك جاء من ينشر "فضائل" الغرب أو الشرق مضافاً عليها الألقاب التقديرية والحضارة والرفق، وواصماً الإسلام والمتتبعين إليه بالرجعية والجمود والتأخر عن مسيرة الركب الحضاري والأهم المتقدمة.

(١٦) تعظيمهم وإطلاق الألقاب عليهم :

مثل: السادة والحكماء ومبادئهم بالسلام (ومما يجب النهي عنه ما يفعله كثير من الجهال في زماننا إذا لقي أحدهم عدواً لله سلم عليه ووضع يده على صدره إشارة إلى أنه يحبه محبة ثابتة في قلبه. أو يشير بيده إلى رأسه إشارة إلى أن منزلته عنده على الرأس، وهذا الفعل المحرم يُخشى على فاعله أن يكون مرتدّاً عن الإسلام؛ لأن هذا من أبلغ الموالاة والمودة والتعظيم لأعداء الله) (٢٣٥).

والتعظيم واللقب الرفيع رمز للعة والتقدير وهما مقصورتان على المؤمن. أما الكافر فله الإهانة والذلة. وقد ورد في الحديث الصحيح النهي عن مبادئهم بالسلام فقال عليه السلام: «لا تبدؤا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه»^(٢٣٦) وسيأتي تفصيل هذه القضية في الباب الثاني.

(١٧) السكتى معهم في ديارهم وتكثير سوادهم^(٢٣٧):

-
- (٢٣٤) «مجموعة التوحيد»: (ض١١٧)، ورسائل سعد بن عتيق: (ص١٠١).
(٢٣٥) «مقالة الإخوان» للشيخ حمود التويجري. (ص١٩)، الطبعة الأولى، مؤسسة النور بالرياض.
(٢٣٦) «صحيح مسلم»: ج٤/١٧٠٧، ح٢١٦٧ كتاب السلام، وأبو داود: (ج٣٨٤/٥، ح٥٢٠٥) في الأدب.
(٢٣٧) «الرسائل المفيدة» للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ: (ص٦٤).

قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه ضال» (٢٣٨). وقال: «لا تأكلوا أموال المشركين ولا تتجاسروا بهم فمن ساكنهم أو جامعهم فليس منه» (٢٣٩). وسوف يأتي - بحسب الله - في الباب الثاني تفصيل لهذه المسألة إذا كانت هناك ضرورة لهذه المسألة.

(١٨) الأمر معهم، وتنفيذ مخططاتهم، والدخول في أحلافهم وتنظيماتهم، والتجسس من أجلهم، ونقل عورات المسلمين وأسرارهم إليهم، والقتال في صفهم (٢٤٠):

وهذه الصورة من أخطر ما أثبتت به أمثا في هذا العصر. ذلك أن وجود ما يسمى في المصطلح الحديث "الطابور الخامس" قد أفسد أجيال الأمة في كل مجال سواء في التربية والتعليم أم في السياسة وشؤون الحكم أم في الأدب والأخلاق أم في الدين والدنيا معاً. وصدق الشاعر محمود أبو الوفا فيما نقله عنه أستاذنا الفاضل الشيخ محمد قطب أنه قال حين خرج الاستعمار الإنجليزي من مصر: (خرج الإنجليز الحمر وبقي الإنجليز السمر!!) - نعم إن داعنا هم الإنجليز السمر.

تري من هو السمر على تنفيذ خطة «هتلوب» في التربية والتعليم؟ ومن هو القائم بتنفيذ مخططات اليهود الثلاثة: فريد وماركس ودور كايم في أفكارهم الخبيثة؟ (٢٤١). إنهم المستغترون من أبناء هذه الأمة الذين حققوا

(٢٣٨) أبو داود: (ج ٣/ ٢٢٤)، ح ٢٧٨٧ كتاب الجهاد، وقال الشيخ الألباني: حديث حسن، انظر صحيح الجامع الصغير: (ج ٦/ ٢٧٩)، ح ٦٠٦٢.

(٢٣٩) الحاكم في المستدرکة: (ج ٢/ ١٤١)، وقال صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

(٢٤٠) الإيمان. حقيقته أركانه، نواقضه للدكتور محمد نعيم ياسين: (ص ١٤٧).

(٢٤١) تراجع كتاب التطور والتجديد في حياة البشرية للأستاذ محمد قطب: (ص ٣٥) -

لأعداء الله ما لا يحملون به. ولكن هيهات لهم فإن الله يقول-

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْفَرَسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَكُذَّبُونَ ﴿١٧٢﴾
وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ

[سورة الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

(١٩) من هرب من دار الإسلام إلى دار الحرب بفضاً للمسلمين وجأ للكافرين (٢٤٢).

(٢٠) من آنخرط في الأحزاب العلمانية أو الإلحادية كالشيوعية والاشتراكية والقومية والماسونية وبذل لها الولاء والحب والنصرة (٢٤٣).

ما يقبل من الأعذار وما لا يقبل في هذه الصور

قد يعتذر بعض الموالين للكفار بأنهم يخافون على سلطانهم وأموالهم ومراكزهم وغير ذلك من المخاوف التي لا تصح، ولا يعتبرها الله، عذراً لهم فيعذرهم من أجلها. لأنها جميعاً من تزوين الشيطان وتسويله، وحب الدنيا والطمع في زينتها.

وآله سبحانه وتعالى لم يقبل عذراً لأحد في إظهار مولاته للكفار وطاعتهم وموافقتهم على دينهم إلا عذراً واحداً هو: الإكراه.

قال تعالى:

= فصل: اليهود الثلاثة، وكتاب «هل نحن مسلمون؟» (ص ١٣٣)، وكتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

(٢٤٢) «الردة بين الأمس واليوم»: (ص ٣٣).

(٢٤٣) المصدر السابق: (ص ٤٠).

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١٠٦)
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
 وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

[سورة النحل: ١٠٦ - ١٠٧].

وقال سبحانه:

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ
 يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ
 تُقَاتُوا

[سورة آل عمران: ٢٨].

والإكراه لا ينفع أحداً فيما يتعلق بالرضى القلبي، والميل الباطني إلى
 الكفار لأنه غير مأذون فيه على أية حال لقوله تعالى: ﴿وقلبه مطمئن بالإيمان﴾^(١٠٦)
 ولأن الإكراه لا سلطان له على القلوب. فإنه لا يعلم ما في القلب إلا الله.

فمن والى الكفار بقلبه ومال إليهم فهو كافر على كل حال. فإن أظهر
 موالاته بلسانه أو بفعله عومل في الدنيا بكفره وفي الآخرة يخلد في النار، وإن
 لم يظهرها بفعل ولا قول وعمل بالإسلام ظاهراً عصم ماله ودمه وهو منافق
 في الدرك الأسفل من النار^(٢٤٤).

موقف المسلم تجاه هذه الصور :

الولاء والبراء هو الصورة الفعلية للتطبيق الواقعي لهذه العقيدة وهو مفهوم
 ضخم في حس المسلم بمقدار ضخامة وعظمة هذه العقيدة.

(٢٤٤) انظر «الإيمان» للدكتور محمد نعيم ياسين: (ص ١٤٧ - ١٤٨).

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ:

قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ
مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ
اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

[سورة البقرة: ٢٥٦].

وَاللَّهُ جَلُّ جَلَالِهِ أَرَادَ لِلْمُسْلِمِ - بَلْ لِلإِنْسَانِ - الكرامة في هذه الأرض

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ

[سورة الإسراء: ٧٠].

فحين يكون ولاء المسلم لله ولدينه وحزبه المؤمنين فهو بهذا يقدر هذا التكريم حق قدره، ويعبد الله حق عبادته، لأنه تخلص بل وعادى كل عبودية تريد إخضاعه لسلطانها من دون الله.

أما حين ينتكس فيعبد غير الله - سواء بالشعائر أم بالشرائع أم بالطاعة والانقياد - فإنه بهذا يهبط من تلك المكانة والكرامة إلى عبودية أهواء شتى، وآراء ومذاهب تمزق عليه حياته وتضيع عليه آخرته، فيعيش شقيًا - وإن زعم أنه سعيد -، ذلك أن مقياس السعادة والشقاوة في التصور الإسلامي، نابع من عبادة الله وحده، وتحكيم شرعه، والخلوص له. أو عكس ذلك: عبادة الطاغوت والهوى والشهوة وتلك هي دركات - الشقاء التي يعيش فيها كل من أعرض عن هدى الله ودينه.

وموالة غير المؤمنين - فضلاً عن أنها ردة وعصيان لله سبحانه - هي مصدر التذبذب والفصام النكد في حياة فاعلها، لأنه لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وفي هذا العصر الذي اختلطت فيه المفاهيم، واضطربت فيه الآراء، وخلط الحق بالباطل بل أقصي الحق ورفعت شارة الباطل: أين يقف المسلم؟ أين يكون ولاؤه؟ ولمن يكون؟ وهو يرى الكفر الصريح معلناً ومنفذاً في حياة الناس ثم يوضع لذلك "لافتة بسيطة" إن هذا لا يتعارض مع الإسلام؟

ومثال ذلك من يدين بالاشتراكية أو الديمقراطية أو العلمانية أو القومية أو الشيوعية ثم يقال: هذا لا يعارض الإسلام لأنه علاقة بين العبد وربّه. لمن يكون ولاء المسلم وهو يرى شرع الله معبداً من الأرض ومحارباً، ثم يستورد القانون البشري ليكون هو دستور الناس في حياتهم ومنهج مسيرتهم ويقال: إن هذا لا يعارض الإسلام لأن التشريع الإسلامي - سواء قيلت بلسان الحال أو المقال - لم يعد مسيراً لركب الحضارة والتطور؟!

لمن يكون ولاء المسلم وهو يرى المنافقين يتمسحون بأسم الإسلام وهم في الحقيقة أخطر على الدين من أعدائه الصرحاء؟

هذه أسئلة وأسئلة غيرها كثيرة.. والإجابة عليها تكمن في الحقيقة التالية: إنه لا يمكن للمسلم أن يكون ولاؤه لله ولدينه وللمؤمنين خالصاً إلا إذا كان مدركاً لحقيقة التوحيد "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ممثلاً لها، مدركاً مدلولها ومعناها عارفاً بمقتضياتها ولوازمها.

ثم علمه بالجاهلية والشرك والكفر والردة والنفاق حتى لا يكون مصيدة للوقوع في هذا الشر. لأنه لا يعرف الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

ثم علمه بحقيقة الولاء والبراء في المفهوم الإسلامي الصحيح وهو: أن الولاء والحب والنصرة للمؤمنين من أي جنس كانوا وبأي لغة نطقوا وفي أي مكان حلوا، لأنه لا يؤمن بما تؤمن به الجاهليات من لوثة الدم وتنن العرق وخسة التراب.

فهو مع إخوانه المؤمنين بقلبه ولسانه وماله ودمه، يألم لألمهم ويفرح لفرحهم، وبغضه وبراءه لجميع أعداء الله، سواء كانوا كفاراً أصليين أم مرتدين أم منافقين، وموقفه منهم: الجهاد بالنفس والمال والقلم واللسان وكل ما أوتي من طاقة وعلى حسب جهده وطاقته.

إن هذه الحقيقة هي التي - إذا أدركها المسلم وعمل بها - يستطيع بها

أن يحدد موقفه من كل صورة من الصور السابقة وغيرها، فيعرف من يرالي
ومن يعادي، وماذا يريد الإسلام منه وماذا يراد للإسلام من أعدائه.
وهو بهذا يكون مسلماً واعياً عزيزاً بعزة الله غير واهن ولا حزين لأن
الله معه وهو القائل:

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

[سورة آل عمران: ١٣٩].

ومن كان الله معه فلن تضيره أن تجتمع البشرية بكاملها لأن تضره،
فهي بمجموعها لا تستطيع ذلك، إلا إذا كان الله يريد له ذلك، وإلا فهي
أعجز من أن تنال منه شيئاً بسيطاً بغير قدر الله وإرادته.

(٢٤٥) حبذا مراجعة كتاب «هل نحن مسلمون؟»: (ص ٤٧).

الفصل الثامن

الرد على الخوارج والرافضة في عقيدة الولاء والبراء

قد يقول بعض من لا يدرك حقيقة العقيدة، ولا يعي مفاهيم "لا إله إلا الله": إن مصطلح الولاء والبراء من مصطلحات الخوارج والشيعة فكيف يدرج في معتقد السلف الذين هم أهل السنة والجماعة؟

والجواب على هذا الاعتراض: من عدة وجوه:

(١) نحن مطالبون بما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهما عقيدتنا وشريعتنا ونظام حياتنا، وأحسب أنني قد ذكرت عدداً كبيراً جداً من عشرات الآيات في الولاء والبراء وعشرات الأحاديث النبوية الصحيحة في هذه القضية.

(٢) من منطلق عقيدة سلفنا الصالح نقول: لسنا مستعدين للتنازل عن أي أمر من أمور ديننا الصغيرة فضلاً عن أمور العقيدة الكبرى لأجل أن ناعقاً أخذ بعض مصطلحاتنا وبنى عليها مفاهيمه البدعية المنكرة.

(٣) هل يستطيع مسلم يؤمن بكتاب الله وسنة رسوله أن يقول إن إبراهيم عليه السلام - وهو القدوة الأولى في الولاء والبراء كما ذكرنا - استخدم مصطلحات الخوارج والرافضة الذين جاءوا بعده بآلاف السنين؟ سبحانه هذا بهتان عظيم.

(٤) إن قضية الولاء والبراء باعتبارها مبدأ عقدي: مبدأ صحيح لا غبار عليه ورد به كتاب الله وسنة نبي الله ولكن الخطأ كل الخطأ والبدعة كل البدعة هو ما بنى عليه هؤلاء السفهاء - من خوارج ورافضة - من

مفاهيم سقيمة خرجوا بها عن النصوص الصريحة وإجماع الأمة المحمدية.
وصدق القائل:
وما ضر الورود وما حوته
إذا المزموم لم يطعم شذاها

معتقد الخوارج في هذه القضية

أما الخوارج فهم الذين قال فيهم إمام السنة الإمام أحمد بن حنبل رضي
الله عنه:

(هم الذين مرقوا من الدين، وفارقوا الملة، وشردوا عن الإسلام، وشذوا
عن الجماعة فضلوا السبيل والهدى، وخرجوا على السلطان، وسلوا السيف
على الأمة، وأستحلوا دماءهم وأموالهم، وعادوا من خالفهم إلا من قال
بقولهم. وكان على مثل قولهم وأرايهم، وثبت معهم في بيت ضلالتهم، وهم
يشتمون أصحاب محمد ﷺ وأصحابه وأختانه، ويتبرأون منهم، ويرمونهم
بالكفر والعظائم، ويرون خلافهم في شرائع الإسلام.. يقولون من كذب
كذبة، أو أتى صغيرة أو كبيرة من الذنوب فمات من غير توبة: فهو في النار
خالداً مخلداً أبداً.. وهم قدرية جهمية مرجئة رافضة، لا يرون الجماعة إلا
خلف إمامهم.. ولا يرون للسلطان عليهم طاعة، ولا لقريش عليهم خلافة.
وأشياء كثيرة يخالفون عليها الإسلام وأهله. وكفى بقوم ضلالة: أن يكون
هذا رأيهم ومذهبهم ودينهم وليسوا من الإسلام في شيء. ومن أسمائهم
الحرورية وهم أصحاب حروراء^(٢٤٧) وأزارقة: وهم أصحاب نافع بن
الأزرق.. والنجدية: وهم أصحاب نجدة بن عامر الحروري.. والاباضية..
والصفيرية وغيرهم.. كل هؤلاء خوارج، فساق مخالفون للسنة، خارجون من

(٢٤٦) قرية بالكوفة كانت بها وقعة على الخوارج بقيادة نجدة بن عامر. انظر هامش
«السنة» للإمام أحمد: (ص ٨٤) وكتب الفرق.

الملة، أهل بدعة ضلالة (٢٤٨).

وفرقه الخوارج قد انحرفت في مفهوم الولاء والبراء فهي لا تتولى إلا من يدين بنحلته القائمة على تكفير مرتكب الذنوب وخاصة الكبائر. وموقفهم من صحابة رسول الله ﷺ أنهم يتولون أبا بكر وعمر ويتبرأون من عثمان وعلي (٢٤٩).

وخلاصة القول في الرد عليهم: أن أهل السنة والجماعة يتبرأون منهم بسبب بدعتهم الضالة. ولا يتولونهم في شيء.

أما الولاء والبراء بمفهومه الصحيح فهو ما عليه أهل السنة والجماعة، ولا يضيرهم أن الخوارج قالوا بقضية الولاء والبراء. لأن العبرة ليست في العناوين والشعارات، بل في المفاهيم والتصورات التي توافق الكتاب والسنة أو تناقضها، ومن هنا فإن ولاء الخوارج وبراءهم الذي يعتقدونه: إنما هو بحسب أهوائهم وليس متفقاً مع نصوص الكتاب والسنة.

معتقد الرافضة في الولاء والبراء

وأما الرافضة: فهم الذين يتبرأون من أصحاب محمد ﷺ ويسبونهم وينتقصونهم، ويكفرون الأئمة إلا أربعة: علياً، وعمار، والمقداد، وسلمان (٢٥٠).

وقال الأشعري: إنما سموا رافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر (٢٥١).

ولئن كان الخوارج قد انحرفوا في الأمور التي ذكرناها آنفاً عنهم: فإن

(٢٤٧) كتاب «السنة للإمام أحمد: (ص ٨٣ - ٨٥) تصحيح إسماعيل الأنصاري (بتصرف بسيط).

(٢٤٨) «التنبيه والردء للملطي: (ص ٥٣).

(٢٤٩) «السنة للإمام أحمد: (ص ٨٢). وفي قوله: يكفرون الأئمة الأربعة نظر ملعل الصواب: إلا أربعة.

(٢٥٠) «مقالات الإسلاميين»: (ج ١/ ٨٩).

الرافضة أيضاً لا يقلّون جرماً عندهم، حيث وقفوا من أصحاب رسول الله ﷺ موقفاً مشيناً، ولعبت بهم الأيدي اليهودية الممثلة في شخصية عبد الله بن سبأ التي أخذت تنصب حيالات من الحب الكاذب لآل البيت، وتبرأ من بقية أصحاب رسول الله ﷺ وتعاديهم، مع أن آل البيت براء مما ألصقه بهم هؤلاء الرافضة.

قال آبن كثير:

(إن الطائفة المخذولة - الرافضة - يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم عياداً بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم مكوسة فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبون من رضي الله عنهم^(٢٥٢)؟ أما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله ويعادون من يعادي الله. وهم متبعون لا مبتدعون).^(٢٥٣)

والرافضة تقول: لا ولاء إلا لبراء: أي لا يتولى أهل البيت حتى يتبرأ من أبي بكر وعمر. رضي الله عنهما!^(٢٥٤)

ولكن لا غرابة في ذلك من زمرة فضائحتها في الكتب مسطورة. فقد كانت الرافضة على طول تاريخها حرباً على أهل الإسلام، يوالون أعداء المسلمين من تثار وصلبيين وغيرهم. قال شيخ الإسلام آبن تيمية: الرافضة توالي من حارب أهل السنة والجماعة، فهم يوالون التثار ويوالون النصارى. وقد كان بالساحل بين الرافضة وبين الفرنج مهادنة، حتى صارت الرافضة تحمل إلى قبرص خيل المسلمين وسلاحهم، وغللمان السلطان، وغيرهم من

(٢٥١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [سورة التوبة: ١٠٠].

(٢٥٢) «التفسير»: (ج ٤/١٤٢).

(٢٥٣) «شرح الطحاوية»: (ص ٥٣٢).

الجند والصبيان. وإذا انتصر المسلمون على التتار أقاموا المآتم والحزن، وإذا انتصر التتار على المسلمين أقاموا الفرح والسرور. وهم الذين أشاروا على التتار بقتل الخليفة، وقتل أهل بغداد.

ووزير بغداد آبن العلقمي الرافضي هو الذي حامر على المسلمين وكاتب التتار، حتى أدخلهم أرض العراق بالمكر والخديعة، وبهى الناس عن قتالهم.

(وقد عرف العارفون بالإسلام: أن الرافضة تميل مع أعداء الدين، ولما كانوا ملوك القاهرة كان وزيرهم مرة يهودياً، ومرة نصرانياً أرمينياً، وقويت، النصارى بسبب ذلك النصراني الأرميني، وبنوا كنائس كثيرة بأرض مصر في دولة أولئك الرافضة المنافقين، وكانوا ينادون بين القصرين: من لعن وسب فله دينار وإردب.

وفي أيامهم أخذت النصارى ساحل الشام من المسلمين حتى فتحه نور الدين (صلاح الدين) (٢٥٥).

ومن أحفادهم في الوقت الحاضر النصيرية الكافرة التي آبتلي بها المسلمون، ذلك أن كفرها أشد من كفر اليهود والنصارى كما قرر ذلك شيخ الإسلام آبن تيمية وغيره. وهم الذين كانوا أداة طيعة للاستعمار الفرنسي في عزوه لبلاد الشام. ويشنون اليوم حرباً شرسة على المسلمين في ديارهم وبعد: فإن أهل السنة والجماعة هم الذين يحيون أصحاب رسول الله ﷺ، ولا يفرطون في حب أحد منهم، ويتولونهم جميعاً ولا يترأون من أحد منهم،

(٢٥٤) «الفتاوى»: (ج ٢٨/٢٣٦ - ٦٣٧).

ويغضون من يغضهم ويرون أن حبهـم دين وإيمان وإحسان ويغضهم كفر
ونفاق وطغيان (٢٥٦).

وهم براء من الخوارح والرافضة ومن كل الفرق الضالة.

(٢٥٥) انظر الطحاوية مع شرحها (ص ٥٢٨)، وقد اطلعت — بعد كتابة هذا
الكتاب — على كتاب قيم كشف أستار الشيعة ويفضحهم في عصرنا الحاضر
وخصوصاً زعيمهم (الخمسي) ذلك الكتاب هو «وجاء دور المجوس» لمؤلفه
الدكتور عبد الله محمد الفريـد، وهو كتاب قيم في موضوعه فليراجعه من شاء
ليستبين زيف باطلهم و نططهم ضد أهل السنة والجماعة.

الباب الثاني

من مقتضيات الولاء والبراء

من مقتضيات الولاء والبراء

سبق القول في أول البحث: أن الولاء أصله: الحب، والبراء أصله: البغض، وينشأ عنهما من أعمال الجوارح ما يؤيد صدق ذلك الحب أو يكذبه، وما يؤيد ذلك البراء أو ما يبطل زعمه.

والحب عنصر أصيل في التصور الإسلامي، دليل ذلك قول المولى جل وعلا:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا

[سورة مريم: ٩٦].

وقوله:

إِنَّ رَبِّيَ رَحِيمٌ وَدُودٌ

[سورة هود: ٩٠].

وقوله:

وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ

[سورة البروج: ١٤].

وقوله:

الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ

[سورة البقرة: ١٦٥].

وقوله:

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ

[سورة آل عمران: ٣١].

ذلك أن نضاعة التصور الإسلامي في الفصل بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية لا تجفف ذلك النداء الحبيب بين الله وعباده، فهي علاقة الرحمة، والعدل والود وليست كما يدعي أعداء الله: أن العلاقة بين العبد وربّه علاقة جافة وعنيفة، علاقة قهر وقسر، وعذاب وعقاب، وجفوة وانقطاع!

كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا

[سورة الكهف: م].

وحب الله لعبده من عباده أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من عرفه. الله سبحانه بصفاته كما وصف نفسه وكما وصفه رسوله، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره.

وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يدركها كذلك إلا من ذاقها. وإذا كان حب الله لعبده أمرًا هائلًا عظيمًا، وفضلاً غامراً جزيلاً، فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبه، وتعريفه هذا المذاق الجميل هو إنعام هائل عظيم^(١).

ومن نعمة الله على عباده المؤمنين أن جعل المحبة فيه هي الوشيجة العظمى بينهم، وهي المورد العذب الذي ينهلون منه جميعاً، ثم جعل سبحانه وجود المحبة للقوم ولما يلحق بهم المحب سبيلاً للحاق بهم يؤيد ذلك قوله ﷺ: «المرء مع من أحب»^(٢). وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب»^(٣).

وعن أنس أن رجلاً سأل النبي ﷺ متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «ما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة

(١) «الطلال»: (ج ١١٨/٢ - ٩١٩) بتصرف.

(٢) «صحيح البخاري»: (ج ١٠/٥٥٧، ح ٦١٦٨) كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله.

(٣) «صحيح البخاري»: (ج ١٠/٥٥٧، ح ٦١٦٩) كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله، و«صحيح مسلم»: (ج ٤/٢٠٣٤، ح ٢٦٤٠) كتاب البر.

ولكنني أحب الله ورسوله قال: «أنت مع من أحببت»^(٤).
على أن من الواجب ذكره هنا: أن هذا الحب ليس مجرد أماني أو
أحلام تناقضها الأفعال القبيحة. أو "هرطقة" رقعاء الصوفية أو.. أو.. إلخ
وإنما هو حب بالقلب وعمل بالجوارح قال الله تعالى:

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ
وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَمَلْ سُوءَ إِيجْرِيهِ
وَلَا يَحِذُّهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَيْسَ وَلَا تَصِيرًا

[سورة النساء: ١٢٣].

وقال:

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ
فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

[سورة آل عمران: ٣١].

قال الحسن: لا تغتر بقولك: المرء مع من أحب إن من أحب قوماً أتبع
آثارهم، ولن تلحق الأبرار حتى تتبع آثارهم، وتأخذ بهديهم، وتقتدي بسلوكهم،
وتمسي وتصبح وأنت على منهاجهم، حريصاً أن تكون منهم، وتسلك
سبيلهم وتأخذ طريقهم، وإن كنت مقصراً في العمل فإن ملاك الأمر أن تكون
على استقامة، أما رأيت اليهود والنصارى وأهل الأهواء الردية يحبون أنبياءهم
وليسوا معهم لأنهم خالفوهم في القول والعمل، وسلكوا غير طريقهم فصار
موردتهم النار؟^(٥).

والمحبة تنقسم إلى أربعة أقسام^(٦):

- (٤) «صحيح البخاري»: (ج ١٠/٥٥٧، ح ٦١٧١) كتاب الأدب، باب علامة
الحب في الله، و«صحيح مسلم»: (ج ٤/٢٠٣٢، ح ٢٦٣٩) كتاب البر.
- (٥) «الحكم الجديدة بالإذاعة من قول النبي»: بعثت بالسيف بين يدي الساعة لابن
رجب: (ص ١٣٣) تحقيق محمد حامد الفقي.
- (٦) ذكر ذلك الإمام محمد بن عبد الوهاب: «مجموعة التوحيد»: (ص ١٧)، طبعة
دار الفكر.

(١) محبة شركية: وأصحابها هم الذين قال الله فيهم:

وَمِنْ

النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ
الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾
إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَأَوَّاءُوا الْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّكَ
لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ
أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

[سورة البقرة: ١٦٥ - ١٦٧].

(٢) حب الباطل وأهله، وبغض الحق وأهله وهذه صفة المنافقين.

(٣) محبة طبيعية: وهي محبة المال والولد إذا لم تشغل عن طاعة الله
ولا تمن على محارم الله فهي مباحة.

(٤) حب أهل التوحيد وبغض أهل الشرك: وهي أوثق عرى الإيمان، وأعظم
ما يعبد به العبد ربه.

وما دامت المحبة في الله هي أوثق عرى الإيمان كما ورد في الحديث
«أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»^(٧) فإن الطريق الموصل
إليها وإلى موالاة الله عز وجل هو: اتباع شرعه الذي جاء به محمد ﷺ،
وبغير هذا الطريق تكون دعوى الولاية كاذبة كما كان المشركون يتقربون
إلى الله تعالى بعبادة من يعبدونه من دونه كما قال الله عنهم:

مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى

[سورة الزمر: ٣].

وكما حكى عن اليهود والنصارى أنهم قالوا:

(٧) سبق تخريجه في التمهيد: ص ٤٣.

نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ

[سورة المائدة: ١٨].

مع إصرارهم على تكذيب رسله وارتكاب مناهيه وترك فرائضه^(٨).
ومنى أمتلأ القلب بعظمة الله تعالى بما ذلك من القلب كل ما سواه،
ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه وإرادته إلا ما يريد منه مولاه، فإذا تحقق
القلب بالتوحيد التام لم يبق فيه محبة لغير الله، ولا كراهة لغير ما يكره الله،
ومن كان كذلك لم تنبث جوارحه إلا بطاعة الله، وإنما تنشأ الذنوب من
محبة ما يكره الله، أو كراهة ما يحبه الله وذلك ينشأ من تقديم هوى النفس
على محبة الله وخشيته^(٩).

ويصور شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عظمة محبة الله ولذتها فيقول:
(إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة) . وقال
بعضهم: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا:
وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال
عليه، والإعراض عما سواه^(١٠).

أما البغض في الله فهو أمر ملازم للحب في الله لا ينفصل عنه، لأن
المحب يحب ما يحب محبوبه، ويبغض ما يبغض محبوبه، ويوالي من يوالي
محبوبه، ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضاه، ويبغض لبغضه، ويأمر بما يأمر
به، وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق له في ذلك.

ومعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداءه، ولا بد
أن يحب ما يحبه من جهادهم كما قال تعالى:

(٨) انظر «جامع العلوم والحكم» لابن رجب: (ص ٣١٦).

(٩) انظر «جامع العلوم والحكم» لابن رجب: (ص ٣٢٠).

(١٠) «مدارج السالكين»: (ج ١/ ٤٥٤).

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ
بُيُوتُهُمْ مَرُصُوصٌ

[سورة الصف: ٤].

وقد وصف المولى سبحانه وتعالى عباده الذين يحبهم ويحبونه فقال:

أَذَلُّوا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَضُوا عَلَى الْكَافِرِينَ

[سورة المائدة: ٥٤].

أي إنهم يعاملون المؤمنين بالذلة واللين وخفض الجناح، ويعاملون الكافرين بالعزة والشدة عليهم، والغلظة لهم. فهم يحبون من أحبه الله فيعاملونه بالمحبة والرافة واللين، ويغضون أعداء الله الذين يعادونه فيعاملونه بالشدة والغلظة كما قال تعالى:

أَعْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ

[سورة الفتح: ٢٩].

يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ

[سورة المائدة: ٥٤].

وأعداء الله لهم البغض ولهم من المؤمنين الجهاد:

عَلَيْهِمْ قِتْلُهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ

[سورة التوبة: ١٤].

ومن هنا فإن من مقتضيات الولاء والبراء: حق المسلم على المسلم.

فما هو ذلك الحق؟

(١١) انظر «التحفة المراقية»: (ص ٦٤ - ٦٥).

(١٢) انظر «جامع العلوم والحكم»: (ص ٣١٧).

الفصل الأول

حق المسلم على المسلم

قلنا: إن المحبة في الله هي الوشيجة العظمى التي ألتقى عليها المؤمنون، ويلتقون عليها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وعلى هذه الوشيجة تنبني حقوق المسلم على المسلم، وهي كثيرة جداً: النصرة، والمودة، والزيارة، والإكرام، والسلام، وحماية العرض، والمواساة وغير ذلك مما هو منصوص عليه في الكتاب والسنة.

ولكن الحقوق التي أتحدث عنها هي ما يتعلق بموضوع البحث. ومن هذه الحقوق:

(١) المودة: وهذه للمؤمنين من بعضهم لبعض، فليس للكافر ولا للفاسق ولا للمبتدع فيها نصيب، ومن هذه المودة حب المسلم لأخيه المسلم ما يحب لنفسه كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» متفق عليه^(١٣).

(٢) النصرة: وهذه واجب أخوي إيماني على كل مسلم لأخيه المسلم من أي جنس كان وفي أي أرض حل، وبأي لون كان، ينصره بنفسه وبماله وبالذبح عن عرضه ولذلك ورد التهديد لمن يترك ذلك وهو قادر عليه. قال ﷺ: «ما من أمرىء يخذل أمراً مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمة ويتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته وما من أمرىء ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من

(١٣) «صحيح البخاري»: (ج ١/٥٧، ح ١٣) كتاب الإيمان، و«صحيح مسلم»: (ج ١/٦٧، ح ٤٥٦) كتاب الإيمان.

حرمته إلا نصره الله في موطن يحب نصرته»^(١٤).

وقد أمتدح سبحانه وتعالى الأنصار رضوان الله عليهم في نصرتهم
لأخوانهم المهاجرين فقال سبحانه:

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا

[سورة الأنفال: ٧٤].

ومن الأوامر النبوية في شأن النصرة قوله ﷺ: «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»^(١٥). ونصرته إذا كان مظلوماً ظاهرة أما نصرته إذا كان ظالماً فبرديه عن الظلم ومنعه عنه. وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله عز وجل في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة. ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة، متفق عليه»^(١٦).

والمسلم داخل المجتمع الإسلامي ما هو إلا عضو عامل كأي عضو من أعضاء الجسد فإذا حصل لهذا العضو مرض أو آخل عمله تأثر لذلك بقية الجسد، ويصور ذلك المصطفى ﷺ في قوله الكريم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»^(١٧). وقوله: «تري المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم».

(١٤) أبو داود: (ج ٥/١٩٧، ح ٤٨٨٤) كتاب الأدب، والمسند: (ج ٤/٣٠). وقال الألباني: حديث حسن، انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج ٥/١٦٠، ح ٥٥٦٦).

(١٥) «صحيح البخاري»: (ج ٥/٩٨، ح ٢٤٤٣) كتاب المظالم.

(١٦) «صحيح البخاري»: (ج ٥/٩٧، ح ٢٤٤٢) كتاب المظالم، و«صحيح مسلم»: (ج ٤/١٩٩٦، ح ٢٥٨٠) كتاب البر والصلة.

(١٧) سبق تخريجه: ص ١٨٧.

مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تدعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (١٨).
وقال أيضاً: «المؤمن مرآة أخيه، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته، ويجوئه من ورأته» (١٩).

ولو أردنا تتبع كل النصوص في هذا الشأن لطال الحديث أكثر من هذا. وسيرة المصطفى ﷺ وأصحابه وخير القرون بعده والذين سلكوا سبيله واهتدوا بهديه على مدار التاريخ الإسلامي: تؤكد هذه الحقيقة الهامة.

ولقد كان ألتحام المسلمين ونصرة كل منهم لأخيه مثلاً فريداً في تاريخ التلاحم والتواصل والتناصر سواء على مستوى الأمة أم الأفراد. حيث حققوا الموالاة والمعاداة على أوضح صورهما.

ولن ينتصر المسلمون إلا إذا تحقق فيهم - بعد صفاء العقيدة ووضوحها - حب المسلم لأخيه كحبه لنفسه، وشعوره بآلام أخيه كشعره بما يصيبه هو، وحب نصرته كما يحب أن ينصره هو، وآله ينصر من ينصره إن آله لقوي عزيز. وتحقق المصرة بعدة أمور منها: الدفاع بالنفس عن الأخ المسلم وكسر شوكة الظالمين وبذل المال له لإعرازه وتقوية جانبه، والذبّ عن عرضه وسمعته والرد على أهل الباطل الذين يريدون خدش كرامة المسلمين. والدعاء للمسلم بظاهر الغيب بالنصر والتوفيق وتسديد الخطى، وتبعية أخبار المسلمين في أنحاء المعمورة والوقوف على أحوالهم ودعمهم بقدر الاستطاعة.

كل هذه الأمور تحقق للإنسان ولاءه لأخوانه المسلمين وتجعله عضواً عاملاً صالحاً في جسم الكيان الإسلامي.

(١٨) سبق تخريجه: ص ١٩٢.

(١٩) «الأدب المفرد» للبخاري: (ص ٧٠)، وأبي داود: (ج ٥/٢١٧، ح ٤٩١٨) كتاب الأدب، والحديث حسن. انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج ٦/٦، ح ٦٥٣٤).

الفصل الثاني الهجرة

هذا الفصل له أهمية خاصة، ذلك أن الهجرة مرتبطة بالولاء والبراء، بل هي من أهم تكاليفهما. والحديث فيها متشعب لذلك سأقسمه إلى الفقرات التالية:

- (أ) الإقامة في دار الكفر وحكم ذلك.
(ب) الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام.
(أ) الإقامة في دار الكفر :

لا بد لنا أولاً أن نعرف دار الكفر ودار الإسلام. فقد قال أهل العلم رحمهم الله:

إن دار الكفر: هي التي يحكمها الكفار، وتجري فيها أحكام الكفر، ويكون النفوذ فيها للكفار وهي على نوعين:

- (١) بلاد كفار حربيين.
(٢) بلاد كفار مهادين بينهم وبين المسلمين صلح وهدنة. فتصير إذا كانت الأحكام للكفار: دار كفر، ولو كان بها كثير من المسلمين^(٢٠).
ودار الإسلام: هي التي يحكمها المسلمون، وتجري فيها الأحكام الإسلامية ويكون النفوذ فيها للمسلمين ولو كان جمهور أهلها كفاراً^(٢١).

(٢٠) «الفتاوى السعدية» للشيخ عبد الرحمن بن سعدي: (ج ١/٩٢)، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٨هـ، دار الحياة بدمشق.

(٢١) المصدر السابق: (ج ١/٩٢).

ولما كان الإسلام هو دين العزة ودين القوة: فإنه قد أتى على معتنقيه أن يُستذلوا للكفار، ولذلك جاء المنع من الإقامة بين ظهرائي غير المسلمين، لأن إقامته بينهم تشعره بالوحدة والضعف وترى فيه روح الاستخذاء والاستكانة، وقد تدعوه إلى المحاسنة ثم المتابعة. والإسلام يريد للمسلم أن يمتلئ قوة وعزة وأن يكون متبوعاً لا تابعاً، وأن يكون ذا سلطان ليس فوقه إلا سلطان الله لذلك حرم الإسلام على المسلم أن يقيم في بلد لا سلطان للإسلام فيه إلا إذا استطاع أن يظهر إسلامه ويعمل طبقاً لعقيدته دون أن يخشى الفتنة على نفسه، وإلا فعليه أن يهجر هذا البلد إلى بلد يعلو فيه سلطان الإسلام فإن لم يفعل فالإسلام بريء منه مادام قادراً على الهجرة. وفي ذلك كله يقول المولى سبحانه:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفَالِغَةَ
ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنَّا قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ
قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ
جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾

[سورة النساء: ٩٧ - ٩٩].

وقال ﷺ: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين» قيل: يا رسول الله، ولم؟ قال: «لا تراءى ناراهما»^(٢٢). وقال: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»^(٢٣). ويقول: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»^{(٢٤) (٢٥)}.

(٢٢) سبق تخريجه: (ص: ٢٢٤).

(٢٣) سبق تخريجه: (ص: ٢٤٧).

(٢٤) «المسند»: (ج ٩٩/٤)، وأبي داود: (ج ٧/٣، ح ٢٤٧٩) كتاب الجهاد، والدارمي: (ج ٢٣٩/٢) كتاب السير. وقال الألباني: صحيح. انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج ١٨٦/٦، ح ٧٣٤٦).

(٢٥) انظر «الإسلام وأوضاعنا القانونية» للأستاذ عبد القادر عودة: (ص: ٨١).

وقال ابن من صالح:

(من أقام في أرض العدو وإن آتاه الإسلام وهو يقدر على التحويل إلى المسلمين فأحكامه أحكام المشركين، وإذا أسلم الحربي فأقام ببلادهم وهو يقدر على الخروج فليس بمسلم، يحكم فيه بما يحكم على أهل الحرب في ماله ونفسه) (٢٦).

وقال الحسن:

(إذا لحق الرجل بدار الحرب ولم يرتد عن الإسلام فهو مرتد بتركه دار الإسلام) (٢٧).

وقال ابن حزم:

(من لحق بدار الكفر والحرب مختاراً محارباً لمن يليه من المسلمين: فهو بهذا الفعل مرتد له أحكام المرتد كلها: من وجوب القتل عليه متى قدر عليه، ومن إباحة ماله وأنفسا نكاحه وغير ذلك.

وأما من قرأ إلى أرض الحرب لظلم خافه، ولم يحارب المسلمين، ولا أعان عليهم، ولم يجد في المسلمين من يجيره، فهذا لا شيء عليه، لأنه مضطر مكره.

أما من كان محارباً للمسلمين معيناً للكفار بخدمة أو كتابة فهو كافر. وإن كان إنما يقيم هنالك لدنيا يصيبها وهو كالذمي لهم، وهو قادر على إلحاق بجمهرة المسلمين وأرضهم فما يبعد عن الكفر، وما نرى له عذراً، ونسأل الله العافية.

(٢٦) وأحكام القرآن، للجصاص: (ج٣/٢١٦).

(٢٧) وأحكام القرآن، للجصاص: (ج٣/٢١٦).

(٥) مكنا بالأصل والذي يظهر لي أن الصواب: مجاهراً لأن الكافر لا يسمى مجاهداً.

وأما من سكن في أرض القرامطة مختاراً فكافر بلا شك لأنهم معلنون بالكفر وترك الإسلام. وأما من سكن في بلد تظهر فيه بعض الأنواء المخرجة إلى الكفر فهو ليس بكافر لأن اسم الإسلام هو الظاهر هنالك على كل حال من التوحيد والإقرار برسالة محمد ﷺ والبراءة من كل دين غير الإسلام وإقامة الصلاة وصيام رمضان وسائر الشرائع التي هي الإسلام والإيمان.

وقول رسول الله ﷺ: «أنا بريء من كل مسلم أقام بين أظهر المشركين» يبين ما قلناه، وأنه عليه السلام، إنما عني بذلك دار الحرب، وإلا فقد آستعمل عليه السلام عماله على خير وهم كلهم يهود.

ولو أن كافراً مجاهداً^(٢٨) غلب على دار من دور الإسلام، وأقر المسلمين بها على حالهم إلا أنه هو المالك لها، المنفرد بنفسه في ضبطها وهو معلن بدين غير الإسلام: لكفر بالبقاء معه كل من عاونه وأقام معه وإن أدعى أنه مسلم - لما ذكرنا (٢٨).

وللشيخ حمد بن عتيق^(٢٩) رحمه الله رسالة قيمة حول هذا

(٢٨) «المحلى» لابن حزم: (ج ١٣/١٣٩ - ١٤٠).

(٢٩) هو الشيخ المحقق حمد بن علي بن محمد بن عتيق، ولد سنة ١٢٢٧ هـ بالزلفي وحفظ القرآن، وكانت له همة وعلو نفس سمت به إلى معالي الأمور. تتلمذ على الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ صاحب كتاب «فتح المجيد» ولازمه. ولازم أيضاً غيره من العلماء. وجد واجتهد حتى صار من كبار العلماء. عين قاضياً في الخرج ثم الأفلاج ومن مؤلفاته «إبطال التنديد شرح كتاب التوحيد»، و«النجاة والفكاك والدفاع عن أهل السنة والاتباع»، و«الفرق المبين بين السلف وابن سبعة»، وغير ذلك. وتوفي سنة ١٣٠١ هـ عن عمر يناهز السبعين ورثاه تلميذه سليمان بن سحمان بقصيدة منها:

يعنر علينا أن نرى اليوم مثله

لحل عويس المشكلات البوادر

انظر ترجمته في كتاب «علماء نجد خلال سنة قرون» للبتام: (ج ٢/٢٢٩).

الموضوع^(٣٠) فقد قسم المقيمين في بلاد الحرب إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يقيم عندهم رغبة واختياراً لصحبته، فيرضى ما هم عليه من الدين أو يمدحه، أو يرضيهم بعيب المسلمين، أو يعاونهم على المسلمين بنفسه أو ماله أو لسانه: فهذا كافر عدو لله ولرسوله لقوله تعالى:

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ

[سورة آل عمران: ٢٨].

قال ابن جرير: قد برىء من الله وبرىء الله منه لارتداده عن دينه ودخوله في الكفر. وقال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ

[سورة المائدة: ٥١].

وقال عليه السلام: «من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله»^(٣١).

وصح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: من بنى بأرض المشركين فصنع نيروزهم ومهرجاناتهم وتشبه بهم حتى يموت وهو كذلك حشر معهم يوم القيامة^(٣٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وظاهر هذا أنه جعله كافراً بمشاركتهم في مجموع هذه الأمور.

(٣٠) اسمها: «الدفاع عن أهل السنة والاتباع»، نشرها حفيده إسماعيل بن سعد بن عتيق بدون تاريخ.

(٣١) «الدفاع» لابن عتيق: (ص ١٠ - ١٢)، والحديث سبق تخريجه (ص ٢٤٧).

(٣٢) قال ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ٢٠٠) إسناده صحيح.

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: لما ذكر الأنواع التي يكفر بها الرجل: قال النوع الرابع: من سلم من هذا كله ولكن أهل بلده يصرون على عداوة التوحيد وآتباع أهل الشرك وهو يعتذر إن ترك وطنه يشق عليه، فيقاتل أهل التوحيد مع أهل بلده ويجاهد بماله ونفسه فهذا أيضاً كافر، فإنه لو يأمرونه بتزوج امرأة أبيه ولا يمكنه ترك ذلك إلا بمخالفتهم فعل. وموافقته لهم مع الجهاد معهم بنفسه وماله مع أنهم يريدون بذلك قطع دين الله ورسوله أكبر من ذلك بكثير فهذا أيضاً كافر وهو ممن قال الله فيهم:

سَتَجِدُونََ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ
 مَآرَدٌ إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ
 السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَاخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ حَيْثُ
 تَفَقَّهُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾

[سورة النساء: ٩١].

القسم الثاني: أن يقيم عندهم لأجل مال أو ولد أو بلاد وهو لا يظهر دينه مع قدرته على الهجرة، ولا يعينهم على المسلمين بنفس ولا مال ولا لسان، ولا يوالهم بقلبه ولا لسانه، فهذا لا يكفرونه لأجل مجرد الجلوس، ولكن يقولون إنه قد عصى الله ورسوله بترك الهجرة، وإن كان مع ذلك يغيظهم في الباطن لقول الله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمُشْرِكِينَ
 ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ
 قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْسَ بِنُفُسِهِمْ
 جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا

[سورة النساء: ٩٧].

(٣٣) والدفاع: (ص ١٠ - ١٢).

قال ابن كثير: ﴿ظالمي أنفسهم﴾ أي بترك الهجرة، ثم قال: فهذه الآية عامة لكل من آمن بين ناهرا في المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس مسكناً من إقامة الدين فهو مرتكب حراماً بالإجماع وينص هذه الآية (٣٤).

قلت: وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثر سواد المشركين على عهد رسول الله ﷺ يأتي السهم فيرمى به فيه، يب أحدهم فيقتله أو يضرب فيقتل، نزل الله هذه الآية: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ (٣٥).

وقد سدد الله باب الاعتذار الواهية في قوله تعالى:

قُلْ إِنْ

كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ
تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ آلِهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ
فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

[سورة التوبة: ٢٤].

وما من أحد يترك الهجرة إلا وهو يعتذر بشيء من هذه الثمانية وقد سدد الله على الناس باب الاعتذار بها وجعل من ترك الهجرة لأجلها أو لأجل واحد منها فاسقاً وإذا كانت مكة هي أشرف بقاع الأرض وقد أوجب الله الهجرة منها ولم يجعل محبتها عذراً فكيف بغيرها من البلدان؟ (٣٦).

القسم الثالث: من لا حرج عليه في الإقامة بين أظهرهم وهو نوعان:

(٣٤) انظر تفسير ابن كثير: (ج ٢/٣٤٣). والدفاع لابن عتيق: (ص ١٣).

(٣٥) صحيح البخاري: (ج ٨/٢٦٢، ح ٤٥٩٦).

(٣٦) الدفاع لابن عتيق: (ص ١٣ - ١٤)، وانظر بيان النجاة والفكاك له أيضاً: (ص ٧٠ - ٧٢).

(١) أن يكون مظهراً دينه فيتبرأ منهم وما هم عليه، ويصرح لهم ببراءته منهم وأنهم ليسوا على حق، بل أنهم على باطل وهذا هو إظهار الدين الذي لا تجب معه الهجرة كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ إلى آخر السورة.

فأمره أن يخاطبهم بأنهم كافرون، وأنه لا يعبد معبوداتهم، وأنهم بريئون من عبادة الله أي أنهم على الشرك وليسوا على التوحيد، وأنه قد رضي الله بدينه الذي هو عليه وبريء من دينهم الذي هم عليه كما قال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَأَنْ أَقْدِرَ وَجْهَكَ لِلَّذِينَ خِيفُوا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

[سورة يونس: ١٠٤ - ١٠٥].

فمن قال مثل ذلك للمشركين لم تجب عليه الهجرة.

وليس المراد بإظهار الدين: أن يُترك الإنسان يصلي ولا يُقال له أعبد الأوثان! فإن اليهود والنصارى لا ينهون من صلي في بلدانهم، ولا يكرهون الناس على أن يعبدوا الأوثان؟! بل المقصود: أن إظهار الدين هو: التصريح للكفار بالعداوة كما احتج خالد بن الوليد على جماعة (٣٧) بأنه سكت ولم

(٣٧) هو جماعة بن مرارة بن سلمى الحنفي البجلي. كان من رؤساء بني حنيفة وكان ممن أسر يوم البصرة. وكان بليغاً حكيماً. ومن حكمه قال لأبي بكر الصديق: إذا كان الرأي عند من لا يقبل منه، والسلاح عند من لا يقاتل به، والمال عند من لا يتفق ضاعت الأمور والإصابة: (ج ٣/٣٦٢).

(٣٨) هو ثمامة بن أثال بن النعمان بن سلمة الحنفي أبو أمية البجلي، حديثه في البخاري حين أسر ثم أسلم. قال ابن إسحاق إن ثمامة ميث على إسلامه لما ارتد أهل البصرة وارتحل هو ومن أطاعه من قومه فلاحقوا بالعلاء بن الحضرمي =

يظهر البراءة كما أظهرها ثمامة^(٣٨) واليشكري. والقصة معروفة في السير، فما لم يحصل التصريح للمشركين بالبراءة منهم ومن دينهم لم يكن إظهار الدين حاصلًا^(٣٩).

(٢) أن يقيم عندهم مستضعفاً وقد بين الله الاستضعاف في كتابه فقال:

إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ

وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾

[سورة النساء: ٩٨].

وهذا الاستثناء بعد ما توعد المقيمين بين أظهر المشركين بأن

مَأْوَنُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا

[سورة النساء: ٩٧].

فأستثنى من لا يستطيع حيلة ولا يهتدون سبيلاً. قال آبن كثير: لا يقدرّون على التخلص من أيدي المشركين ولو قدرّوا ما عرفوا يسلكون الطريق^(٤٠).

= فقالن معه المرتدين من أهل البحرين «الإصابة»: (ج ١/٢٠٣).
(٣٩) «الدفاع»: (ص ١٦)، والقصة المذكورة هنا أوردها المؤلف في كتابه «النجاة والفكاك» حيث قال: لما سار خالد إلى البجعة لقتال المرتدين بعث قبله مائتي فارس، وقال من أصبتم من الناس فخذوه، فأخذوا (بجاعة) في ثلاثة وعشرين رجلاً من قومه فلما وصلوا إلى خالد قال له: يا خالد، لقد علمت أني قدمت على رسول الله ﷺ في حياته فبايعته على الإسلام وأنا اليوم على ما كنت عليه أمس، فإن يك كاذباً قد خرج فينا فإن الله يقول: ﴿وَلَا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ فقال خالد: يا بجاعة، تركت اليوم ما كنت عليه أمس وكان رضاك بأمر هذا الكذاب وسكوتك عنه وأنت أعز أهل البجاعة، وقد بلغك مسيري — إقراراً له ورضاء بما جاء به فهلا أبديت عذراً وتكلمت فيمن تكلم؟ فقد تكلم ثمامة فرد وأنكر، وتكلم اليشكري: فإن قلت: أخاف قومي. فهلا عمدت إليّ أو بعثت إليّ رسولاً؟ فقال: إن رأيت يا بن المغيرة أن تعفو عن هذا كله؟ فقال خالد: قد عفوت عن دمك، ولكن في نفسي حرج من تركك.

«بيان النجاة والفكاك»: (ص ٦٨ — ٧٠).

(٤٠) «تفسير ابن كثير»: (ج ٢/٣٤٣).

وقال تعالى:

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ
نَصِيرًا

[سورة النساء: ٧٥].

فذكر في الآية الأولى: حالهم وهو العجز عن الخروج وعدم دلالة الطريق.
وذكر في الآية الثانية: مقالهم وهو أنهم يسألون الله أن يخرجهم من بلاد
الشرك والظالم أهلها وأن يجعل لهم ولياً يتولاهم وناصرأ ينصرهم، فمن كانت
تلك حاله وهذا مقاله

فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا

[سورة النساء: ٩٩].

وقد ذكر البغوي: أن الأسير المسلم عند الكفار إذا استطاع الخلاص
والانفلات منهم لم يحل له المقام بينهم، فإن حلفوه أنهم إن خلوه لا يخرج
فحلف فخلوه، وجب عليه الخروج ويمينه يمين مكره لا كفارة عليه فيها، وإن
حلف استطابة لنفوسهم من غير أن يحلفوه فعليه الخروج إلى دار الإسلام
ويلزمه كفارة اليمين^(٤٢).

أما حكم السفر إلى بلاد الكفار الحربية لأجل التجارة ففي ذلك تفصيل:
فإن كان يقدر على إظهار دينه ولا يوالي المشركين جاز له ذلك فقد سافر

(٤١) «الدفاع»: (ص ١٦)، وما ذكره الشيخ حمد هنا موافق تماماً لإجابة الشيخين
حسين وعبد الله: ابني محمد بن عبد الوهاب حين سئلا في هذا الموضوع، انظر
«مجموعة الرسائل والمسائل النجدية»: (ج ١/ ٣٩)، الطبعة الأولى سنة ١٣٤٦ هـ،
مطبعة المنار بمصر.

(٤٢) «شرح السنة» للبغوي: (ج ١٠/ ٢٤٦).

بعض الصحابة رضي الله عنهم كأبي بكر رضي الله عنه وغيره إلى بلدان المشركين لأجل التجارة ولم ينكر ذلك النبي ﷺ كما رواه أحمد في مسنده (٤٣) وغيره.

وإن كان لا يقدر على إظهار دينه ولا على عدم موالاتهم لم يجوز له السفر إلى ديارهم كما نص على ذلك العلماء وعليه تحمل الأحاديث التي تدل على النهي عن ذلك. ولأن الله تعالى أوجب على الإنسان العمل بالتوحيد، وفرض عليه عداوة المشركين، فما كان ذريعة وسبباً إلى إسقاط ذلك لم يجوز (٤٤).

وبعد هذه النصوص الكثيرة الصريحة علينا أن ندرك مدى الهوة التي وصل إليها المسلمون اليوم، ومدى موالاتهم لأعداء الله والإقامة بأرضهم وابتعاث أبنائهم إلى ديارهم لتحضير الشهادات العليا في الشريعة واللغة العربية!

إنها مهزلة مبكية ووصمة عار سيسجلها التاريخ: أن يذهب أبناء المسلمين لأخذ الشهادات في العلوم الشرعية واللغة العربية من بلاد الكفار!

وقد كتب علماء أفاضل في خطورة هذه المسألة، وبينوا مخاطر الابتعاث، وأهداف الكفار من غسل أدمغة أبناء المسلمين ومسحهم من إسلامهم، فلتراجع في مظانها (٤٥).

(ب) الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام

أصل المهاجرة: المجافاة والترك.

(٤٣) هكذا في النص الذي في «الجامع الفريد» ولكنني بحثت عنه في «المسند» فلم أجده.

(٤٤) انظر «الجامع الفريد»: (ص ٣٨٢)، الطبعة الثانية.

(٤٥) من هؤلاء الكتاب: الأستاذ محمد محمد حسين في كتبه القيّمة: «الانتهاكات الوطنية»، و«الإسلام والحضارة الغربية»، و«حصوننا مهددة من داخلها». وهناك بحث قديم للشيخ محمد لطفي الصبّاغ بعنوان: «الابتعاث ومخاطره» نشره المكتب الإسلامي فلتراجع أمثال هذه المؤلفات بخصوص ما ذكرنا.

وفي الاصطلاح الشرعي: الانتقال من بلد الكفر والشرك إلى دار الإسلام^(٤٦). ومن المعلوم: أن من كان دينه الإسلام المبني على صرف جميع العبادات لله وحده ونفي الشرك وبغضه وبغض أهله ومعاداتهم ومقاطعتهم فإنه لا يتركه أهل الكفر على دينه مع القدرة عليه كما أخبر عن ذلك المولى عز وجل بقوله:

وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا

[سورة البقرة: ٢١٧].

كما أخبر الله عن أصحاب الكهف أنهم قالوا:

إِنَّمُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يَمْسِدُوكُمْ فِي مَلْتِهِمْ وَلَنْ تَفْلِحُوا إِذَا أَبْكَأَ

[سورة الكهف: ٢٠].

وأخبر سبحانه بذلك عن جميع الكفار حيث قال:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ
أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
الظَّالِمِينَ

[سورة إبراهيم: ١٣].

وكذلك قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ: يا ليتني أكون جذعاً إذ يخرجك قومك قال: أومخرجي هم؟! قال: نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جفت به إلا عودي، فلذلك أخرجوه من مكه إلى الطائف ثم هاجر إلى المدينة بعدما هاجر طائفة من أصحابه إلى الحبشة مرتين^(٤٧).

(٤٦) انظر «فتح الباري»: (ج ١/ ١٦).

(٤٧) انظر «الدفاع» لابن عتيق: (ص ١٨ — ١٩)، وقصة ورقة مع رسول الله ﷺ

في «سيرة ابن هشام»: (ج ١/ ٢٥٤).

والهجرة شأنها عظيم، وأمرها كبير إذ هي فرع الولاء والبراء، بل إنها من أبرز تكاليف الولاء والبراء، وما كانت الجماعة المسلمة لتترك أرضها وقومها وتتكد مشاق الغربة ووعاء السفر لولا أن ذلك تكليف رباني لمن لا يستطيع أن يقيم دينه، ويظهر إسلامه في أرضه. وقد وعد الله عباده المؤمنين المهاجرين بـ "الحسنات" في الدنيا والآخرة فقال:

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا
لَنُؤْتِيَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآخِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

[سورة النحل: ٤١ - ٤٢].

واللهجرة مفهوم شامل في التصور الإسلامي ليس مقتصرًا على الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام فحسب ولكنه كما يقول ابن القيم: الهجرة هجرتان هجرة بالجسم من بلد إلى بلد وهذه أحكامها معلومة.

والهجرة الثانية: الهجرة إلى الله ورسوله فهذه هي الهجرة الحقيقية، وهجرة الجسد تابعة لها وهي هجرة تتضمن "من" و "إلى" فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته، ومن عبودية غيره إلى عبوديته، ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه. ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له إلى دعائه سبحانه وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له. وهذا بعينه معنى الفرار إلى الله كما قال تعالى:

فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ^ط

[سورة الذاريات: ٥٠].

والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه.

والهجرة إلى الله تتضمن: هجران ما يكره، وإتيان ما يحبه ويرضاه. وأصلها: الحب والبغض، فإن المهاجر من شيء إلى شيء لابد أن يكون

ما يهاجر إليه أحب مما هاجر منه، فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخر.
وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب دواعي المحبة في قلب العبد، فإن
كان الداعي أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل، وإذا ضعف الداعي
ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علماً ولا يتحرك لها إرادة^(٤٨).
أما الهجرة التي هي الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام فإليك تفصيل
أحكامها:

قال الخطابي^(٤٩): كانت الهجرة في أول الإسلام مندوباً إليها غير مفروضة
وذلك في قوله تعالى:

وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَاً كَثِيراً وَسَعَةً

[سورة النساء: ١٠٠].

فقد نزلت حين أشد أذى المشركين على المسلمين عند انتقال رسول
الله ﷺ إلى المدينة. ثم أمروا بالانتقال إلى حضرته ليكونوا معه، فيتعاونوا
ويتظاهروا إن خزبهم أمر، وليتعلموا منه أمر دينهم، ويتفقهوا فيه. وكان أعظم
الخوف في ذلك الزمان من قریش وهم أهل مكة، فلما فتحت مكة ونخعت
بالطاعة زال ذلك المعنى وارتفع وجوب الهجرة وعاد الأمر فيها إلى الندب.
وبهذا يظهر الجمع بين حديث معاوية عن النبي ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة
حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»^(٥٠).

(٤٨) «الرسالة التبوكية» لابن القيم: (ص ١٤ — ١٨)، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٤ هـ،
الطبعة السلفية بمصر.

(٤٩) هو الإمام حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب من ولد زيد بن الخطاب. يكنى
أبا سليمان. كان محدثاً فقيهاً وأديباً شاعراً لغوياً ومن تلاميذه الحاكم النيسابوري.
ولد سنة ٣١٩ هـ في بلدة يست من بلاد كابل وتوفي فيها سنة ٣٨٨ هـ، انظر
مقدمة «معالم السنن» المطبوع مع سنن أبي داود: (ج ١/١١)، و«الأعلام»
للزركلي: (ج ٢/٢٧٣)، الطبعة الرابعة.

(٥٠) سبق تخريجه في أول هذا الفصل: (ص ٢٧١).

وبين حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «لا هجرة ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»^(٥١) على أن بين الإسنادين ما بينهما فإسناد حديث ابن عباس متصل صحيح وإسناد معاوية فيه مقال^(٥٢).

ولأهمية موضوع الهجرة - خاصة في أول الإسلام - فقد قطع الله ولاية التناصر بين المسلمين المهاجرين في المدينة وبين المسلمين الذين لم يهاجروا وبقوا في مكة. قال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ

آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُم مِّنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا
وَإِنْ أَسْتَضَرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَفَعَلْنَا كُمُ التَّضَرُّ إِلَىٰ أَعْلَىٰ قِيمِ
بَيْنِكُمْ وَبَيْنَهُمْ فَيُثَبِّتُ اللَّهُ يُمَآئِعًا لِّمَنْ يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

[سورة الأنفال: ٧٢].

ثم يأتي الثناء على المهاجرين والأنصار في قوله تعالى:

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ
الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

[سورة الأنفال: ٧٤].

والكلام على المهاجرين والأنصار قد سبق فيه الحديث.

أما الصنف الذي نريد أن نتحدث عنه هنا فهم المؤمنون الذين آمنوا ولم يهاجروا بل أقاموا في مكة فهؤلاء هم الذين قال الله فيهم:

(٥١) «صحيح البخاري»: (ج ٦/٣٧، ح ٢٨٢٥) كتاب الجهاد، باب وجوب النفير.

(٥٢) «معالم السنن» للخطابي: (ج ٣/٣٥٢) تحقيق أحمد شاكر وعبد حامد الفقي، وانظر «الناسخ والمنسوخ»: (ص ٢٠٧).

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ
ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ
قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتِكَ مَا وَدَّعْتَهُمْ
جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾
قَالُوا لَيْتِكَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَمْوُتُوهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَمُورًا ﴿١٩﴾

[سورة النساء: ٩٧ - ٩٩].

فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثر سوادهم على عهد رسول الله ﷺ، يأتي السهم فيرمى به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ (٥٣).

ولذلك فالذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بواديهم ليس لهم في المغام نصيب ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال كما قال الإمام أحمد (٥٤)، يدل على ذلك الحديث المروي في المسند وصحيح مسلم عن ابن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: أغزوا بأسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، أغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال "أو خلال" فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على

(٥٣) سبق تخريجه: (ص ٢٧٨).

(٥٤) انقسم ابن كثير: (ج ٤٠/٤).

المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونوا كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنمة والفبيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوفسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم^(٥٥).. الحديث. ونستطيع أن نلخص أنواع الهجرة - سواء ما بقي منها مفروضاً أو ما نسخ، وما هو غير ذلك - في النقاط التالية:

(١) الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، وكانت فرضاً في أيام النبي ﷺ وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح هي القصد إلى النبي ﷺ حيث كان. فمن أسلم في دار الحرب وجب عليه الخروج إلى دار الإسلام^(٥٦).

ويؤيد ذلك حديث مجاشع بن مسعود^(٥٧) حيث جاء بأخيه مجالد بن مسعود إلى النبي ﷺ فقال: هذا مجالد يبايعك على الهجرة فقال النبي ﷺ: «لا هجرة بعد فتح مكة ولكن أبايعه على الإسلام»^(٥٨) وعلى ذلك فإن النصوص الواردة في وجوب الهجرة باقية في حال المسلم المقيم بدار الحرب وقد ذكرتها في الإقامة في دار الكفار.

(٢) الخروج من أرض البدعة. قال الإمام مالك: لا يحل لأحد أن يقيم ببلد

(٥٥) الحديث في «مسند أحمد»: (ص ٣٥٢/٥)، وفي «صحيح مسلم»: (ج ٣/١٣٥٧)، ج ١٧٣١.

(٥٦) «أحكام القرآن» لابن العربي: (ج ١/٤٨٤)، وانظر شرح النووي على «صحيح مسلم»: (ج ٨/١٣)، وتفسير القرطبي: (ج ٥/٣٠٨).

(٥٧) هو مجاشع بن مسعود بن ثعلبة السلمي. قال البخاري وغيره له صحة، روى عنه أبو عثمان النهدي وغيره. قتل يوم الجمل. «الإصابة»: (ج ٣/٣٦٢)، و«المعارف» لابن قتيبة: (ص ٣٣١).

(٥٨) «صحيح البخاري»: (ج ٦/١٨٩)، ح ٣٠٧٩ كتاب الجهاد، باب لا هجرة بعد الفتح، كتاب الإمارة: (ج ٣/١٤٨٨)، ح ١٨٦٤.

سب فيها السلف^(٥٩).

(٣) الخروج عن أرض غلب عليها الحرام. فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم^(٦٠).

وفي هذا الشأن يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: أحوال البلاد كأحوال العباد فيكون الرجل تارة مسلماً، وتارة كافراً، وتارة مؤمناً، وتارة منافقاً، وتارة برّاً تقيّاً، وتارة فاجراً شقيّاً. وهكذا المساكن بحسب سكانها فهجرة الإنسان من مكان الكفر والمعاصي إلى مكان الإيمان والطاعة كتوبته وانتقاله من الكفر والمعصية إلى الإيمان والطاعة، وهذا أمر باقٍ إلى يوم القيامة^(٦١).

(٤) الفرار من الأذية في البدن، وذلك فضل من الله عز وجل أرخص فيه، فإذا خشي المرء على نفسه في موضع فقد أذن الله سبحانه له في الخروج عنه، والفرار بنفسه ليخلصها من ذلك المخدور، وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام لما خاف من قومه قال:

إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي

[سورة النكبات: ٢٦].

وقال:

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَبِّحِينَ

[سورة الصافات: ٩٩].

وموسى عليه السلام قال الله فيه:

(٥٩) أحكام القرآن لابن العربي: (ج ١/٤٨٤، ٤٨٥).

(٦٠) أحكام القرآن لابن العربي: (ج ١/٤٨٤، ٤٨٥).

(٦١) مجموع فتاوى ابن تيمية: (ج ١٨/٢٨٤).

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

[سورة القصص: ٢١] (٦٢).

(٥) خوف المرض في البلاد الوحشة، والخروج منها إلى الأرض النزهة وقد أذن النبي ﷺ للمرنين في ذلك حين آستوخموا المدينة أن يخرجوا إلى المرج، فيكونوا فيه حتى يصحوا وقد آستثنى من ذلك الخروج من الطاعون كما قرر ذلك الحديث الصحيح (٦٣).

(٦) الفرار خوف الأذية في المال، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، والأهل مثله أو أكده (٦٤).

وبعد: فإن الهجرة وغيرها من الأعمال والأقوال - مبنية على النية كما قال ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» وإنما لكل أمرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه (٦٥).

(٦٢) وأحكام القرآن، لابن العربي: (ج ١/٤٨٥).

(٦٣) المصدر السابق: (ج ١/٤٨٥)، وحديث المرنين في «صحيح البخاري»: (ج ١٠/١٤٢، ج ٥/٦٨٦) كتاب الطب، و«صحيح مسلم»: (ج ٣/١٢٩٦، ج ٨/١٦٧) كتاب القسامة، أما حديث الطاعون ففي البخاري: (ج ١٠/١٧٩، ج ٨/٥٧٢٨) كتاب الطب، و«صحيح مسلم»: (ج ٤/١٧٤١، ج ١٩/٢٢١٩) كتاب السلام، ونصه: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ فِي أَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا».

(٦٤) وأحكام القرآن: (ج ١/٤٨٦).

(٦٥) «صحيح البخاري»: (ج ٩/١، ج ١/٩) كتاب بدء الوحي، و«صحيح مسلم»: (ج ٣/١٥١٥، ج ٧/١٩٠٧) كتاب الإمارة.

الفصل الثالث

الجهاد في سبيل الله

وهو من أهم مقتضيات الولاء والبراء لأنه الفاصل بين الحق والباطل وبين حزب الرحمن وحزب الشيطان والجهاد: بكسر الجيم — لغة: المشقة، يقال: جهدت جهاداً: بلغت المشقة.

وشرعاً: بذل الجهد في قتال الكفار^(٦٦).

ويطلق أيضاً: على مجاهدة النفس والشيطان والفساق.

فأما مجاهدة النفس: فعلى تعلم أمور الدين، ثم على العمل بها ثم على تعليمها وأما مجاهدة الشيطان: فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات وما يزينه من الشهوات.

وأما مجاهدة الكفار: فتقع باليد والمال واللسان والقلب.

وأما مجاهدة الفساق: فباليد ثم اللسان ثم القلب^(٦٧).

وقد سبق القول في الفصل الثاني من الباب الأول "أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وطبيعة العداوة بينهما": أن العداوة بين الفريقين أمر متأصل وستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك لأن المتجهجين مختلفان، ويستحيل الالتقاء بينهما لأن حزب الله يريد إقامة كلمة الحق في الأرض وهيمنة الشريعة الإسلامية على كل وضع. وحزب الشيطان يغيظه هذا المنهج فيسعى جاهداً في سحقه وإبادته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وقد تحدثنا عن البراء وقلنا: إن أبرز صوره هو الجهاد لأنه هو السبيل

(٦٦) «فتح الباري» لابن حجر: (ج ٦/٣).

(٦٧) «فتح الباري» لابن حجر: (ج ٦/٣).

الوحيد للمفاصلة بين حزب الرحمن وحزب الشيطان.

وإذا رجعنا إلى سيرة المصطفى ﷺ: لوجدنا أن الجهاد هو الخطوة التالية للهجرة النبوية. مما يدل على أهميته في إقامة هذا الدين، وبيع المهج في سبيل الله تلبية لنداء الجهاد في سبيل الله.

ومن المعلوم: أن هذا الدين الحنيف يأمر بدعوة الناس إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة والألوهية فإذا لبوا هذا النداء فهذا هو المراد من بعثة الرسل، وإنزال الكتب وإن آتكم صواباً على أعقابهم فلا بد من جهادهم.

حَقَّ لَا تَكُوبَ فِتْنَةً وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ يَهُ

[سورة الأنفال: ٣٩].

وقد سبق معنا حديث رسول الله ﷺ: «... فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتن ما أجابوك فأقبل منهم وكف عنهم» (٦٨).

فالدين الإسلامي يبدأ بدعوة الناس إلى الخير وجدالهم بالتي هي أحسن، فإذا قامت عليهم الحجة ثم أعرضوا وجب قتالهم. وإذا كان هناك سلطان وطواغيت ترفض أن يستمع الناس للإسلام؛ فإنه يجب بتر هذه الطواغيت من أساسها لتبلغ كلمة الإسلام للناس ثم يأتي هنا مبدأ «لا إكراه في الدين» أي إذا سيطر سلطان المسلمين على منطقة ما فإن أهلها لا يجبرون على اعتناق عقيدة الإسلام، ولكن يجب أن يخضعوا لسلطانه، فإن أسلموا فلهم ما للمسلمين وإن طلبوا البقاء على ديانتهم فعليهم دفع الجزية للمسلمين وإلا فالسيف بينهم وبين المسلمين (٦٩).

(٦٨) سبق تخريجه: (ص ٢٨٧).

(٦٩) انظر تفسير «لا إكراه في الدين» في ابن كثير: (ج ١/ ٤٥٩)، وانظر فصل الجهاد في «معالم في الطريق»: (ص ٧٤).

ومن هنا: فإن أهداف الجهاد في الإسلام أهداف سامية عالية فهو:

- (١) يقاتل الكفار لتقرير حرية العقيدة.
- (٢) ويجاهد ثانياً لتقرير حرية الدعوة.
- (٣) ويجاهد ثالثاً لإقامة نظام الإسلام في الأرض. وتحقيق حرية الإنسان، حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال، ويلغي من الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها.

فليس هناك فرد ولا طبقة ولا أمة تشرع الأحكام للناس، وتستذلهم عن طريق التشريع، وإنما هناك رب واحد للناس جميعاً هو الذي يشرع لهم وهو الذي يتوجهون إليه وحده بالطاعة والخضوع كما يتوجهون إليه بالإيمان والعبادة على السواء.

وعبودية الجهاد من أشرف وأحب أنواع العبودية لله سبحانه وتعالى لأنه (لو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها. من الموالاة فيه سبحانه، والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه، وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الرب على محاب النفس) (٧١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

(إنه لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه.. لأن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا، وهو مشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة، ففيه من محبة الله، والإخلاص له، والتوكل عليه، وتسليم النفس والمال له والصبر والزهد وذكر الله وسائر أنواع الأعمال ما لا يشتمل عليه عمل آخر، والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى

(٧٠) انظر «طريق الدعوة»: (ج ١/ ٢٨٨ - ٢٨٩).

(٧١) «مدارج السالكين»: (ج ٢/ ١٩٦).

الحسنين دائماً: إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة (٧٢).

وقد وردت نصوص كثيرة جداً في فضيلة الجهاد نذكر طرفاً منها:

قال تعالى في بيان منزلة الشهيد وإنه حي عند ربه:

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٣٩﴾ فَرِحِينَ
بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا
بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٤٠﴾

[سورة آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠].

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمْ
الصَّادِقُونَ

[سورة الحجرات: ١٥].

والجهاد هو التجارة الرابعة مع الله كما قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَى تَحَرُّفٍ تُصِيبُكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴿١﴾ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُجَاهِدُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾
يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَيُكَفِّرُ
طَبَقَةً فِي جَنَّاتٍ عَنْ يَدِ ذَلِكَ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ ﴿٣﴾ وَأُخْرَى يُحِبُّونَهَا أَنْصَرُوا
مِنَ اللَّهِ وَفَتَحَ قُرْبٌ وَإِشْرَ الْمُؤْمِنِينَ

[سورة الصف: ١٠ - ١٣].

(٧٢) «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية»: (ص ١١٨)، طبع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٣٨٩هـ.

أما السنة النبوية فقد ورد فيها أحاديث كثيرة في فضيلة الجهاد نذكر منها قوله ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض» (٧٣).

وقال أيضاً: «ما أغبرتا قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار» (٧٤).

وفي الصحيح: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: دني على عمل يعدل الجهاد قال: لا أجده. قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر؟ فقال ومن يستطيع ذلك» (٧٥).

وفي السنن أنه ﷺ قال: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله تعالى» (٧٦).

والجهاد ذروة سنام الإسلام كما جاء ذلك في الحديث «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد» (٧٧) وقال أيضاً: «لغدوة في سبيل أو روحة خير من الدنيا وما فيها» رواه البخاري (٧٨) ومسلم.

وفي مقابل هذا الثناء الجميل: ورد الذم للتاركين للجهاد، بل إن الله وصفهم بالنفاق ومرض القلوب فقال تعالى:

(٧٣) «صحيح البخاري»: (ج ١١/٦، ح ٢٧٩٠) كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله.

(٧٤) «صحيح البخاري»: (ج ٢٩/٦، ح ٢٨١١).

(٧٥) «صحيح البخاري»: (ج ٤/٦، ح ٢٧٨٥).

(٧٦) «سنن أبي داود»: (ج ١٢/٣، ح ٢٤٨٦) كتاب الجهاد، و«مستدرک» الحاكم:

(ج ٧٣/٢)، وسنده حسن. انظر «مشكاة المصابيح»: (ج ٢٢٥/١، ح ٧٢٤).

(٧٧) «سنن الترمذي»: (ج ٢٨١/٧، ح ٢٦١٩) أبواب الإيمان، و«سنن ابن ماجه»: (ج ١٣١٤/٢، ح ٣٩٧٣)، وقال الألباني: حديث صحيح. انظر «صحيح

الجامع الصغير»: (ج ٣٠/٥، ح ٥٠١٢).

(٧٨) «صحيح البخاري»: (ج ١٣/٦، ح ٢٧٩٢) كتاب الجهاد، و«صحيح مسلم»: (ج ١٤٩٩/٣، ح ١٨٨٠) كتاب الإمارة.

قُلْ إِنْ

كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتُكُمُ الْكَسَادُهَا وَامْسِكُونُ
تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ
فِي سَبِيلِهِ فَفَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

[سورة التوبة: ٢٤].

وقال سبحانه:

فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ

مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ
شُكٌّ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ
لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢٠﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا
فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
فَأَصْمَهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرْتُمْ

[سورة محمد: ٢٠ - ٢٣].

والجهاد ضرورة للدعوة وستة ربانية في الابتلاء والتحصيل. قال تعالى:

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا
مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ

[سورة آل عمران: ١٤٢].

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا
مِنْكُمْ وَلَيَسْجُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ
وَلِيَجْزِيَ اللَّهُ خَيْرُيْمًا تَعْمَلُونَ

[سورة التوبة: ١٦].

(إن الجهاد في سبيل الله هو طريق الدعوة إلى الله، والجهاد ليس ملابسة طارئة من ملابسات فترة الدعوة الأولى. إنما هو ضرورة مصاحبة لركب هذه الدعوة، ولو كان الجهاد ملابسة طارئة في حياة الأمة المسلمة ما استغرق كل هذه الفصول الواسعة من صلب كتاب الله، ولما استغرق فصلاً طويلاً من سنة رسول الله ﷺ.

(والله يعلم أن هذا المنهج الإلهي تكرهه الطواغيت، ويعلم أنه لا بد لأصحاب السلطان أن يقاوموه لأنه طريق غير طريقهم، ومنهج غير منهجهم، ليس بالأمس فقط ولكن اليوم وغداً، وفي كل أرض وفي كل جيل، وأن الله سبحانه يعلم أن الشر متبجح ولا يمكن أن يكون منصفاً، ولا يمكن أن يدع الخير ينمو مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية مودعة، فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر، ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل، ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان، ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولته قتل الحق وخنقه بالقوة، هذه فطرة وليست حالة طارئة.. ومن ثم لا بد من الجهاد.. لا بد منه في كل صورة، ولا بد أن يبدأ في عالم الضمير ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع. ولا بد من مواجهة الشر المسلح بالخير المسلح، ولا بد من لقاء الباطل المترس بالعدد بالحق المتوشح بالعدة. وإلا كان الأمر هزلاً لا يليق بالمؤمنين.. ولا بد من بذل الأموال والأنفس كما طلب الله من المؤمنين) (٧٩).

ويوم أن أدرك المسلمون معنى قوله تعالى:

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ
يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا

[سورة النساء: ٧٤].

(٧٩) (طريق الدعوة: (ج ١/ ٣٠٣ - ٣٠٤).

أُنْطَلِقَتْ كُتَّابُ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ فِي الْأَرْضِ تَنْشُرُ الْخَيْرَ، وَتُلْقِنُ الْإِيمَانَ،
وَتَكْسِرُ شَوْكَةَ الطَّاغُوتِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَعْبُدَ اللَّهُ وَحْدَهُ فِي الْأَرْضِ.

ووجد في ذلك التاريخ المشرق نماذج رفيعة أجادت - بحق - صناعة
الموت لأنها تريد الحياة الكريمة سواء كانت هذه الحياة على هذه الأرض
بالنصر وإعلاء كلمة الله. أم بالحياة عند الله:

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي

سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

[سورة آل عمران: ١٦٩].

لقد كانت هذه النماذج الإيمانية تستبطن أن تحول بينها وبين الجنة
تمرات كما في قصة الصحابي الجليل عمير بن الحمام الأنصاري^(٨٠): حين
سمع رسول الله ﷺ يقول في غزوة بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السموات
والأرض» قال: يا رسول الله: جنة عرضها السموات والأرض! قال: نعم. قال:
بخ. بخ. قال رسول الله ﷺ: «وما يحملك على قول بخ. بخ؟» قال:
لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها»
ثم أخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى
آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. فرمى بها ثم قاتلهم وهو يقول:

ركضاً إلى الله بغير زاد

إلا ألتقى وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد

وكل زاد عرضة للتفاد

غير التقى والبر والرشاد

(٨٠) هو عمير بن الحمام بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن سلمة الأنصاري
السلمي. ذكره موسى بن عقبة وغيره فيمن شهد بدرًا وهو أول قتيل قتل
في سبيل الله في الحرب. انظر ترجمته في «الإصابة»: (ج ٣/٣١).

فما زال يقاتل حتى قتل (٨١).

وهذا غسيل الملائكة الصحابي الجليل حنظلة بن أبي عامر يخرج من بيته حين سمع نداء الحرب في معركة أحد، وكان حديث عهد بعرس لم يكن ليتأخر حتى يفتسل من جنابته، بل هرع إلى ساعة الوغى حتى لا يفوته الجهاد فلما قتل قال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم تغسله الملائكة فأسألوا صاحبته»، فقالت: خرج وهو جنب لما سمع الهبة فقال النبي ﷺ: «لذلك تغسله الملائكة» (٨٢).

هذا غيض من فيض، ونقطة من بحر، من تلك البطولات التي بعث الإيمان فيها شجاعة خارقة للعادة وحنيناً إلى الجنة وأستهانة نادرة بالحياة، تمثلوا الآخرة وتجلت لهم الجنة بنعمائها كأنهم يرونها رأي العين، فطاروا إليها طيران الحمام الزاجل لا يلوي على شيء (٨٣).

هذا هو مفهوم الجهاد، وهؤلاء المؤمنون هم أصحاب الجهاد، ويلحق بهم من سار على نهجهم لأنهم يقاتلون في سبيل الله أمّا غيرهم فيقاتل في سبيل الطاغوت:

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ

[سورة النساء: ٧٦].

وليس ما يقوله المنهزمون اليوم هو الجهاد، بل إنه من الوجهة الصحيحة فساد. إنهم يدعون إلى عدم مقاتلة أولياء الشيطان، ويدعون إلى موالاتهم

(٨١) «مسند أحمد»: (ج ٣/١٣٧)، و«صحيح مسلم»: (ج ٣/١٥٠٩)، ح ١٨٩٩.

يلون ذكر الآيات، وانظر «فقه السيرة» للشيخ الغزالي: (ص ٢٤٤).

(٨٢) «الإصابة» لابن حجر: (ج ١/٣٦٠)، وانظر «فقه السيرة» للغزالي: (ص ٢٧٢).

(٨٣) انظر مزيداً من تلك البطولات في «ماذا خسّر العالم للندوي: (ص ١٠٤ - ١٠٨).

وإلى مودتهم وإلى الاستكانة إليهم وإلى تجميع نصوص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مقابل شبهات الملاحدة أنهزموا وذلوا وأستكانوا لأنهم لا يعرفون حقيقة الإسلام ولا يمثلون إلا أسماء بدون مسمى، همهم التقليد الأعمى، وديدنهم الركض خلف كل ناعق، ولو كان الأمر هكذا لكان الخطب لأنه لا عبرة بهم، ففي أرض الله من يقوم بدين الله والله متكفل بذلك. ولكن إن يمتد جبنهم وذلهم إلى الالتواء على النصوص القرآنية والسنة النبوية فيقال: إن الجهاد في الإسلام هو للدفاع فقط، فهذا ما يجب أن نعريه، ولا نسكت عنه، مهما كانت ألقابهم ومهما كانت شهرتهم، فإن دين الله هو الحق، والحق أحق أن يتبع، ولست بحاجة إلى الإطالة في هذا فقد ذكرت في الفصول السابقة^(٨٤) مجموعة من العلماء الفضلاء في القديم والحديث تولوا تعرية هذا الفكر الغريب على التصور الإسلامي. فلتراجع في مظانها.

وعوداً على بدء نقول: إنه لا حياة شريفة في ظل هذا الدين الحنيف إلا بالعودة إلى ينابيع الصافية كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفهم العقيدة الصحيحة وسيرة سلف الأمة وإدراك معنى لا إله إلا الله ومعنى العبادة ومعنى الدين، ومعنى الجهاد في سبيل الله. وليس في سبيل الأرض أو الوطن أو الجنس أو اللون أو الشخص أو.. أو.. إلخ.

وعلى المسلمين اليوم إدراك هذه المعاني والاستعلاء بأنفسهم وعقيدتهم من تميع المائعين وكيد الكائدين، وأن يواجهوا كل موقف بما يمليه عليهم كتاب ربهم وسنة نبيهم، وليعلموا أنهم مفتقرون إلى معية الله وولايته لهم وإن كيد الشيطان كان ضعيفاً.

(٨٤) راجع (ص ٢١٥).

حكم التجسس على المسلمين

جرت عادة المصنفين من العلماء أن يدرجوا الحديث عن الجاسوس في باب الجهاد. وذلك لحكمة هامة وهي أن التجسس أبرز ما يكون في موضوع كشف عورات المسلمين لأعدائهم خاصة وقت نشوب الحرب، فلذلك يأتون بالحديث عن الجاسوس، وأحكامه في ذلك الموضع ولذلك آتدبت بهم فأوردت هذا المبحث في فصل الجهاد.

والتجسس خيانة عظمى، وكبيرة من الكبائر إذا فعله المسلم. وهو من صور موالة الكفار التي يتراوح الحكم فيها بين الكفر المخرج من الملة إذا كان تجسسه حباً في انتصار الكفار وعلو شوكتهم على المسلمين وبين، الكبيرة من كبائر الذنوب إذا كان لغرض شخصي أو دنيوي أو جاه أو ما أشبه ذلك.

وقد حذر الله من ذلك في قصة حاطب بن أبي بلتعة^(٨٥) رضي الله عنه في سورة الممتحنة.

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ
إِلَيْهِم بِالْمُؤَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ

(٨٥) هو حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، حليف قريش، وقيل هو حليف للزبير بن العوام. شهد بدرًا والحديبية، ومات سنة ثلاثين بالمدينة وهو ابن خمس وستين سنة، وصلى عليه عثمان رضي الله عنهم. وقد شهد الله لحاطب بالإيمان في سورة الممتحنة. بعثه رسول الله ﷺ سنة ست من الهجرة إلى المقوقس صاحب مصر والإسكندرية فاتاه من عنده بهدايا منها مارية القبطية. انظر «الاستيعاب»: (ج ٣٤٨/١)، و«الإصابة»: (ج ٣٠٠/١).

وَيَاكُمْ أَنْ تَوْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي
وَأَبْنَاءَ مَرْضَاتِي تُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ
وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ

[سورة الممتحنة: ١].

قال الطبري: لا يدعونكم أرحامكم وقرباتكم وأولادكم إلى الكفر بالله
وتأخذ أعدائه أولياء تلقون إليهم بالمودة، فإنه لن تنفعكم أرحامكم
ولا أولادكم عند الله يوم القيامة لأنه سيدخل أهل طاعته الجنة، وأهل معاصيه
والكفر به النار^(٨٦).

وروى البخاري في صحيحه بسنده عن علي رضي الله عنه قال: بعثني
رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود وقال: «انطلقوا حتى تأتوا
روضة خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها» فأنطلقنا تعادى بنا خيلنا
حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت:
ما معي من كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من
عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب ما هذا؟»
قال: يا رسول الله لا تعجل علي، إني كنت أمرأاً ملصقاً في قريش ولم أكن
من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قربات بمكة يحمون بها
أهلهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً
يحمون بها قرباتي وما فعلت كفراً ولا ارتداداً ولا رضاء بالكفر بعد
الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «قد صدقكم» فقال عمر: يا رسول الله دعني
أضرب عنق هذا المنافق. قال: «إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله أن يكون
قد أطلع على أهل بدر فقال: أعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فأنزل الله:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾^(٨٧) الآيات.

(٨٦) «تفسير الطبري»: (ج ٢٨/٦١).

(٨٧) «صحيح البخاري»: (ج ٨/٦٣٣، ح ٤٨٩٠) كتاب التفسير، سورة الممتحنة.

قال العلامة آبن القيم: يؤخذ من هذه القصة جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلماً، لأن عمر رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ قتل حاطب بن أبي بلتعة فلم يقل رسول الله ﷺ لا يحل قتله إنه مسلم بل قال: وما يدريك لعل الله أن يكون قد أطلع على أهل بدر فقال: «أعملوا ما شئتم» فأجاب بأن فيه مانعاً من قتله وهو شهوده بداراً. وفي الجواب بهذا كالتنبيه على جواز قتل جاسوس ليس له مثل هذا المانع. وهذا مذهب مالك وأحد الوجهين في مذهب أحمد، وقال الشافعي وأبو حنيفة لا يقتل وهو ظاهر مذهب أحمد، والفريقان يحتجون بقصة حاطب.

والصحيح: أن قتله راجع إلى رأي الإمام، فإن رأى في قتله مصلحة للمسلمين قتله وإن كان. استبقاؤه أصلح استبقاه والله أعلم^(٨٨).

وقال أيضاً: ومن فوائد هذه القصة: أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تكفر بالحسنة الكبيرة الماحية، كما وقع الجس من حاطب مكفراً بشهوده بداراً، فإن ما أشتمت عليه هذه الحسنة العظيمة من المصلحة وتضمنته من محبة الله لها ورضاه وفرحه بها، ومباهاته للملائكة بفاعليها: أعظم مما أشتمت عليه سيئة الجس من المفسدة، وتضمنته من بغض الله لها فغلب الأقوى على الأضعف، فأزال وأبطل مقتضاه، وهذه حكمة الله في الصحة والمرض الناشئين من الحسنات والسيئات، الموجبين لصحة القلب ومرضه قال تعالى:

إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ

[سورة هود: ١١٤].

وقال:

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكَفِّرْ عَنْكُمْ مَسِيئَاتِكُمْ

[سورة النساء: ٣١].

(٨٨) زاد المعاد: (ج ٣/٤٢٢) بتصرف بسيط.

إلى أن قال: فتأمل قوة إيمان حاطب التي حملته على شهود بدر، وبذله نفسه مع رسول الله ﷺ وإيثاره الله ورسوله على قومه وعشيرته وقرابته وهم بين ظهرائي العدو وفي بلدهم ولم يشن ذلك عنان عزمه، ولا فل من حد إيمانه ومواجهته للقتال لمن أهله وعشيرته وأقاربه عندهم، فلما جاء مرض الجس برزت إليه هذه القوة. وكان البُحران^(٥) صالحاً فأندفع المرض وقام المريض وكأن لم يكن به قلبية^(٥٥) ولما رأى الطبيب قوة إيمانية قد آستعلت على مرض جسده وقهرته قال لمن أراد فصده: لا يحتاج هذا العارض إلى فصاد «وما يدريك لعل الله أن يكون قد أطلع على أهل بدر فقال، أعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، وعكس هذا ذو الخويرة التيمي^(٨٩) وأضرابه من الخوارج الذين بلغ اجتهداهم في الصلاة والصيام والقراءة إلى حد يحقر أحد الصحابة عمله معه كيف قال فيهم: «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»^(٩٠). وقال: «أقتلوهم فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم»^(٩١). ومن له لب وعقل يعلم قدر هذه المسألة: وشدة حاجته إليها وانتفاعه بها، ويطلع منها على باب عظيم من أبواب معرفة الله سبحانه وحكمته في خلقه وأمره وثوابه وعقابه، وأحكام الموازنة.. وتفاوت المراتب في ذلك بأسباب مقتضية بالغة ممن هو قائم على كل نفس

(٥) الأطباء يسمون التغير الذي يحدث للعليل دفعة واحدة في الأمراض الحادة:

بحراناً، انظر حاشية «زاد المعاد»: (ج ٣/٤٢٥).

(٥٥) القلبية: الداء والتعب. انظر مادة قلب في القاموس المحيط.

(٨٩) ذو الخويرة التيمي ذكره ابن الأثير في الصحابة مستدركاً على من قبله ولم

يورد في ترجمته سوى ما أخرجه البخاري: (ج ٦/٦١٧، ح ٣٦١٠) كتاب

المناقب، ومسلم: (ج ٢/٧٤٠، ح ١٠٦٣) في الزكاة، من حديث أبي سعيد قال:

بيننا رسول الله ﷺ يقسم ذات يوم قسماً فقال ذو الخويرة رجل من بني

تميم يا رسول الله، إعدل. فقال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل» الحديث انظر

«الإصابة» لابن حجر: (ج ١/٤٨٥).

(٩٠) سبق تخريجه: (ص ٥١).

(٩١) «صحيح البخاري»: (ج ٦/٦١٨، ح ٣٦١١) كتاب المناقب، باب علامات

النبوّة، و«صحيح مسلم»: (ج ٢/٧٤٦، ح ١٠٦٦) كتاب الزكاة.

بما كسبت (٩٢).

والذي يظهر لي - والله أعلم - هو ما ذهب إليه مالك وأبن عقيل من أصحاب أحمد وغيرهما أن الجاسوس المسلم يقتل لأن التعليل في قصة حاطب (تعليل بعلة مانعة من القتل منتفية في غيره، ولو كان الإسلام مانعاً من قتله لم يعمل بأخص منه، لأن الحكم إذا علل بالأعم كان الأخص عديم التأثير وهذا أقوى والله أعلم) (٩٣).

ونزول الخطاب القرآني بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

يدل على دخول حاطب في المشاطبة بأسم الإيمان ووصفه به، وتناوله النهي بعمومه، وله خصوص السبب الدال على إرادته، مع أن في الآية ما يشعر أن فعل حاطب نوع موالة وأنه أبلغ بالمودعة، فإن فاعل ذلك قد ضل سواء السبيل، لكن قوله ﷺ: «صدقكم خلوا سبيله» ظاهر في أنه لا يكفر بذلك إذا كان مؤمناً بالله ورسوله غير شاك ولا مرتاب، وإنما فعل ذلك لغرض دنيوي، ولو كفر لما قيل «خلوا سبيله» (٩٤). أما الجاسوس الكافر فهذا يجب قتله لأنه ﷺ قتل جاسوساً من المشركين. فعن أبياس بن سلعة بن الأكوع عن أبيه قال: أتى النبي ﷺ عين من المشركين وهو في سفر فجلس عند أصحابه يتحدث ثم آنفثل فقال النبي ﷺ: «أطلبوه واقتلوه». فقتلته فنقله سلبه (٩٥).

(٩٢) زاد المعاد: (ج ٢/ ٤٢٤ - ٤٢٧) بتصرف.

(٩٣) زاد المعاد: (ج ٣/ ١١٤)، وانظر «قضية الرسول ﷺ» لابن فرج المالكي: (ص ٢٥).

(٩٤) إرشاد الطالب للشيخ سليمان بن سحمان: (ص ١٥).

(٩٥) «صحيح البخاري»: (ج ٦/ ١٦٨، ح ٣٠٥١) كتاب الجهاد، باب الحربي إذا دخل الإسلام بغير أمان، وأبي داود: (ج ٣/ ١١٢، ح ٢٦٥٣) في الجهاد.

الفصل الرابع

هجر أصحاب البدع والأهواء

من تكاليف الولاء والبراء: هجر أصحاب البدع والأهواء والبراءة من معتقداتهم الفاسدة ونحلهم الباطلة. وقد تكلمت في الفصل الثالث من الباب الأول عن طرف من موقف السلف من هؤلاء المبتدعة، وذكرت هناك تعريف البدعة وتقسيمها إلى كُفْرِيَّة وغير كُفْرِيَّة.

أما الحديث هنا فيأتي لبيان أن هجرهم وعدم مخالطتهم والإنكار عليهم واجب من واجبات الولاء والبراء، ومقتضى من مقتضياته، لأن المنطلق في هذه القضية هو حب الله وحب ما يحبه وبغض من يبغضه أو يرتكب ما يبغضه. وفساد الدين إنما يأتي من إحدى طريقتين أو هما معاً: فإما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب وهو الاستمتاع بالخلاق.

فالأول: البدع، والثاني: اتباع أهوى، وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء: وبهما كُذِّبَت الرسل، وعُصِيَ الرَّبُّ، ودُخِلَت النَّارُ، وحلت العقوبات. لأن الفساد في الاعتقاد يأتي من جهة الشبهات، والفساد في العمل يأتي من جهة الشهوات ولهذا كان السلف يقولون: (أحذروا من الناس صنفين: صاحب هوى فتنة هواه، وصاحب دنيا أعجبه دنياه) (٩٦).

ويقولون أيضاً: (أحذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما

(٩٦) «إعلام الموقعين» لابن القيم: (ج ١/ ١٣٦)، وانظر «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية: (ص ٢٥).

فتنة لكل مفتون، لأن الأول يشبه المفضوب عليهم الذين يعلمون الحق ولا يتبعونه، والثاني يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم (٩٧).

وخطورة البدعة تكمن في أنها تناقض "الاستسلام لله وحده" كما قال بعض السلف: (قدم الإسلام لا تثبت إلا على قنطرة التسليم) (٩٨) وهي - كما قال الإمام سفيان الثوري - أحب إلى إبليس من المعصية، لأن البدعة لا يتاب منها، أما المعصية فيتاب منها. ذلك أن المبتدع الذي يتخذ ديناً لم يشرعه الله ورسوله قد زين له سوء عمله فرآه حسناً، فهو لا يتوب ما دام يراه حسناً، لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه. فما دام يرى فعله حسناً - وهو سيء في نفس الأمر - فإنه لا يتوب.

ولكن التوبة ممكنة وواقعة بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق، كما هدى الله من هدى. من الكفار والمنافقين وطوائف أهل البدع والضلال، وذلك بأن يتبع من الحق ما علمه لأن الله يقول:

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَآزَادَهُمُ هُدًى وَآثَنَهُمْ تَفَوَّنَهُمُ

[سورة محمد: ١٧].

وإذا انتشرت الجهالة بدين الرسل بين الناس، ونما زرع الجاهلية في نفوسهم: سارعت الطباع إلى الانحلال من ربة الاتباع لأن النفس فيها نوع من الكبر فهي تحب أن تخرج من العبودية بحسب الإمكان كما قال أحد السلف: (ما ترك أحد سنة إلا تكبر في نفسه) (١٠٠). وكما قلنا في الفصل الثاني من الباب الأول: أن العداوة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أمر محتم وواقع، فإن العداوة هنا بين المتبع والمبتدع تأخذ نفس المرتبة والشأن

(٩٧) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ٢٥).

(٩٨) «شرح السنة للبغوي»: (ج ١/ ١٧١).

(٩٩) انظر «التحفة العراقية» لابن تيمية: (ص ٣٨).

(١٠٠) «ملحق مؤلفات» الإمام محمد بن عبد الوهاب: (ص ٨٧)، طبعة جامعة الإمام.

ولذلك قال الشوكاني: العداوة بين المتبع والمبتدع أوضح من الشمس لأن المتبع يعادي المبتدع لبدعته، والمتدع يعادي المتبع لاتباعه وكونه على الصواب. بل قد تبلغ عداوات أهل البدع لغيرهم من أهل الاتباع فوق ما تبلغه عداواتهم لليهود والنصارى^(١٠١). وقبل أن نعرف كيفية مخالطة الناس وقد رأيت كلاماً البدع والأهواء لا بد من إمامة بسيطة بكيفية مخالطة الناس وقد رأيت كلاماً حسناً لابن القيم رحمه الله. أوجزه فيما يلي. فقد قسم رحمه الله مخالطة الناس إلى أربعة أضرب^(١٠٢).

(١) من مخالطته كالغذاء، لا يستغنى عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ثم إذا احتاج خلطه. وهذا النوع أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه. فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله.

(٢) من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحاً فلا حاجة لك فيه. وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في المعاش، وما يحتاج إليه من المعاملات والمشاركات فإذا قضيت حاجتك من مخالطته بقيت مخالطتهم من القسم الثالث وهم:

(٣) من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه، فبعضهم كالداء العضال، لا تريح عليه في دين ولا دنيا، بل تخسر معه الدين والدنيا أو أحدهما، ومهم من مخالطته كوجع الضرس يؤلمك فإذا فارقك سكن الألم. ومنهم من مخالطته حمى الروح، وهو الثقل البعوض العقل، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، وإذا تكلم فكلامه كالعصى على قلوب السامعين مع إعجابه بكلامه، وظنه أنه كالمسك يطيب به المجلس وإن سكت فأنقل

(١٠١) قطر الولي للشوكاني: (ص ٢٥٩).

(١٠٢) بدائع الفوائد: (ج ٢/ ٢٧٤ - ٢٧٥).

من نصف الرحي التي لا يطاق حملها، ولا جرها على الأرض، وإذا كان لابد من هذا الضرب فليماشر بالمعروف حتى يجعل الله لك منه فرجاً ومخرجاً.

(٤) مَنْ مخالطته فيها الهلاك كله، وهي بمنزلة أكل السم، فإن اتفق لآكله ترياق^(١٠٣) وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثرتهم الله. وهم أهل البدع والضلال، الصائدون عن سنة رسول الله ﷺ، الداعون إلى خلافها، الذين يصدون عن سبيل الله ويغيونها عوجاً، فيجعلون البدعة سنة، والسنة بدعة، والمعروف منكراً، والمنكر معروفاً، إن جردت التوحيد بينهم قالوا: تنقصت جناب الأولياء والصالحين، وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين وإن وصفت الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير قالوا أنت من المشبهين، وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر قالوا: أنت من المفتنين، وإن آتبت السنة وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلين، وإن أنقطعت إلى الله تعالى وخلعت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا: أنت من الملبسين، وإن تركت ما أنت عليه وآتبت أهواءهم فأنت عند الله من الخاسرين وعندهم من المنافقين! فالحزم كل الحزم التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم، وأن لا تشتغل بأعتابهم ولا باستعتابهم ولا تبالي يذمهم، ولا بغضبهم فإنه عين، كمالك كما قال الشاعر:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي بأنني فاضل

(١٠٣) الترياق: بكسر التار، دواء السموم وهو فارسي معرب. «مختار الصحاح»:
(ص ٩١).

وعند الممات يحمد القوم التقى
وفي الصباح يحمد القوم السرى
أنتهى من «بدائع الفوائد».

وموقف المسلم من أصحاب البدع والأهواء يختلف باختلاف ما هم عليه. فأمّا من كانت بدعته كفرية أو شركية فهذا يتبرأ منه ويهجر هجراً نهائياً وليس له أي موالاة بل البراءة منه كالبراءة من الكافر الأصلي أو المشرك. ومثال ذلك من أحدث حدثاً في الإسلام، أو آوى محدثاً ونصره وأعانه كما جاء في الحديث: «من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»^(١٠٤). قال ابن القيم: (ومن أعظم الحديث تعطيل كتاب الله وسنة رسوله وإحداث ما خالفهما، ونصر من أحدث ذلك والذب عنه، ومعاداة من دعا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ)^(١٠٥). وأمّا من كانت بدعته دون ذلك أي من المعاصي والذنوب التي لا تصل إلى حدّ الكفر أو الشرك فهذه تختلف أيضاً باختلاف الأشخاص والأزمان.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يستقيم إلا بالبصيرة والمعرفة التامة، وأقل الأحوال إذا لم يحصل للعبد ذلك: أن يقتصر على نفسه كما قال ﷺ: «إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك»^(١٠٦). فإذا رأى المسلم

(١٠٤) أبو داود (ج ٤/٦٦٩، ح ٤٥٣٠) كتاب الديّات، والنسائي: (ج ٨/٢٠) في القسامة، وإسناده حسن.

(١٠٥) «إعلام الموقعين» لابن القيم: (ج ٤/٤٠٥).

(١٠٦) أبو داود: (ج ٤/٥١٢، ح ٣٤١) كتاب الملاحم، والترمذي: (ح ٣٠٦٠) في التفسير، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه: (ج ٢/١٣٣١، ح ٤٠١٤) في الفتن، وانظر «جامع الأصول»: (ج ٣/١٠٠، ح ٧٤٥٣). قال الألباني: ضعيف ولعنه شواهد. انظر «مشكاة المصابيح»: (ج ٣/١٤٢٣).

من يعمل شيئاً من المعاصي: أبغضه على ما فيه من الشر، وأحبه على ما فيه من الخير - كما ذكرنا ذلك في معتقد أهل السنة في أول البحث - ولا يجعل بغضه على ما معه من الشر قاطعاً وقاضياً على ما معه من الخير فلا يحبه، بل إن كان بغضه له يزجره ذلك ولا يرتدع هو وأمثاله راعى فيه الإصلاح، لأن النبي ﷺ هجر من علم أن الهجر يزجره ويردعه، وقبل معذرة من علم أن الهجر لا ينجع فيه شيئاً ووكّل سرائرهم إلى الله^(١٠٧).

وعلى أي حال فإنه ينبغي للمسلم أن لا يخالط أهل البدع والفجور وسائر المعاصي، إلا على وجه يسلم به من عذاب الله عز وجل، وأقل ذلك أن يكون منكراً لظلمهم، ماقتاً شائناً ما هم فيه بحسب الإمكان كما في الحديث «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»^(١٠٨).

والهجر الشرعي نوعان:

الأول: بمعنى الترك للمنكرات.

والثاني: بمعنى العقوبة عليها.

فالأول هو المذكور في قوله تعالى:

وَأَذَارَآئِ الَّذِينَ يَخْوَضُونَ فِيءِآيُنَا فَاَعْرِضْ عَنْهُمْ

[سورة الأنعام: ٦٨].

وقوله تعالى:

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي

(١٠٧) انظر «الدرر السنية في الأجوبة الجديّة»: (ج ٤١/٧).
(١٠٨) «تفسير سورة النور» لابن تيمية: (ص ٥٥)، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٧هـ،
والحديث في «صحيح مسلم»: (ج ١/٦٩، ح ٤٩) كتاب الإيمان.

أَلْكَتَبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفِرُ بِهَا وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا فَلَا
تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ

[سورة النساء: ١٤٠].

وهذا الهجر من جنس هجر الإنسان نفسه عن فعل المنكرات كما قال
عليه السلام: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه» (١٠٩). ومن هذا الباب الهجرة
من دار الكفر والفسوق إلى دار الإسلام والإيمان، فإنه هجر للمقام بين
الكافرين والمنافقين الذين لا يمكنونه من فعل ما أمر الله به، ومن هذا
قوله تعالى:

وَالرَّجْفَةُ هَجْرٌ

[سورة المدثر: ٥].

أما النوع الثاني وهو الهجر على وجه التأديب: فهو هجر من يظهر
المنكرات حتى يتوب منها كما هجر النبي ﷺ والمسلمون: «الثلاثة الذين
خلفوا» (١١٠) حتى أنزل الله توبتهم.

وهذا الهجر يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم، وقلتهم
وكثرتهم فإن المقصود به زجر المهجور وتأديبه، ورجوع العامة عن مثل
حاله، فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضي هجره إلى
ضعف الشر وخفيته كان مشروعاً، وإن كان لا المهجور ولا غيره يرتد
بذلك بل يزيد الشر، والهاجر ضعيف، بحيث تكون مفسدة ذلك راجحة
على مصلحته لم يشرع الهجر، بل يكون التأليف لبعض الناس أنفع من
الهجر.

(١٠٩) «صحيح البخاري»: (ج ١/٥٣، ح ١٠) كتاب الإيمان، باب المسلم من
المسلمين من لسانه ويده.

(١١٠) سجد حديثهم إن شاء الله في الباب الأخير عند الحديث عن كعب بن مالك
وهو أحدهم.

وقد كان النبي ﷺ يتألف قوماً ويهجر آخرين.
وإذا عرف هذا فالهجر يجب أن يكون خالصاً لله وموافقاً لأمره، لأن
من هجر لهوى نفسه أو هجر هجراً غير مأمور به كان خارجاً عن هذا
الأصل، وما أكثر ما تفعل النفوس ما تنهوا ظانة أنها تفعله طاعة
لله (١١١).

والهجر من باب "المقوبات الشرعية" فهو من جنس الجهاد في سبيل
الله، وهذا يفعل لأن تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله،
والمؤمن عليه أن يعادي في الله، ويوالي في الله، فإن كان هناك مؤمن
فعله أن يواليه وإن ظلمه، فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية قال تعالى:

وَلَا تَأْخُذْ بَعِثَاتِ الْفُجُورِ أُولَئِكَ يُقَاتِلُوكَ أَعْيُنُهُمْ فِي غَیِّهِمْ لَا يُبْصِرُونَ
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ
وَلَا تَأْخُذْ بَعِثَاتِ الْفُجُورِ أُولَئِكَ يُقَاتِلُوكَ أَعْيُنُهُمْ فِي غَیِّهِمْ لَا يُبْصِرُونَ
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ
بِالْمَعْدِلِ وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكَ فَاعْتَدِ ۚ وَلَئِنَّ أُولَئِكَ لَشَرٌّ عِندَ اللَّهِ
فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ

[سورة الحجرات: ٩ - ١٠].

فجعلهم إخوة مع وجود القتال والبغى (١١٢).

ومما ينبغى التنويه به: (أن هذا الهجران والتبري والمعاداة لأهل البدع
المخالفين في الأصول. أما الاختلاف في الفروع بين العلماء فأختلاف
رحمة أراد الله أن لا يكون على المؤمنين حرج في الدين، فذلك
لا يوجب الهجران والقطيعة لأن هذا الاختلاف كان بين أصحاب
رسول الله ﷺ مع كونهم إخواناً مؤتلفين، رحاء بينهم، وتمسك بقول
كل فريق منهم طائفة من أهل العلم بعدهم، وكل في طلب الحق، وسلوك
سبيل الرشد مشتركون) (١١٣).

(١١١) انظر مجموع الفتاوى: (ج ٢٨/٢٠٣ - ٢٠٧).

(١١٢) المصدر السابق: (ج ٢٨/٢٠٨).

(١١٣) شرح السنة للبغوي: (ج ١/٢٢٩).

كلمات للسلف في الاتباع والنهي عن الابتداع

سلف الأمة رحمهم الله كانوا حريصين على الوقوف عند كتاب الله العزيز وسنة نبيه ﷺ وكانوا يمتثلون من يخرج عن هذين المصدرين الأصليين. وقد كثر كلامهم في هذا ولكنني أورد هذه الكلمات القيمة لما لها من أثر في تزويد المؤمن بالثبات على ما ثبتوا عليه.

قال الإمام مالك رحمه الله: (من أحدث في هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله ﷺ خان الدين، لأن الله تعالى يقول:

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

[سورة المائدة: ٣].

فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً (١١٤).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «ستجدون قوماً يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم فعليكم بالعلم وإياكم والتبدع والتنطع والتعمق وعليكم بالعتيق» (١١٥).

وقال أبو العالية الرياحي: (تعلموا الإسلام فإذا علمتوه فلا ترعبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم، فإن الصراط المستقيم: الإسلام، ولا تحرفوه يميناً وشمالاً، وعليكم بسنة نبيكم وأصحابه) (١١٦).

(١١٤) «الاعتصام» للشاطبي: (ج ٢/ ٥٣).

(١١٥) «التنبيه والرد» للملطبي: (ص ٨٥)، ومعنى العتيق: أي القديم الأول.

(١١٦) المصدر السابق: (ص ٨٤).

وقال الشافعي رحمه الله: (لأن يلقى الله العبد بكل ذنب - ما خلا
الشرك - خير من أن يلقاه بشيء من الهوى) (١١٧).

وقيل لسفيان بن عيينة: (ما بال أهل الأهواء لهم محبة شديدة
لأهوائهم فقال: أنسيت قوله تعالى:

وَأَشْرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ

[سورة البقرة: ٩٣] (١١٨).

ولذلك قال أبو قلابة: (لا تجالسوا أهل الأهواء فإني لا آمن أن
يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم بعض ما تعرفون) (١١٩).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم» (١٢٠).
حقاً، لقد كفينا فكتاب الله واضح وجلي، وسنة رسوله ﷺ واضحة
ومفصلة وشارحة لكتاب الله، وسيرة سلفنا الصالح محفوظة لدينا
وما علينا إلا اتباع الكتاب والسنة والبعث عن كل مبتدع ودخيل، وإذا
فعلنا ذلك كنا أمة متميزة لها شخصيتها المستقلة التي لا تجاري أصحاب
الأهواء والآراء البشرية الناقصة.

وما تبت أمة داعي كل ناعق إلا تردت في مهاوي الجهل والطلام، والله
يريد لعباده المؤمنين النور والصلاح والفلاح، وكل ذلك في الإسلام
وحده وما عداه فجاهلية وضلال. أعاذنا الله من ذلك.

(١١٧) «الاعتقاد على مذهب السلف» للبيهقي: (ص ١١٨).

(١١٨) «العبودية» لابن تيمية: (ص ٧٠).

(١١٩) «الاعتقاد» للبيهقي: (ص ١١٨).

(١٢٠) «سنن الدارمي»: (ج ١/ ٦٩) في كتاب العلم، باب كراهية الأخذ بالرأي. قال
السخاوي: وأخرجه الديلمي في «مسنده». انظر «المقاصد الحسنة»: (ص ١٦).

الفصل الخامس

انقطاع التوارث والنكاح بين المسلم والكافر

من حرص الإسلام على تمييز المسلم وقطع العلائق والوشائج التي قد ترده عما أراده الله له: قطع التوارث بين المسلم وقربيه الكافر، وكان هذا التكليف من مقتضيات الولاء والبراء في التصور الإسلامي.

ولكن ذلك جاء بعد الأمر للنبي ﷺ بالجهاد، فقد كان ﷺ - كما يذكر ابن القيم - قبل أن يفرض الجهاد يقر الناس على ما هم عليه في الأنكحة ويدعوهم إلى الإسلام، وكانت المرأة تُسلم وزوجها كافر فلا يفرق الإسلام بينهما حتى صلح الحديبية، وبعد هذا الصلح نزل تحريم المسلمة على الكافر^(١٢١). قال تعالى:

لَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَكُمْ

[سورة الممتحنة: ١٠].

وقال تعالى:

وَلَا تُنكِحُوا بَعْضَ الْكَافِرِ

[سورة الممتحنة: ١٠].

لقد آن أن تقع المفاصلة الكاملة، وأن يستقر في ضمير المؤمنين والمؤمنات كما يستقر في واقعهم: أن لا رابطة إلا رابطة الإيمان، وأن

(١٢١) أحكام أهل الذمة: (ج ١/٦٩).

لا وشيجة إلا وشيجة العقيدة، وأن لا ارتباط إلا بين الذين يرتبطون بالله (١٢٢).

وجاء التحريم أيضاً في سورة البقرة في قوله تعالى:

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ
مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى
يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ
يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ
وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

[سورة البقرة: ٢٢١].

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في قوله تعالى:
﴿ولا تنكحوا المشركات﴾ هذه عامة في جميع النساء المشركات،
وخصصتها آية المائدة في إباحة نساء أهل الكتاب كما قال تعالى:

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

[سورة المائدة: ٥].

أما قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾ فهذا عام
لا تخصيص فيه.

وذكر سبحانه العلة والحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن
خالفهما في الدين فقال: ﴿أولئك يدعون إلى النار﴾ أي في أقوالهم وأفعالهم
وأحوالهم فمخالطتهم على خطر منهم: بل إنه الشقاء الأبدي (١٢٣).

ونكاح المسلم للكتانية مجمع عليه - كما قال شيخ الإسلام آبن
تيمية - من السلف والخلف، ولكن يروى عن آبن عمر أنه كره نكاح

(١٢٢) (الظلال: (ج ٦/٣٥٤٦).

(١٢٣) (تفسير كلام القاتن لابن سعدي: (ج ١/٢٧٤).

النصرانية وقال: لا أعلم شركاً أعظم من شرك من ربها عيسى آس مريم^(١٢٤)، ولكن الجواب على ذلك من ثلاثة أوجه:

(١) إن أهل الكتاب لم يدخلوا في المشركين بدليل قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ

[سورة البقرة: ٦٢].

فإن قيل قد وصفوا بالشرك بقوله:

اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ

وَرُفِعَتْهُمْ أَرْكَانًا بَيْنَ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٢﴾

[سورة التوبة: ٣١].

قيل: أهل الكتاب ليس في أصل دينهم شرك، لأن الله بعث الرسل بالتوحيد، ولكن النصارى ابتدعوا الشرك وما دام أنه ميزهم عن المشركين فلأن أصل دينهم اتباع الكتب المنزلة.

(٢) أن يقال: آية البقرة عامة وآية المائدة خاصة. والخاص يقدم على العام.

(٣) أن يقال: آية المائدة ناسخة لآية البقرة لأن المائدة نزلت بعد البقرة باتفاق العلماء^(١٢٥).

(١٢٤) الأثر في «مصحح البخاري»: (ج ٩/٢١٦، ح ٥٣٨٥) كتاب الطلاق، باب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَ﴾. عن نافع أن ابن عمر كان إذا سئل عن نكاح النصرانية واليهودية قال: إن الله حرم المشركات على المؤمنين ولا أعلم من الإشراف شيئاً أكبر من أن تقول المرأة ربها عيسى وهو عبد من عباد الله.

(١٢٥) «دقائق التفسير» لأمين تيمية. (ح ١/٢٥٨ — ٢٦٠) حقيق وجمع الدكتور: محمد السيد الخليلي. الناشر: دار الأنصار

والذي يظهر لي. وآله أعلم - أن الجواب الأول من الأجوبة الثلاثة التي ذكرها شيخ الإسلام غير مسلم به، مع التسليم بأن أصل دينهم هو التوحيد، ولكنهم نقضوا هذا الأصل والعبرة بالخواتيم. أما الجواب الثاني والثالث فهذا الذي ذهب إليه كثير من أهل العلم^(١٢٦).

وأما انقطاع التوارث بين المسلم والكافر فهذا أيضاً من التكليف، والمقتضيات للولاء والبراء ودليل ذلك قوله ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم» متفق عليه^(١٢٧).

والسبب في ذلك: أن التوارث يتعلق بالولاية. ولا ولاية بين المسلم والكافر لقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(١٢٨).

قال البغوي: والعمل على هذا عند عامة أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم: أن الكافر لا يرث المسلم، والمسلم لا يرث الكافر لقطع الولاية بينهما، إلا ما روي عن معاذ ومعاوية أنهما قالاً: المسلم يرث الكافر، ولا يرثه الكافر، وحكي ذلك عن إبراهيم النخعي، كما أن المسلم ينكح الكتابية ولا ينكح الكافر المسلمة، وبه قال إسحاق بن راهوية^(١٢٩).

أما المرتد: فلا يرث أحداً. لا مسلماً ولا كافراً ولا مرتداً. واختلفوا في ميراثه:

فذهب جماعة: إلى أنه لا يورث منه بل ماله فيء. وهذا قول مالك والشافعي.

(١٢٦) انظر على سبيل المثال «المغني» لابن قدامة: (ج٧/١٢٩).

(١٢٧) «صحيح البخاري»: (ج١٢/٥٠، ح٦٧٦٤) كتاب الفرائض، و«صحيح

مسلم»: (ج٣/١٢٣٣، ح١٦١٤) كتاب الفرائض.

(١٢٨) «فتح الباري»: (ج١٢/٥٠).

(١٢٩) «شرح السنة»: (ج٨/٣٦٤).

وذهب جماعة: إلى أن ميراثه لأقاربه المسلمين وهو قول الحسن والشعبي وعمر بن عبد العزيز والأوزاعي وأبو يوسف ومحمد. وذهب بعضهم: إلى أن ما اكتسبه في الإسلام لورثته المسلمين، وما اكتسبه بعد الردة فيء وهو قول سفيان الثوري وأبي حنيفة^(١٣٠).

إن الإسلام دين عزّة وعفّة وقوة يرتفع بالمسلم أن تبغى نفسه معلقة بأطماع قاصرة لا تتفق مع مبدأ هذا الدين وتميزه وسمو تشريعه. بل إنه ليقطع كل ما من شأنه أن يثبط المسلم أو يفريه بالتذبذب في دينه أو بالنفاق. لذلك قطع النكاح من الكافر لئلا يكون له سلطة على المسلمة؛ فالإسلام يعلو ولا يعلى عليه، وقطع النكاح من الكافرة لأنها سبب خطير في "جرف" زوجها إلى ملتها وتنشئة الأطفال على مبدأ الكفر والشرك. وقطع التوارث بين المسلم والكافر حتى يبقى المسلم مصوناً من المال الحرام لأن صاحبه الكافر رضي بالحرام وترك شريعة الله الحلال شريعة الإسلام.

وما دام أنه قد آنقطع التناصر والولاء الإيماني بين المسلم والكافر فلأن يقطع النكاح والتوارث من باب أولى لتخلص نفس المسلم لله رب العالمين وتصبح حياته ومماته كلها قائمة على منهج الله القويم وشرعه الحكيم.

وبهذا يكون التميز الكامل متحققاً في حياة المسلم فهو لا يعبد إلا الله، ومن ثم فلا يتلقى إلا من الله، ولا يرجو ولا يطلب الرزق إلا من الله. ولا يسير في أمر يسير أو كبير إلا بحسب ما أَرَادَهُ اللهُ، وهذا هو معنى الاستسلام لله. والطاعة والانقياد له.

(١٣٠) (شرح السنة: (ج ٨/٣٦٥).

الفصل السادس

النهي عن التشبه بالكفار والحرص على حماية المجتمع الإسلامي

الدين الإسلامي ليس حريصاً على تمييز المسلمين في المصنوع فحسب وإنما حتى في المظهر العام للمسلم في نفسه وللمجتمع الإسلامي في عمومه. ولذلك كان النهي عن التشبه بالكفار أحد التكاليف الربانية لهذه العقيدة. وقد حفل الكتاب والسنة بأدلة كثيرة حول هذه القضية. لأن التشبه بالكفار في الظاهر يورث التشبه بهم في العقيدة، أو مودتهم، ومسائرهم ومواقفتهم على هواهم مما يحدث التميع في حياة المسلم ويجعله إمعة يتبع كل ناعق، والله يريد له العزة والكرامة. وإذا تمعنا في طريقة التربية القرآنية: وجدنا أن الإسلام ربى المسلمين على العقيدة الصحيحة فترة طويلة قبل نزول التكاليف، فلما رست جذور هذه الشجرة المباركة في النفوس جاءت التكاليف واحداً إثر الآخر مما جعل المسلمين يترقون في هذا السلم التربوي الإيماني إلى الذروة.

من هنا جاء النهي عن التشبه بالكفار في العهد المدني. وذلك بعد الجهاد من أجل صيانة وحماية المجتمع الإسلامي من كل دخيل، وحرصاً على بناء الشخصية الإسلامية الفريدة. فكما أن هذه العقيدة فريدة في مضمونها وجوهرها فهي أيضاً فريدة في شكلها ومظهرها. لذا وجب على صاحبها أن يكون متميزاً بعد أن أخرجه الله من الظلمات إلى النور.

وتجتاح العالم الإسلامي اليوم موجة من التبعية الجارفة في كل شيء، ومن ذلك التشبه بالغرب الكافر من قبل ضعاف الإيمان الذين يرون أن ذلك الفعل هو سبيل التقدم والرقى!

وفي هذا يقول الأستاذ محمد أسد:

(... وإن السطحيين من الناس فقط ليستطيعون أن يعتقدوا أنه من الممكن تقليد مدنية ما في مظاهرها الخارجية من غير أن يتأثروا في الوقت نفسه بروحها.

(إن المدنية ليست شكلاً أجوف فقط، ولكنها نشاط حي. وفي اللحظة التي نبدأ فيها. بتقبل شكلها تأخذ مجاريها الأساسية ومؤثراتها الفعالة تعمل فينا، ثم تخلع على اتجاهنا العقلي كله شكلاً معيناً ولكن ببطء ومن غير أن نلاحظ ذلك.

ولقد قدر الرسول ﷺ هذا الاختيار حق قدره حينما قال: «مَنْ تشبه قوم فهو منهم»^(١٣١). وهذا الحديث المشهور ليس إيماءة أدبية فحسب، بل تعبير إيجابي يدل على أن لا مفر من أن يصطبغ المسلمون بالمدنية التي يقلدونها.

(ومن هذه الناحية قد يستحيل أن نرى الفرق الأساسي بين "المهم" وبين "غير المهم" في نواحي الحياة الاجتماعية وليس ثمة خطأ أكبر من أن نفترض أن اللباس - مثلاً - شيء خارجي بحت وأن لا خوف منه على "حياة المسلم" العقلية والروحية. إنه على وجه العموم نتيجة تطور طويل الأمد لذوق شعب ما في ناحية معينة. وزى هذا اللباس يتفق مع الإدراك البديعي لذلك الشعب ومع ميوله. لقد تشكل هذا الزى ثم ما فتىء يبدل أشكاله باستمرار حسب التبدل الذي طرأ على خصائص ذلك الشعب وميوله، ولبس الثياب الأوروبية يوفق المسلم من غير شعور ظاهر بين ذوقه والذوق الأوروبي ثم يشوه "حياته" العقلية بشكل يتفق نهائياً مع اللباس الجديد وبعمله هذا يكون "المسلم" قد تخلص عن الإمكانات الثقافية لقومه، وتخلص

(١٣١) سيرد تخرجه بعد قليل.

عن ذوقهم التقليدي، وتقبل لباس العبودية العقلية الذي خلعه عليه المدنية الأجنبية.

(إذا حاكى المسلم أوروبة في لباسها، وعاداتها وأسلوب حياتها فإنه يكشف عن أنه يؤثر المدنية الأوروبية، مهما كانت دعواه التي يعلنها، وأنه لمن المستحيل عملياً أن تقلد مدنية أجنبية في مقاصدها العقلية والبدئية من غير إعجاب بروحها، وأنه لمن المستحيل أن تعجب بروح مدنية مناهضة للتوجيه الديني، وتبقى مع ذلك مسلماً صحيحاً.

إن الميل إلى تقليد التمدن الأجنبي نتيجة الشعور بالنقص. هذا ولا شيء سواه، ما يصاب به المسلمون الذين يقلدون المدنية الغربية) (١٣٢).

وأصل المشابهة: إله جبل بني آدم - بل سائر المخلوقات - على التفاعل بين الشئيين المتشابهين، كما كانت المشابهة أكثر: كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم. والمشاركة بين شي الإنسان أشد تفاعلاً فلأجل هذا الأصل وقع التأثير والتأثير في شي آدم فأكسب بعضهم أخلاق بعض بالمشاركة والمعاشرة.

والمشابهة في الأمور الظاهرة: توجب مشابهة في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدريج الخفي، وقد رأينا اليهود والنصارى الذين عاشروا المسلمين أقل كفراً من غيرهم، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقل إيماناً من غيرهم ممن جرد الإسلام (١٣٣).

ثم إن المشاركة في الشيء الظاهر: توجب مناسبة وأثلاً وإن بعد المكان والزمان وهذا أمر مسلم به، بل إنها تورث نوع مودة ومحبة وموالة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر.

(١٣٢) «الإسلام على مفترق الطرق»: (ص ٨١ - ٨٣) ترجمة الدكتور عمر فروخ، الطبعة الثامنة سنة ١٩٧٤م، دار العلم للملايين.

(١٣٣) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ٢٢٠) بتصرف.

وإذا كانت المشابهة في الأمور الدنيوية تورث المحبة والموالاتة فكيف بالمشابهة في أمور دينية؟ نعم. إنها تقتضي إلى نوع من الموالاتة أكثر وأشد. والمحبة لهم تنافي الإيمان كما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

[سورة المائدة: ٥١].

وثبوت ولايتهم يوجب عدم الإيمان، لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم (١٣٤)

وهنا لا بد أن نورد بعض النصوص الكثيرة والمستفيضة من الكتاب والسنة التي نهت عن مشابهة الكفار وآتباع أهوائهم.
منها قوله تعالى:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنُفْسُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ

[سورة الجاثية: ١٨ - ١٩].

يقول في تفسيرها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: جعل الله محمداً ﷺ على شريعة من الأمر شرعها له وأمره باتباعها، ونهاه عن آتباع أهواء الذين لا يعلمون. وقد دخل في الذين لا يعلمون كل من خالف شريعته. وأهواءهم: هي ما يهوونه وما عليه المشركون من هديهم الظاهر الذي هو من موجبات دينهم الباطل وتوابع ذلك. فموافقتهم فيه آتباع لما يهوونه ولهذا يفرح الكافرون بموافقة المسلمين لهم في بعض الأمور ويسرون بذلك.

(١٣٤) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ٢١٩ - ٢٢٢) بتصرف.

ولو فرض أن الفعل ليس من أتباع أهوائهم: فلا ريب أن مخالفتهم في ذلك أحسم لمادة متابعتهم في أهوائهم وأعون على حصول مرضاة الله في تركها (١٣٥).

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى:

وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَقِيَعَ مِلَتُهُمْ فَلَا تَكُ
هُدًى لَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ
مِنَ الْبَيِّنَاتِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَّكِيلٍ وَلَا تَصِيرُ

[سورة البقرة: ١٢٠].

فأنظر كيف جاء في الخبر "ملتهم" وفي النهي "أهواءهم" لأن القوم لا يرضون إلا باتباع الملة مطلقاً. والزجر وقع عن أتباع أهوائهم في قليل أو كثير، ومن المعلوم أن متابعتهم في بعض ما هم عليه من الدين: نوع متابعة لهم في بعض ما يهوونه. أو مظنة لمتابعتهم فيما يهوونه (١٣٦).

ومن الأدلة القرآنية: أيضاً ما ورد في سورة البقرة بخصوص تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة قال تعالى:

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ
آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا فِلسَفَتَهُمْ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الصُّرُوفُ
يَتَّبِعُوا قِبْلَتَهُمْ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ
مَا كَانُوا عَلَىٰهَا لَتَبْلُغَنَّ إِلَىٰ آلِ الْفَاسِقِينَ

[سورة البقرة: ١٤٥].

(١٣٥) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ١٤).

(١٣٦) المصدر السابق: (ص ١٥).

إلى قوله تعالى:

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ
شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِنَّمِ نَمِيتْ عَلَيْكُمْ
تَهْتَدُونَ

[سورة البقرة: ١٥٠].

قال غير واحد من السلف: معناه لئلا يحتج اليهود عليكم بالموافقة في القبلة فيقولوا: قد وافقونا في قبلتنا فيوشك أن يوافقونا في ديننا. فقطع الله بمخالفتهم في القبلة هذه الحجة. وبين سبحانه أن من حكمة فسخ القبلة وتغييرها: مخالفة الكافرين في قبلتهم ليكون ذلك أقطع لما يطمعون فيه من الباطل، وهذا المعنى ثابت في كل مخالفة وموافقة فإن الكافر إذا أتبع في شيء من أمره كان له من الحجة مثل ما كان - أو قريب مما كان - لليهود من الحجة في القبلة^(١٣٧). ومن الأدلة القرآنية أيضاً الدالة على النهي عن التشبه بهم في أي حال وأي حال وأي وضع بقوله تعالى:

فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

[سورة يونس: ٨٩].

وقوله تعالى:

وَلَا تَتَّبِعِ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ

[سورة الأعراف: ١٤٢].

وقال تبارك وتعالى:

(١٣٧) نفس المصدر: (ص ١٦).

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ
سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ

[سورة النساء: ١١٥].

كل ذلك يدل على أن جنس مخالفتهم وترك مشابعتهم أمر مشروع (١٣٨).

أما السنة النبوية فورد فيها نصوص كثيرة في هذا الموضوع. ومن ذلك قوله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم» (١٣٩). وفي هذا الحديث يقول آبن نيمية: إسناده جيد وأقل أحواله: أنه يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر التشبه بهم كما في قوله تعالى:

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ أَقْبَرُ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ

[سورة المائدة: ٥١].

وهو نظير ما قاله عبد الله بن عمرو: «من بنى بأرض المشركين وصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت وهو كذلك حشر معهم يوم القيامة» (١٤٠). فقد يحمل هذا على التشبه المطلق الذي يوجب الكفر.. وقد يحمل على أنه صار منهم في القدر المشترك الذي شابههم فيه، فإن كان كفراً أو معصية أو شعاراً للكفر أو المعصية: كان حكمه كذلك.

أما من فعل الشيء واتفق أن الغير فعله أيضاً، ولم يأخذه أحدهما عن صاحبه ففي كون هذا تشبهاً نظراً. لكن قد ينهى عن هذا لئلا يكون ذريعة إلى التشبه ولما فيه من المخالفة (١٤١). ومن الأدلة النبوية أيضاً قوله ﷺ:

(١٣٨) انظر نفس المصدر: (ص ١٦).

(١٣٩) «سنن أبي داود»: (ج ٤/٣١٤، ح ٤٠٣١) كتاب اللباس، و«مسند أحمد»:

(ج ٧/١٤٢، ح ٥١١٤)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح. وقال

الألباني: صحيح، انظر «صحيح الجامع»: (ج ٥/٢٧٠، ح ٦٠٢٥).

(١٤٠) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ٨٣)، والأثر سبق تخريجه: (ص ٢٧٦).

(١٤١) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ٨٢ — ٨٣).

«لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِرْراً شَبِيراً وَذُرَاعاً ذُرَاعاً حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جَحَرَ ضَبٍّ تَبَعْتُمُوهُمْ» قلنا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» (١٤٢).

وفي الصحيح أيضاً: عن ابن عمر: أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر - أرض ثمود - فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة (١٤٣).

ولما كان للمشركين شجرة يعلقون عليها أسلحتهم ويسمونها "ذات أنواط" قال بعض الناس: يا رسول الله: أجعل ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟ فقال ﷺ: «الله أكبر، قلتم كما قال قوم موسى لموسى أجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، إنها السنن لتركين سنن من كان قبلكم» (١٣٤). فأنكر النبي ﷺ مجرد مشابهتهم الكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها، معلقين عليها سلاحهم، فكيف بما هو أظلم من ذلك من مشابهتهم المشركين أو هو الشرك بعينه؟ (١٤٥).

أيهما أعظم - يا ترى - شجرة يعلق عليها سلاح نبي عنها لأن فيها اقتداء بفعل الكفار أم نظام حياة فيه التشريع والتحليل والتحريم والإلزام والعقوبة على المخالفة؟

ومن الأحاديث الواردة في النهي عن التشبه قوله ﷺ: «إن اليهود والنصارى لا يصيغون فخالقوهم» (١٤٦).

(١٤٢) سبق تخريجه: (ص ٢٤٧).

(١٤٣) «صحيح مسلم»: (ج ٤/٢٢٨٥، ح ٢٩٨١).

(١٤٤) «مسند أحمد»: (ج ٥/٢١٨)، إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح.

(١٤٥) «اقتضاء الصراط»: (ص ٣١٤).

(١٤٦) «صحيح البخاري»: (ج ٦/٤٩٦، ح ٣٤٦٢) كتاب الأنبياء، باب نزول عيسى،

وهو صحيح مسلم: (ج ٣/١٦٦٣، ح ٢١٠٣).

وقوله ﷺ: «خالقوا اليهود فإنهم لا يصلون في تعاليمهم ولا خفافهم» (١٤٧)

وقوله ﷺ: «ليس منا من تشبه بغيرنا» (١٤٨).

إن هذه النصوص وغيرها تهدف إلى سدِّ الدرائع لأنَّ المشابهة في الظاهر ذريعة إلى الموافقة في القصد والعمل (١٤٩).

لكن هناك حالات معينة قد تجعل المسلم يشارك الكفار في الهدي الظاهر.

فمتى تكون الموافقة ومتى تكون المخالفة؟

يجيب على ذلك شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله بقوله: إن المخالفة لا تكون إلا بعد ظهور الدين وعلوه كالجهاد وإلزامهم بالجزية والصغار، ولما كان المسلمون في أول الأمر ضعفاء فإنه لم يشرع لهم المخالفة، فلما كمل الدين وظهر وعلا شرع ذلك.

ومثل ذلك اليوم - هذا كلام الشيخ في عصره فكيف بالعصور التالية؟! - لو أن المسلم بدار حرب أو دار كفر غير حرب: لم يكن مأموراً بالمخالفة لهم في الهدي الظاهر لما عليه في ذلك من الضرر. بل يستحب للرجل أو يجب عليه أن يشاركهم أحياناً في هديهم الظاهر إذا كان في ذلك مصلحة دينية من دعوتهم إلى الدين، والاطلاع على باطن أمرهم لإخبار المسلمين بذلك أو دفع ضررهم عن المسلمين ونحو ذلك من المقاصد الصالحة فأما في دار الإسلام والهجرة التي أعزَّ الله فيها دينه، وجعل على الكافرين بها الصغار والجزية: ففيها شرعت المخالفة.

(١٤٧) «سنن أبي داود»: (ج ١/٤٢٧، ح ٦٥٢) كتاب الصلاة، وقال الألباني: صحيح.

انظر «صحيح الجامع»: (ج ٣/١٠٦، ح ٣٢٠٥).

(١٤٨) «سنن الترمذي»: (ج ٧/٣٣٥، ح ٢٦٩٦)، وقال: إسناده ضعيف. ولكن حسنه

الألباني. انظر «صحيح الجامع»: (ج ٥/١٠١، ح ٥٣١٠).

(١٤٩) «إعلام الموقعين» لابن القيم: (ج ٣/١٤٠).

وإذا ظهرت الموافقة والمخالفة لهم باختلاف الزمان: ظهرت حقيقة الأحاديث^(١٥٠) في هذا.

وقد ذكر العلماء رحمهم الله قاعدة جلية عليها مدار الشرع وإليها مرجع الخلق والأمر - كما يقول ابن القيم - وهي: إيثار أكبر المصلحتين وأعلاهما، وإن فاتت المصلحة التي هي دونها، والدخول في أدنى المفسدتين لدفع ما هو أكبر منها. فيفوت مصلحة لتحصيل ما هو أكبر منها، ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منها^(١٥١).

ولكن مع هذا يجب أن يحذر المسلم فإن هذا أمر لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد، يكون سببه تجريد متابعة رسول الله ﷺ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله، وأحبها إليها، وأرضاها له^(١٥٢).

وإذا أردنا أن نعرف تفصيل مخالفة أهل الكتاب وجدنا أن ذلك يندرج تحت ثلاثة أقسام^(١٥٣):

(١) ما كان مشروعاً في الشريعتين، أو ما كان مشروعاً لنا وهم يفعلونه فهذا كصوم يوم عاشوراء، أو كأصل الصلاة والصيام، فهنا تقع المخالفة في صفة ذلك العمل كما سنلنا صوم تاسوعاء، وعاشوراء، وكما أمرنا بتعجيل الفطر والمغرب مخالفة لأهل الكتاب، وكذلك تأخير السحور مخالفة لهم، والصلاة في النعلين مخالفة لليهود وهذا كثير في العبادات وكذلك في العادات.

(٢) ما كان مشروعاً ثم نسخ بالكلية كالسبت، أو إيجاب صلاة أو صوم. ولا يخفى النهي عن موافقتهم في هذا.

(١٥٠) «إقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ١٧٦ - ١٧٧).

(١٥١) «الجواب الكافي»: (ص ١٦٧).

(١٥٢) انظر «بدائع الفوائد»: (ج ٢/ ٢٦٢).

(١٥٣) ذكرها شيخ الإسلام في «إقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ١٧٨ - ١٧٩).

وكذلك الأمر في أعيادهم، لأن الأعياد المشروعة يشرع فيها وجوباً أو استحباباً من العبادات ما لا يشرع في غيرها كالصلاة أو الذكر أو الصدقة أو النسك ويباح فيها أو يستحب أو يجب من العادات التي للنفوس فيها حظ ما لا يكون في غيرها كذلك كالتوسع في الطعام واللباس.

ولهذا وجب علينا فطر العيدين وقرن بالصلاة في أحدهما الصدقة وقرن بها في الآخر الذبح وكلاهما من أسباب الطعام فموافقتهم في هذا القسم المنسوخ من العبادات أو العادات أو كليهما أقبح من موافقتهم فيما هو مشروع الأصل. ولهذا كانت الموافقة في هذا محرمة.. وفي القسم الأول قد لا تكون إلا مكروهة.

(٣) ما أحدثوه من العبادات أو العادات أو كليهما، فهذا أقبح وأقبح، فإنه لو أحدثه المسلمون لقد كان يكون قبيحاً، فكيف إذا كان مما لم يشرعه نبي قط؟ بل قد أحدثه الكافرون؟ فالموافقة فيه ظاهرة القبح. فهذا أصل. وأصل آخر: وهو أن كل ما يتشابهون فيه من عبادة أو عادة أو كليهما هو من المحدثات في هذه الأمة ومن البدع إذ الكلام فيما كان من خصائصهم. وأما ما كان مشروعاً لنا وقد فعله سلفنا السابقون فلا كلام فيه.

ونخلص إلى القول: أن حكم الموافقة في الأول مكروهة وفي الثاني محرمة وفي الثالث أشد حرمة.

ما بين التشبه والولاء من علاقة

من نافلة القول: أن الشارع ما ترك خيراً إلاّ دل الأمة عليه، وما ترك شراً إلاّ حذر الأمة منه. وحين أمر الشارع الحكيم بمخالفة الكفار - في الهدي الظاهر - فإن ذلك لحكم جليلة^(١٥٤) منها:

(١) إن المشاركة في الهدي الظاهر: تورث تناسباً وتشاكلاً بين المتشابهين يقود إلى الموافقة في الأخلاق والأعمال.

وهذا أمر محسوس، فإن اللابس لثياب الجند المقاتلة - مثلاً - يجد في نفسه نوع تخلّق بأخلاقهم، ويصير طبعه مقتضياً لذلك، إلا أن يمنعه من ذلك مانع.

(٢) إن المخالفة في الهدي الظاهر: توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب وأسباب الضلال. والانعطاف إلى أهل الهدي والرضوان، وتحقيق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين.

وكلما كان القلب أتم حياة، وأعرف بالإسلام الذي هو الإسلام - لست أعني مجرد التوسم به ظاهراً، أو باطناً بمجرد الاعتقادات التقليدية من حيث الجملة - كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطناً أو ظاهراً أتم. وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد.

(٣) إن مشاركتهم في الهدي الظاهر: توجب الاختلاط الظاهر، حتى يرتفع التمييز ظاهراً بين المهديين والمرضيين، وبين المغضوب عليهم والضالين إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية.

(١٥٤) «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ١١ - ١٢).

هذا إذا لم يكن ذلك الهدي الظاهر إلا مباحاً محضاً، لو تجرد عن مشابهتهم. فأما إن كان من موجبات كفرهم فإنه يكون شعبة من شعب الكفر، فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع ضلالتهم ومعاصيهم. وهذا أصل ينبغي أن يتفطن إليه^(١٥٥).

مثال واحد من مشابهة اليهود والنصارى (العيد)

العيد مظهر مميز للأمة، ومن هنا اخترته مثلاً واحداً من أمثلة التشبه باليهود والنصارى. وقد وردت الأدلة الكثيرة المحرمة للتشبه بهم في هذا الشأن من الكتاب والسنة والإجماع والاعتبار^(١٥٦).

أما الكتاب: فقد قال تعالى:

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ

[سورة الفرقان: ٧٢].

قال محاهد في تفسيرها إنها أعياد المشركين وكذلك قال مثله الربيع بن أنس والقاضي أبو يعلى والضحاك^(١٥٧).

وإذا كان الله قد مدح ترك شهودها الذي هو مجرد الحضور برؤية أو

(١٥٥) نفس المصدر: (ص ١٢).

(١٥٦) أفاض شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذا الموضوع بما يكفي ويشفي في كتابه القيم «اتضاء الصراط المستقيم». ولذا فما أذكره هنا مقتبس من كلامه رحمه الله.

(١٥٧) المصدر السابق: (ص ١٨١).

سماع فكيف بالموافقة بما يزيد على ذلك من العمل الذي هو عمل الزور لا مجرد شهوة؟

ومن السنة: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قدم رسول الله ﷺ ولهم يومان يلعبون فيهما فقال: «ما هذان اليومان؟» قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية. فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما، يوم الأضحى ويوم الفطر» رواه أبو داود (١٥٨) وأحمد والنسائي على شرط مسلم. ووجه الدلالة: أن اليومين الجاهليين لم يقرهما رسول الله ﷺ ولا تركهم يلعبون فيهما على العادة بل قال: «إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما..» والإبدال من الشيء يقتضي ترك المبدل منه، إذ لا يجمع بين البديل والمبدل منه. وهذه العبارة لا تستعمل إلا فيما ترك اجتماعهما كقوله تعالى:

أَفَلَمْ نَخِذْهُنَّ وَذُرِّيَّتَهُنَّ أُولِيَاءَ مِن دُونِ وَهْمٍ لَّكُمْ عَذُوٌّ
يَتَرَلِّقُنَّ الْفَاطِمِينَ بَدَلًا

[سورة الكهف: ٥٠].

وقوله ﷺ «خيراً منهما» يقتضي الاعتياض بما شرع لنا عما كان في الجاهلية.

والمحذور في أعياد أهل الكتابين التي نقرهم عليها أشد من المحذور في أعياد الجاهلية التي لا نقرهم عليها، فإن الأمة قد حذروا مشابهة اليهود والنصارى وأخبروا إن سيفعل قوم منهم هذا المحذور، بخلاف دين الجاهلية فإنه لا يعود إلا في آخر الدهر عند آخترام أنفس المؤمنين عموماً، ولو لم يكن أشد منه فإنه مثله على ما لا يخفى، إذ الشر الذي له فاعل موجود يخاف على الناس منه أكثر من شر لا مقتضي له قوي (١٥٩).

(١٥٨) كتاب «الصلاة»: (٦٧٥/، ح ١١٣٤)، وانظر «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ١٨٤).

(١٥٩) انظر «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ١٨٤ — ١٨٦).

أما الإجماع: فمما هو معلوم من السير أن اليهود والنصارى والمجوس مازالوا في أمصار المسلمين بالجزية يفعلون أعيادهم التي لهم، ومع ذلك لم يكن على عهد السلف من المسلمين من يشركهم في شيء من ذلك.

وكذلك ما فعله عمر بخصوص أهل الذمة - سيأتي ذكر ذلك قريباً - وما اتفق عليه الصحابة والفقهاء أن أهل الذمة لا يظهرون أعيادهم في دار الإسلام، وإذا كان هذا اتفاقهم فكيف يسوغ للمسلمين فعلها؟ أو ليس فعل المسلم لها أشد من فعل الكافر لها مظهراً لها؟

وقد قال عمر رضي الله عنه: «إياكم ورطانة الأعاجم، وأن تدخلوا على المشركين يوم عيدهم في كنائسهم فإن السخطة تنزل عليهم» رواه أبو الشيخ الأصبهاني ورواه البيهقي بإسناد حسن (١٦٠).

وأما الاعتبار: فالأعياد من جملة الشرع، والمناهج والمنااسك التي قال الله فيها:

لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا

[سورة المائدة: ٤٨].

فلا فرق بين مشاركتهم في العيد وبين مشاركتهم في سائر المناهج، فإن الموافقة في جميع العيد: موافقة في الكفر، والموافقة في بعض فروعها: موافقة في بعض شعب الكفر، بل إن الأعياد من أخص ما تتميز به الشرائع، ومن أظهر ما لها من الشعائر، فالموافقة فيها موافقة في أخص شرائع الكفر وأظهر شعائره.

ولا ريب أن الموافقة في هذا قد تنتهي إلى الكفر في الجملة (١٦١).

(١٦٠) نفس المصدر: (ص ١٨٢، ١٩٩).

(١٦١) نفس المصدر: (ص ٢٠٨).

ثم إن عيدهم من الدين الملعون هو وأهله، فموافقتهم فيه موافقة فيما يتميزون به من أسباب سخط الله وعقابه.

ومن أوجه الاعتبار أيضاً: أنه إذا سوغ فعل القليل من ذلك أدى إلى فعل الكثير، ثم إذا أشتهر الشيء دخل فيه عوام الناس وتناسوا أصله حتى يصير عادة للناس بل عيداً لهم، حتى يضاهى بعيد الله، بل قد يزيد عليه حتى يكاد أن يفضي إلى موت الإسلام وحياة الكفر^(١٦٢).

أما ما ينعكس على نفوسهم إذا تشبه بهم المسلمون في العيد خاصة فهو السرور والفرح لأن في ذلك رفعة لباطلهم وتنافياً لمبدأ القهر والجزية والصغار الواقعين تحته.

وخلاصة المشابهة: أنها تفضي إلى كفر أو معصية غالباً، أو تفضي إليهما في الجملة وليس في هذا المفضي مصلحة، وما أفضى إلى ذلك كان محرماً فالمشابهة محرمة، والمقدمة الثانية لا ريب فيها، لأن استقرار الشريعة يدل على أن ما أفضى إلى الكفر غالباً حرام وما أفضى إليه على وجه خفي حرام وما أفضى إليه في الجملة ولا حاجة تدعو إليه حرام^(١٦٣).

وبعد أن يتمتع المسلم كل هذه الأحكام بخصوص العيد عليه أن يقيس بمقياس الكتاب والسنة: الأعياد المحدثه اليوم ومن يحدثونها ومن يهثون بها الكفرة والملاحدة. مثل عيد الثورة! وعيد الجلوس! وعيد الميلاد! وعيد الأم! وعيد تحكيم القانون رنبد الشريعة! وعيد الوطن! وعيد الجلاء!... إلى آخر هذه المسميات والأسماء الجاهلية التي ما أنزل بها من سلطان، والتي هي مضاهاة ومنازعة لشريعة الله وحكمه.

فواجب المسلم أن لا يقر بها ولا يهنيء أحداً بها ويكتفي بالعيدين

(١٦٢) المصدر السابق: (ص ٢٠٩).

(١٦٣) المصدر السابق: (ص ٢١٦).

الإسلاميين الفطر والأضحى وفي الأيام الأخرى كالجمعة وغيرها ما يفتينا عن
آستيراد شعائر وشارات الكفر وأربابه.

صورة مشرقة من صور التمييز في المجتمع الإسلامي الأول

كلما عاد الحديث إلى الرعيل الأول كان له حلاوة خاصة تبعث في
النفس الأمل والرجاء بالافتداء بأولئك العظام، وتحفز الهمم لتشمع عن ساعد
الجد فتلحق بركب قافلة الإيمان، ودعاة الهدى والخير.

ولقد كانت الشروط العمرية التي وضعها الفاروق رضي الله عنه مثلاً
رائعاً في تعامل المسلمين مع غيرهم وتميز أهل الذمة عن المسلمين
مما يحفظ على المجتمع الإسلامي شخصيته المستقلة ويرعى لأولئك الذميين
حقوقهم التي أمر بها هذا الدين الحنيف.

إن الحرص العمرى على تمييز المسلمين عن غير المسلمين هو عمق
هذه العقيدة في نفسه والقيام بمسؤوليته كراعٍ للأمة يعلم أنه مسؤول عنها
كما في الحديث الصحيح «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته» (١٦٤)
متفق عليه.

والذي جعلني أختار موضوع أهل الذمة في هذه النقطة بالذات هو أن
وضع الذميين في الدولة الإسلامية وضع خاص غير وضع الكفار الحربيين
أو المهادين.

وحيث ينشأ ويعيش الذميون وسط المجتمع الإسلامي فإن هذا الشيء
يجب أن يكون له حظاً بحصانة خاص للمسلمين لئلا يؤدي احتكاكهم

(١٦٤) «صحيح البخاري»: (ج ١٣/١١١، ح ٧١٣٨) كتاب الأحكام، و«صحيح
مسلم»: (٣/١٤٥٩، ح ١٨٢٩) كتاب الإمارة.

بالذمين إلى التشبه بهم وذوبان الشخصية الإسلامية التي أراد هذا الدين أن تكون فريدة متميزة في كل شيء.

ثم إن من صفات هذا الدين الحنيف العدل حتى مع الكفار، ولكن ما حدود هذا العدل وما سماته؟ خاصة وأنه قد أقر "الذمين" على العيش وسط المجتمع الإسلامي.

الجواب: هو ما ورد في "الشروط العمرية" التي نصت على حماية المسلمين وكفلت للذمين حقوقهم على أن يكونوا هم أيضاً متميزين بزيهم وديانتهم حتى لا يلتبس المسلم بالذمي: ويتج من ذلك خليط لا يعرف له اتجاه محدد وهوية خاصة. وهذه الشروط - كما يقول عنها شيخ الإسلام ابن تيمية - منها: ما مقصوده التمييز عن المسلمين في الشعور واللباس، والأسماء، والمراكب والكلام ونحوها لتمييز المسلم من الكافر ولا يشبه أحدهما الآخر في الظاهر. ولم يرض عمر رضي الله عنه والمسلمون بأصل التمييز، بل بالتمييز في عامة الهدى... وذلك يقتضي: إجماع المسلمين على التمييز عن الكفار ظاهراً، وترك التشبه بهم، ولقد كان أمراء الهدى مثل العمرين وغيرهما يبالغون في تحقيق ذلك بما يتم به المقصود. ومنها: ما يعود بإخفاء منكرات دينهم وترك إظهارها، كمنعهم من إظهار الخمر، والناقوس والنيران في الأعياد. ومنها: ما يعود بإخفاء شعار دينهم كأصواتهم بكتابهم. ومنها: ما يعود بترك إكرامهم وإلزامهم الصغار الذي شرعه الله (١٦٥).

واليك نص هذه الشروط:

روى سفيان الثوري عن مسروق عن عبد الرحمن بن غنم قال: كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى الشام، وشرط عليهم فيه ألا يحدثوا في مدينتهم ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة، ولا قلاية (١٦٦)،

(١٦٥) انظر اقتضاء الصراط المستقيم: (ص ١٢٢ - ١٢٤).

(١٦٦) القلاية: مبي بينه النصارى كالمنازة ولا تكون إلا لواحد يفرد فيها بنفسه =

ولا صومعة راهب، ولا يجددوا ما خرب، ولا يمنعوا كنائسهم أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم، ولا يؤوا جاسوساً، ولا يكتموا غشاً للمسلمين، ولا يعلموا أولادهم القرآن، ولا يظهروا شركاً، ولا يمنعوا ذوي قراباتهم من الإسلام إن أرادوه وأن يوقروا المسلمين، وأن يقوموا لهم من مجالسهم إذا أرادوا الجلوس، ولا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من لباسهم، ولا يتكثروا بكتانهم، ولا يركبوا سرجاً، ولا يتقلدوا سيفاً، ولا يبيعوا الخمر، وأن يجزوا مقدم رؤوسهم، وأن يلزموا زيهم حيشما كانوا، وأن يشدوا الزنانير على أوساطهم ولا يظهروا صلياً ولا شيئاً من كتبهم في شيء من طرق المسلمين، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم، ولا يضربوا بالناقوس إلا ضرباً خفياً، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة في كنائسهم في شيء من محضرة المسلمين، ولا يخرجوا شعانين، ولا يرفعوا أصواتهم مع موتاهم، ولا يظهروا النيران معهم، ولا يشتروا من الرقيق ما جرت فيه سهام المسلمين.

فإن خالفوا شيئاً مما شرطوه فلا ذمة لهم، وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل المعاندة والشقاق^(١٦٧) انتهى.

ولهذه الشروط طرق أخرى في روايتها، ولكنها كلها تلتقي عند هذا المعنى، ولذلك عقب ابن القيم رحمه الله على اختلاف تلك الروايات بقوله: وشهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها، فإن الأئمة تلقوها بالقبول وذكروها في كتبهم واحتجوا بها، ولم يزل ذكر الشروط العمرية على السنتهم وفي كتبهم، وقد أنفذها من بعده الخلفاء وعملوا بها^(١٦٨).

= ولا يكون لها باب، بل فيها طاقة يتناول منها طعامه وشرابه وما يحتاج إليه. انظر «أحكام أهل الذمة»: (ج ٢/٦٦٨).
(١٦٧) «أحكام أهل الذمة لابن القيم»: (ج ٢/٦٦١ - ٦٦٢).
(١٦٨) «أحكام أهل الذمة لابن القيم»: (ج ٢/٦٦٣)، انظر «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ١٢).

سبحان الله!!!

ما هذا البون الشاسع بين تلك القمة وبين هذا الغناء الذي يعيش اليوم على الأرض متميعاً متسكعاً وراء الكفار والملاحدة؟ وبحسب نفسه مسلماً؟ أين تلك العزة والقوة والسلطان الرباني الذي أخذ به ذلك الجيل، وأين الضعف والاستخذاء والتبعية العمياء التي يعيشها "المسلمون" اليوم؟ ترى: هل المنتسبون اليوم للإسلام في درجة الذميين الذين طبقت عليهم هذه الشروط؟

هل "المسلمون" اليوم ذميون للكفار؟

إن الذي يظهر لي أنه حتى على هذا الافتراض الأخير فإن المسلمين اليوم أقل قدراً من ذميي الأمس. ذميو الأمس: في صغار وفي ذلة وفي زلي معين ومكان معين. نعم.

أما مسلمو اليوم ففي صغار وذلة واستكانة عن إسلامهم وتبعية للشرق الملحد والغرب الكافر، وإعجاب وآنهار بما عليه أعداء الإسلام، وسخرية واستهزاء بما كان عليه سلف هذه الأمة!

من هنا فهم أخطأ قدراً عند الله - ما داموا بهذه الصفات - وأحقر من أن يُهابوا وأصغر من أن يُسمع لهم كلمة في المجتمع الدولي المعاصر.

فعلى المسلم الصادق. المسلم الواعي. المسلم المدرك لحقيقة إسلامه أن يعرف أين يضع قدمه ولن يهب حبه وولائه، وأن يعلم أن حب أعداء الله وموالاتهم والتشبه بهم لا تلتقي مع صدق إيمانه وإنما يفعل ذلك من يزعم الإسلام زعماً وبئس ذلك الزعم الكاذب.

وقد ذكر علماء الإسلام ما ينتقض به عهد الذمي حرصاً على حماية المسلمين من أي دخیل يستغل سماحة الإسلام فيغدر بالمسلمين. وهذه النواقض هي:

- (١) الإغارة على قتال المسلمين، وقتل المسلم أو المسلمة.
 - (٢) قطع الطريق عليهم.
 - (٣) إيذاء جواسيس المشركين أو التجسس للمشركين بأن يكتب لهم أسرار المسلمين.
 - (٤) الزنا بالمسلمة أو إصابتها بآسم النكاح.
 - (٥) فتن المسلم عن دينه.
 - (٦) سب الله أو النبي ﷺ (١٦٩).
- والأدلة على انتقاض عهد الذمي بسبب الله أو كتابه أو دينه أو رسوله ووجوب قتله، وقتل المسلم إذا فعل ذلك كثيرة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين والاعتبار (١٧٠).
- أما الكتاب: فقوله تعالى:

وَإِنْ تَكُفُّوا
أَيْمَنُكُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا
أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ فَعَلَّاهُمْ يَنْتَهُونَ

[سورة التوبة: ١٢].

وقوله تعالى:

فَقَاتِلُوا الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ

[سورة التوبة: ٢٩].

(١٦٩) انظر الصارم المسلول على شاتم الرسول، لابن تيمية: (ص ٥ - ٢٦).
(١٧٠) المصدر السابق: والمراد بالاعتبار: القياس.

وقوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا
مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا

[سورة الأحزاب: ٥٧ - ٥٨].

ومن السنة: ما رواه الشعبي عن علي رضي الله عنه: «أن يهودية كانت تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فخنقها رجل حتى ماتت فأبطل رسول الله ﷺ دمها» (١٧١) رواه أبو داود وابن بطة في «سننه»، والحديث متصل لأن الشعبي رأى علياً وكان على عهد علي قد ناهز العشرين سنة. ثم إن كان فيه إرسال - لأن الشعبي يبعد سماعه من علي - فهو حجة وفاقاً، لأن الشعبي عندهم صحيح المراسيل لا يعرفون له مراسلاً إلا صحيحاً (١٧٢).

وأيضاً ما رواه عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أعمى كانت له أم ولد تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فيهاها فلا تنتهي، ويزجرها فلا تنزجر، فلما كان ذات ليلة جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه فأخذ المغول فوضعه في بطنها وأتكا عليها فقتلها، فلما أصبح ذكر ذلك للنبي ﷺ فجمع الناس فقال: «أنشد رجلاً فعل ما فعل لي عليه حق إلا قام» قال: فقام الأعمى يتخطى الناس وهو يتدلّل، حتى قعد بين يدي النبي ﷺ فقال يا رسول الله أنا صاحبها، كانت تشتمك وتقع فيك فأنهاها فلا تنتهي وأزجرها فلا تنزجر، ولي

(١٧١) «سنن أبي داود»: (ج ٤/٥٣٠، ح ٤٣٦٢) كتاب الحدود، والدارقطني:

(ج ٣/١١٢، ح ٠٢) في الحدود، قال الحافظ في «بلوغ المرام»: رواه ثقات.

انظر: «التعليق المغني»: (ج ٣/١١٢).

(١٧٢) «إسناده صحيح» المسند إلى علي بن أبي طالب: (ص ٦٩).

منها أبنان مثل اللؤلؤنين، وكانت بي رفيقة، فلما كان البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك فأعذت المغول فوضعت في بطنها وآتكت عليه حتى قتلها. فقال النبي ﷺ: «أشهدوا أن دمها هدر» رواه أبو داود والنسائي (١٧٣).

ومن السنة أيضاً: ما أحتج به الشافعي على أن الذمي إذا سب قتل وبرئت منه الذمة وهو قصة كعب بن الأشرف اليهودي. والحديث متفق عليه (١٧٤).

وأما إجماع الصحابة: فقد نقل ذلك عنهم في قضايا متعددة مستفيضة ولم ينكرها أحد فصارت إجماعاً ومن ذلك: ما رفع إلى المهاجر بن أبي أمية (١٧٥)، وكان أميراً على اليمامة ونواحيها: أن امرأتين مغنيتين غنت إحداهما بشتن النبي ﷺ فقطع يدها ونزع ثنيتها وغنت الأخرى بهجاء المسلمين فقطع يدها ونزع ثنيتها، فكتب إليه أبو بكر: بلغني الذي سرت به في المرأة التي غنت وزممت بشتن النبي ﷺ فلولا ما قد سبقتني لأمرتك بقتلهما، لأن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود، فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد أو معاهد فهو محارب غادر (١٧٦).

وفي عهد عمر رضي الله عنه: جاءه رجل من أهل الكتاب - حين دخل الشام - وهو مشجوج مضروب فغضب لذلك عمر وأمر بإحضار عوف بن مالك (١٧٧) الأشجعي لأنه هو الذي فعل ذلك بالذمي فلما سأله عمر عن

(١٧٣) سنن أبو داود: (ج ٤/٥٢٨، ح ٤٣٦١) كتاب الحدود، والنسائي:

(ج ٧/١٠٨) في باب حكم سب النبي، وإسناده حسن.

(١٧٤) صحيح البخاري: (ج ٧/٣٣٦، ح ٤٠٣٧) كتاب المغازي، وصحيح

مسلم: (ج ٢/١٤٢٥، ح ١٨٠١) في الجهاد.

(١٧٥) المهاجر بن أبي أمية بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي أخو أم

سلمة زوج النبي ﷺ. قال الزبير: شهد بدرًا مع المشركين. ولاء رسول الله

على صدقات صنعاء، ثم ولاء أبو بكر. «الإصابة»: (ج ٣/٤٦٥).

(١٧٦) انظر «الصارم المسلول على شاتم الرسول»: (ص ٢٠٠).

(١٧٧) عوف بن مالك الأشجعي قال الواقدي: أسلم عام خيبر ونزل حمص، وقال =

فعله هذا قال: يا أمير المؤمنين رأيت هذا يسوق بامرأة مسلمة على حمار فنخس بها لتصرع، فلم تصرع، فدفعتها فصرعت فغشيها، وأكب عليها، فقال عمر آتني بالمرأة فلتصدق على ما قلت فأتاها عوف، فذهب معه أبوها وزوجها فأخبر عمر بمثل قول عوف، فأمر عمر باليهودي فصلب وقال: ما على هذا صالحناكم ثم قال: يا أيها الناس اتقوا الله في ذمة محمد ﷺ فمن فعل منهم مثل هذا فلا ذمة له (١٧٨).

وأما الاعذار: فمن وجوه (١٧٩):

أحدها: إن عيب ديننا وشم نبينا مجاهدة لنا ومحاربة، فكان نقضاً للعهد كالمجاهدة والمحاربة بطريقة الأولى.

الثاني: إن مطلق العهد الذي بيننا وبينهم يقتضي أن يكفوا ويمسكوا عن إظهار الطعن في ديننا، وشم رسولنا، كما يقتضي الإمساك عن دماءنا ومحاربتنا.

الثالث: إن الله فرض علينا تعزيز رسوله وتوقيره، وتعزيزه: نصره ومنعه، وتوقيره إجلاله وتعظيمه، وذلك يوجب صون عرضه بكل طريق. فلا يجوز أن نصالح أهل الذمة، وهم يسمعوننا شتم نبينا وإظهار ذلك، لأننا إذا تركناها على هذا تركنا الواجب علينا نحو رسول الله ﷺ.

= غيره: شهد الفتح وكانت معه راية أشجع، قال ابن سعد: آخى النبي ﷺ بينه وبين أبي الدرداء ومات سنة ٧٣هـ في خلافة عبد الملك. «الإصابة: (ج ٤٣/٣).

(١٧٨) «الأموال» لأبي عبيد: (ص ٢٣٥ — ٢٣٦).

(١٧٩) «الصارم المسلول على شاتم الرسول»: (ص ٢٠٦ — ٢٠٩).

الأمكنة التي يمنع أعداء الله من دخولها والإقامة فيها

قال الله تعالى:

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿٧٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ
نَجَسٌ فَلَا يَقْرَأُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَمِهِمْ هَذَا
وَأِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ
شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧٨﴾

[سورة التوبة: ٢٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد خرج علينا
النبي ﷺ فقال: «أنطلقوا إلى اليهود» فخرجنا معه حتى إذا جئنا بيت
المدراس قام النبي ﷺ فناداهم فقال: «يا معشر اليهود: أسلموا تسلموا»
فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم فقال لهم رسول الله ﷺ ذلك أريد، فقال:
«أسلموا تسلموا» فقالوا قد بلغت يا أبا القاسم فقال لهم رسول الله ﷺ: ذلك
أريد، ثم قالها الثالثة فقال: «أعلموا إنما الأرض لله ورسوله، وإنني أريد أن
أجليكم من هذه الأرض، فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه، وإلا فأعلموا
إنما الأرض لله ورسوله» متفق عليه ولفظه للبخاري (١٨٠).

وقال ﷺ: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» متفق عليه (١٨١).

وقال أيضاً: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع

(١٨٠) «صحيح البخاري»: (ج ١٢/٣١٧، ح ٦٩٤٤) كتاب الإكراه، و«صحيح

مسلم»: (ج ٣/١٣٨٧، ح ١٧٦٥) في الجهاد.

(١٨١) «صحيح البخاري»: (ج ٦/١٧٠، ح ٣٠٥٣) كتاب الجهاد، و«صحيح مسلم»:

(ج ٣/١٢٥٨، ح ١٦٣٧) في كتاب الوصية.

فيها إلا مسلماً رواه مسلم^(١٨٢).

وهذه النصوص الصريحة الواضحة وغيرها توضح - بجلاء - مدى حرص الإسلام على حماية أُمته من معاشر الكفار، ومعايشتهم لما في ذلك من جلب لمودتهم وموالاتهم التي نهى الله عنها.

قال الشافعي رحمه الله: يمنعون من الحجاز وهو مكة والمدينة واليامة وقراها. أما غير الحرم منه فيمنع الكتابي وغيره من الاستيطان والإقامة به، وله الدخول بإذن الإمام لمصلحة كأداء رسالة أو حمل متاع يحتاج إليه المسلمون: وإن دخل لتجارة ليس فيها كثير حاجة لم يأذن له إلا بشرط أن يأخذ من تجارته شيئاً، ولا يمكن من الإقامة أكثر من ثلاث^(١٨٣). وعقب ابن القيم رحمه الله على كلام الشافعي بقوله: أما حرم مكة فإنهم يمنعون من دخوله بالكلية فلو قدم رسول لم يجز أن يأذن له الإمام في دخوله، ويخرج الوالي أو من يثق به إليه. وأما حرم المدينة فلا يمنع من دخوله لرسالة أو تجارة أو حمل متاع^(١٨٤).

اعتراض وجوابه

إن قيل: إن الله سبحانه إنما منع المشركين من قربان المسجد الحرام ولم يمنع أهل الكتاب منه، ولهذا أذن مؤذن النبي ﷺ يوم الحج الأكبر إنه لا يحج بعد العام مشرك. والمشركون الذين كانوا يحجون هم عبدة الأوثان لا أهل الكتاب؟^(١٨٥)

والجواب: للناس قولان في دخول أهل الكتاب في لفظ المشركين:

-
- (١٨٢) صحيح مسلم: (ج ٣/ ١٣٨٨، ح ١٧٦٧) كتاب الجهاد.
(١٨٣) أحكام أهل الذمة: (ج ١/ ١٨٤)، وقارن به «الأموال» لأبي عبيد: (ص ٩٠).
(١٨٤) أحكام أهل الذمة: (ج ١/ ١٨٥).
(١٨٥) المصدر السابق: (ج ١/ ١٨٨).

فآبَنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَغَيْرَهُ كَانُوا يَقُولُونَ: هُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَا أَعْلَمُ شُرَكَاءَ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَقُولَ الْمَسِيحُ
أَبْنُ اللَّهِ وَعَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ:

اَتَّخَذُوا أَنْبَاءَهُمْ

وَرُفَعَتْ لَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ
مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا
لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

[سورة التوبة: ٣١].

والثاني: لا يدخلون في لفظ «المشركين» لأن الله سبحانه جعلهم غيرهم
في قوله:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ

[سورة البقرة: ٦٢].

قال ابن تيمية: والتحقيق: أن أصل دينهم دين التوحيد فليسوا من
المشركين في الأصل، والشرك طارئ عليهم فهم منهم باعتبار ما عرض
لهم لا باعتبار أصل الدين، فلو قدر أنهم لم يدخلوا في لفظ الآية دخلوا
في عمومها المعنوي وهو كونهم نجساً والحكم يعم بعموم علته.

(وجميع الصحابة والأئمة فهموا من قوله ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام﴾
بعد عامهم هذا ﴿أن المراد مكة كلها والحرم ولم يخص ذلك أحد منهم
بنفس المسجد الذي يطاف فيه. ولما نزلت هذه الآية كانت اليهود بخير
وما حولها ولم يكونوا يمنعون من المدينة (١٨٦).

(١٨٦) المصدر السابق: (ج ١/ ١٨٩).

الفصل السابع

تعامل المسلمين مع غير المسلمين

وفيه ثلاثة مباحث

* المبحث الأول: الفرق بين المولاة وحسن المعاملة :

كلمة حول ما يسمى بزمالة الألبان

أجدني مضطراً لذكر هذه المسألة لتوضيح وبيان وجه الحق والصواب حول هذا المفهوم الخاطيء، الذي خلط فيه الحق والباطل. وطالب العلم المبتدئ - مثلي - يعجب لمشايخ كبار من أهل العلم "وقعوا في هذا الفخ الذي تولى كبر الدعوة له أعداء هذا الدين من صليبيين ويهود"!

ويراد من وراء هذا التقريب والزمالة المزعومة إضاعة تميز المسلم وأنصهار شخصيته في تيار هذه الدعوة المشبوهة.

ونحب أن نقرر - ابتداءً - أن الرسائل السماوية التي أنزل الله بها رسله عليهم السلام كلها تدعو إلى عبادة الله وحده قال تعالى:

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ

[سورة التحل: ٣٦].

مع اختلاف في الشرائع اقتضتها حكمة ربانية لا نعلمها.

ولكن الرسائل التي سبقت الرسالة المحمدية الخاتمة: أعتورها التحريف والتبديل الذي صنعه أيد بشرية.

يَكُفِّرُونَ الْكَفْبَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثُمَّناً قَلِيلًا
فَوَيْلٌ لَهُمْ يَمَّا كُنْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ يَمَّا يَكْفُرُونَ

[سورة البقرة: ٧٩].

لذلك اقتضت مشيئة الله وحكمته أن تكون رسالة محمد بن عبد الله ﷺ هي خاتمة الرسالات وناسخة لما قبلها من الشرائع.

ولابد: أن نورد طرفاً من أقوال دعاة التقارب بين الأديان كما يسمون أنفسهم الذين يزعمون أنهم بصنيعهم هذا يخدمون الإسلام والبشرية كلها.

يقول الشيخ مصطفى المزاغي في رسالة بعث بها إلى مؤتمر الأديان العالمي: (أقتلع الإسلام من قلوب المسلمين جذور الحقد الديني بالنسبة لاتباع الديانات السماوية الأخرى وأقر بوجود زمالة عالمية بين أفراد النوع البشري. ولم يمانع أن تتعايش الأديان جنباً إلى جنب) (١٨٧).

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة: (إذا اختلفت الأديان فإن أهل كل دين لهم أن يدعوا إلى دينهم بالحكمة والموعظة!! من غير تعصب يصم عن الحقائق ولا إكراه ولا إغراء بغير الحجة والبرهان) (١٨٨).

أما الدكتور وهبة الزحيلي فيقول: (ليس من أهداف الإسلام أن يفرض نفسه على الناس فرضاً حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة، إذ أن كل ذلك محاولة فاشلة، ومقاومة لسنّة الوجود، ومعاودة للإرادة الإلهية) (١٨٩).

(١٨٧) نقلاً عن «آثار الحرب في الفقه الإسلامي» للدكتور وهبة الزحيلي: (ص ٦٣)، الطبعة الثانية سنة ١٣٨٥هـ، وهذا الرجل دعا إلى أكثر من ذلك في تفسيره لبعض آيات القرآن. وتكلم بكلام لا يقره العامي الموحد فضلاً عن طالب العلم والعلماء!!

(١٨٨) «العلاقات الدولية في الإسلام»: (ص ٤٢)، الناشر: الدار القومية للطباعة سنة ١٣٨٤هـ.

(١٨٩) «آثار الحرب»: (ص ٦٥).

ناسين ما يقرره القرآن من أن أهل الكتاب بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة، وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه، ولن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم.

وسداجة أية سذاجة، وغفلة أية غفلة أن نظن أن لنا وإياهم طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين! أمام الكفار والملحدين! فهم مع الكفار والملحدين إذا كانت المعركة ضد المسلمين!

يقول السذج: إننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب للوقوف في وجه المادية والإلحاد - بوصفنا جميعاً أهل دين! ناسين تعليم القرآن كله. وناسين تعليم التاريخ كله.

فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين:

هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلاً

[سورة النساء: ٥١].

وهم الذين ألبوا المشركين على المسلمين في المدينة وكانوا لهم درعاً ورداءاً.

وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام. وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس، وهم الذين شردوا المسلمين في فلسطين وأحلوا اليهود محلهم، متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية!

وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يشردون المسلمين في كل مكان في الحبشة والصومال وارتيريا وغيرها حيث يتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية في يوغسلافيا والصين والتركستان والهند وفي كل مكان!

إن هؤلاء الذين يظنون - وهم واهمون - إنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولواء وتناصر ندفع به المادية الإلحادية عن الدين: لا يقرأون القرآن، وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن. ومن هنا يحاولون تميع المفاصلة

وغير هؤلاء الثلاثة خلق كثير. والذي يظهر لي أن هؤلاء «أمثالهم» اعتمدوا ما ذكره شيخهم الأول جمال الدين الأفغاني الذي كان متأثراً بأفكار الماسونية الخبيثة وهو أول من حمل زاية الدعوة إلى جمال الدين فهو يقول في خاطراته بعنوان «نظرية الوحدة» ما نصه: (وجدت بعد كل بحث وتقصي وإمعان أن أديان التوحيد الثلاثة على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية وإذا نقص في واحد منها شيء من أوامر الخير المطلق استكماله الثاني!

... وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير أن يتحد أهل الأديان الثلاثة مثلما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها وأنه بهذه الاتحاد يكون البشر قد خطوا نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة وأخذت أضع لنظريتي هذه خططاً وأخط أسطراً وأحبر رسائل للدعوة كل ذلك وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قرب وكثب ولا تعمقت في أسباب اختلاف أهل الدين الواحد وتفرقهم فرقاً وشيعاً وطوائف... (١٩٠).

وهذه الأقوال فيها من المغالطات ما هو ظاهر لكل ذي عينين، فمن قال: إن الدين الإسلامي يسمح للنصراني: أن يدعو إلى نصرانيته، وللإهودي أن يدعو إلى يهوديته والبوذي أن يدعو إلى بوذيته، وغير ذلك من أديان البشر الوضعية أو الأديان المحرفة؟

هل هؤلاء الدعاة يجهلون ما ذكره القرآن عن بني إسرائيل وقتلهم الأنبياء ثم تحريف التوراة والإنجيل، ثم اللعب بالكُتب المنزلة حسباً تمليه عليهم أهواؤهم؟ هل هؤلاء يجهلون قوله تعالى:

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثٍ

[سورة المائدة: ٧٣].

(١٩٠) «خاطرات جمال الدين الأفغاني» اختبار عبد العزيز سيد الأهل: (ص ١٤)، وانظر (ص ١٥٨)، الناشر: دار حراء بالقاهرة.

وقوله تعالى:

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى
الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قُلْنَا لَهُمُ
اللَّهُ أَنْ يَوْفَقُوا ﴿٢٠﴾

[سورة التوبة: ٢٠].

وقوله تعالى:

وَدُّوا أَنْ يُكْفَرُوا كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً

[سورة النساء: ٨٩].

وقوله تعالى:

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ يَكُونُوا
إِيمَانِيكُمْ كَقَرَارٍ

[سورة البقرة: ١٠٩].

وغير ذلك من النصوص الكثيرة التي تبين عداوة أهل الكتاب للمسلمين. ورحم الله الأستاذ الجليل، العالم الرباني سيد قطب حين قال: إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شبيء واتخاذهم أولياء شيء آخر، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين الذين لم تتضح في نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين ووظيفته، الذي يهدف إلى إنشاء واقع في الأرض وفق التصور الإسلامي الذي يختلف في طبيعته عن سائر التصورات التي تعرفها البشرية.

إن هؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة لأنه ينقصهم الحس النقبي بحقيقة العقيدة كما ينقصهم الوعي الذكي لطبيعة المعركة وطبيعة أهل الكتاب فيها، ويففلون عن التوجهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها، فهم يخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة في معاملة أهل الكتاب والبر بهم في المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه وبين الولاء الذي لا يكون إلا لله ولرسوله وللجماعة المسلمة،

الحاشية بين المسلمين وأهل الكتاب، باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية. فكما أنهم مخطئون في فهم الأديان هم أيضاً مخطئون في فهم معنى التسامح.

إن الدين الذي نزل على رسول الله ﷺ هو الدين عند الله. والتسامح يكون في المعاملات الشخصية، لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي. أما هؤلاء، فيحاولون تميع اليقين الجازم في نفس المسلم الذي يقرر أن الله لا يقبل ديناً إلا الإسلام، وأن على المسلم أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام ولا يقبل دونه بديلاً، ولا يقبل فيه تعديلاً - ولو طفيفاً - قال تعالى:

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ

[سورة آل عمران: ١٩].

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ

[سورة آل عمران: ٨٥].

والإسلام قد جاء ليصحح اعتقادات أهل الكتاب كما جاء ليصحح اعتقادات المشركين والوثنيين سواء، ودعاهم إلى الإسلام جميعاً لأن هذا هو "الدين" الذي لا يقبل الله غيره من الناس جميعاً.. والمسلم مكلف أن يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام، كما يدعو الملحدين والوثنيين سواء، وهو غير مأذون في أن يكره أحداً من هؤلاء ولا هؤلاء على الإسلام، لأن العقائد لا تنشأ في الضمائر بالإكراه، فالإكراه في الدين فوق أنه منهي عنه، هو كذلك لا ثمرة له (١٩١).

(١٩١) انظر «في ظلال القرآن»: (ج ٢/ ٩٠٩ - ٩١٥) بتصرف.

الفرق بين الموالاة والمعاملة بالحسنى

قلنا قبل قليل أن الولاء شيء والمعاملة شيء آخر والأصل في هذا قوله تعالى:

لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ
مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ

[سورة الممتحنة: ٨].

وقد اختلف أهل العلم في تفسيرها فقال بعضهم إن المعنى بها: الذين كانوا آمنوا بمكة ولم يهاجروا فأذن الله للمؤمنين ببرهم والإحسان إليهم وإلى هذا ذهب مجاهد.

وقال آخرون: عني بها من غير أهل مكة من لم يهاجر.

وقال آخرون: بل عني بها من مشركي مكة من لم يقاتل المؤمنين ولم يخرجوهم من ديارهم وسخ الله ذلك بعد بالأمير بقتالهم. ويروى هذا عن قتادة (١٩٢).

ورجح ابن جرير: أن أولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبرؤهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم. لأن الله عز وجل عم بقوله: ﴿الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخص به بعضاً دون بعض، ولا معنى لقول من قال: ذلك مسوخ. لأن بر المؤمن أحداً من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة سب، أو ممن لا قرابة بينهما ولا نسب غير محرم، ولا منهى عنه إذا لم

(١٩٢) «تفسير الطبري»: (ج ٢٨/٦٦).

يكن في ذلك دلالة له أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح.

ويبين ذلك الخبر المروي عن ابن الزبير في قصة أسماء مع أمها^(١٩٣). والإسلام بفعله هذا - حتى في حالة الخصومة - يستقي أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك، وعدالة المعاملة أنتظاراً لليوم الذي يقتنع فيه خصومه بأن الخير في أن ينضوا تحت لوائه الرفيع^(١٩٤).

وقد سبق الحديث في أول هذا البحث: أن الله أمر بصلة الأقارب الكفار والمشركين وأن ذلك ليس موالاة لهم في شيء. ونزيد هذا الأمر إيضاحاً بقصة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها مع أمها.

فقد روى البخاري ومسلم عن أسماء رضي الله عنها قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصل أمي؟ قال: [نعم صلي أمك]^(١٩٥).

قال الخطابي: فيه - أي الحديث - أن الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه كما توصل المسلمة ويستتبط منه وجوب نفقة الأب الكافر والأم الكافرة وإن كان الولد مسلماً^(١٩٦).

قال ابن حجر: البر والصلة والإحسان لا يستلزم التحايب والتوادد المنهي عنه في قوله تعالى:

(١٩٣) تفسير الطبري: (ج ٢٨/٦٦).

(١٩٤) انظر «الظلال»: (ج ٦/٣٥٤٤).

(١٩٥) صحيح البخاري: (ج ٥/٢٣٣، ح ٢٦٢٠) كتاب الهبة، باب الهدية للمشركين، وصحيح مسلم: (ج ٢/٦٩٦، ح ١٠٠٣) كتاب الزكاة.

(١٩٦) فتح الباري: (ج ٥/٢٣٤).

لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

[سورة المجادلة: ٢٢].

فإنها عامة في حق من قاتل ومن لم يقاتل (١٩٧).

وقال آبن القيم: الذي يقوم عليه الدليل وجوب الإنفاق، وإن اختلف
الدينان لقوله تعالى:

وَوَضَّيْنَا لِلْإِنْسَانِ يَوْمَئِذٍ حَمَلَتُهُ أُمَّهُ،
وَهَنَّا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ
إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ

[سورة لقمان: ١٤ - ١٥].

وليس من الإحسان ولا من المعروف ترك أبيه وأمه في غاية الضرورة
والفاقة وهو في غاية الغنى. وقد ذم الله قاطعي الرحم وعظم قطيعتها وأوجب
حقها وإن كانت كافرة لقوله تعالى:

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ

[سورة النساء: ١].

وفي الحديث «لا يدخل الجنة قاطع رحم» (١٩٨).

وصلة الرحم واجبة، وإن كانت لكافر، فله دينه وللواصل دينه وقياس

(١٩٧) «فتح الباري»: (ج ٥/٢٣٣).

(١٩٨) «صحيح البخاري»: (ج ١٠/٤١٥، ح ٥٩٨٤) كتاب الأدب، باب إثم القاطع،

و«صحيح مسلم»: (ج ٤/١٩٨١، ح ٢٥٥٦) في كتاب البر والصلة، ويلاحظ

هنا: أن التكرة وقعت في سياق النفي فتم.

النفقة على الميراث قياس فاسد. فإن الميراث مبناه على النصرة والموالة بخلاف النفقة فإنها صلة ومواساة من حقوق القرابة. وقد جعل الله للقرابة حقاً - وإن كانت كافرة - فالكفر لا يسقط حقوقها في الدنيا. قال تعالى:

وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاللَّذِينَ
إِحْسَنًا وَيَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ
ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ
وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن
كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا

[سورة النساء: ٣٦].

وكل من ذكر في هذه الآية فحقه واجب وإن كان كافراً، فما بال ذي القرى وحده يخرج من جملة من وصى الله بالإحسان إليه (١٩٩)؟

من هنا: يتضح لنا: أن الموالة الممثلة في الحب والنصرة شيء. والنفقة والصلة والإحسان للأقارب الكفار شيء آخر. وسماحة الإسلام أيضاً تتضح في معاملة الأسرى والشيوخ والأطفال والنساء في الحرب. كما هو معلوم من صفحاته المشرقة.

(١٩٩) «أحكام أهل الذمة»: (ج ٢/ ٤١٧ - ٤١٨).

* المبحث الثاني: التعامل مع الكفار :

(١) البيع والشراء :

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الأصل أنه لا يحرم على الناس من المعاملات التي يحتاجون إليها إلا ما دل الكتاب والسنة على تحريمه، كما لا يشرع لهم من العبادات التي يتقربون بها إلى الله إلا ما دل الكتاب والسنة على شرعه. إذ الدين ما شرعه الله، والحرام ما حرمه الله، بخلاف الذين ذمهم الله حيث حرموا من دون الله ما لم يحرمه الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً، وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله (٢٠٠).

وأنطلاقاً من هذه القاعدة وبناء على النصوص الشرعية وسيرة رسول الله ﷺ وأصحابه الراشدين وأئمة المسلمين نقول: إن التعامل مع الكفار في البيع والشراء والهذية وخلاف ذلك لا يدخل في مسمى الموالاة، بل يباح للمسلم البيع والشراء مع الكفار فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يُسأل عن معاملة التار فيقول:

(يجوز فيها ما يجوز في معاملة أمثالهم، ويحرم فيها ما يحرم في معاملة أمثالهم، فيجوز أن يبتاع الرجل من مواشيهم وخيلهم ونحو ذلك كما يبتاع من مواشي الأعراب والتركمان والأكراد ويجوز أن يبيعهم من الطعام والثياب ونحو ذلك ما يبيعه لأمثالهم.

فأما إن باعهم أو باع غيرهم ما يعينهم به على المحرمات، كبيع الخيل والسلاح لمن يقاتل به قتلاً محرماً فهذا لا يجوز قال تعالى:

وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا

عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

[سورة المائدة: ٢].

(٢٠٠) السياسة الشرعية: (ص ١٥٥).

وإذا كان الذي معهم أو مع غيرهم، أموال يعرف أنهم غصبوها من معصوم فذلك لا يجوز اشتراؤها لمن يمتلكها لكن إذا اشترت على طريق الاستنقاذ لتصرف في مصارفها الشرعية فتعاد إلى أصحابها - إن أمكن - وإلا صرفت في مصالح المسلمين: جاز هذا. وإذا علم أن في أموالهم شيئاً محرماً لا تعرف عينه، فهذا لا تحرم معاملتهم فيه كما إذا علم أن في الأسواق ما هو مغصوب ومسروق ولم يعلم عينه (٢٠١).

وقد روى البخاري في كتاب البيوع باب الشراء والبيع مع المشركون وأهل الحرب عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ ثم جاء رجل مشرك مشعان^(٢٠٢) طويل بغنم يسوقها فقال النبي ﷺ: «بيعا أم عطية» أو قال: أم هبة؟ فقال: لا. بيع فاشترى منه شاة^(٢٠٣).

قال ابن بطال: معاملة الكفار جائزة إلا بيع ما يستعين به أهل الحرب على المسلمين^(٢٠٤).

وثبت أيضاً عن النبي ﷺ أنه أخذ من يهودي ثلاثين وسقاً من شعير ورهنه درعه^(٢٠٥). قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

(وإذا سافر الرجل إلى دار الحرب ليشتري منها جاز عندنا، كما دل عليه حديث تجارة أبي بكر رضي الله عنه في حياة رسول الله ﷺ إلى أرض الشام وهي حينذاك دار حرب وغير ذلك من الأحاديث.

(٢٠١) «المسائل الماردينية»: (ص ١٣٢ - ١٣٣) تحقيق الشاويش، الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٩هـ.

(٢٠٢) أي طويل مشعث الشعر.

(٢٠٣) صحيح البخاري: (ج ٤١٠/٤، ح ٢٢١٦).

(٢٠٤) فتح الباري: (ج ٤١٠/٤).

(٢٠٥) مسند أحمد: (ج ١٣٧/٥، ح ٣٤٠٩) تحقيق أحمد شاکر وقال: إسناده صحيح.

فأما بيع المسلم لهم في أعيادهم ما يستعينون به على عيدهم من الطعام واللباس والريحان ونحو ذلك، أو إهداء ذلك لهم: فهذا فيه نوع إعانة على إقامة عيدهم المحرم، وهو مبني على أصل وهو: أنه لا يجوز أن يبيع الكفار عنياً أو عسيراً يتخذونه خمرًا.

وكذلك لا يجوز بيعهم سلاحاً يقاتلون به مسلماً^(٢٠٦).

(٢) الوقف عليهم أو وقفهم على المسلمين :

قال ابن القيم: أما ما وقفوه. فينظر فيه، فإن وقفوه على معين أو جهة يجوز للمسلم الوقف عليها كالصدقة على المساكين والفقراء وإصلاح الطرق والمصالح العامة، أو على أولادهم وأنساليهم وأعقابهم: فهذا الوقف صحيح. بحكمه حكم وقف المسلمين على هذه الجهات لكن إذا شرط في استحقاق الأولاد والأقارب بقاءهم على الكفر "فإن أسلموا لم يستحقوا شيئاً": لم يصح هذا الشرط، ولم يجز للحاكم أن يحكم بموجبه باتفاق الأمة لأنه يناقض لدين الإسلام، مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ.

أما وقف المسلم عليه: فإنه يصح منه ما وافق حكم الله ورسوله، فيجوز أن يقف على معين منهم، أو على أقاربه، وبني فلان ونحوه.

ولا يكون الكفر موجباً ولا شرطاً في الاستحقاق ولا مانعاً منه - فلو وقف على ولده أو أبيه أو قرابته استحقوا ذلك وإن بقوا على كفرهم، فإن أسلموا فأولى بالاستحقاق.

وأما الوقف على كنائسهم وبيعهم ومواضع كفرهم التي يقيمون فيها شعار الكفر: فلا يصح من كافر ولا مسلم. فإن في ذلك أعظم الإعانة لهم على الكفر والمساعدة والتقوية عليه، وذلك مناف لدين الله^(٢٠٧).

(٢٠٦) «اتضاء الصراط المستقيم»: (ص ٢٢٩).

(٢٠٧) «أحكام أهل الذمة»: (ج ١/ ٢٩٩ - ٣٠٢)، وانظر «مجموعة الرسائل =

(٣) عيادتهم وتهننتهم :

روى البخاري في كتاب الجنائز عن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعبده، فقعد عند رأسه فقال له: أسلم. فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار» (٢٠٨).

وروى أيضاً: قصة أبي طالب حين حضرته الوفاة فزاره النبي ﷺ وعرض عليه الإسلام (٢٠٩) ..

قال ابن بطال: إنما تشرع عيادته إذا رجي أن يجيب إلى الدخول في الإسلام، فأما إذا لم يطمع في ذلك فلا (٢١٠).

قال ابن حجر: والذي يظهر: أن ذلك يختلف باختلاف المقاصد، فقد يقع بعيادته مصلحة أخرى (٢١١).

أما تهننتهم بشعائر الكفر المختصة بهم فحرام بالاتفاق، وذلك مثل أن يهنأهم بأعيادهم فيقول: عيدك مبارك، أو تهنأ بهذا العيد، فهذا إن سلم قائله من الكفر فهو من المحرمات، وهو بمنزلة أن يهنئه بسجوده للصليب، بل ذلك أعظم إثماً عند الله، وأشد مقتاً من التهئة بشرب الخمر وقتل النفس وآرتكاب الفرج الحرام ونحوه.

وكثير مما لا قدر للدين عنده يقع في ذلك، ولا يدري قبح ما فعل. فمن هنا عبداً بمعصية، أو بدعة أو كفر فقد تعرض لمقت الله وسخطه،

= والمسائل: (٢٢٩/١).

(٢٠٨) صحيح البخاري: (ج ٣/٢١٩، ح ١٣٥٦).

(٢٠٩) صحيح البخاري: (ج ٣/٢٢٢، ح ١٣٦٠) كتاب الجنائز.

(٢١٠) فتح الباري: (ج ١٠/١١٩).

(٢١١) فتح الباري: (ج ١٠/١١٩).

وقد كان أهل الورع من أهل العلم يتجنبون تهتة الظلمة بالولايات، وتهتة الجهال بمنصب القضاء والتدريس والإفتاء تجنباً لمقت الله وسقوطهم من عينه، وإن بلي الرجل فتعاطاه دفعاً لشر يتوقعه منهم فمشى إليهم ولم يقل إلا خيراً ودعا لهم بالتوفيق والتسديد فلا بأس بذلك (٢١٢).

ويدخل في هذا أيضاً: تعظيمهم ومخاطبتهم بالسيد والمولى وذلك حرام قطعاً، ففي الحديث المرفوع «لا تقولوا للمنافق سيد فإنه إن يك سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل» (٢١٣).

ولا يجوز أيضاً تلقيبهم - كما يقول آبن القيم - بمعز الدولة أو فلان السديد، أو الرشيد أو الصالح ونحو ذلك. ومن تسمى بشيء من هذه الأسماء لم يجز للمسلم أن يدعوه به، بل إن كان نصرانياً قال: يا نصراني، يا صليبي، ويقال لليهودي، يا يهودي.

ثم قال آبن القيم بالنصر:

(.. وأما اليوم فقد وقفنا إلى زمان يصدرون في المجالس، ويقام لهم وتقبل أيديهم ويتحكمون في أرزاق الجند، والأموال السلطانية، ويكون بأيي العلاء وأبي الفضل، وأبي الطيب، ويسمون حسناً وحسيناً وعثماناً وعلياً! وقد كانت أسماؤهم من قبل: يوحنا ومثي وجرجس وبطرس وعزرا وأشعيا، وحزقيل وحيي، ولكل زمان دولة ورجال) (٢١٤) ا.هـ.

وإذا كان هذا كلام العلامة آبن القيم وهو المتوفى سنة ٧٥١ هـ رحمه الله. فلينظر المسلم اليوم إلى هذا الغشاء الذي هو كغشاء السيل، ينتسبون

(٢١٢) - أحكام أهل الذمة لابن القيم: (ج ١/ ٢٠٥ - ٢٠٦).

(٢١٣) - سنن أبي داود: (ج ٥/ ٢٥٧، ح ٤٩٧٧) كتاب الأدب. قال الألباني: إسناده صحيح. انظر «مشكاة المصابيح»: (ج ٣/ ١٣٤٩، ح ٤٧٨٠).

(٢١٤) - أحكام أهل الذمة: (ج ٢/ ٧٧١).

للإسلام وهم يتبعون أعداء الله في كل صغيرة وكبيرة حتى لو دخلوا جحر
ضب لدخلوه، وليست تبعية لهم فحسب بل إنها تبعية بإعجاب وأنبهار! فما
تمر بأعدائنا مناسبة إلا وتنهال التهاني عليهم من كل حذب وصوب بالتهنئة
والتبريك ومعسول الأمانى!!

(٤) حكم السلام عليكم :

أختلف العلماء في معنى قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام حين دعا
أباه فأبى قال إبراهيم:

سَلِّمْ عَلَيْكَ

[سورة مريم: ٤٧].

فأما الجمهور فقالوا: المراد بسلام: المسالمة التي هي المشاركة
لا التحية. وقال الطبري: معناه: أمانة مني لك. وعلى هذا لا يبدأ الكافر
بالسلام^(٢١٥). وقال بعضهم في معنى تسليمه: هو تحية مفارق. وجوز تحية
الكافر وأن يبدأ بها قيل لابن عيينة: هل يجوز السلام على الكافر؟ قال نعم.
قال الله تعالى:

لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ
مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبَرُّؤَهُمْ وَنُقُسُوهُمْ يُخْلِفَ إِلَيْكُمْ

[سورة الممتحنة: ٨].

وقال:

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ

[سورة الممتحنة: ٤].

(٢١٥) تفسير القرطبي: (ج ١١/ ١١١ - ١١٢).

(٢١٦) تفسير القرطبي: (ج ١١/ ١١١ - ١١٢).

وقال إبراهيم لأبيه ﴿وسلام عليك﴾.

قال القرطبي: قلت: والأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة (٢١٦).

وفي هذا الشأن حديثان: فقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في الطريق فأضطروه إلى أضيقه» (٢١٧).

وفي «الصحيحين» عن أسامة بن زيد أن النبي ﷺ ركب حماراً عليه إكاف تحته قطيفة فدكية، وأردف وراءه أسامة بن زيد، وهو يعود سعد بن عباد في بني الحرث بن الخزرج وذلك قبل وقعة بدر، حتى مر في مجلس فيه أختلاط من المسلمين والمشركون عبدة الأوثان، واليهود، وفيهم عبد الله بن أبي بن سلول، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم عليهم النبي ﷺ (٢١٨) الحديث. قال القرطبي:

(فالأول: يفيد ترك السلام عليهم ابتداءً، لأن ذلك إكرام والكافر ليس أهله. والثاني: يجوز ذلك. قال الطبري: ولا يعارض ما رواه أسامة بحديث أبي هريرة، فإنه ليس أحدهما خلاف للآخر، وذلك أن حديث أبي هريرة مخرجه العموم، وخبر أسامة يبين أن معناه الخصوص. قال النخعي: إذا كانت لك حاجة عند يهودي أو نصراني فأبدأ بالسلام.

فيان بهذا أن حديث أبي هريرة «لا تبدؤهم بالسلام» إذا كان لغير سبب يدعوكم إلى أن تبدؤهم بالسلام من قضاء ذمام أو حاجة تعرض لكم قبلهم، أو حق صحبة أو جوار أو سفر.

(٢١٧) سبق تخريجه: (ص ٢٤٧).

(٢١٨) «صحيح البخاري»: (ج ٣٨/١١، ٦٢٥٤) كتاب الاستئذان، و«صحيح مسلم»: (ج ٣/١٤٢٢، ح ١٧٩٨) في الجهاد.

قال الطبري: قد روى عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب وفعله ابن مسعود بدهقان صحبه في طريقه قال له علقمة: يا أبا عبد الرحمن أليس يكره أنه يلدؤا بالسلام؟ قال: نعم. ولكن حق الصحبة.

وقال الأوزاعي: إن سلمت فقد سلم الصالحون قبلك، وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك. وروي عن الحسن البصري أنه قال: إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم (٢١٩).

قال ابن القيم: إن صاحب هذا الوجه - أي من أجاز ابتداءهم بالسلام - قال يقال له - السلام. فقط بدون ذكر الرحمة، وبلغظ الأفراد (٢٢٠).

(أما رد السلام عليهم فآختلف في وجوبه: فالجمهور على وجوبه وهو الصواب. وقالت طائفة: لا يجب الرد عليهم كما لا يجب على أهل البدع وأولى والصواب الأول: والفرق: أنا مأمورون بهجر أهل البدع تعزيراً لهم وتحذيراً منهم بخلاف أهل الذمة) (٢٢١).

قلت: ومما يرجح رأي الجمهور في وجوب الرد على أهل الكتاب قوله ﷺ: «إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السلام عليكم. فقل وعليك» (٢٢٢). وقوله ﷺ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم» (٢٢٣).

(٢١٩) تفسير القرطبي: (ج ١١/١١٢)

(٢٢٠) زاد المعاد: (ج ٢/٤٢٥).

(٢٢١) زاد المعاد: (ج ٢/٤٢٥).

(٢٢٢) صحيح البخاري: (ج ١١/٤٢، ح ٦٢٥٧) كتاب الاستئذان، وصحيح

مسلم: (ج ٤/١٧٠٦، ح ٢١٦٤) في السلام.

(٢٢٣) صحيح البخاري: (ج ١١/٤٢، ح ٦٢٥٨) كتاب الاستئذان، وصحيح

مسلم: (ج ٤/١٧٠٥، ح ٢١٦٣).

* المبحث الثالث: الانتفاع بالكفار وبما عندهم :

إن الإسلام يتسامح في أن يتلقى المسلم من غير المسلم ما ينفعه في علم الكيمياء والفيزياء والفلك والطب والصناعة والزراعة والأعمال الإدارية وأمثال ذلك. وهذا حين تنعدم الاستفادة من هذه العلوم من مسلم تقى (٢٢٤).

كذلك يبرز الانتفاع بهم في دلالة الطريق وما عندهم من سلاح وملابس وغير ذلك من الحاجات التي يحتاجها الناس، وجرت العادة فيها أن المسلم والكافر يستويان في الانتفاع بها.

ولكن الإسلام لا يبيح بل يرفض أن يتلقى المسلم أي شيء يتعلق بعقيدته أو مقومات تصوّره، أو تفسير قرآنه وسنة نبيه ﷺ أو منهج تاريخه أو نظام ومنهج سياسته أو موجبات أدبه وتعبيره ممن لا يؤمن بهذا الإسلام (٢٢٥).

وقد سبق في أول هذا البحث أن قلنا: إن المسلمين وقعوا في غلطة كبرى حين استوردوا فلسفة اليونان وتصوف الهند والفرس لأنها غشاء إذا مزج بالتصور الإسلامي النقي نتج من ذلك خليط من غيش العقيدة وانحراف التصورات.

وأحسنوا حين ترجموا كتب الطب والكيمياء ودفعهم ذلك إلى اكتشاف علوم جديدة منها علم الجبر. فقد كانت العقلية الإسلامية المتنورة بنور الله قادرة على الابتكار والإبداع في المجال العلمي بكل ميادينه وفي المجال الأدبي والثقافي.

(٢٢٤) انظر «معالم في الطريق»: (ص ١٣١ — ١٣٢)، وانظر «مجموع فتاوى» شيخ

الإسلام ابن تيمية: (ج ١١٤/٤).

(٢٢٥) انظر المصدر السابق «معالم في الطريق»: (ص ١٣١).

ذلك أن لديهم من مقومات هذه العقيدة ومقتضياتها ما يدفعهم للعمل بجد وصبر. وهم يعلمون أن ذلك جزء من عبادة الله. لأن نفع ما توصلوا إليه لم ينفعهم هم فحسب بل تعدى ذلك إلى كافة الناس حتى إن أوروبا ظلت قرونًا طوَالاً تعتمد على النظريات الإسلامية والأبحاث التي ابتكرها المسلمون. وانعكس هذا على التقدم العلمي الذي توصل إليه الغرب في القرون الأخيرة، بعد أن نام المسلمون، وتركوا مركز القيادة والريادة في كل شيء حتى جاءت الأجيال التي نشهدها اليوم فإذا بها عالة على تلاميذ أجدادها بالأمس!

من أجل ذلك نقول: ونحن نستبشر بالخير حيث بدأ الزحف الإسلامي اليوم في كل أرض - إنه ينبغي للمسلمين أن يعرفوا ماذا يأخذون من غيرهم فيستفيدون به، وماذا يتركونه لئلا يقعوا فيما وقع فيه من قبلهم.

إن عليهم أن يجعلوا هذه العقيدة الإسلامية هي القاعدة التي يقوم عليها البناء الإسلامي من جديد ثم يستوردون من غير المسلمين ما ينقصهم في المجال "العلمي البحث" ويكون هذا الاستيراد بحذر وذكاء، حيث تصاغ هذه العلوم بصياغة علمية مؤمنة سليمة من صياغة الملاحظة ودعاة "اللادين".

وقد يقول قائل: وما دخل الأسلوب العلمي البحث في الأسلوب الديني؟ والجواب: إنه لا فصل بين دين وعلم، بل الدين الإسلامي هو دين العلم. وصياغة الأسلوب العلمي من منطلق إسلامي صحيح يغرس في النفوس إيماناً عميقاً بقدرة الخالق سبحانه وتعالى وعظيم صنعه وإبداعه في هذا الكون بكل ما فيه.

ثم إن هذا الاعتراض فيه مغالطة ظاهرة: فإنه مهما ادعى المتجددون للأسلوب العلمي أنهم "حياديون" فإنه يستحيل أن تكون صياغة من تلقى نظرية ماركس أو فرويد أو دوركايم لنظرية علمية ماء مثل صياغة من كان

بنفس الكفاءة العلمية ولكنه تلقى عقيدة "لا إله إلا الله" من مشكاة محمد بن عبد الله ﷺ.

وهذا أمر ظاهر لا يستطيع أن ينكره إلا مكابر أو جاهل يجهل أنه يغالط نفسه.

وأدلة الانتفاع بالكفار نجدها في سنة رسول الله ﷺ فقد ورد في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره في كتاب الإجارة باب استئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام عن عائشة رضي الله عنها واستأجر النبي ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدئل ثم من بني عبد بن عدي هادياً خريئاً - الخريت: الماهر بالهداية - قد غمس يمين حلف في آل العاص بن وائل وهو على دين كفار قريش فأمناه، فدفعا إليه راحتيهما، وواعدها غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحتيهما صبيحة ليال ثلاث فأرتحلا^(٢٢٦) الحديث. قال ابن القيم: آسمه عبد الله بن اريقط الدؤلي وفي استئجاره وهو كافر: دليل على جواز الرجوع إلى الكافر في الطب والأدوية والحساب والعيوب ونحوها، ما لم يكن ولاية تتضمن عدالة ولا يلزم من مجرد كونه كافراً أن لا يوثق به في شيء أصلاً، فإنه لا شيء أخطر من الدلالة في الطريق ولا سيما في مثل طريق الهجرة^(٢٢٧).

قال ابن بطال: عامة الفقهاء، يجيزون استئجارهم - أي المشركين - عند الضرورة وغيرها لما في ذلك من المذلة لهم، وإنما الممتنع أن يؤاجر المسلم نفسه من المشرك لما فيه من إذلال المسلم^(٢٢٨). ولكن ما هو الحكم لو آجر المسلم نفسه من كافر؟

والجواب على ذلك ما رواه البخاري أيضاً عن خباب رضي الله عنه

(٢٢٦) «صحيح البخاري»: (ج٤/٤٤٢، ح٢٢٦٣).

(٢٢٧) «بدائع الفوائد»: (ج٣/٢٠٨).

(٢٢٨) «فتح الباري»: (٤/٤٤٢).

قال: كنت رجلاً قيناً فعملت للعاص بن وائل فاجتمع لي عنده، فأتيته أتقاضاه فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: أما والله حتى تموت ثم تبعث فلا. قال: وإنني لميت ثم مبعوث؟ قلت: نعم. قال: فإنه سيكون لي ثَمَ مال وولد، فأقضيك، فأنزل الله تعالى:

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَمْ يَكُنْ لِي بَاطْنًا وَلَئِنِّي أَخْلُقَ لَهُ مَا تَخَوَّلُ

[سورة مريم: ٧٧].

قال المهلب: كره أهل العلم ذلك - أي مؤاجرة نفسه من مشرك في أرض الحرب - إلا لضرورة بشرطين أحدهما أن يكون عمله فيما يحل للمسلم فعله. والآخر: أن لا يعينه على ما يعود ضرره على المسلمين^(٢٣٠). أما استئجار المشرك في الغزو: فقد رود النهي بذلك: ففي الحديث الذي رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج رسول الله ﷺ قبل بدر، فلما كان بحرة الوبرة^(٢٣١) أدركه رجل، قد كان يذكر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه. فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: جئت لأتبعك وأصيب معك قال له رسول الله ﷺ: «تؤمن بالله ورسوله؟» قال: لا. قال: «فارجع فلن أستعين بمشرك» قالت: ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل فقال له كما قال أول مرة. فقال له النبي ﷺ كما قال أول مرة قال: «فارجع فلن أستعين بمشرك» قال: ثم رجع فأدركه بالبيداء فقال له كما قال أول مرة «تؤمن بالله ورسوله؟» قال: نعم. فقال له رسول الله ﷺ: «فانطلق»^(٢٣٢).

(٢٢٩) «صحيح البخاري»: (ج ٤/٤٥٢، ح ٢٢٧٥) كتاب الإجارة باب هل يؤاجر الرجل نفسه من مشرك في أرض الحرب.

(٢٣٠) «فتح الباري»: (ج ٤/٤٥٢).

(٢٣١) موضع على بعد أربعة أميال من المدينة.

(٢٣٢) «صحيح مسلم»: (ج ٣/١٤٩٩، ح ١٨١٧).

ولكن الحازمي (٢٣٣) قال: اختلف أهل العلم في هذا الباب:

فذهبت جماعة إلى منع الاستعانة بالمشركون مطلقاً، وتمسكوا بظاهر هذا الحديث. وقالوا: هذا حديث ثابت عن النبي ﷺ وما يعارضه لا يوازيه في الصحة والثبوت فتعذر ادعاء النسخ لهذا.

وذهبت طائفة إلى أن للإمام أن يأذن للمشركون أن يفزوا معه ويستعين بهم ولكن بشرطين:

(١) أن يكون في المسلمين قلة وتدعو الحاجة إلى ذلك.

(٢) أن يكونوا ممن يوثق بهم فلا تخش ثائرتهم.

فمضى فقد هذان الشرطان لم يجوز للإمام أن يستعين بهم، قالوا: ومع وجود الشرطين يجوز الاستعانة بهم. وتمسكوا في ذلك بما رواه ابن عباس أن رسول الله ﷺ استعان بيهود بني قينقاع، وأستعان بصفوان بن أمية في قتال هوزان يوم حنين، قالوا: وتعين المصير إلى هذا لأن حديث عائشة رضي الله عنها كان يوم بدر وهو متقدم فيكون منسوخاً (٢٣٤). ثم قال: ولا بأس أن يستعان بالمشركون على قتال المشركين إذا خرجوا طوعاً ولا يسهم لهم (٢٣٥).

ويدعم آبن القيم هذا الرأي وهو يتحدث عن فوائد صلح الحديبية فيقول: الاستعانة بالمشرک المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة لأن عينه ﷺ الخزاعي كان كافراً إذ ذاك، وفيه من المصلحة أنه أقرب إلى اختلاطه بالعدو وأخذه أخبارهم (٢٣٦).

(٢٣٣) هو الإمام أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان بن حازم المعروف بالحازمي من رجال الحديث أصله من همدان، ولد سنة ٥٤٨هـ، وتوفي ببغداد سنة ٥٨٤هـ. «الإعلام للزركلي: (ج٧/١١٧) الطبعة الرابعة.

(٢٣٤) «الاعتبار في النسخ والمنسوخ من الآثار للحازمي: (ص٢١٩) تحقيق راتب حاكمي.

(٢٣٥) المصدر السابق: (ص٢٢٠).

(٢٣٦) «زاد المعاد: (ج٣/٣٠١)، وقصة الخزاعي في «تاريخ الطبري»: (ج٢/٦٢٥).

وقال في فوائد غزوة حنين. للإمام أن يستعير سلاح المشركين وعدتهم لقتال عدوه، كما استعار رسول الله ﷺ أردع صفوان بن أمية وهو يومئذ مشرك (٢٣٧).

وتبعه الإمام محمد بن عبد الوهاب فقال: الانتفاع بالكفار في بعض أمور الدين ليس مذموماً لقصة الخزاعي (٢٣٨).

ونخلص إلى القول:

إن الانتفاع بالكفار وبما عندهم من العلوم التي هي من اجتهاد الإنسان أمر جائز في الإسلام وأدله كثيرة سبق ذكر بعضها، ومنها أيضاً: مزارعة رسول الله ﷺ لليهود في خيبر على أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها (٢٣٩).

أما إجارة المسلم نفسه لهم فجائزة إذا لم يكن في ذلك تعظيم لدينهم أو شعائره أو ما فيه ذلة ومهانة له. وأما الاستعانة بهم في الغزو فجائز ولكن ذلك منوط بإمام المسلمين إذا رأى أن المصلحة تقتضي استخدامهم وإلا فلا.

ومع هذا فإنه يجب الاحتراز ومنع استعمال الكفار في شيء من ولايات المسلمين التي يكون فيها سلطة لهم على المسلمين كاللواوين فإن في ذلك جناية على الإسلام والمسلمين، ففضلاً عن أن ذلك مخالفة صريحة لحكم الشرع الإسلامي وهيئته على الأرض فإنه أيضاً إذلال صريح للمسلمين حتى الذين توهبوا أن ذلك أمر جائز. وإليك بعضاً من النصوص والحوادث التاريخية الهامة التي يبدو فيها كيد أعداء الله للإسلام والمسلمين حين تولوا هذه المناصب الهامة.

(٢٣٧) «زاد المعاد»: (ج ٣/٤٧٩)، والقصة في «السيرة» لابن هشام: (ج ٤/٨٣)، و«تاريخ الطبري»: (ج ٣/٧٣).

(٢٣٨) «ملحق مصنفات» الإمام محمد بن عبد الوهاب: (ص ٧).

(٢٣٩) الحديث في «صحيح البخاري»: (ج ٥/١٥، ح ٢٣٣١) كتاب المزارعة، باب المزارعة مع اليهود.

روى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «قلت لعمر رضي الله عنه إن لي كاتباً نصرانياً. قال: مالك؟ فأتلك الله؟ أما سمعت الله يقول:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ تَعَضُّهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ

[سورة المائدة: ٥١].

ألا اتخذت حيقاً؟ قال: قلت: يا أمير المؤمنين لي كاتبته، وله دينه، قال: لا أكرمهم إذا أهانهم الله ولا أعزهم إذا أذلهم الله، ولا أدينهم إذا أقصاهم الله» (٢٤٠).

وكتب عمر رضي الله عنه أيضاً إلى أبي هريرة كتاباً جاء فيه: «...ولا تستعن في أمر من أمور المسلمين بمشرك. وساعد على مصالح المسلمين بنفسك فإنما أنت رجل منهم غير أن الله تعالى جعلك حاملاً لأنقاهم» (٢٤١).

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى بعض عماله: «أما بعد: فإنه بلغني أن في عملك كاتباً نصرانياً يتصرف في مصالح الإسلام، والله تعالى يقول:

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوراً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

[سورة المائدة: ٥٧].

فإذا أتاك كتابي هذا فادع حسّان بن زيد - يعني ذلك الكاتب - إلى الإسلام فإن أسلم فهو منا ونحن منه، وإن أبق فلا تستعن به ولا تتخذ أحداً

(٢٤٠) هكذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط المستقيم»: (ص ٥٠) أن هذا الحديث رواه أحمد ولم أجده في «مسند أبي موسى»، وقد أورده البيهقي في «السنن الكبرى»: (١٢٧/١٠) كتاب آداب القاضي.
(٢٤١) «أحكام أهل الدمة»: (ج ١/٢١٢ ص ٧).

على غير دين الإسلام في شيء من مصالح المسلمين فأسلم حسّان وحسّن إسلامه» (٢٤٢).

ولما فشا استخدام أهل الكتاب في مصالح المسلمين أيام الخلافة العباسية نهض أحد العلماء بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا الشأن وهو شبيب بن شيبة (٢٤٣) فقد استأذن على أبي جعفر المنصور فأذن له فقال: (.. يا أمير المؤمنين أتق الله فإنها وصية الله، إليكم جاءت وعنكم قبلت، وإليكم تؤدى، وما دعاني إلى قولي إلا محض النصيحة لك والإشفاق عليك، وعلى نعم الله عندك. أخفض جناحك إذا علا كعبك وأبسط معروفك إذا أغنى الله يدك. يا أمير المؤمنين إن دون بابك نيراناً تأجج من الظلم والجور لا يعمل فيها بكتاب الله ولا سنة نبيه محمد ﷺ).

يا أمير المؤمنين سلطت الذمة على المسلمين، ظلموهم وعسفوهم، وأخذوا ضياعهم وغصبوهم أموالهم، وجاروا عليهم، وأخذوك سلماً لشهواتهم، وإنهم لن يفتنوا عنك من الله شيئاً يوم القيامة. فقال المنصور خذ خاتمي فابعث به إلى من تعرفه من المسلمين وقال: يا ربيع: اكتب إلى الأعمال وأصرف من بها من الذمة. ومن أتاك به شبيب فأعلمنا بمكانه لنوقع باستخدامه، فقال شبيب: يا أمير المؤمنين: إن المسلمين لا يأتونك وهؤلاء الكفرة في خدمتك، إن أطاعوهم أغضبوا الله، وإن أغضبوهم أغروك بهم، ولكن تولي في اليوم الواحد عدة، فكلما وليت رجلاً عزلت الآخر (٢٤٤).

(٢٤٢) المصدر السابق: (١/٢١٤).

(٢٤٣) شبيب بن شيبة بن هب الله الهيمي المنقري الأهمي. أديب الملوك وجليس الفقراء، وأخو المساكين كان يقال له (الخطيب) لفصاحته وكان شريفاً من الدهاء، يفرع إليه أهل بلده في حوائجهم. انظر ترجمته في «شذرات الذهب»: (ج ١/٢٥٦)، و«تهذيب التهذيب»: (ج ٤/٣٠٧)، و«الأعلام»: (ج ٣/١٥٦).

(٢٤٤) المصدر السابق: (ج ١/٢١٥). هذا وقد وردتني ملاحظات قيمة من إخوة فضلاء بخصوص هذا الموضوع حيث مالوا فيها إلى ترجيح عدم الاستعانة =

وخلاصة القول: إنه ينبغي التفريق بين استخدام الكافر كشخص بمفرده في أمر من الأمور وبين استخدامه كصاحب سلطة ونفوذ في أمر من أمور الدولة الإسلامية.

فالأول جائز وبه وردت أدلة سبق ذكرها كما علمت.

والثاني لا يجوز لمنافاته مضمون وروح الشريعة الإسلامية وهدفها الأساسي وهو أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

والخير كل الخير في أن يعتمد المسلمون على أنفسهم من أجل أن تبقى الأمة الإسلامية أمة متميزة ذات طابع خاص، مصبوغة بصبغتها الربانية التي أرادها الله لها.

سائلين المولى سبحانه أن يأتي باليوم الذي يعود فيه المسلمون لدينهم الصحيح وقد استغنوا في كل أمورهم وشؤونهم عن الكفار وسائر الأعداء، وما ذلك على الله بعزيز.

التقية والإكراه

وهما أمران ورد حكمهما في الشريعة الإسلامية لبيان حالات معينة من حالات الضرورة التي قد تعرض للمسلم.

تعريف التقية:

عرفها حَبْرُ الأمة عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما فيما روي عنه أنه قال: التقاة: التكلم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان^(٢٤٥).

= بالمشرك. وأنا قد ذكرت الرأي في هذا ولعلي في طعة قادمة إن شاء الله أتوسع في هذا الموضوع وأعيد صياغته، والله الموفق.
٢٤٥٠ (تفسير الطبري: ج ٣/٢٢٨، ٢٢٩).

وقال أبو العالية: التقية باللسان وليس بالعمل^(٢٤٦).

وقال ابن حجر العسقلاني: التقية الحذر من إظهار ما في النفس من معتقد وغيره للغير^(٢٤٧).

وقال الأستاذ سيد قطب: التقية: تقية اللسان لا ولاء القلب، ولا ولاء العمل وليس من التقية المرخص بها أن تقوم المودة بين المؤمن وبين الكافر، كما أنه ليس من التقية أن يعاون المؤمن الكافر بالعمل في صورة من الصور باسم التقية فما يجوز هذا الخداع على الله^(٢٤٨).

متى تكون التقية؟

قال تعالى:

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ
يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ
نَفْسًا وَيَحْذَرُوا كُفْرَ اللَّهِ نَفْسًا. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ

[سورة آل عمران: ٢٨].

قال البغوي: نهى الله المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومبايعتهم إلا أن يكون الكفار غاليين ظاهرين أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان دفعاً عن نفسه من غير أن يستحل دماً حراماً أو مالاً حراماً، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين. والتقية لا تكون إلا من خوف القتل وسلامة النية قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقُلْبُهُ مَطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾

(٢٤٦) تفسير الطبري: (٣/٢٢٨، ٢٢٩).

(٢٤٧) فتح الباري: (ج ١٢/٣١٤).

(٢٤٨) انظر الظلال: (ج ١/٣٨٦).

ثم هذه رخصة فلو صبر حتى قتل فله أجر عظيم (٢٤٩).

وقال آبن القيم: معلوم أن الثقة ليست بموالة، ولكن لما نهاهم عن موالة الكفار اقتضى ذلك معاداتهم والبراءة منهم، ومجاهرتهم بالعدوان في كل حال إلا إذا خافوا من شرهم فأباح لهم التقية وليست التقية موالة لهم (٢٥٠). (ولأن باب الثقة باب يمكن أن ينفذ منه الشيطان بسهولة يزين للضعفاء ومرضى القلوب أن يركنوا إلى أعداء الله قال بعدها مباشرة: ﴿ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾ يحذركم في الدنيا أن تتخذوا هذا الباب تكأة، وتستسهلوا هذه الكبيرة - وهي موالة أعداء الله - وينذركم أن إليه المصير فيجازيكم على ما فعلتم في الدنيا، فلا تحسبوا أن ترتكبوا هذه الكبيرة في الأرض - مخادعين أنفسهم أو مخادعين الناس - ثم تنجوا من عذاب الله في الآخرة (٢٥١).

وقال آبن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى

إِلَّا أَنْ تَكْفُرُوا مِنْهُمْ نَقَةً

[سورة آل عمران: ٢٨].

أي إلا أن تكونوا في سلطانهم فتحافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بالسنتكم وتضمروا العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل (٢٥٢).

(٢٤٩) «تفسير البغوي»: (ج ١/٣٣٦)، وانظر «أحكام القرآن» للجصاص: (ج ٢/٢٨٩).

(٢٥٠) «بدائع الفوائد»: (ج ٣/٦٩).

(٢٥١) «دراسات قرآنية»: (ص ٣٢٦ - ٣٢٧).

(٢٥٢) «تفسير الطبري»: (ج ٣/٢٢٨).

الإكراه:

قال تعالى:

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ
وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ هَدًى
فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

[سورة النحل: ١٠٦ - ١٠٧].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت الآية - الأولى - في عمار بن ياسر، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه وأمه سمية وصهيباً وبلالاً وخباباً وسالماً. فأما سمية فإنها رُبِطت بين بعيرين ووجيء قلبها بحربة فقتلت وقتل زوجها ياسر، وهما أو قتيلين قتلا في الإسلام وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً، فأخبر النبي ﷺ بأن عماراً كفر، فقال: «كلا: إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، وأختلط الإيمان بلحمه ودمه» (٢٥٣) فأقى عمار رسول الله ﷺ وهو ييكى فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه وقال: «إن عادوا لك فعد لهم بما قلت» (٢٥٤) فأنزل الله هذه الآية (٢٥٥).

(٢٥٣) هذا اللفظ ضعيف، وإنما اللفظ الصحيح هو ما رواه الحاكم في «مستدرکه»: (ج ٣/٣٩٢ - ٣٩٣)، وكذلك النسائي: (ج ٨/١١١) في كتاب الإيمان، هكذا: «ملئ عمار إيماناً إلى مشاشه» وهو حديث صحيح كما قال الألباني. انظر «صحيح الجامع الصغير»: (ج ٥/٢١١ ح ٥٧٦٤)، و«سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (ج ٢/٤٦٦، ح ٨٠٧).
(٢٥٤) حديث مرسل ورجاله ثقات. انظر «فتح الباري»: (ج ١٢/٣١٢).
(٢٥٥) «أسباب النزول» للواحدي: (ص ١٦٢)، وانظر «تفسير السطري»: (ج ١٤/١٨٢)، و«تفسير ابن كثير»: (ج ٤/٥٢٥).

قال الطبري في معنى الآية: من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره على الكفر فنطق بكلمة الكفر بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، موقن بحقيقته، صحيح عليه عزمه، غير مفسوح الصدر بالكفر، لكن من شرح بالكفر صدراً فاختره وآثره على الإيمان، وباح به طائعاً: فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم^(٢٥٦).

وسبب ذلك: أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا^(٢٥٧).

شروط الإكراه:

قال ابن حجر: شروط الإكراه أربعة:

(١) أن يكون فاعله قادراً على إيقاع ما يهدد به، والمأمور عاجزاً عن الدفع ولو بالفرار.

(٢) أن يظن على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك.

(٣) أن يكون ما هدد به فورياً، فلو قال: إن لم تفعل كذا ضربتك غداً، لا يعد مكرهاً، ويستثنى ما إذا ذكر زمناً قريباً جداً، أو جرت العادة بأنه لا يخلف.

(٤) أن لا يظهر من المأمور ما يدل على اختياره.

ولا فرق بين الإكراه على القول والفعل عند الجمهور، ويستثنى من الفعل ما هو محرم على التأييد كقتل النفس بغير حق^(٢٥٨).

قال الخازن: قال العلماء: يجب أن يكون الإكراه الذي يجوز له أن يتلفظ معه بكلمة الكفر أن يعذب بهذاب لا طاقة له به مثل التخويف بالقتل

(٢٥٦) تفسير الطبري: (ج ١٤/ ١٨٢).

(٢٥٧) تفسير ابن كثير: (ج ٤/ ٥٢٥).

(٢٥٨) فتح الباري: (ج ١٢/ ٣١١ — ٣١٢).

والضرب الشديد، والإيلا ماث القوية مثل التحريق بالنار ونحوه^(٢٥٩). وأجمعوا أيضاً: على أن من أكره على الكفر لا يجوز له أن يتلفظ بكلمة الكفر تصريحاً، بل يأتي بالمعاريض وبما يوهم أنه كفر، فلو أكره على التصريح يباح له ذلك بشرط طمأنينة القلب على الإيمان، غير معتقد ما يقوله من كلمة الكفر، ولو صبر حتى قتل كان أفضل لفعل ياسر وسمية وصبر بلال على العذاب^(٢٦٠).

لقد كان بلال رضي الله عنه تُفعل به الأفاعيل حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم ويقول: أحد. أحد. ويقول: والله لو أعلم كلمة أعطي لكم منها لقلتها^(٢٦١).

وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري^(٢٦٢) لما قال مسيلمة الكذاب: أشهد أن محمداً رسول الله؟

قال نعم. فيقول: أشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك^(٢٦٣).

وكما فعل الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة السهمي^(٢٦٤): فإنه لما أسرت الروم جاءوا به إلى ملكهم فقال له: تَنْصَرُ وأنا أشركك في ملكي

(٢٥٩) «تفسير الخازن»: (ج ٤/١١٧).

(٢٦٠) «تفسير الخازن»: (ج ٤/١١٧).

(٢٦١) انظر «تفسير ابن كثير»: (ج ٤/٥٢٥).

(٢٦٢) حبيب بن زيد بن عاصم بن عمرو الأنصاري أخو عبد الله بن زيد، ذكره

ابن إسحاق فيمن شهد العقبة من الأنصار وقال هو الذي أخذه مسيلمة فقتله.

قال ابن سعد شهد حبيب أحداً والخندق والمشاهد «الإصابة»: (ج ١/٣٠٧):

(٢٦٣) «تفسير ابن كثير»: (ج ٤/٥٢٥).

(٢٦٤) هو عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم القرشي السهمي

وأمه أمنة بنت حارثان من بني حارث، وهو من السابقين الأولين، يقال إنه

شهد بدرًا، ولم يذكره موسى بن عقبة ولا ابن إسحاق ولا غيرهما من أصحاب

المغازي. وقصته مع ملك الروم ذكرت سابقاً، انظر ترجمته في «الإصابة»:

(ج ٢/٢٩٦)، و«تهذيب التهذيب»: (ج ٥/١٨٥).

وأزوجك ابنتي، فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما فعلت. فقال: إذا أقتلك قال: أنت وذاك، فأمر به فصُلب، وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقدر. وفي رواية ببقرة من نحاس فأحيت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح، وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقي فيها، فرفع في البكرة ليلقى فيها، فبكى فطمع فيه ودعاه فقال له: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة من جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله!

وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياماً ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ قال: أما أنه قد حل لي ولكن لم أكن لأشمتك في، فقال له الملك: فقبل رأسي وأنا أطلقك، فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين، قال: نعم فقبل رأسه فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبداً، فقام فقبل رأسه (٢٦٥).

أنواع الإكراه:

(١) الإلجاء: حيث ينعدم الرضا والاختيار، وتنتفي الإرادة والقصد، وذلك بالوقوع تحت التعذيب الشديد أو نحو ذلك، وهذه الحالة هي التي نزلت فيها آية النحل:

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ

(٢٦٥) «تفسير ابن كثير»: (ج ٤/ ٥٢٦).
(٢٦٦) كتاب «حد الإسلام وحقيقة الإيمان» للأستاذ عبد المجيد الشاذلي: (ص ٥٢٣) مكتوب بالآلة الكاتبة.

وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ

[سورة النحل: ١٠٦].

(٢) التهديد: حيث ينعدم الرضا، ولا ينعدم الاختيار تماماً وهذه في مثل الحالة التي يختار فيها الإنسان أخف الضررين مثل حال شعيب عليه السلام مع قومه إذ خبروه بين العودة إلى الكفر أو الخروج من قريتهم:

﴿ قَالَ أَمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خِزْيَ جَنَّتِكَ يَنْشُدُوكَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْلَعْتُمْ فِيهِمْ وَلَيَسَّ لَنَا أَوَّلُ كَذِبِهِمْ ﴾ (٨٨) قَدْ أَفَرَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَعَثْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسَمِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفَتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاضِلِينَ

[سورة الأعراف: ٨٨ - ٨٩].

فلا تجوز الاستجابة لمثل هذا الإكراه لهذا النص ولقوله تعالى:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ

[سورة العنكبوت: ١٠].

(٣) الاستضعاف: وهنا لا تعذيب ولا تهديد ولكن المستضعف داخل تحت وضع مفروض عليه من غيره كالمقيم في مكة بعد هجرة المسلمين عنها، فإذا كان دخوله تحت هذا الوضع لعجزه عن دفعه وعن الخروج منه،

(٢٦٧) كتاب وحد الإسلام وحقيقة الإيمان، للأستاذ عبد المجيد الشاذلي: (ص ٥٢٣) مكتوب بالآلة الكاتبة.

ولو أمكنه ذلك لفعل مهما كانت تضحياته وتكاليفه فهذا قد عفا الله عنه^(٢٦٨). أما إذا كان قادراً على الدفع أو الخروج ولم يفعل ذلك إيثاراً للعاقبة فقد سبق كلام الشيخ ابن عتيق وغيره في ذلك.

قال ابن تيمية: تأملت المذاهب فوجدت الإكراه يختلف باختلاف المكروه عليه فليس الإكراه المعتبر في كلمة الكفر كالإكراه المعتبر في الهبة ونحوها، فإن أحمد قد نصَّ في غير موضع، أن الإكراه على الكفر لا يكون إلا بالتعذيب من ضرب وقيد، ولا يكون الكلام إكراهاً^(٢٦٩).

كلمة أخيرة حول الإكراه

إنه من المهم والواجب التفريق بين الإكراه وبين مشاعر الخوف التي تتزاوج مع مشاعر الرجاء والتعظيم فإن هذه مشاعر عبادة.

كما أنه يجب أن نفرق بين الاستضعاف وبين الهزيمة الداخلية، والاستكانة للعدو والركون إليه وفقدان الثقة في الله وترك التوكل عليه.

ذلك أن الإنسان يملك في أحلك الظروف قوة عظيمة - هي قوة الرفض بقلبه - وهذه القوة سماها رسول الله ﷺ جهاداً في قوله: «... ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»^(٢٧٠).

فالانهزام أمام الباطل والموالة التي يحتاجها الباطل حتى وهو قوي لا بد من الامتناع عنها وهذا هو جهاد القلب، والله سبحانه يقول للمؤمنين بعد وقعة أحد:

وَكَايْنِ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَمَّةً
رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا

(٢٦٨) المصدر السابق: (ص ٥٢٦).

(٢٦٩) نقلاً عن «الدفاع» لابن عتيق: (ص ٣٠).

(٢٧٠) «صحيح مسلم»: (ج ١/٧٠، ح ٥٠) كتاب الإيمان.

وَمَا اسْتَعَاذُوا اللَّهَ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ
 إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ
 أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ
 ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾
 يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
 يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ آغْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
 بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ

[سورة آل عمران: ١٤٦ - ١٥٠].

وقال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود: «بحسب أمرىء يرى منكراً
 لا يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره» ودلالة الكره: الاعتزال
 وعدم المشايعة بالعمل.

إن استعلاء القلب على الهزيمة الداخلية، وبقاء قوة رفضه للباطل مهما
 استطال وانتفش وقوة ضبطه للسلوك لتأكيد الاعتزال وعدم المشايعة بالعمل
 هو جهاد القلب وإنه لجهاد له أثره الواقع في حياة الناس^(٢٧١).

(٢٧١) «حد الإسلام» للشاذلي: (ص ٥٢٧ - ٥٢٨) بتصرف.

الباب الثالث
الصورة التطبيقية للولاء والبراء
في الماضي والحاضر

الفصل الأول

كيف طبق السلف الولاء والبراء

تحدثت فيما سبق عن أمثلة من الأمم الماضية التي سبقت الأمة المحمدية ومر معنا بعض الأمثلة والنماذج في عهد النبوة. ولكن ذلك الجيل مليء بالصور المشرقة. لذلك رأيت أن أزيد هذا الأمر وضوحاً وتحليلاً بذكر نماذج أخرى لما لها من أهمية كبرى.

وكل قول لا يدعمه التطبيق العملي يعد زعماً باطلاً لا يمت للحقيقة بصلة ولا للواقع ببرهان.

لذلك فإن التطبيق الواقعي للولاء والبراء هو المقتضى الصحيح والوجه المشرق لمبدأ كلمة التوحيد "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

وإن من المعلوم بالضرورة أن سلف الأمة رضوان الله عليهم هم خير من طبق هذه العقيدة بكل مقتضياتها وتكاليفها.

والحديث عن السلف ممتع وجميل، بل هو من الحوافز العملية التي سجلها تاريخ الأمة المسلمة ليكون ذلك مَعْلَماً من معالم الهداية والرشاد لمن جاء بعدهم، ليستن بسنتهم وينهج نهجهم.

وقد كانوا رضوان الله عليهم يقدرون النعمة التي أنعم الله بها عليهم وهي نعمة الإيمان.

ويقدرون أيضاً فضل نور الله وشريعته الغراء التي بعث بها نبيه
عمداً ﷺ

أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي
النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا

[سورة الأنعام: ١٢٢]

وقدروا رحمهم الله تربية المصطفى ﷺ وأهمية سنته الشريفة قولاً وفعلًا،
وأدركوا أنهم (لم يكونوا خدمة جنس، ورسل شعب أو وطن، يسعون لرفاهيته
ومصلحته وحده، ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان، ولم
يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها، ويشمخون
ويتكبرون تحت حمايتها ويُخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم
العرب وإلى حكمهم أنفسهم. إنما قاموا ليُخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً
إلى عبادة الله وحده، كما قال ربي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد:
الله آبتعنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. ومن ضيق الدنيا
إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.. فالأثم عندهم سواء والناس
عندهم سواء. الناس كلهم من آدم، وآدم من تراب.. لم ييخلوا بما عندهم
من دين وعلم وتهذيب على أحد، ولم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسباً
ولوناً ووطناً، بل كانوا سحابة خير آتتظمت البلاد وعمت العباد، وغواذي
مزنة أثنى عليها السهل والوعر، وانتفعت بها البلاد والعباد على قدر قبولها
وصلاحها^(١).

ويصعب عليّ هنا أن أذكر معظم الوقائع والمواقف التي برز فيها تطبيق
الولاء والبراء عند سلف الأمة رحمهم الله. ولكنني أقتصر على القليل من ذلك
لإعطاء فكرة صادقة وصورة حيّة، وأمثلة مشرقة لتلك النماذج الإيمانية التي
أراد الله أن يحقق بها مثالية هذا الدين، ليعلم الناس أن هذا الدين مثالي
واقعي^(٢) في آن واحد إذا وجد الأكفاء الجديرون بحمله وتبليغه للناس بصدق

(١) «ماذا خسر العالم بالمخطا المسلمين»: (ص ١٢٦ — ١٢٧) بتصرف بسيط.

(٢) للوقوف على فكرة صحيحة فيما يتعلق بمثالية الإسلام وواقعته جذا مراجعة =

وأمانة، وطهر ونقاء، وإخلاص وتجرد، وابتغاء ما عند الله.

ومن هذه الأمثلة: موقف صحابة رسول الله ﷺ من كعب بن مالك رضي الله عنه ومن معه من الخلفين الثلاثة، حيث قاطعوهم وهجروهم لتخلفهم عن غزوة تبوك.

وانظر إلى هذه المقاطعة لثلاثة من صحابة رسول الله ﷺ يصلون خلف رسول الله في مسجد أسس على التقوى، لقد هجروهم ولم يكلموهم حتى في التحية الإسلامية!!

فمن يا ترى من المسلمين اليوم يتبرأ من الذين يحادون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً؟!

أما الموقف العظيم الذي يبرز فيه ولاء المسلم لدينه وإخوانه المؤمنين، حتى وهذا المؤمن مهجور من إخوانه وأحبابه، مقاطع عنهم حتى في رد السلام. مبتلى بإغراء مادي عظيم، ومحسن له المنصب ورفعة المكان في الدنيا: فهو موقف الصحابي الجليل كعب بن مالك رضي الله عنه، فإنه - كما جاء في حديثه الطويل - لما أمر الرسول ﷺ صحابته بهجره ومن معه، حتى زوجته ذهبت إلى أهلها فاجأه أمر عجيب وخطر في آن واحد.

يقول كعب رضي الله عنه: (.. فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطلق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار

= كتاب «خصائص التصور الإسلامي» للأستاذ سيد قطب، فصل الواقعية. وكتاب «منهج التربية الإسلامية» للأستاذ محمد قطب، المجلد الأول، الفصل الأخير. وكتاب «الإنسان بين المادية والإسلام» فصل نظرة الإسلام.

هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتممت بها التنور فسجرت به^(٣).

لقد صدق كعب رضي الله عنه في قوله: (وهذا أيضاً من البلاء) أجل إنه بلاء عظيم، ولقد كان ولاء كعب رضي الله عنه رغم ما هو فيه من شدة وهجر ومع دواعي الإغراء والإغواء لله ولدينه ورسوله والمؤمنين، وكان براؤه من ملك غسان واضحاً في حرقه لكتاب ذلك الملك.

فانظر إلى هذه العظمة وهذا الصدق في الولاء والحب للإسلام والمسلمين والبعد عن كل ما يصرف عن ذلك من متاع الدنيا ووجاهتها التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة.

قال ابن حجر وهو يشرح قصة كعب: دل صنيع كعب هذا على قوة إيمانه ومحبة لله ولرسوله وإلا فمن صار في مثل حاله من الهجر والإعراض قد يضعف عن احتمال ذلك، وتحمله الرغبة في الجاه والمال على هجران من هجره، ولا سيما مع أمنه من الملك الذي استدعاه إليه أنه لا يكرهه على فراق دينه، لكن لما احتمل عنده أنه لا يأمن من الافتتان بحسم المادة، وأحرق الكتاب ومنع الجواب.. ورجح ما هو فيه من النكد والتعذيب على ما دُعي إليه من الراحة والنعيم حباً في الله ورسوله كما قال ﷺ: «وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»^(٤).

ومثال آخر: قصة الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة السهمي وموقفه مع ملك الروم، حيث أغراه حتى بمشاطرته ملكه فرفض، وهدده بالقتل

(٣) القصة بطولها في «صحيح البخاري»: (ج ٨/١١٣، ح ٤٤١٨) كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، وانظر القصة أيضاً في «تفسير الطبري»: (ج ١٠/١١)، و«تفسير ابن كثير»: (ج ٤/١٦٦ — ١٦٨).

(٤) «فتح الباري»: (ج ٨/١٢١)، والحديث سبق تخريجه (ص ٤٠)، وانظر تعليق ابن القيم على القصة في «زاد المعاد»: (ج ٣/٥٨١).

والحرق فأبى أن يتنصر. كل ذلك دلالة واضحة، وبرهان صادق لعمق ذلك الولاء ورسوخ هذه العقيدة في تلك النفوس العظيمة. ولئن كان موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي - الذي تحدثنا عنه سابقاً - عظيماً في منعه أباه من دخوله المدينة إلا بإذن رسول الله ﷺ. فإن موقف أبي عبيدة رضي الله عنه أعجب من ذلك وأعظم فلقد قتل أباه في معركة بدر لأنه كان كافراً محارباً لله ورسوله، ولم تكن صلة الأبوة تمنعه دون تنفيذ الولاء والنصرة لله ورسوله ودينه والمؤمنين. والبراءة والجهاد لعدو الله الذي رضي بالبقاء في حزب الشيطان ليكون حرباً على المؤمنين.

ومثال آخر: فقد روت كتب السير أن زيد بن الدثنة^(٥) رضي الله عنه، اشتراه صفوان بن أمية - بعد يوم الرجيع - ليقتله بأبيه أمية بن خلف، وخرجوا بزيد إلى التنعيم حيث اجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك؟

قال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي فقال: أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً، ثم قتلوا زيدا رضي الله عنه^(٦).
فأنظر إلى هذا الحب وهذا التفاني وذلك الولاء، وقوة النصر! إنه رضي الله عنه وهو في مكانه البعيد من رسول الله ﷺ - لا يرضى أن تمس رسول الله ﷺ شوكة، فضلاً عن أن يصيبه أكبر من ذلك!!
هذا هو الولاء الصادق الذي بنته هذه العقيدة في النفوس فأخرجت للناس هذه النماذج العظيمة التي تقصر دون عظمتها كل عظمة أرضية.

(٥) زيد بن الدثنة: بفتح الدال وكسر المثلثة ابن معاوية بن عبيد بن عامر بن بياضة الأنصاري شهد بدرًا وأحداً وكان في غزوة بئر معونة فأُسره المشركون وقتلته

قريش بـ «التنعيم». انظر «الإصابة»: (ج ١/٥٦٥).

(٦) انظر القصة في «السيرة» لابن هشام: (ج ٣/١٨١).

ومثال آخر: روى الإمام أحمد وغيره أن أنس بن النضر رضي الله عنه غاب عن قتال بدر فقال: غيبت عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين! لعن الله أشهدني قتالاً للمشركين ليرين الله ما أصنع. فلما كان يوم أحد آنكشف المسلمون فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم فلقى سعد بن معاذ دون أحد فقال: أنا معك، قال سعد: فلم أستطع أن أصنع ما صنع، قال فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف وطعنة رمح ورمية سهم فكانوا يقولون فيه وفي أصحابه نزل قوله تعالى:

فَيَنْتَظِرُ مَنْ قَتَلَ نَحْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ

[سورة الأحزاب: ٢٣].

إن سلفنا الصالح رضوان الله عليهم كانوا شديدي الاعتزاز بدينهم فلم تخدعهم المظاهر الجوفاء، ولا القوى والاعتبارات التي تعبد الناس في الجاهلية، وأصدق مثال على ذلك قصة ربعي بن عامر رضي الله عنه حين قابل رستم، فقد كان الفرس مدججين بالسلاح وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب، ووضعوا البسط والتمارق في مجلس رستم وله سرير من الذهب، فأقبل ربعي يسير على فرس له زباء^(٨) قصيرة، معه سيف غمده لفاقة ثوب خلق، ورمح وجحفة^(٩) وقوس فلما انتهى إلى أدنى البسط قيل له انزل فحملها على البساط فلما آستوت عليه نزل عنها وربطها بوسادتين فشقهما ثم أدخل الحبل فيها، فلم يستطيعوا أن ينهوه ثم قالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم أنتم دعوتوني، فإن أبيت أن آتيكم كما أريد رجعت، فأخبروا رستم فأذن له وقال: هل هو إلا رجل واحد! فأقبل ربعي يتوكأ على رمحه

(٧) مسند أحمد: (ج ٣/٣٠١)، وتفسير ابن كثير: (ج ٦/٣٩٤).

(٨) الزباء: أي طويلة الشعر كثيرته.

(٩) الجحفة: الترس.

وزجه نصل يقارب الخطو، ويزج الفارق والبسط، فما ترك لهم غمرة ولا بساطاً إلا أفسده وتركه منهتكاً مخرقاً، فلما دنا من رسم تعلق به الحرس، وجلس على الأرض وركز رمحاً بالبسط، فقالوا: ما حملك على هذا؟ قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه! فكلّمه فقال: ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أئى قاتلناه أبداً، حتى نفضي إلى موعود الله، قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أئى، والظفر لمن بقي. فقال رسم: قد سمعت مقاتلكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم. كم أحب إليكم؟ أيوماً أو يومين؟ قال: لا تبلى حتى نكتب أهل رأينا ورؤساء قومنا، وأراد مقاربتة ومدافعتة فقال: إن مما سن لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا ألا نمكن الأعداء من آذاننا، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً فانظر في أمرك وأمرهم، وأختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء فنقبل ونكف عنك. وإن كنت عن نصرنا غنياً تركناك منه، وإن كنت إليه محتاجاً منعناك أو المنابذة في اليوم الرابع، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا، وأنا كفيل لك بذلك على أصحابي وعلى جميع من تربى، قال: أسيدهم أنت؟ قال: لا ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض، يجير أذنهم على أعلاهم^(١٠).

ومما يوضح أيضاً صورة الولاء في نفوس أولئك الأخيار قوله ﷺ في غزوة تبوك: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيرة، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم قالوا: وهم بالمدينة؟» قال: «وهم بالمدينة. حبسهم العذر» متفق عليه^(١١).

(١٠) «تاريخ الطبري»: (ج ٣/٥١٩ - ٥٢٠).

(١١) «صحيح البخاري»: (ج ٨/١٢٦، ح ٤٤٢٣) كتاب المغازي، و«صحيح مسلم»: (ج ٣/١٥١٨، ح ١٩١١) كتاب الإمارة.

فانظر إلى هذا الولاء والتناصر حتى ممن حبسهم العذر، لأن هذا أمر لا عذر لهم في تركه، فهم مع إخوانهم بالدعاء والمتابعة. أما اليوم فيرى المغرورون والمجهورون والمنهزمون أن الكفار - كما قال أحدهم - خصوم شرفاء، بل يرونهم أصدقاء أوفياء.

ولكن الذي يجب على المسلمين اليوم أن يفهموه: هو أن الاقتداء بسيرة رسول الله ﷺ وسلفنا الصالح في كل شيء، وفي قضية الولاء والبراء من باب أخص هو الأمر المطلوب منهم وليس عليهم بعد ذلك أن تقوم أصوات أرباب التبعية والولاء للغرب الكافر والشرقي الملحد لتنادي بما قاله وردده من قبلهم. إن هذا الفعل رجعية وتقهقر. بل إن عزم المسلمين المخلصين على تحقيق مقتضيات هذه العقيدة والإصرار على تحكيم الشريعة الربانية هو سبيل النجاح وطريق الفلاح، في الدنيا والآخرة وجدير بهم أن يرتفعوا إلى المستوى المطلوب منهم

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

[سورة آل عمران: ١٣٩].

الفصل الثاني

صورة الولاء والبراء في عصرنا الحاضر

بعد أن سبق بيان قضية الولاء والبراء في التصور الإسلامي، ووقفنا على مدى أهمية الموضوع، وبعد سوق تلك الأمثلة المشرقة من تاريخ الصدر الأول من هذه الأمة: لا بد أن نقف عند وضع المسلمين في العصر الحاضر، لنرى أين يقف المسلمون اليوم من هذه القضية وما مدى التزامهم بها أو تخليهم عنها؟ وما الذي حل بهم؟ وهل هناك مبشرات لتغيير هذا الواقع المؤلم؟

وإنه لمن البدهي هنا أن نقول: إن العالم الإسلامي في العصور المتأخرة قد بلغ دركات الانحطاط والتخلف في كل شيء.

انحطاط في عقيدته حيث ترك ما عليه السلف الصالح وذهب إلى خزعبلات وحواشي علم الكلام الدخيل والخوض في نقاشات بيزنطية لا تمت للواقع ولا تصلحه بأي حال بل تزيده فساداً وأنهياراً.

وانحطاط في التزامه بمقتضيات هذه العقيدة من الجهاد والتميز والعزة حيث استبدل بذلك كله التصوف والخرافات والتواكل، مما أطمع العدو فيهم على هذه الحال.

وتخلف في جميع المجالات العلمية وترك مكان القيادة إلى ذلة التبعية فبعد أن كان المسلمون هم الرواد في كل علم نافع جاء الخلف ليترك ذلك الميراث العظيم الذي أخذته أعداء هذا الدين وأستفادوا به ودفعهم إلى ما وصلوا إليه الآن.

وأخيراً فقد أعطى هؤلاء الخلف للناس: صورة هزيلة رديئة عن الإسلام،

جعلت أعداء هذا الدين يتكالبون عليه من كل حذب وصوب طامعين في إطفاء نور الله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. ولقد غزت العالم الإسلامي جيوش كثيرة وعديدة، وهي على كثرتها وضراوتها العسكرية لم تكتف بهذا بل نوعت أساليب الهجوم، فأستخدمت بعد الهجوم العسكري - الغزو الفكري الخبيث الذي فعل في "المسلم" ما لم تفعله الجيوش الجرارة!

وأول ما حرص عليه الأعداء هو بث سموم التشكيك وقلب المفاهيم حيث أخذ ينشر أمثال هذه الأفكار: "ما للدين ونظام المجتمع؟ ما للدين والاقتصاد؟ ما للدين وعلاقات الفرد بالمجتمع والدولة؟ ما للدين والسلوك العملي في واقع الحياة، ما للدين والملبس وخاصة ملابس المرأة؟ ما للدين والفن؟ ما للدين والصحافة والإذاعة والسينما والتلفزيون؟ وباختصار: ما للدين والحياة؟ ما للدين والواقع الذي يعيشه البشر على الأرض؟" (١٢).

وكان هدف الاستعمار - كما يقول الشيخ محمد الغزالي :-

(تكوين جيل يستحي من الانتساب للإسلام، ويكره أن يرى وهو يقوم بشيء من شعائره، خصوصاً بين المثقفين الكبار والطبقات التي تهيأ للحكم والنفوذ.

الواحد من هؤلاء يحب أن يراه الناس خارجاً من حانة، ولا يحب أن يروه خارجاً من مسجد ومن السهل عليه أن يوصف بأنه زنى بعشرة نسوة، لكن وجهه يسود لو قيل: متزوج من اثنتين أما أن يفكر في تلاوة آيات من القرآن أو يرجع إلى شيء من سنة رسول الله فذلك ما لا يخطر له ببال (١٣).

وأفلح الاستعمار أيضاً في تكوين جيل يرفض العمل تحت لواء الإسلام،

(١٢) «هل نحن مسلمون؟» (ص ١١٠).

(١٣) «كفاح دين»: (ص ١٤٧)، الطبعة الثالثة.

وهذا الجيل هو "الطابور الخامس" الذي ألحق بنا الهزائم في كل ميدان^(١٤).

وحتى لا يكون الحديث مجرد عاطفة أو هجوم - كما يقال ذلك - أرى أن أثبت هنا نصوصاً صريحة واضحة نطق بها أعداؤنا الكفار ونفذوها تدل على مدى عمق عداوتهم للإسلام والمسلمين وإنهم لا يريدون إلا الشر والكيد بهذا الدين وطمس معالمه، وفي هذه النصوص أيضاً عظة وعبرة للمتغافلين والمنهزمين والمبهورين بهم من أبناء جلدتنا ومن الذين ينطقون بلغتنا ويتسمون بأسمائنا. ثم يحكم المنصف بعد قراءتها هل تحقق شيء منها أم لا؟

يقول القس زويمر في مؤتمر القدس سنة ١٩٣٥ م وهو يخاطب المبشرين بالنصرانية في العالم الإسلامي ما نصه: (.. إن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية - ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية - فإن في هذا هداية لهم وتكريماً!! وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، ولذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية. وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أهتمكم عليه وتهنئكم دول المسيحية والمسيحيون جميعاً من أجله كل التهنة)^(١٥). وسترد بقية هذه الكلمة. ومع وضوح هذا النص الصليبي الحاقد وجد من "المستسلمين" - وهو محسوب من العلماء - من يقول إن قضية زمالة الأديان والتسامح بينها والتقارب والالتقاء بينها أمر محبب كما قد سبق ذكر ذلك في الباب الثاني. مما يدل على مدى الغفلة وعمق الجهل بحقيقة الإسلام وبحقيقة عداوة أعدائه له.

(١٤) انظر «حصار الغرور»: (ص ٣٩).

(١٥) «جنود البلاء» للأستاذ عبد الله التل: (ص ٢٧٥)، الطبعة الثانية.

ويقول لويس التاسع: إن الغزو العسكري لا يكفي لهزيمة المسلمين ولكن لابد من غزو عقيدتهم.

ثم نجد عدواً آخر يقول - وهو يتابع عودة المسلمين إلى إسلامهم -:
(إلا إن ثمة قوة جديدة بدأت تظهر ألا وهي الدعوة إلى إسلام "مُتَزَمِّتٍ" والسعي عن طريق الإسلام إلى نظام حياة لا يكون نسخة عن نظام آخر ولا تقليداً له، بل يكون خاصاً بهويته وتقاليده ومصالحه المعنوية والمادية) (١٦).

ويقول وليم جيفورد بالكراف: (متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه) (١٧).

وبالرغم من مئات النصوص التي تشبه ما ذكرنا، والتي مؤداها جميعاً: طمس الإسلام وإخراج المسلمين من إسلامهم فقد وجد للأسف في بلاد المسلمين من كان عوناً لهؤلاء الأعداء على خططهم، أو من ميع قضايا الإسلام في سبيل ملاينة أعداء الله.

يقول الأستاذ عبد القادر عودة رحمه الله: إن بعض الأقطار التي تسمي نفسها إسلامية، تبيح للمبشرين من الانجليز والفرنسيين والإيطاليين والأمريكيين أن ينشعوا مدارس للتبشير بالدين المسيحي في بلادهم حتى تفتن أطفال المسلمين عن دينهم، بل إن بعض الأقطار منع تعليم الدين الإسلامي في المدارس الحكومية وأهمل دراسة التاريخ الإسلامي في الوقت الذي يركز فيه الاهتمام بتدريس تاريخ أوروبا وتمجيد حضارتها وأنها هي قبة الرقي والمدنية (١٨).

(١٦) الجنرال بيار غالوا. عن مجلة «المجتمع الكويتية»، العدد ٤٥٠، (ص ٤)، سنة ١٣٩٩هـ.

(١٧) «الغارة على العالم الإسلامي»: (ص ٩٤)، الطبعة الثانية.

(١٨) انظر «الإسلام وأوضاعنا القانونية»: (ص ٧٥)، الطبعة الثانية.

وإذا كان هذا على مستوى الحكومات، فإن الأفراد أشد إغفالاً في ذلك وهم صنفان:

(١) صنف من العلماء الذين لهم مكانة في التاريخ الحديث، وكتب عنهم مجلدات فيها من المدح واللقاب الإصلاح ما آله به عليهم، ولكن التاريخ كشف عن هويّاتهم ومواقفتهم.

ومنهم عبده الرحمن الكواكبي: هذا الرجل الذي يعتبر من أسبق الناس ظهوراً في الدعوة إلى التفريق بين السلطة الدينية والسلطة السياسية. وقد أصدر كتاب "أم القرى" سنة ١٨٩٩م. وورد في هذا الكتاب آراء لم تخل من إشارات مريّة إلى موالاة الدول الأوروبية المستعمرة حيث قال فيما قال: (وكفتح أبواب حسن الطاعة للحكومات العادلة والاستفادة من إرشاداتها وإن كانت غير مسلمة، وسد أبواب الانقياد المطلق ولو لمثل عمر بن الخطاب) (١٩).

أما الشيخ محمد عبده: فكما يقول عنه الأستاذ غازي التوبة: قد تجاوز تعاونه مع الانجليز المحتلين لمصر إلى التعاون مع الجواسيس المستشرقين في انكسار نفسها، حيث تتضح ثقتهم المطلقة به، وتعاونه البعيد معهم في الرسائل المبعوثين إلى "المستر بلنت" جواباً على سؤال الأخير عن رأي المفتي في الحالة السياسية الجديدة في مصر، وعن رأيه في الدستور المناسب لمصر. وقد أورد محمد رشيد رضا نصّ الرسائل في الجزء الأول من تاريخه ص ٨٩٩ - ٩٠٢، وورد في الرسالة الثانية الفقرة الثالثة قوله: (إذا فرض إن كان بعض الوزراء من الانكليز وكان لهم مرؤوسون من المصريين فإنه ينبغي أن يعطى هؤلاء المرؤوسون المصريون أو الوزراء الثانويون سلطة تسمح لهم بأن يفصلوا في جميع المسائل المختصة بالدين وما أشبه ذلك تحت مراقبة الوزراء الأصليين

(١٩) انظر كتاب «أزمة العصر» للدكتور محمد محمد حسين: (ص ١٨ - ٢٠) حول هذا الموضوع.

بحيث لا يكون الموظفون المصريون مجرد العوبة في أيديهم كما هو الحال الآن (٢٠). هذا هو رأي الشيخ الذي نعت بمصلح العصر.

أما عباس محمود العقاد فيقول في كتابه «التفكير فريضة إسلامية»: ما الذي يمنح المسلم أن يعمل للديموقراطية، أو يعمل للاشتراكية، أو يعمل للوحدة العالمية؟

وما الذي يمنح المسلم من أحكام دينه أن يقبل مذهب التطور أو يقبل الوجودية في صورتها المثلث؟

إلى أن قال: إن عقيدة المسلم لا تمنعه من أن يكون اشتراكياً (٢١). وأنا أعلم مثل ما علم غيري أن هذا الكلام قد يقابل بالاستنكار والاستغراب لأنه خلاف المعهود ولكن أقول ما قاله الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين رحمه الله في كتابه القيم «الإسلام والحضارة الغربية» حيث قال:

(نحن حين ندعوا إلى إعادة النظر في تقويم الرجال لا نريد أن نتقص من قدر أحد، ولكننا لا نريد أن تقوم في مجتمعنا أصنام جديدة معبودة لأناس يزعم الزاعمون أنهم معصومون من كل خطأ، وأن أعمالهم كلها حسنات لا تقبل القدح والنقد، حتى إن المخلوع بهم والمتعصب لهم والمروج لأرائهم ليهيج ويموج إذا وصف أحد الناس إماماً من أئمتهم بالخطأ في رأي من آرائه، في الوقت الذي لا يهيجون فيه ولا يموجون حين يوصف أصحاب رسول الله ﷺ بما لا يقبلون أن يوصف به زعمائهم المعصومون فيقبلون أن يوصم سيف الإسلام خالد بن الوليد بأنه قتل مالك بن نويرة في حرب الردة طمعاً في زوجته، ويرددون ما شاع حول ذلك من أكاذيب. ويقبلون

(٢٠) «الفكر الإسلامي المعاصر. دراسة وتقويم»: (ص ٣٥ — ٣٧).

(٢١) «موسوعة العقاد»: (ج ٩٥٨/٤)، وانظر «الفكر الإسلامي» لغازي التوبة: (ص ١٧١).

أن يُلطخ تاريخ ذي النورين عثمان بن عفان بما ألصقه به ابن سبأ اليهودي من تهم.. يقبلون ذلك كله ثم يرفضون أن يمس أحد أصنامهم بما هو أيسر منه، ويحتمون بحرية الرأي في كل ما يخالفون به إجماع المسلمين، ويأبون على مخالفتهم في الرأي هذه الحرية. يخطئون كبار المجتهدين من أئمة المسلمين ويجرحونهم بالظنون والأوهام ويثرون لخطئة ساداتهم أو تجريحهم بالحقائق الدامغة (٢٢).

إننا لابد أن نقول للمخطيء أنت مخطيء وللمصيب نقول: أحسنت وبارك الله فيك. لذا فإن أنزلاق هؤلاء العلماء. أو غيرهم في قضية موالة الكفار أو التساهل معهم في بعض الأمور بغير دليل شرعي أمر يرفضه الإسلام ويأباه لأن موضع القدوة لنا هو رسول الله ﷺ وصحابته الأجلاء وسلفنا الصالح وكفى. وليس من حق فرد - كائناً من كان - أن يجعل من آرائه وعلمه سلماً يرتقي عليه الموالون للكفار، ثم يزعم بعد هذا أنه داعية إسلامي، أو مصلح عظيم!!

(٢) أما الصنف الثاني: فهم الذين صنعهم الاستعمار على عينه، ورباهم تربية أوروبية خالصة في التفكير والسلوك من أجل أن يكونوا أداة للتقريب بين المسلمين وبين المستعمر الأوروبي.

ومن هذا الصنف طه حسين: الذي يقول في كتابه مستقبل الثقافة في مصر: لكن السبيل إلى ذلك - أي الرقي - ليست في الكلام يرسل إرسالاً، ولا في المظاهر الكاذبة والأوضاع الملتفة، وإنما هي واضحة بيّنة ومستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي واحدة فذة ليس لها تعدد، وهي: أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة

(٢٢) «الإسلام والحضارة الغربية»: (ص ٥٠).

خيرها وشرّها، حلوها ومرّها، وما يُحب منها وما يُكره وما يُحمد منها وما يُعاب^(٢٣).

ومادام أننا عرفنا هدف أعدائنا بصورة عامة، ووقفنا على حقيقة بعض مواقف المخدوعين بهم: فإنه لحرّي بنا أن نعرف بعض تفاصيل خططهم ووسائلهم التي منها:

(١) التربية والتعليم :

العلم كما يقال - صلاح ذو حدّين، ومن هذا المنطلق أدرك أعداء الله من جميع الكفار أن صخرة العقيدة الإسلامية لا يمكن النيل منها عن طريق القوة والسلاح فهي قد أدمتهم كثيراً، ولا يستطيعون الصمود أمام هتاف المجاهدين الصادقين في سبيل الله، ولذلك لجأوا إلى وسيلة أخرى هي أخبث في التأثير وأشد في الدماء. وهذه الوسيلة هي غزو مناهج التربية والتعليم في العالم الإسلامي بأفكار ونظريات وشبهات وشكوك يضيفي عليها - كذباً وبهتاناً - ثوب التجرد العلمي، والبحث العلمي!! وسلك أعداء الإسلام في هذا سبيلين:

الأول: السيطرة على التعليم في الداخل.

والثاني: عن طريق الابتعاث إلى الدول الكافرة.

فأما الأمر الأول فيقول عنه القس زويمر - الذي أوردنا صدر كلمته سابقاً -: (.. لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية المستقلة أو التي تخضع للنفوذ المسيحي أو التي يحكمها المسيحيون حكماً مباشراً، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير المسيحي

(٢٣) «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»: (ج٢/٢٢٩)، طبعة بيروت، وهالفكر الإسلامي لغازي التوبة: (ص١٠٤).

والكنائس والجمعيات وفي المدارس الكثيرة التي تهيمن عليها الدول الأوروبية والأمريكية وفي مراكز كثيرة ولدى شخصيات لا تجوز الإشارة إليها، الأمر الذي يرجع الفضل فيه إليكم أولاً وإلى ضروب كثيرة من التعاون بارعة باهرة النتائج، وهي من أخطر ما عرف البشر في حياته الإنسانية كلها. إنكم أعددتكم بوسائلكم جميع العقول في المسالك الإسلامية إلى قبول السير في الطريق الذي مهدتم له كل التمهيد "إخراج المسلم من الإسلام" إنكم أعددتكم نشأاً لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه في المسيحية وبالتالي: جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أرادته له الاستعمار، لا يهتم بالعظائم ويحب الراحة والكسل، فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع فللشهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يوجد بكل شيء (٢٤).

أجل صدق هذا القس وهو كافر أن هناك جيلاً تربي على ثقافة الغرب فخرج لا يعرف الصلة بالله أبداً.

وأنطلاقاً من مبدأ هذا الصليبي الحاقد قام "اللورد كرومر" - المعتمد البريطاني في مصر أيام الاحتلال - بإنشاء كلية فكتوريا حيث قصد بها تربية جيل من أبناء الحكام والزعماء والوجهاء في محيط انجليزي ليكونوا من بعدهم أدوات المستعمر الغربي في إدارة شؤون المسلمين (٢٥).

وجاء "ذلوب" المتخرج من كلية اللاهوت البريطانية ليرسم سياسة التعليم في مصر، حيث وضع مناهج كفيفة بإخراج النماذج التي عنها القس زويمر "لا تعرف الصلة بالله".

ومصادق ذلك أن درس الدين لا يدرس منه إلا نتف يسيرة مثل: إن الإسلام جاء ليبطل عبادة الأوثان ويعبد الله الواحد، ويحرم وأد البنات. وأستاذ

(٢٤) - «جنور اللاء»: (ص ٢٧٦).

(٢٥) «الإسلام والحضارة الغربية» للدكتور محمد محمد حسين: (ص ٤٦).

هذه المادة يختار من أسن الأساتذة وبمظهر رث، ثم تلغى مادة الدين في نهاية العام الدراسي^(٢٦).

أما مادة التاريخ فكان يخفى على الطالب فيها: أن الإسلام جاء ليحارب الشرك بكل مظاهره ويعطي نبذاً عن دراسة صدر الإسلام، وأن مهمة الإسلام تغيير ما كان عليه العرب في جاهليتهم ويركز فيه أيضاً على الجانب السياسي والصراع بين الطبقات الحاكمة. أما حياة المجتمع الإسلامي فلا شيء يذكر من ذلك.

وكذلك البطولات الإسلامية والحركة العلمية الإسلامية. كل ذلك يخفى عن الطلاب في الوقت الذي يدرس فيه بتوسع تاريخ أوروبا ونهضتها ورجالها وأبطالها وأنها بلد التقدم والرقى ومهبط المدنية لأن فيها فحماً وحديداً!!^(٢٧).

وخلاصة القول أنه كان يلحق الطلاب أن أوروبا هي العملاق الضخم الذي لا يقهر. والإسلام هو القزم الضئيل الذي عليه أن يتعبد هذا العملاق ليعيش^(٢٨).

وأما السبيل الثاني: وهو الابتعاث إلى الخارج أي إلى الدول الكافرة فقد حقق هذا نتائج ترضي من خطط لها. ذلك أن هذا الابتعاث - في الغالبية العظمى منه - يكسر صفة التميز بين المسلم والكافر، ويجعل ولاء المسلم متذبذباً وهو يرى ما بُهر به، ثم إنه يزيد الطالب بجهالة بدينه وقيمه ومثله، ويزيده تعلقاً بالغرب أو الشرق ويبدأ بتطبيع بطابع غير إسلامي، ثم يصير هذا التطبيع

(٢٦) انظر «هل نحن مسلمون؟» (ص ١٣٦ - ١٣٨)، ومذكرة المذاهب الفكرية المعاصرة» للأستاذ محمد قطب لطلاب السنة المنهجية بالدراسات العليا في كلية الشريعة.

(٢٧) انظر المصدرين السابقين.

(٢٨) «هل نحن مسلمون؟» (ص ١٤١).

- مع الزمن - طبعاً، ثم أنسلاًخاً من حيث يشعر الطالب أو لا يشعر فتجده في لبسه ومأكله ومشربه وكلامه وطريقة تعامله، غربياً، أو شرقياً بل ربما أكثر من ذلك^(٢٩).

وكان من أوائل المبتعثين وأولهم سيقاً في خدمة ما أريد له: رفاعة الطهطاوي حيث مكث في فرنسا خمس سنوات من ١٨٢٦ - ١٨٣١م ولما رجع بدأ ينشر كلاماً يسمع للمرة الأولى في البيئة الإسلامية مثل: الوطن والوطنية والاهتمام بالتاريخ القديم ليدعم به المفهوم الوطني الجديد، ثم يتحدث عن الحرية وأنها سبيل التقدم وكذلك طالب بتقنين الشريعة على نمط المدونات القانونية الأوروبية، ثم يتحدث بكلام كثير وطويل عن المرأة. كتعليمها ومنع تعدد الزوجات وتحديد الطلاق واختلاط الجنسين^(٣٠).

وخلاصة ما يزيده أعداء الإسلام في قضية التربية والتعليم هو ما قاله المستشرق "جب" في كتابه "وجهة الإسلام" حيث قال:

(.. والسبيل الحقيقي للحكم على مدى التفريب "أو الفرنجة" هو أن نتبين إلى أي حد يجري التعليم على الأسلوب الغربي، وعلى المبادئ الغربية، وعلى التفكير الغربي.. هذا هو السبيل الوحيد، ولا سبيل غيره، وقد رأينا المراحل التي مر بها طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الإسلامي، ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين، وقليل من الزعماء الدينيين)^(٣١).

إن العالم الإسلامي كله اليوم يسير في تعليمه وتربيته العلمية على النهج الغربي والشرقي بدليل أن كل الجامعات - مثلاً - تدرس نظرية فرويد في

(٢٩) انظر «أساليب الغزو الفكري» للدكتور علي جريشة وزميله: (ص ٦٤ - ٦٥).

(٣٠) يراجع في هذا بتوسع كتاب «الإسلام والحضارة الغربية» للدكتور محمد محمد حسين: (ص ١٧ - ٣٠).

(٣١) عن «الانجاءات الوطنية»: (ج ٢/ ٢١٧)، الطبعة الثالثة.

البحوث النفسية، ونظرية دوركايم في علم الاجتماع، ونظرية ماركس الاشتراكية والشيوعية، ونظرية فريزر في علم مقارنة الأديان.

وينادى بإحياء الجاهليات التي سمّاها الله في كتابه وستة رسوله جاهلية: تدرس على أنها حضارة راقية ضاربة في أعماق التاريخ أكثر من سبعة آلاف سنة!!

وكذلك التنفي بأمجاد أوروبا ومعرفة "أبطال" حضارتها، وفصل الدين عن الدولة، وأن الدين علاقة بين العبد وربّه ولا دخل له في شؤون الحياة.. كل ذلك كان ثماراً طبعية للغزو الثقافي^(٣٢).

وأخيراً: فإن هذه المناهج التعليمية قد جردت المسلم من ولائه لله ورسوله ودينه وإخوانه المؤمنين ومحت عداوته لأعداء الله، فنشأ جيل لا يعرف الصلة بالله، ولا يقيم ولاءه وانتماءه على أساس عقيدته بل على ما تعلمه وانتسب إليه من المذاهب والانتماءات الجاهلية.

صورة من صور الولاء الفكري المعاصر

وتستوقني هنا صورة واحدة أجد أن ذكرها هنا ذو أهمية بالغة ذلك أن هذه الصورة يظهر فيها بوضوح حب التبعية للغرب، مع الاعتزاز والفخر بالتعليم العلماني والمطالبة - وبالبحاح شديد - بعودته - إن كان قد فقد - وإلا ففتح الأبواب له على مصارعها إذا كان مضيقاً عليه.

كتب رئيس تحرير جريدة يومية مقالاً طويلاً بعنوان "الإنسان العربي ومعضلة التعليم"، وجاء هذا المقال في صفحتين كاملتين من الجريدة هما الصفحة الثانية والثالثة.

(٣٢) حبذا الاطلاع بتوسع على رسالة العلمانية وأثرها في العالم الإسلامي، للأستاذ سفر بن عبد الرحمن الحوالي.

واليك مقتطفات من هذا المقال لتري فيه الصورة الصادقة للولاء والتبعية
لأعداء الله.

قال الكاتب:

(إن التعليم في البلاد العربية ارتبط بأسلوبين مختلفين: الأول: المنهج الذي وضعه دنلوب باشا البريطاني ناظر المعارف في مصر، والذي انعكست آثاره على بقية الرقعة العربية من خلال الاتفاقيات الثقافية الثنائية أو الجماعية ويقوم هذا المنهج التعليمي على إبطال القدرة على التفكير "وتفريخ" العديد من الكتبة الذين يؤدون وظائف روتينية لا تحتاج إلى أكثر من معرفة متقنة لقواعد القراء والكتابة.. وبمنظرة مجردة نجد أن غالبية المتعلمين في بلادنا ينتمون إلى هذه المدرسة) .

وصدق الكاتب في أكثر ما قاله هنا وإن كان أعترضنا على منهج دنلوب لا يقتصر على هذه النقطة إنما يتنصب ابتداء على نقطة أخطر منها بكثير هي تخريج أجيال من المسلمين لا تعرف حقيقة الإسلام بل تتجه إلى الانسلاخ من الإسلام والارتقاء في تبعية ذليلة للغرب. ثم تابع معي ما يقول:

والأسلوب الثاني في التعليم داخل الوطن العربي. بريطاني أيضاً، ويهدف هذا الأسلوب - على خلاف الأول - إلى خلق مجموعات بشرية تمتلك القدرة على التفكير السليم بالأنماط الغربية!!

وتجسد هذا الأسلوب في مدرستي كلية فكتوريا في الإسكندرية والقاهرة.. وعلى خلاف ما قيل عن هذه المدارس التي اتهمت بالتربية الاستعمارية أو الأدوار التبشيرية فإن الأدلة الدامغة تثبت أن معظم مفكري أبناء الأمة العربية الذين تلقوا تعليمهم الأولي والثانوي داخل منطقة الشرق الأوسط ينتمون إلى إحدى هاتين المدرستين ذلك لأن النظام التعليمي بهما يعتمد على أسلوب البحث العلمي! الذي ينمي في الطفل والشاب طوال

مدارج التعليم: القدرة على التفكير السليم وإيجاد العلاقات بين الظواهر المختلفة.

وتتضح جدية هذا الدور التعليمي من واقع المناهج الدراسية المقررة التي كانت هي ذات المناهج المقررة على الطلبة البريطانيين بأسلوب اكسفورد وكامبردج في مراحل التعليم العام، المبدئي والإعدادي والثانوي.. فالباعث الحقيقي لوضع هذا الأسلوب التربوي والتعليمي من خلال فكتوريا الأسكندرية والقاهرة كان يهدف إلى إيجاد مجموعات من أبناء البلاد العربية، بمستوى ثقافي قادر على التفاهم، والتعامل مع الغرب في مواطن المعرفة العلمية، التي تربط بينهم بأسلوب المخاطبة المتعارف عليها!

وآستطاع بالفعل أبناء الأمة العربية المتخرجون من هاتين المدرستين حتى بعد تلقيهم التعليم الجامعي سواء في بريطانيا أو أمريكا أو حتى داخل الوطن العربي أن يقوموا بأدوار واضحة في خدمة مصالح بلادهم من المواقع المختلفة نتيجة توافر القدرة لديهم في مخاطبة الغرب بالأسلوب العلمي المقبول والمفهوم نتيجة آنسجام منطق التفكير عندهم مع المعطيات الحضارية المعاصرة!.

ثم تحدث الكاتب - وهو يؤدي دوره - عن الصراع بين مدرسة فكتوريا ومدرسة دنلوب وعن الرابطة التي جمعت بين خريجي كلية فكتوريا ثم قال إن هذه الرابطة ألغيت ولكن مع هذا الإلغاء "ظل الترابط والود" قائماً بين هؤلاء الخريجين، حتى قامت رابطتهم الجديدة المنظمة بشكل دقيق في العاصمة البريطانية لندن. ولقد أقيم هذا الاحتفال الجديد في يوم الجمعة ٤ مايو سنة ١٩٧٩م.

وبعد هذا تساءل الكاتب: لماذا ألغيت هذه الكلية مع أن مدرسة دنلوب لا تزال قائمة؟ ثم تحدث عن البديل للمناهج الهزيلة التي تدرس الآن فقال: (وبغض النظر عن تعاطفي الشخصي مع كلية فكتوريا كمدرسة أجنبية وجدت على التراب العربي، تشرفت بالانتماء إليها: فإنني أجد أن الإسراع

في فتحها الآن بالأنماط التعليمية التي كانت تمارسها من المنابع الفكرية السائدة في اكسفورد وكامبردج كقيلة بأن تمثل أولى الخطوات السليمة على الخط العلمي الذي نهدف إليه... ومن الممكن التوسع في فتح المدارس الأجنبية المختلفة البعيدة عن السمات التبشيرية وهي كثيرة وكفيلة بإخراج أنماط متعددة من التفكير العلمي السليم الذي يلتقي مع غيره من أنماط علمية سليمة أخرى، ليؤدي التفاعل بينها إلى خلق القدرة العربية في الوصول إلى أسلوب المخاطبة مع الغرب، والتعبير عن مصالحنا وأهدافنا القومية (٣٣).

إنني أعتقد أن هذه الفقرات التي أوردتها كافية في الدلالة على صدق صورة هذه الموالاة للغرب، وهي صادقة أيضاً في براء هذا الفكر من الفكر الإسلامي السليم.

فالكاتب لا يرى في الإسلام بديلاً صالحاً للمناهج الهزيلة التي تدرس الآن في العالم الإسلامي، لأنه غير مقتنع بصلاحية الإسلام، الذي يربي المؤمنين على العقيدة الإسلامية الصحيحة وعلى الولاء الخالص الصادق لهذه العقيدة. مع البراء من كل دخیل عليها، والشعور بالاعتزاز بهذه المكرمة الربانية التي لا يستحق هذا الكتاب وأمثاله أن يتحلوا بها. لأنها لا تكون إلا لمؤمنين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وليست لمجموعة من "أفراخ" التعليم الغربي الكافر.

فهل وعى ذو الحجى منا خطورة هؤلاء التلاميذ الذين ينشرون هذا الكلام في صحفنا ويضعون مناهج التعليم في بلادنا؟

اللهم بلقت اللهم فأشهد.

(٢) وسائل الإعلام :

لوسائل الإعلام - الكتاب، القصة، الإذاعة، التلفزيون، المجلة، الجريدة

(٣٣) جريدة عكاظ، العدد الأسبوعي، رقم ٤٧٢٨، بتاريخ: ١٦/٦/١٣٩٩هـ.

السينما وأخيراً الفيديو - أثر كبير وخطير على جميع طبقات المجتمع وقد أدرك أعداء الإسلام خطورة الوسائل وما لها من تأثير عميق فأحكموا قبضتهم عليها، وبثوا من خلالها ما رسموه لإفساد المسلمين وإخراجهم من إسلامهم.

وجميع هذه الوسائل تحرص - وبكل ما أوتيت - على فسخ وخلع ولاء المسلم لدينه وإخوانه المؤمنين وتركز بكل قوة على تدويب تميز المسلم عن غيره، وعلى زعزعة برائه وعداوته للكفار، حيث تحسن للناس: أن البلاد الصناعية هي بلاد الحرية وبلاد التقدم وبلاد العلم والرقى والمدنية وأن الذي يشعر أو يدين بالعداوة الدينية لهذه الشعوب العظيمة هو إنسان لم يعرف روح العصر وروح العلم الذي مزق الحواجز بين الأجناس ووصل القارات وجعل الناس إخوة في الشرق والغرب!! وهي البلاد التي يستطيع الإنسان فيها أن يمارس ما يشاء وكيف شاء!!

ولقد قامت وسائل الإعلام في البلاد الإسلامية - ولا تزال تقوم - بحرب شعواء على الدين الإسلامي وعلى المسلمين ففضلاً عن أنها تحسن وتدعو إلى موالاة الكفار: هي أيضاً حريصة على نشر الفاحشة في الدين آمنوا.

والمتبع للصحف الصادرة في أوائل هذا القرن الميلادي يجد فيها صورة صادقة لما نقول فصحيفة المقطم - مثلاً - تجددها موالية للانجليز، تعمل لحسابهم، وتصور أفعالهم بأنها أفعال إنسانية، حيث أنهم - أي الانجليز - لم يقيموا في مصر إلا لرفع الظلم وإحياء العدل، وإليهم وحدهم يرجع الفضل في إنقاذ مصر من كل ما أصابها!! وكذلك كانت مجلة المقتطف تدور كتابتها وآراؤها حول هذا الموضوع^(٣٤).

وقد عملت هذه الصحف والمجلات المأجورة على إماتة الجهاد

(٣٤) انظر بتوسع «الانجماوات الوطنية»: (ج ١/٩٠ - ١١٣).

بمفهومه الإسلامي الصحيح، وتردد ما يقوله أسياها من أن المسلمين أناس همج يحبون الحروب وسفك الدماء، ولا تتسع صدورهم للتسامح "لأنهم متعصبون"!!

فإذا أرادوا الخروج من هذه الوصمة فعليهم بالتسامح والتحبب للآخرين وتغيير النظرة إليهم، ويجب عليهم أن يبرأوا من ذلك "التراث" الذي يعمق تلك الروح المتعصبة في نفوسهم^(٣٥)!

وكذلك كانت مجلة الهلال والمقتطف تعملان على (تطوير الفكر الإسلامي وإشراجه الروح العلمانية التحررية التي سادت أوروبا في القرن التاسع عشر)^(٣٦).

ومن المهام التي عنت بها وسائل الإعلام: إشاعة الفاحشة، والإغراء بالجريمة، والسعي بالفساد في الأرض لخلخلة العقيدة وتحطيم الأخلاق وإذا انهدم الركنان الأساسيان - وهما العقيدة والأخلاق - فكيف يرجى بعد ذلك قيام بناء سليم^(٣٧)؟

وإذا كان هذا هو تأثير وسائل الإعلام بوجه عام، فكيف إذا علمنا أن معظم القائمين على هذه الصحف والمجلات، أناس كفار، قد ملكت صدورهم حقداً وكراهية لهذا الدين، وأمتلأت نفوسهم غيظاً من شدة ما يرون من تأثير هذا الدين، وما تصنعه هذه العقيدة.

وهؤلاء كثير. منهم على سبيل المثال لا الحصر: جورجى زيدان مزيف التاريخ وهو صاحب دار الهلال وسليم تقلا مؤسس جريدة الأهرام، ويعقوب وقواد صروف صاحب المقتطف.

(٣٥) انظر المصدر السابق: (ج ١/ ١١٢).

(٣٦) «الإسلام والحضارة الغربية»: (ص ٦٠).

(٣٧) انظر «أساليب الغزو الفكري»: (ص ٧١)، الطبعة الثانية.

وهذه الوسائل قد قامت بمحاربة الله في الأرض، تريد أن تحلل ما حرم الله، وتحرم ما أحل الله، فنصبت نفسها طاغوتاً يعبد من دون الله.

ومصدق ذلك: أن الصحافة المأجورة أيام تأسيسها في مصر ظلت تكتب عن مشكلة البغاء ثلاثين سنة، وكذلك عن مشكلة المرأة واختلاطها بالرجال، وتحطيم هيبة الدين ووصنه بالرجعية والجمود والتقاليد البالية، وأنه لم يعد صالحاً لمواكبة العصر، كما قال ذلك الصحافي المأجور "هيكل" حين قال: (إن التقدم التكنولوجي قد أحال أقدم الكتب الدينية - أي القرآن - إلى أوراق صفراء تحفظ في المتاحف)^(٣٨). بل تعدت وسائل الإسلام المأجورة من قبل أعداء الإسلام على الألوهية. فقال نجيب محفوظ في إحدى قصصه إن الله قد مات^(٣٩) ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾.

أما عن قضية حجاب المرأة المسلمة فهذا شيء هاجت له جميع وسائل الإعلام ولا تزال وأول من قاد هذه الدعوة المحمومة قاسم أمين في كتابه «تحرير المرأة» و «المرأة الجديدة» ونادى بالمرأة المصرية أن تجاري أختها الأوروبية في كل شيء، ومن ثمار هذه الدعوة من سميت أمينة وهي ليست أمينة، إنها أمينة السعيد التي قالت وهي تهاجم الحجاب: (عجبت لفتيات مثقفات كيف يلبسن أكفان الموتى وهن على قيد الحياة)، وقبلها كانت «الزعيمة» هدى شعراوي وصفية زغلول، وغيرهما من اللاتي أحرقن الحجاب في ميدان الإسماعيلية الذي سمي بعد ذلك «ميدان التحرير»^(٤٠)!

وخلاصة ما يمكن أن نقوله عن وسائل الإعلام ومن يخطط لها: إنها قلبت المنكر معروفاً وأمرت به، وقلبت المعروف منكراً ونهت عنه.

(٣٨) نقلاً عن «مذكرة المذاهب الفكرية» للأستاذ محمد قطب.

(٣٩) انظر المصدر السابق.

(٤٠) راجع كتب الدكتور الأستاذ محمد محمد حسين «الاتجاهات الوطنية»، و«الإسلام والحضارة الغربية»، و«حصوننا مهددة من داخلها».

ومن يراجع بروتوكولات حكماء صهيون يجد مصداق ما ذكرنا كله حرفاً بحرف بل وأكثر من ذلك، وإليك هذا النص الصريح من نفس البروتوكولات.

جاء في البروتوكول الثالث عشر ما نصه: (ولكي نبعد الجماهير من الأمم غير اليهودية عن أن تكشف بنفسها أي خط عمل جديد لنا سنلهمها بأنواع شتى من الملاحى والألعاب وهلم جرًا.

وسرعان ما سنبدا الإعلان في الصحف داعين الناس إلى الدخول في مباريات شتى من كل أنواع المشروعات كالفن والرياضة وما إليها.

إن هذه المتع الجديدة ستلهي ذهن الشعب حتماً عن المسائل التي سنختلف فيها معه وحالما يفقد الشعب تدريجياً نعمة التفكير المستقل بنفسه سيهتف جميعاً معنا لسبب واحد هو: إننا سنكون أعضاء المجتمع الوحيد بين الذين يكونون أهلاً لتقديم خطوط تفكير جديدة.

وهذه الخطوط سنقدمها متوسلين بتسخير آلاتنا وحدها، من أمثال الأشخاص الذين لا يستطيع الشك في تحالفهم معنا.

إن دور المثاليين المتحررين سيتتهي حالما يعترف بحكومتنا وسيؤدون لنا خدمة طيبة حتى يحين ذلك الوقت، ولهذا السبب سنحاول أن نوجه العقل العام نحو كل نوع من النظريات المهرجة التي يمكن أن تبدو تقدمية أو تحررية.

لقد كان نجاحنا نجاحاً كاملاً بنظرياتنا على التقدم في تحويل رؤوس الأميين الفارغة من العقل نحو الاشتراكية. ولا يوجد عقل واحد بين الأميين يستطيع أن يلاحظ أنه في كل حالة وراء كلمة «التقدم» يختفي ضلال وزيف عن الحق» (٤١).

(٤١) «بروتوكولات حكماء صهيون»: (ص ١٦٨)، ترجمة محمد خليفة التونسي، الطبعة الرابعة، وانظر «مكائد يهودية» للميداني: (ص ٣٤٦).

وأحسب أن كل عاقل سيقف بروية عند قولهم (و حالما يفقد الشعب تدريجياً نعمة التفكير المستقل بنفسه سيهتف جميعاً معنا.. إلخ).

ولكن مع هذا أيضاً نقول: إن هذا الغزو الفكري مهما كان من الشراسة والخنكة والتخطيط مع الدقة وضبط التوقيت المناسب للمادة المناسبة مع هذا كله فإن المسلمين أو أكثر المحسوبين على الإسلام قد أسهموا في عمل هذه الوسائل الخبيثة لأنهم ابتعدوا عن دينهم وتخلوا عن مفاهيم عقيدتهم والله سبحانه لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

٣ - نشر كتب المستشرقين

لئن كانت حركة الترجمة الأولى قد صاحبها من الانحرافات ما سبقت الإشارة إليه، فإن حركة الترجمة المعاصرة أشد خبثاً من سابقتها وأكثر إفساداً منها.

ذلك أن الترجمة الحديثة لم تكن في غالب الأحوال عن طريق غير المسلمين فحسب، بل اتجهت إلى ترجمة كتب المستشرقين الحاقدين الذين قاموا بأعمال فكرية كثيرة هدفها الأساسي تشويه مصادر التلقي عند المسلمين وتكديرها بالأفكار المغرضة والدسائس الحاقدة. لينشأ جيل إسلامي مفصول العرى عن دينه وأمته، يتخذ من الطرائق الغربية في التفكير والبحث قبلته الوحيدة، ولا يشعر بالانتماء للإسلام ديناً ومنهجاً وحضارة.

وكتابة المستشرقين تتفق في معظمها على أسلوب واحد. هو: إنها دراسات موجهة من قبل المستشرقين أنفسهم ومن قبل من يمولهم في عملهم فهي ليست دراسات علمية يقصد بها وجه العلم، يدل على ذلك قول «سمث» في كتابه «الإسلام في التاريخ الحديث» في الفصل الثالث الذي تكلم فيه عن العرب: (إن الإسلام كان عاملاً أساسياً وسبباً مهماً من أسباب وجود الهوة التي تفصل بين الغرب والعرب) ثم يقول: (لقد أصبح من

الحقائق الجديدة في مدينتنا العصرية أن من الواجب سدّ هذه الثغرات، ببناء قنطرة فوق مثل هذه الهوة، وخلق الأسباب الموصلة للتفاهم والتواصل... وخلق مثل هذا التفاهم بين المدينيات المختلفة والأديان المتباينة يتطلب جهوداً مبتكرة لا يتوصل إليها إلا بصعوبة^(٤٢).

(ولقد قام المستشرقون بجهود كبيرة تمثلت في إحياء بعض النصوص والمخطوطات الإسلامية وكان لهم في ذلك طرق منظمة إلى حدّ ما، ولهم أيضاً في ذلك أخطاء كثيرة في فهم النصوص وتفسير الأحداث، ولكن مع كل ذلك فليست العبرة بالجهد الذي بذل وإنما العبرة بالهدف الذي بذل هذا الجهد من أجله هل كان هذا الهدف هو «خدمة» الإسلام أم تشويه الإسلام وتلوّث صورته في النفوس؟^(٤٣)).

ويدّعي المستشرقون في كل ما يكتبون الروح العلمية أو الروح المتجردة! وغير ذلك من الشعارات التي تكذبها كتابة المستشرقين أنفسهم، ودليل ذلك أن مرجليوث — وهو من أئمتهم — يقول في فصل له منشور في موسوعة «تاريخ العالم» أن محمداً ﷺ رجل مجهول النسب لأنه محمد «بن عبد الله» وقد كان العرب يطلقون على من لا يعرفون نسبه اسم عبد الله!!!

أوليس منبع هذا: هو الحقد الصليبي لا الروح العلمية المتجردة؟

أوليس دافع هذا: التشكيك في الحقائق المسلمة البديهية؟

كيف يقال هذا الكلام ورسول الله ﷺ من قوم لا تعرف شيئاً كما تعرف الأنساب ولا تعتر بشيء كاعتزازها بالأنساب؟

أي سخف وأي تفاهة في هذا التفكير الاستشراقي الخبيث؟^(٤٤).

(٤٢) (ص ١٠٢ — ١٠٣) نقلاً عن «الإسلام والحضارة الغربية»: (ص ١٠٩).

(٤٣) «هل نحن مسلمون»: (ص ١٧٤) بتصرف بسيط.

(٤٤) انظر المصدر السابق: (ص ١٧٢).

وماذا ينتظر من هؤلاء وواحد من زعمائهم «جولد تسيهر» يقول في كتابه «العقيدة والشرعة» إن النظام الفقهي الإسلامي الدقيق مستمد من «القانون الروماني» ونظامه السياسي متأثر بالنظريات السياسية الفارسية، وتصوفه يمثل الآراء الهندية والأفلاطونية الجديدة!!!^(٤٥).

ولو أردنا تتبع الأمثلة لطال الحديث في ذلك.

ولكننا نقول: مادام هؤلاء الناس بهذه الروح الحاقدة والنية السيئة والفعل الخبيث. سلاحهم التشكيك، وديدنهم الكذب والتزوير وطابعهم الحقد الصليبي القديم، ماداموا كذلك فما هو — يا ترى — قيمة كل ما كتبوه؟ وماذا يرتجى من تلاميذهم الذين ينظرون إليهم بروح الإجلال والإكبار وأنهم هم أساطين البحث العلمي المتجرد؟

إن كثيراً من تلاميذهم يستطيع أن يغالط نفسه وغيره ممن هو على شاكلته كثيراً ولكنه لا يستطيع أن ينكر واقعاً مشهوداً في حياة المستشرقين أنفسهم غير ما ذكرنا من الأمثلة السابقة.

ذلك أن الطلاب المبتعثين للدراسة على أيدي المستشرقين لابد أن يختاروا بحوثهم العلمية على ما يريده لهم أساتذتهم. فإن لم يكن كذلك وأعطى الطالب حرية الاختيار فلا بد أن تكون الكتابة في أي موضوع خاضعة لما يملكه هذا المستشرق وما يصبو إليه من الطمن في الإسلام شريعة وعقيدة ونظام حياة. خاصة إذا كان البحث في "قضايا الإسلام".

وخير مثال على ذلك ما ذكره الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله حيث قال: (حدثني البروفسور "اندرسون" نفسه أنه أسقط أحد المتخرجين من الأزهر الذين أرادوا نوال شهادة الدكتوراة في التشريع الإسلامي

(٤٥) المصدر السابق: (ص ١٧٦).

من جامعة لندن، لسبب واحد هو أنه قدم أطروحته عن حقوق المرأة في الإسلام، وقد برهن فيها على أن الإسلام أعطى المرأة حقوقها الكاملة، فعجبت من ذلك، وسألت هذا المستشرق: وكيف أسقطته ومنعته من نوال الدكتوراة لهذا السبب، وأنتم تدعون حرية الفكر في جامعاتكم؟

قال: لأنه يقول: الإسلام يمنع المرأة كذا والإسلام قرر للمرأة كذا، فهل هو ناطق رسمي باسم الإسلام؟! (٤٦)

لقد أحدثت كتب المستشرقين زعزعة كبيرة في نفوس ضعاف الإيمان، فخرج من هذه المدرسة التشكيكية أجيال تولت القيادات الفكرية والعلمية في العالم الإسلامي وأخذت تردد كالبيغاء ما أملاه عليها أساتذتها «العلماء».

ولقد كان من أهم أهداف المستشرقين وتلاميذهم الطعن في سنة رسول الله ﷺ ومحاولة النيل منها. ومصدق ذلك أن أحد هؤلاء التلاميذ وهو الدكتور علي حسن عبد القادر قال لتلاميذه بعد أن رجع «دكتوراً»، إني سأدرس لكم تاريخ التشريع الإسلامي ولكن علي طريقة علمية لا عهد للأزهر بها، وإني أعتزف لكم بأنني تعلمت في الأزهر قرابة أربعة عشر عاماً فلم أفهم الإسلام ولكنني فهمت الإسلام حين دراستي في ألمانيا (٤٧)!! قال الأستاذ السباعي رحمه الله: ثم تبين لنا فيما بعد أنه يملئ علينا ترجمة حرفية لكتاب «جولد تسيهر» دراسات إسلامية!! (٤٨).

أما أكثر ما يعتمدون عليه في الطعن في السنة من غير الشبه والشكوك فهو حكاية عرض الحديث على «العقل» وهي حكاية قديمة نادى بها المعتزلة،

(٤٦) «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي»: (ص ١٣)، الطبعة الثانية، وذكر أيضاً — رحمه الله — أمثلة كثيرة حول هذا الموضوع فليراجعها من شاء في ذلك الكتاب القيم.

(٤٧) «السنة» للسباعي: (ص ١٩).

(٤٨) نفس المصدر: (ص ١٩).

وتبعهم عليها المستشرقون وتلاميذهم أمثال أحمد أمين وأبي رية وغيرهم كثير.
وللمستشرقين أيضاً كتابات أخرى دس فيها السم بالعسل وذلك أنهم
يصدرون كتاباتهم بقليل من المدح للإسلام وأنه فعل كذا وكذا.. إلخ، وهم
يهدفون من وراء ذلك إلى كسب ثقة القارئ، ثم يبدأون بنفث الحقد الدفين
في نفسه بأن يشككوا في العقيدة والشريعة ويوردوا سيلاً من الشبه التافهة
من أجل زعزعة ثقة المسلم بدينه^(٤٩) تحقيقاً لقوله تعالى:

وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ: آمُتُوا
وَالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا أَعْيُنُهُمْ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

[سورة آل عمران: ٧٢].

ومما لا شك فيه أن هناك أموالاً وحكومات وراء نشر كتب المستشرقين
في العالم الإسلامي لأن هذا الغزو يحقق لأعداء الإسلام ما لم يحققه لهم الغزو
العسكري.

على أنه من المهم أن نقول هنا: إن تخلي المسلمين عن منهجهم العلمي
بعد تخليهم عن مفاهيم العقيدة الصحيحة وترك منهج المحدثين الذي هو أعظم
منهج علمي وضع في تاريخ البشرية سبب مباشر يقف إلى جانب كيد
المستشرقين في ازدياد هوة هذا الانحراف الذي وقع في حياة المسلمين.

وخلاصة القول: إن كل من تأثر بالمستشرقين - فكرياً ومنهجياً -
لا يمكن أن يكون ولاؤه لدينه وأمنته صافياً صادقاً كما أن براءه لن يكون وفق
التصور الإسلامي الصحيح.

(٤٩) الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين جزاه الله خيراً تتبع مزيداً من هذه البحوث
في كتابه «الإسلام والحضارة الغربية» خاصة في الفصول الرابع والخامس
والسادس، فليراجع.

(٤) المذاهب اللادينية :

إن من أخطر ما واجه المسلمين في عصرهم الحاضر انتشار المذاهب اللادينية بينهم، حيث أريد لهذه المذاهب الهدامة أن تمحو شريعة الله من الأرض وتقصيها من واقع حياة المسلمين. وتشتت ولاء المسلمين الواحد إلى ولاءات جاهلية متعددة، فإذا أترع ولاء المسلم لدينه سهل حينئذ تقبله لأي فكر، ورضي بأي وضع يعيش فيه مهما كان في ذلك من التبعية والانهازم.

من هنا عمل أعداء الإسلام على بث هذه المذاهب مستخدمين لذلك وسيلتين:

(١) الهجوم الشرس على العقيدة الإسلامية والشريعة ورميها بأحط ما وضعوا من عبارات مسفة كقولهم إن الشريعة الإسلامية شريعة بربرية تشوه يد السارق، وترتكب جريمة فظيعة برجم الزاني المحصن ولا تسائر روح العصر الذي سيطرت عليه المعارف "التكنولوجية"، بل ليس في الإسلام مواد قانونية تنظم حياة الناس.. إلى آخر ذلك الهراء.

(٢) إضفاء صبغة البهجة الكاذبة، والدعاية لتلك المذاهب الهدامة ووصفها بأنها هي علامة التقدم ومسايرة الركب الحضاري العالمي، وهي التي تعطي الناس الحرية في كل شيء. وهي مذاهب لا تقيد الإنسان بدين معين، بل يأخذ ما يريد ويدع ما لا يريد مذاهب تخلو من التزمت وضيق الأفق.. إلى آخر ما هنالك مما يقال.

ولقد وقع كثير من المتسبين للإسلام فريسة لهذا الغزو الفكري الماكر ولا أريد هنا أن أدخل في قضية الردود على كل جزئية فإن ذلك ليس من منهج هذا البحث، كما قد أشرت إلى ذلك سابقاً وصدق القائل:

لو كل كلب عوى ألقنته حجراً
لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

ثم إننا لم نعد بحاجة كبيرة لتتبع الرد على شبهات الأعداء وقولهم إن هذا العصر لم يعد بحاجة إلى الدين، لأن هذا كلام يكذبه واقعهم هم، بدليل ما نشاهده اليوم في البلاد الكافرة كأمريكا وأوروبا من حالة الضياع والانتحار والقتل وفضائح الجريمة والخواء الروحي. وبحسبهم عما يشبع جوعهم الروحي الذي لا يملأه إلا الإسلام.

وأما ما يتعلق بيهجرة مذاهبهم الإلحادية فأكبر مثال يكذبها عندهم هم هو فشلها في بلادهم.

ثم ما كتبه مفكروهم عن تدهور الحضارة الغربية، حيث ذكروا أنها في طريقها إلى الزوال وهذا أمر ثابت لا يحتاج إلى جدال. فإن كل بناء قام على غير ما شرع الله، مصيره الزوال والدمار كما قال تعالى:

فَلَمَّا
نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ
حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

[سورة الأنعام: ٤٤].

وأوروبا اليوم قد فُتح عليها كل شيء في العلم المادي والتقدم الصناعي والسياسة والمال والاقتصاد وغير ذلك، ولكنها مع هذا كله في طريقها للزوال وفق سنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول.

هذا وبالرغم من أنني سأعطي فكرة موجزة عن هدف كل مذهب يتعلق ببحثي إلا أنني أبادر إلى القول بأن الهدف الأول والأخير من كل هذه المذاهب الكافرة هو: إخراج المسلم من إسلامه وقطع ولاء المسلم بربه

ودينه وإخوانه المؤمنين، ثم العودة إلى روح الجاهلية التي تتمثل في الطاعة والانقياد والخضوع لهذه المذاهب الكافرة ولطواغيتها الذين يخططون لها. والعودة أيضاً بالمسلمين إلى جاهلية العرق والنسب والتراب وسائر أنواع التن التي أمر الله المسلمين بتركها لأنها تنقض عرى الإسلام عروة عروة. وهذا الهدف تنفق عليه كل المذاهب الكافرة بآتجاهاتها المختلفة وانتماءاتها المتنوعة ولكنني - وأنا أكذب عن عقيدة الولاء والبراء - سأقتصر على تلك المذاهب التي تبدو فيها صورة منافاتها لهذه العقيدة واضحة جلية، وتناقضها معها أمراً ظاهراً.

ومن ذلك القومية والوطنية، اللتان تحصران الولاء في دائرة الجنس أو التراب فيلتقي فيها مثلاً اليهودي العربي والنصراني العربي والمشرک العربي، والبعث العربي مع المسلم العربي لأن رابطة القومية تجمعهم!! وهذا أمر يرفضه الدين الحنيف لأن الرابطة فيه هي رابطة العقيدة، فضلاً عن أن الوطنية والقومية ضيقتا دائرة الولاء.

إن العالم الإسلامي كان أمة واحدة تظلله راية "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ورغم خط الانحراف الذي يرتفع ويهبط في تاريخ المسلمين إلا أنهم إلى ما يقرب من ثلاثة قرون كانوا يشعرون أنهم أمة واحدة يدينون بدين واحد ويؤمنون بكتاب واحد وسنة واحدة ويتحاكمون إلى شريعة واحدة.

ولقد كان المسلم يخرج من طنجة حتى ينتهي به المقام في بغداد لا يحمل معه جنسية قومية أو هوية وطنية وإنما يحمل شعاراً إسلامياً هو كلمة التوحيد، فكلما حل أرضاً وجد فيها له إخوة في الإيمان وإن كانت الألسن مختلفة والألوان متباينة لأن الإسلام أذاب كل تلك الفوارق واعتبرها من شعارات الجاهلية.

ولكنه نتيجة لضعف المسلمين وتمكينهم عدوهم من أنفسهم سهّل استعمارهم من قبل أرذل خلق الله. وهم اليهود والنصارى ومن جاء بعدهم كالملاحدة الشيوعيين.

وبعد أن تمكن العدو من السيطرة على أرض الإسلام أخذ يث سمومه ويغرس في نفوس الضعاف والسذج والعملاء حبه ونصرته وموالاته، وأستحسان ما هو عليه من باطل وكفر، وهنا نُزِعَ الولاء الإسلامي ليحل محله الولاء الجاهلي الكافر.

ومصادق هذا الكلام قول أحد المستشرقين في كتاب «الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته» وهو يتحدث عن أسلوب نزاع ولاء المسلمين فيقول: (إننا في كل بلد إسلامي دخلناه نبشنا الأرض لنحصل على تراث الحضارات القديمة قبل الإسلام، ولسنا نعتقد بهذا أن المسلم سيترك دينه ولكنه يكفيننا منه تذبذب ولائه بين الإسلام وتلك الحضارات) (٥٠).

وهذا الكلام صادق في ذاته، لأن نشوء فكرة إحياء الحضارات والنعرات الجاهلية أمر خطير على قضية الولاء، حيث ينشأ من ذلك فصام نكد، ويتبدى الميل والحب - بفعل شياطين الجن والإنس - يكبر تجاه هذه الحضارات ويقبل ثم يضمحل الولاء الإسلامي الخالص لله رب العالمين.

وبعد أن كان البراء أمراً ملازماً للولاء تجاه هذه النعرات الجاهلية أصبح أمراً لا وجود له - إلا عند من رحم الله - لأن هذه الأفكار كفيلة بغسل فكرة البراء من النفس عند ضعاف الإيمان، أو المغالطة عند البعض بأن هذه الأفكار والمذاهب لا تتعارض مع الإسلام! ويقال: ما الذي يمنع المسلم أن يكون مسلماً وقومياً أو مسلماً علمانياً أو مسلماً اشتراكياً.. إلخ.

ولما أدرك أعداء الإسلام مدى جدوى وفاعلية هذه الفكرة التي تمسخ المسلم حتى يصبح مخلوقاً لا صلة له بالله - كما قالوا - بدأوا يبت فكرة القومية والوطنية، مبتدئين بتركيا مقر آخر خلافة إسلامية، حيث نشأت هناك: القومية الطورانية وتزعم هذه الدعوة حزب «الاتحاد والترقي» فبدأ «بتريك» تركيا،

(٥٠) نقلاً عن «مذكرة المذاهب الفكرية».

وعودة القومية الطورانية متّخذين لذلك شعاراً: الذئب الأغبر الذي هو معبود الأتراك قبل أن يعرفوا الإسلام.

وبهذا "التريك" أخذت الدولة العثمانية تضغط على العرب، حيث تعطي الأتراك امتيازات خاصة بهم لأنهم تركا! وهذا الفعل فضلاً عن كونه يعارض مبدأ العدل الإسلامي هو أيضاً مؤشر للعرب أن يتحدوا في قومية جديدة! وهذا هو الذي حصل فعلاً.

فلقد قام الجاسوس لورنس - الذي سماه المفلون - "لورنس العرب" بالتخطيط لقيام ما يسمى بالثورة العربية الكبرى ضد الخلافة العثمانية وانضم العرب إلى جيوش الحلفاء الذين لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة ولا يراعون في مسلم عهداً ولا حرمة^(٥١). ومن المضحك المخزي أن محرك هذه الجيوش العربية هو لورنس العرب!!

فانظر أيها القارئ إلى جيوش عربية تزعم أنها مسلمة وولاؤها لجاسوس غربي كافر اسمه لورنس!!

وبعد انتهاء مهمة هذه الجيوش قال أحد القادة الانجليز - "الليبي" - قولته المشهورة: (الآن انتهت الحروب الصليبية)!! يقصد بذلك أن الحقد الصليبي ظل كامناً في نفوس الصليبيين إلى أن آسردوا بيت المقدس^(٥٢).

وأنفصل العرب عن إخوانهم المسلمين في أنحاء المعمورة واعتنقوا القومية العلمانية من أجل تقليد الغرب الذي آمن بها بالأمس وكفر بها اليوم. وأصبح (كل تجمع أو حتى تضامن أو تقارب على أساس العقيدة والدين مظهراً من مظاهر التخلف والرجعية يجب أن تبرأ منه الجماهير لتكون عصرية تقدمية)^(٥٣).

(٥١) «العرب والإسلام» للندوي: (ص ٩).

(٥٢) انظر المحاضرة القيّمة: «المخططات الصهيونية» للأستاذ محمد قطب، الطبعة الأولى

سنة ١٣٩٨ هـ، المختار الإسلامي بالقاهرة.

(٥٣) «درس النكبة الثانية» للأستاذ يوسف القرضاوي: (ص ٤٥)، الطبعة الأولى.

ولما آتت كست العرب وعادت إلى نعمة الجاهلية، فقدت روح التضحية والجهاد، وولت وجهها تجاه اليمين واليسار، حيث اليمين له ألوان وضروب من واشنطن إلى باريس إلى لندن واليسار له ألوان أحمر وأصفر وبينهما بعد ما بين موسكو وبكين^(٥٤).

ولما وقعت هذه النعمة الجاهلية، وقع معها كل باطل وكل شر. فأما شريعة الله وحكمها وقيامها بما يحتاج إليه البشر لأنها من عند الله وهو العليم سبحانه بما يصلح أحوال البشر. فقد أقصيت وحل محلها قانون البعث العربي الاشتراكي الذي أخذ يردد هذا الشعار:

لا تسل عن ملّتي أو مذهبي
أنا بعثي اشتراكي عربي

ومن المضحك أن صاحب هذا الشعار حين تلقى صفعة موجهة من اليهود بالرغم من ولائه لهم - مسح ذلك الشعار وكتب مكانه ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله﴾!!!^(٥٥).

أما ثمار هذا "الفتح الجديد" بعد الرضى بالقومية فشيء يصعب حصره، حيث انطلقت الفرائز البهيمية وطغت الشهوات، وانتشر الجون والفسق، وتحللت الأخلاق وغربت الفضائل، فأصبح العفاف والاحتشام والحياء: رجعية متزمتة لم تر نور القرن العشرين، وأصبح اللهو والخلاعة والصور العارية والقصص الخليعة والأدب الرخيص، والأزياء المخيرة والفناء والرقص والاختلاط سمات الحضارة وعنوان التقدم وشارة التحرر من ربة التقاليد البالية!!!^(٥٦).

(٥٤) «درس النكبة الثانية»: (ص ٣٦).

(٥٥) «نظرية التربية الإسلامية» للشيخ محمد الغزالي. وهو بحث قدم لنوبة أسس التربية الإسلامية بمكة في ١١/٦/١٤٠٠هـ.

(٥٦) انظر «درس النكبة الثانية»: (ص ٣٩).

وأعجب من ذلك كله أن اليهود الذين هم وراء هذه الردة الجديدة يعلنون وبصراحة وجدية واضحة أنهم لم ولن يتخلوا عن دينهم فهذا موسى ديان حين سئل هل كنتم تشعرون أن الله معكم في معركة هـ حزيران؟ قال: (كنا نشعر أننا في جانب الله) (٥٧).

ويقول زعيم الصهيونية الأول "هرتزل": إن العودة إلى صهيون يجب أن تسبقها عودة إلى اليهودية (٥٨).

ونشطت الدعوات الهدامة، فهذه النعرة الفرعونية تطل برأسها وتسفر عن وجهها بعد أن كانت لا تظهر إلا مقنعة أو من خلف ستار.

نشط دعايتها في الصحف والندوات ورسموا رأس "أبو الهول" على طوابع البريد وعلى أوراق النقد، واجتاحت مصر موجة من الفرعونية، تحاول غزو سائر النواحي الثقافية، وتدعو إلى إقامة الفنون على أسس فرعونية، وتزعمت صحيفة "السياسة الأسبوعية" هذا الاتجاه الجديد، فأفسحت صدرها لهؤلاء الدعاة ولم يخل عدد من أعدادها من حديث عن حضارة الفراعنة وثقافتهم ومجدهم (٥٩).

وكرر التغني بهذه الأجداد من أجل ذبذبة ولاء المسلم، فهذا حافظ إبراهيم يقول:

أنا مصري بنائي من بنى
هرم الدهر الذي أعى الفنى

ورجعت العراق لعنصرية الآشوريين، وكل بقعة أخذت تنادي، بهذه الردة الجديدة.

(٥٧) المصدر السابق: (ص ٨٢).

(٥٨) نفس المصدر: (ص ٨٢).

(٥٩) انظر أزمة مصر للدكتور محمد محمد حسين: (ص ٤٢ - ٥٢).

أما الشعار الوطني الجديد: فهو ما أعلنه سعد زغلول بقوله: الدين لله والوطن للجميع! أي الوطن ليس لله، ثم قال: لا تنادوا بشعارات إسلامية خشية أن يفضب إخواننا الأقباط^(٦٠).

ونادى دعاة القومية الناس بأسلوب ماكر فقالوا: ما المانع أن يكون المسلم العربي - عربياً مسلماً، ثم قالوا: يكون عربياً فقط. أليس الإسلام عربياً؟ إذن ما هو عيب القومية العربية؟ إن العرب إذا ذلوا ذل الإسلام فلنناد بالقومية العربية!!

وهذا كلام غير صحيح لأنه يوم ذل العرب جاء صلاح الدين الكردي، وجاء قطز المملوكي فأنقذوا المسلمين من ذلك الهوان، وانتصر القائدان بقولهما وإسلاماه.

ولم يكن في حسم ولا في عقيدتهم هذه التفرقة ولا هذه النعرة الجاهلية^(٦١).

إن الإسلام يكذب ذلك الزعم الذي يزعمه القوميون لأنه جاء لانتزاع هذه النعرات فجمع في دعوته بل في أول دعوته: أبا بكر العربي القرشي وبلال الحبشي وصهيباً الرومي وسلمان الفارسي. وكما قال عمر رضي الله عنه: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإذا آتمننا العزة بغيره أذلنا الله.

إن تقليد الغرب في استيراد مبدأ القومية أو العلمانية أو أي مذهب أو فكر: يعيد للأذهان تلك القصة الرمزية القديمة التي تتحدث عن حمارين كان أحدهما يحمل ملحاً وكان الآخر يحمل إسفنجاً. فرأى حامل الإسفنج صاحبه ينزل إلى الماء فيذيب بعض الملح ويخرج منه أخف حملاً، فخطر له أن يحصل على المزية نفسها بالأسلوب نفسه، فكانت النتيجة على عكس ما توقعه، وخرج من تجربته أثقل حملاً^(٦٢).

(٦٠) «مذكرة المذاهب الفكرية».

(٦١) «مذكرة المذاهب الفكرية».

(٦٢) «الإسلام والحضارة الغربية»: (ص ٢٣٧).

وخلاصة القول في القومية: إنها شرك بالله لأنها بإيجابها العمل لها وحدها. والتضحية والجهاد في سبيلها، وصرف الكره والبراء وما يتبعهما ضد كل خارج عن القومية، وصرف الحب والولاء وما يتبعهما للقوميين ومن والاهم: هي بهذا تكون ندًا يعبد من دون الله؛ لأن ذلك يقرم مقام النفي والبراء والإثبات والولاء وهما ركنا الألوهية، أو العبادة في قول "لا إله إلا الله"، ف "لا إله" نفي وبراء، و "إلا الله" إثبات وولاء لله لا شريك له. والدليل على ذلك قوله تعالى:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ إِندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ

[سورة البقرة: ١٦٥].

وليس بعد الحق إلا الضلال. فليحذر كل مسلم على نفسه من الوقوع في هذا الشرك المقتنع.

وأما العالمية: أو "الإنسانية" فهي تتفق أيضاً مع القومية والوطنية في مناقضة عقيدة الولاء والبراء؛ ولكن هذا التناقض يتخذ شكلاً آخر: هو توسيع دائرة الولاء بحيث يدخل فيها كل الأقوام والأديان والأوطان. وهذا في حقيقة الأمر ضياع للولاء ومسح للبراء حتى لا يعود المسلم يشعر بالفارق بينه وبين أي كافر في بقاع الأرض.

ويقوم هذا المبدأ على ألقاظ خادعة وموهمة مثل: الحرية والإخوة والعدل والمساواة.

(٦٣) انظر «فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام» للشيخ صالح العبود: (ص ٢٥٤)، الطبعة الأولى سنة ١٤٠١هـ، الناشر: دار طيبة بالرياض، وهي أوسع كتاب فيما أعلم في قضية القومية العربية.

وبراجع أيضاً كتاب «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» للندي: (ص ١٢٤ — ١٦٢)، الطبعة الثالثة، وكتاب «الاتجاهات الوطنية»: (ج ١/٦٧، ١٠٥)، (ج ٢/٢٩٢)، وكتاب «الشعبوية الجديدة» ل محمد مصطفى رمضان.

وفي ذلك يقول "كالفري": (وحينما يصبح في مقدور الجميع الوقوف على كل المعلومات المجردة عن الهوى، وحينما يصبح الجميع أحراراً في تفكيرهم، لهم من الشجاعة ما يجعلهم يتقبلون ما هو خير وعدل وجميل، وعندئذ يكون من المحتمل أن يسود العالم دين واحد. وإني سأكون سعيداً باتباع دين عالمي موحد، تنبع مصادره من حقائق التاريخ، وتشمل مبادئه العدالة الاجتماعية، وتقوم بفضلها مظاهر الحب والإخاء على أنقاض الكراهية والخصومة)^(٦٤).

وهذا الكلام هدم صريح للإسلام، ومعوّل هدم لطمس الجهاد الإسلامي الذي يقوم على تحرير الناس من عبودية بعضهم لبعض، ومن أنقسامهم إلى "ملا"، وهم السادة الأقوياء و "عبيد" وهم التابعون الأذلاء: إلى جعلهم كلهم عباداً لله.

وكما نعلم جميعاً أن الجهاد يرهّب أعداء الله، ويخافونه كثيراً، ولذلك ما فتئوا يبحثون عن وسائل متنوعة لإبطاله ومحوه من أفكار المسلمين، إنهم تارة يقولون: الإسلام أنتشر بالسيف، وتارة يقولون: إنه دين وحشي لا يرحم الناس، وقد لا تكون هذه مجدية لما يريدون، فقالوا: العالمية والإنسانية هي المذهب الجديد الذي يعيش فيه الناس بأمن وسلام وعدالة وإخوة، بصرف النظر عن الأديان والأوطان!

ويزيد هذا الأمر إيضاحاً ما قاله معروف الدواليبي: (.. إننا نشاهد منذ المنتصف الثاني لمصرنا الحاضر من القرن العشرين تطلعاً كبيراً نحو إقامة الحياة البشرية على مفاهيم وقواعد إنسانية، ورغبة أكيدة من قبل رجال الفكر والعلم وقادة السياسة للانتقال بالمجتمع الإنساني المتمايز المتناحر إلى مجتمع إنساني واحد متعاون وذلك في إطار "وحدة الأسرة البشرية" من غير تفاضل بين الأقوام إلا بالتقوى، وفي إطار "حق الجميع في الحياة الكريمة" من غير تمايز في الأعراق أو في الأجناس أو في الأديان وفي إطار "وحدة المصالح الاقتصادية للجميع"

(٦٤) «الإسلام والحضارة الغربية»: (ص ١٣٢).

من غير استئثار من قبل الكبار والأقوياء على حساب الصغار والضعفاء. وفي إطار "العدالة المطلقة بين الجميع حماية لسلام الإنسان"، ثم ذكر أن هيئة الأمم المتحدة أخذت تدعو لهذه المفاهيم العالمية الجديدة التي تدعو إلى نحو التمايز فيما بين الأسرة البشرية وأجناسها، قومياً وعرقياً واقتصادياً وفقاً لمبادئ حقوق الإنسان^(٦٥).

(٦٥) مجلة «رابطة العالم الإسلامي» الشهرية، العدد الخامس، السنة التاسعة عشرة، جمادى الأولى سنة ١٤٠١هـ. هذا ومن الجدير بالذكر أنه قد ورد في مجلة «العربي» الكويتية، في العدد ٢٦٢، ربيع الأول، سنة ١٤٠١هـ مقالان حول هذه الدعوة.

المقال الأول منها:

(ص ١٨) للدكتور محمد فتحي عثمان تحدث فيه عن (المسلمون والآخرون) وطالب المسلمين المعاصرين في إعادة النظر حول قضية دار الحرب ودار الإسلام، وأن هذا تقسيم غير صحيح، ولا يدل عليه الكتاب ولا السنة، بل هو من صنيع الفقهاء مبنياً أن الخلافة الإسلامية كانت صورة تاريخية وهي لم تنش طويلاً فعلى المسلمين ألا يفكروا فيها مرة أخرى، وعليهم إعادة النظر في قضية العلاقات الدولية مع العالم المعاصر، لكي يتقنوا فن التعاون الدولي مستفيدين من إعادة نظر الولايات المتحدة العملاقة في سياستها إزاء الكساد الاقتصادي في الثلاثينات من القرن العشرين. وكذلك ما حدث في الكتلة الشرقية حين عدل خروشوف عن سياسة سلفه ستالين.. إلخ.

والكاتب يرى التعديل في المفاهيم الإسلامية مثلما يرى أرباب القانون الوضعي تعديل قوانينهم القاصرة وكأنه يجهل أو يتجاهل أنه لا مقارنة بين الدين الرباني الذي نزل من الحكيم الخبير وبين أفكار البشر القاصرة المزعزعة، وهذه الدعوة فيها خدمة لمبدأ العالمية ودعوة غير مباشرة لإبطال شرعية الجهاد في الإسلام.

أما المقال الثاني:

وهو أخصب من سابقه فهو لفهمي هويدى بعنوان (المسلمون والآخرون أشواك وعقد على الطريق): (ص ٤٩)، وهذا المقال يدعو لما دعا إليه الكاتب السابق مع زيادة هي: تمهيل علماء المسلمين ووصمهم بعدم معرفة دلالات النصوص وملاساتها، قائلاً: إن تلك المرحلة — يريد مرحلة التاريخ الإسلامي المشرقة — كانت لها حساباتها وموازينها الخاصة التي لا يمكن تميمها على بقية مسيرة التاريخ البشري ومؤكداً (أنه ليس صحيحاً أن المسلمين صنف متميز ومتفوق =

ونتساءل بعد هذا الكلام. أي قانون بشري يريد دعاة العالمية أن يعيش الناس تحت لوائه؟

هل هو ميثاق هيئة الأمم؟ فهي. منظمة السيطرة فيها لليهود والنصارى والشيوعيين وأكبر دليل على ذلك ما يسمى بـ "حق الفيتو" الذي يرفض كل ما يتعارض مع مبدأ أولئك المسيطرين أم أنها الغفلة والانخداع بما خطط له دعاة هذا المذهب الفاسد؟

أم أنه الخبث والدهاء في تخدير الأمة الإسلامية بأن الجهاد أمر لم يعد يصلح لمسيرة العصر الحديث لأن العالمية لا تقره ولا ترضاه؟ وأقرب الإجابات إلى نفسي هو جواب السؤال الأخير ذلك الجواب الذي يعرفه كل مخلص لدينه وربّه وكل مؤمن يعرف كيد الجاهلية المعاصرة قريباً بنفسه أن ينخدع بأي دعوة لا تنبثق من مشكاة النبوة المحمدية والرسالة الربّانية الخالدة.

ونحن إذ نقرر هذا الجواب المؤكد، فليس ذلك تجنباً أو مجرد ثورة عاطفة ضد هذا المذهب الإلحادي الكافر، بل هو عين ما يهدف إليه دعاة الماسونية العالمية التي تولت كبر الدعوة إلى هذه النحلة الجديدة بجميع أهدافها وشعاراتها. ولذلك يقول أحد الماسون: (إن ما تبغيه الماسونية هو، وصول الإنسانية شيئاً فشيئاً إلى النظام الأمثل الذي تتحقق فيه الحرية بأكمل معانيها وتزول منه الفوارق بين الأفراد والشعوب ويسود فيه العلم والجمال والفضيلة)^(٦٦).

= لجرد كونهم مسلمين، وليس صحيحاً أن الإسلام يعطي أفضلية لهم، ويخصّ غيرهم بالدونية لأنهم كفار) ويكفي أن هذا الكلام فضلاً عن كونه دعوة لمبدأ الإنسانية الماسوني هو أيضاً صورة واضحة من صور الولاء للكفار لأن هذا الكلام الذي ساقه هويدى أمنية للكفار أن يتحدث به أبناء المسلمين لكسر التمييز الذي يبنني على الولاء والبراء والحب والبغض حسب المقياس الإسلامي الصحيح فملى المسلمين أن يتبينوا مواقع الزلل والانحرافات في مثل هذه الدعوات الإلحادية.

(٦٦) «الإسلام والحضارة الغربية»: (ص ١٩٧).

وختاماً نقول: إن كل المذاهب البشرية القائمة اليوم في الأرض التي لا تستجد وجودها من الكتاب والسنة محادة لله ولدينه وكتابه وسنة رسوله ﷺ، وأي تقبل لها أو عمل بمبادئها فإن ذلك موالاة صريحة للكفار، وبراءة صريحة من الإسلام والله قد بين لنا في كتابه العزيز أن من تولى الكفار فهو منهم:

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ

[سورة المائدة: ٥١].

والإسلام هو الدين الذي يجمع ولا يفرق، وهو الذي يجعل الناس في ميزانه الإيماني سواسية كأستان المشط، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى.

وهو الذي فيه الطمأنينة والسعادة:

أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ

[سورة الرعد: ٢٨].

وهو الذي تتحقق فيه الحياة الكريمة:

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ
أَوْ اُنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

[سورة النحل: ٩٧].

وهو الذي يحصل به التمكين الرباني:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ
وَلَيَجْعَلَنَّ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي
شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾

[سورة النور: ٥٥].

الخاتمة

الإسلام طريق الخلاص وسبيل النجاة

ما الخلاص من هذا الهوان والتبعية اللذين أُصِيت بهما الأمة الإسلامية اليوم؟ ما سبيل النجاة مما يراد بالمسلمين اليوم في جميع أنحاء الأرض؟ هل من سمات معينة لذلك المخلص؟ ولمن المستقبل في نهاية الأمر؟

الجواب: إنه الإسلام ولا شيء غيره فهو الذي ينقذ الناس مما هم فيه من حالة الضياع والهبوط والعبودية لغير الله، فيخرجهم كما أخرج سلف هذه الأمة من الظلمات إلى النور، ومن الجور إلى العدل، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا ونعيم الآخرة.

ولكن هذا الطريق المستقيم يحتاج إلى سالك جاد، وسائر يسير فيه دون الالتفات إلى اليمين أو اليسار

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ الشَّيْطَانِ
فَنَفَرَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ

[سورة الأنعام: ١٥٣].

(والحق أنه لا يمكن أن ينهض صرح الحياة الإسلامية الكاملة الخالصة إلا على دعائم الإقرار بالتوحيد الذي يحيط بجميع نواحي الحياة الإنسانية الفردية والجماعية، والذي يحسب^(١) الإنسان بموجبه إنه هو وكيل ما بيده

(١) هكذا بالنصر ولعل المراد: بحس.

من شيء ملك لله، ويرى أن الله هو المالك الشرعي الحقيقي له وللعالم كله،
المعبود المطاع الذي له الأمر والنهي.

وأن لا ينبوع للهداية إلا هو، وتطمئن نفسه بكل شعور إلى أن
الانحرافات عن طاعة الله أو الاستغناء عن هدايته وإشراك غيره به في ذاته
وصفاته وحقوقه وتصرفاته إن هو إلا إيمان في الضلالة من أي ناحية جاء
أو في أي لون كان.

ثم إن هذا البناء - بناء الإيمان بالله - لا يمكن توطيد دعائمه إلا إذا
رأى المرء في باطن أمره رأياً جازماً، وقطع على نفسه بشعور كامل وإرادة
قوية أنه هو وكل ما بيده ملك لله وراجع إلى مرضاته، وقضى على ما في
نفسه من مقياس للرضا والسخط وجعله مذعناً لرضاء الرب تعالى وسخطه،
ونفى عن نفسه الأثرة والكبرياء، وصاغ نظرياته وأفكاره وآراءه ونزعاته
ومناهج تفكيره في قالب ذلك العلم الذي قد أنزله الله تعالى في كتابه العزيز.

وخلع عن عنقه ربة جميع أنواع الولاء الذي لا يدعن لطاعة الله..
ومكن محبة الله تعالى ومودته من سويداء قلبه، ونفى عن أعماق فؤاده كل
صنم يطلبه بإجلاله وإكباره أكثر من الله تعالى وأدغم حبه وبغضه وصدافته
وعداوته ورغبته ونفوره وصلحه وحربه.. إلخ في مرضاة الله تعالى حيث
لا ترضى نفسه إلا بما يرضى به الله، ولا تكره إلا ما يكرهه الله.. وهذه مرتبة
الإيمان الحقيقية وغايته المرموقة^(٢).

إن الوضع الذي تعيشه البشرية اليوم في جميع بقاع الأرض والذي يتوجه
الضياع والخواء الروحي، وهذه الهتافات التي ترتفع من كل مكان تنادي
بمنقذ ومخلص يخلصها من ذلك الهوان لأمر يشيء بأنه هو الإسلام لأنه
دين الله العليم بما يصلح النفوس والخير بجميع مكونات الضمائر.

(٢) «الأسس الأخلاقية» للمودودي: (ص ٤٩ - ٥٠)، الطبعة الأولى سنة
١٩٧١م، بيروت. بتصرف بسيط.

إن الإسلام (هو المنهج الوحيد الذي يعطي الفطرة ما يلائمها وهو الذي ينسق خطاها في الإبداع المادي وخطاها في الاستشراق الروحي وهو وحده الذي يملك أن يقيم لها نظاماً واقعياً للحياة يتم فيه هذا التناسق الذي لم تعرفه البشرية قط إلا في ظل النظام الإسلامي - وحده - على مدى التاريخ)^(٣).

وأعداء الإسلام يعرفون جيداً أن عدوهم الوحيد هو الإسلام، ومن أجل ذلك يسعون جادين إلى تحطيم هذا الجبل الشاخ لأنه يعوقهم عن أهدافهم الاستعمارية كما يعوقهم عن الطفيان والتأله في الأرض كما يريدون، لذلك يضعون التصورات والمناهج التي لا تمت إلى هذا الدين بصلة من أجل أن تكون هي البديلة عن هذا الدين القيم^(٤).

وليكن من المعلوم لكل مسلم جاد: أن هذا الدين لا يقوم بألف كتاب تكتب عن الإسلام ولا بالخطب والمواعظ ولا بأفلام الدعاية للإسلام، وإنما يقوم على واقع حي متحرك - يتمثل هذا في المسلمين الصادقين - واقع تراه العين وتلمسه اليد وتلاحظ آثاره العقول^(٥). ومن سمات أصحاب هذا الواقع الذي يغير مجرى حياة البشرية المعاصرة أن يستعلوا بأنفسهم من موالاة أعداء الله - سواء من الكافرين أو المنافقين أو الملحدين - فلا يخدعهم هيلمان الباطل المعاصر، وأن الشرق والغرب يملك القنبلة الذرية، والصواريخ العابرة للقارات بل يعلمون أن الله هو الأكبر، وهو الولي الناصر، وأن الغلبة للحق مهما استطال الباطل:

غَلَبَتْ فَتْنَةٌ كَثِيرَةٌ يَأْذِنُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ فَتْنَةٍ قَلِيلَةٍ

[سورة البقرة: ٢٤٩].

(٣) «المستقبل لهذا الدين»: (ص ١٠٩) بقليل من التصرف.

(٤) انظر الفصل الأخير من كتاب «المستقبل لهذا الدين».

(٥) انظر فصل طريق الخلاص: (ص ١٨٢) من كتاب «الإسلام ومشكلات الحضارة» للأستاذ سيد قطب - رحمه الله -.

وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ

[سورة الصافات: ١٧٣].

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ

[سورة غافر: ٥١].

ويقول سبحانه في شأن الأعداء:

وَإِنْ يُقَاتِلُواكُمْ يَوُلُوكُمْ لَأَدْبَارُهُمْ لَا يَنْصُرُونَ

[سورة آل عمران: ١١١].

ولن يصل المسلمون الصادقون إلى هذه الدرجة الرفيعة إلا بالبراء من كل منهج وتشريع يخالف شريعة الله، والبراء أيضاً من كل فكر يناقض هذه العقيدة التي كانت سبب نصرة وعزة السلف الصالح. وأستمداد حكم كل صغيرة وكبيرة من هذه الشريعة الربانية التي هي صراط الله المستقيم الذي لا أمت فيه ولا عوج، وملته الحنيفية التي لا ضيق فيها ولا حرج.. لم تأمر بشيء فيقول العقل لو نهت عنه لكان أوفق، ولم تنه عن شيء فيقول الحجة، لو أباحت لكان أوفق، بل أمرت بكل صلاح، ونهت عن كل فساد، وأباحت كل طيب، وحرمت كل خبيث، وأمرها غذاء ودواء، ونواهيها حمية وصيانة من كل داء، ظاهرها زينة لباطنها، وباطنها أجمل من ظاهرها. شعارها الصدق وقوامها الحق، وميزانها العدل وحكمها الفصل، لا حاجة بها البتة إلى أن تكمل بسياسة ملك أو رأي ذي رأي. أكملها الله بقوله:

الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ
لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا

[سورة المائدة: ٣].

وقال ﷺ: «ترككم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك» (٦).

وحرّئي بدعاة الخير الأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر أن يعودوا
بالأمة إلى صفاء العقيدة المثل في:

(١) تصحيح مفهوم لا إله إلا الله محمد رسول الله. ودعوة الناس إلى فهم
هذه الكلمة العظيمة كما فهمها رسول الله ﷺ وأصحابه الأخيار، ومحو
ذلك المفهوم الخاطيء الذي يردده المتأخرون وهي أنها مجرد لفظ عار
من كل تكليف.

مع بيان أن من تكاليفها موالة المؤمنين والبراءة من الكافرين، وتحكيم
شريعة الله واتباع ما أنزله الله والكفر بالآلهة المزيفة والأرباب المتعددة
من العرف والهوى والعادات والمتألهين الذين يشرعون للناس بغير ما أنزل
الله.

(٢) تصحيح مفهوم العبادة وأنه مفهوم شامل كامل وليس مجرد شعائر تؤدي
بينما نظام الحياة والممارات قائم على مناهج وضعها البشر تفصل بين الدّين
والدولة، وبين الدّين والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية
والثقافية.

فالعبادة هي عقيدة وشريعة ونظام حياة. قال تعالى:

(٦) انظر «إعلام الموقعين» لابن القيم: (ج ٢/٣: ٢٠٧)، والحديث سبق تخريجه
(ص ٩٦).

قُلْ إِنِّي صَلَّاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ

[سورة الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

(٣) تربية الجيل على منهاج الكتاب والسنة: لأن هذا هو الطريق الصحيح الذي به ترجع الأمة إلى ربها ودينها.

(٤) طرد آثار الغزو الفكري وذلك بتعرية الجاهلية الحديثة، وتمزيق زيفها وبهرجتها فتبين انحرافاتنا مع إيجاد البديل الإسلامي الصحيح.

(٥) تعميق قضية ولاء المسلم للمسلم وأنتائه لإخوانه المؤمنين فقط، وخلع الولاءات الجاهلية من قومية وعرقية ووطنية وعالمية وغيرها فالمسلم أخو المسلم في أي بقعة كانت، دار الإسلام هي دار كل مسلم في جميع أنحاء الأرض.

ومن تاريخنا ما يشهد بكل جلاء على أهمية هذه القضية. فإن امرأة مسلمة أهينت بعمورية فاستغاثت: "وا معتصماه". فقال المعتصم: لبيك أيتها المرأة المسلمة وجهز الجيوش وفتح عمورية ونصر المرأة المؤمنة، ولم يقل إنها في وطن وأنا في وطن بل انطلق من واقع مسؤوليته كخليفة مسلم. كل الأمة المسلمة أمانة في عنقه وهو مسؤول عنها يوم يلقي الله.

ومن هنا فإن نصرة المسلمين المضطهدين في كل بقعة من بقاع الأرض أمر واجب تفرضه هذه العقيدة. ويكون واجب المؤمن - حينئذ - محبة هؤلاء المسلمين ومناصرتهم باليد واللسان والمال والنصرة في كل موطن ومناسبة.

(٦) تعميق قضية المعاداة والبراءة من أعداء الله الكفار منهم والمشركين. والمتناقضين المرتدين. وإنه لا يجتمع إيمان في قلب مع حب الكفر وأهله كما قال تعالى:

لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

[سورة المجادلة: ٢٢].

والحرص على تمييز المسلم عن كل وضع وفكر يخالف كتاب الله وسنة
رسوله ﷺ.

(٧) التأكيد على قضية عداوة أولياء الشيطان لأولياء الرحمن، فإن هذه العداوة
قائمة منذ آدم عليه السلام إلى قيام الساعة فالحريان لا يلتقيان أبداً لأن
حزب الله يريد دعوة الناس إلى عبادة الله، وحزب الشيطان يدعو الناس
إلى عبادة الطاغوت وطاعته، وقاتل المؤمنين لصددهم عن دينهم.

وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ
إِنْ أَسْتَطَاعُوا

[سورة البقرة: ٢١٧].

(٨) بعث الأمل ونفويته في النفوس بقرب نصر الله كما قال ﷺ: «لَتَقَاتِلَن
اليهود فلتقتلنهم حتى يقول الحجر: يا مسلم هذا يهودي فتعال
فاقتله» (٧).

هذه رؤوس أقلام تبين ملامح طريق الخلاص، وإذا صدق المسلمون مع
الله وجدوا معية الله وعونه لهم، لأنهم الأعلون، وهم القائمون بأمر الله في
أرض الله، ومن ثم فهم المستحقون لولاية الله وتكريمه لهم:

(٧) صحيح مسلم: (ج ٤/٢٢٣٨، ح ٢٩٢١) كتاب أشراط الساعة.

آيَاتِ أُولِيَاءِ اللَّهِ لَا حَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

[سورة يونس: ٦٢].

إنهم حزب الله وأكرم بذلك الحزب الذين يجاهدون لإعلاء كلمة الله
ولا تأخذهم في الله لومة لائم:

أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

[سورة المجادلة: ٢٢].

ونحن مستبشرون بخير إن شاء الله، لأن طلائع وبشارات الجليل الإسلامي
الجديد الذي يخلص الأمة من هذا الهوان والضياع والتبعية بادية ظاهرة في كل
صقع من أصقاع الأرض، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس الأحاديث والآثار

فهرس الأحاديث والآثار (حسب الترتيب الهجائي)

أول الحديث أو الأثر	الصفحة
أبايعكم على أن تمنعوني عما تمنعون منه نساءكم	١٨٦
اتبعوا ولا تبندعوا فقد كفيتم	٣١٣ (أثر)
اجعلوا على رجله شيئاً من الأذخر	١٨٦ (هامش)
أخرجوا المشركين من جزيرة العرب	٣٤٣
إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً	٣٠٨
إذا سلم عليكم اليهود فأنما يقول أحدهم: السلام عليكم	٣٦٣
إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم	٣٦٣
إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما	٥٨
الشرك في هذه الأمة أخفى من	٦٣
أسعد الناس بشفاعتي من قال	٣٣
أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله	٣٠
اطلبوه واقتلوه	٣٠٣
اغزوا باسم الله في سبيل الله	٣٨٥
أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر	١٥٦
افعلوا ما بدا لكم فوالله لو أن قد	١٧٢
اقتلواهم فإن في قتلهم أجراً عند الله	٣٠٢
الحقوا الفرائض بأهلها	٩٠

..... ٣٢٦	الله أكبر قلتم كما قال قوم موسى لموسى
..... ١٧٣	اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي
..... ٢٨	أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة
..... ٦٦	أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا
..... ١٧٢ (أثر)	إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت
..... ٣٥	إن الله حرم على التار من قال لا إله إلا الله
..... ١٠٧	إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية
..... ١٨	إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي
..... ١١٨	إن آل فلان ليسوا لي بأولياء
..... ١١٨	إن أولى الناس بي المتقون
..... ٢٢١	أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين
..... ٣٩١	إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً
..... ٢٥ (أثر)	أن تعمل بطاعة الله على نور من الله
..... ٢٦٣	أنت مع من أحببت
..... ٢٩٣	إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله
..... ٣٤٠	أنشد رجلاً فعل ما فعل لي عليه حق
..... ٢٩٧	إن صحابكم تفسله الملائكة
..... ١٩٤	الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن
..... ٢٦٨	انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً
..... ٣٤٣	انطلقوا إلى يهود
..... ٣٠٠	انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ
..... ٣٧٥	إن عادوا لك فعد لهم بما قلت
..... ٢٩٣	إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين

الصفحة	أول الحديث أو الأثر
٢٤٠ (أثر)	إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام
٢٢٠	أن لا يحج بعد العام مشرك
٣٧٠ (أثر)	إن لي كاتباً نصرانياً
٢٨٨	إنما الأعمال بالنيات
١٨	إن من عباد الله لأناس ما هم بأنبياء
٢٧٦	أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين
٣٢٦	أن الناس نزلوا مع رسول الله
١٨٠	إنها - أي سورة الكافرون - براءة من الشرك
١٦٨	لاني لم أؤمر بهذا
٣٤٠	أن يهودية كانت تشتم النبي ﷺ
٣٢٦	أن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالقهم
٨٩	إن يوسف قد سأل العمل
٤١	أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله
٤٢	أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله
١٠٣ (أثر)	أولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسائلهم
٢٨١	أومخرجي هم
١٢٢	إياكم ومحقرات الذنوب
٣٣٣ (أثر)	إياكم ورطانة الأعاجم
٥٠	أينما لقيتموهم فاقتلوهم
١٩٤	آية الإيمان حب الأنصار
٦٣	آية المنافق ثلاث
٣٨١ (أثر)	بحسب امرئ يرى منكراً لا يستطيع أن يفره أن
١٨٧	بل الدم الدم والمدم المدم

١٨٠	حديث قراءة المصطفى ﷺ بـ (الكافرون) و (الإخلاص)
٣٨٨	حديث كعب بن مالك
٣٦٩	حديث مزارعته لليهود
٩٩	حديث معاذ حين بعثه رسول الله إلى اليمن
١٩٧	حديث الوثيقة التي كتبها رسول الله بين
٣٧٨	حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة (أثر)
٣٥٩	الحمد لله الذي أنقذه من النار
٣٢٧	خالفوا اليهود
١٥٨	دعوها فإنها منتنة
٢٩٣	رأس الأمر الإسلام وعموده
٢٤٠	الرجل على دين خليله
١٨٧	رويداً يا أهل يثرب (أثر)
٥٩	سباب المسلم فسوق و
٣١٢	ستجدون قوماً يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه (أثر)
٦٣	الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب الثعلب
٣٣	شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً
٣٩٠	غيبت عن أول قتال قاتله رسول الله (أثر)
١٠٧	فهلا قلت خذها مني وأنا الغلام الأنصاري
٢٩٦	قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض
١٠٢	كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات (أثر)
١٤٤	كل بدعة ضلالة
٣٣٥	كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته
٣٦٧	كنت رجلاً قيناً فعملت للعاص بن وائل

أول الحديث أو الأثر الصفحة

لا أجده .. هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن	٢٩٣
لا أعلم من الإشراف شيئاً أكبر من	٣١٦ (أثر)
لا تبدؤا اليهود ولا النصارى بالسلام	٢٤٥
لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا	٢٤٢
لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب	٥٨
لا تساكنتوا المشركين ولا تجامعوه	٢٤٦
لا تقولوا للمنافق سيد	٣٦٠
لا تلغنه فإنه يحب الله ورسوله	١٣٥
لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة	٢٧١
لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق	١٧٥
لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي	١١٨
لا هجرة بعد فتح مكة	٢٨٦
لا هجرة ولكن جهاد ونية	٢٨٤
لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى	١٩٥
لا يدخل الجنة قاطع رحم	٣٥٤
لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم	٣١٧
لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن	٦٤
لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن	٦٤
لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه	٢٦٧
لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما	٣١
لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب	٣٤٣
لتبعن سنن من كان قبلكم	٢٣٩
لتقاتلن اليهود	٤٣٧

١٣٥	لعن <small>عليه السلام</small> الخمر وشاربها و
٢٩٣	لغواية في سبيل الله أو راحة خير من
٣٧٨ (أثر)	لو أعطيتني جميع ما تملك
١٨٤ (أثر)	ليس في القرآن أشد غيظاً لأبليس
٣٢٧	ليس منا من تشبه بغيرنا
١٥٨	ليس منا من دعا إلى عصبية
٢٩٣	ما أغبرتنا قدما عبد في سبيل الله فتمسه
٢٠٩	ما بال دعوى الجاهلية
٣٤٢ (أثر)	ما على هذا صالحناكم
٣٤	ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله
٢٦٧	ما من أمريء يخذل امرأ مسلماً في موضع
٣٣٢	ما هذان اليومان؟
٢٦٢	المرء مع من أحب
٢٦٨	المسلم أخو المسلم
٣٧٥	ملئ عمار إيماناً إلى مشاشة
٥٨	من أتى كاهناً فصدقه بما يقول
٤٢	من أحب في الله وأبغض في الله
٣٠٨	من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً
١٤١	من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه
٣٢٥	من بنى بأرض المشركين فصنع نبروزهم
٣٢٠	من تشبه بقوم فهو منهم
٢٤٦	من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله
٦٣	من حلف بغير الله فقد أشرك

- من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم ١١٤
- من رأى منكم منكراً فليغيره ٣٠٩
- من عادى لي ولياً فقد ٩١
- من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ٣٥
- من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله ٤٨
- من كان مستنأ فليستن بمن قد مات (أثر) ١٤٣
- من كنت مولاه فعلي مولاه ٨٧
- من لقيت من وراء هذا الحائط ٣٠
- من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله ٢٩
- المهاجر من هجر ما نهى الله عنه ٣١٠
- مهم؟ قال: تزوجت ١٩٥
- المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ١٨٨
- المؤمن مرآة أخيه ٢٦٩
- نعم صلي أملك ٣٥٣
- هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين ١٩٧
- واستأجر النبي ﷺ وأبو بكر رجلاً من ٣٦٦
- والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله ٢٠٩
- والله لقد بعث النبي ﷺ على أشد حال (أثر) ١٧
- والله لو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها (أثر) ٣٧٧
- والله ما أحب أن (أثر) ٣٨٩
- واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ١٠٨
- ولا تستعن في أمر من أمور المسلمين بمشرك (أثر) ٣٧٠
- ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ٣٨٠

الصفحة

أول الحديث أو الأثر

ويملك ومن يعدل إذا لم أعدل	٣٠٢
يا أماه لو كانت لك مائة نفس	١٧٤ (أثر)
يا معشر المسلمين الله الله أبعدوى الجاهلية	٢٠٢
يا معشر اليهود أسلموا تسلموا	٣٤٣
يوشك الأمم أن تداعى عليكم	٨٠

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام المترجم لهم

الصفحة

١٧٠	ابن الدغنة
١٨٦	أبو الهيثم بن التيهان
١٠٢	أبو عبد الرحمن السلمي
١٨٧	أسعد بن زرارة
٦٤	إسماعيل الشالنجي
١٨٦	البراء بن معرور
٢٧٧	ثمارة بن أثال
٣٦٨	الحازمي
٢٩٩	حاطب بن أبي بلتعة
٣٨	حافظ الحكمي
٣٧٧	حبيب بن زيد
٢٧٣	حمد بن عتيق
٩٧	حنين بن إسحاق
٢٨٣	الخطابي
٣٠٢	ذو الخويصرة
٣٨٩	زيد بن الدثنة
٢٦ ، ٢٥	سفيان بن عيينة
٣٧١	شبيب بن شبة

الموضوع	الصفحة
عبد الله بن حذافة السهمي	٣٧٧
عبد الله بن حمار	١٣٥
عتبان بن مالك	٣٥
العز بن عبد السلام	١٤٢
عمير بن الحمام	٢٩٦
عوف بن مالك الأشجعي	٣٤١
مجاهع بن مسعود	٢٨٦
مجماعة بن مرارة الحنفي	٢٧٧
محمد بن إبراهيم آل الشيخ	٨٢
مصعب بن عمير	١٨٥
المقداد بن الأسود	١٧
المهاجر بن أبي أمية	٣٤١
وهب من خبه	٢٨

المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع (حسب الحروف الهجائية)

أ ،

- ١ - «القرآن الكريم».
- ٢ - «الابتعاث ومخاطره»، محمد لطفي الصباغ، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ، المكتب الإسلامي.
- ٣ - «أبو بصير قمة في العزة الإسلامية»، محمد حسن بريغش، الثانية سنة ١٣٩٧هـ، مكتبة الحرمين بالرياض.
- ٤ - «الانجازات الوطنية في الأدب المعاصر»، د. محمد حسين، الثالثة سنة ١٣٩٢هـ، دار النهضة العربية، بيروت.
- ٥ - «الإتقان في علوم القرآن»، جلال الدين السيوطي (ت^(١)) سنة ٩١١هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٩٧٤م، الهيئة المصرية للكتاب.
- ٦ - «آثار الحرب في الفقه الإسلامي»، د. وهبة الزحيلي، الثانية ١٤٨٥هـ.
- ٧ - «الاحتجاج بالقدر»، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن تیمية ت سنة ٧٢٨هـ، ط سنة ١٣٩٣هـ، المكتب الإسلامي.
- ٨ - «أحكام أهل الذمة»، للعلامة محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ت سنة ٧٥١هـ، تحقيق: صبحي الصالح، الأولى سنة ١٣٨١هـ جامعة دمشق.

(١) هذه الإشارة « ت » تعني أن المؤلف توفي سنة كذا

- ٩ - «أحكام القرآن»، لأبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي ت سنة ٥٤٣هـ، تحقيق: علي البجاوي، ط سنة ١٣٩٢هـ عيسى الحلبي.
- ١٠ - «أحكام القرآن»، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص ت سنة ٣٧٠هـ، تحقيق محمد قمحاوي، الثانية، دار المصحف بالقاهرة.
- ١١ - «الأدب المفرد»، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ت سنة ٢٥٦هـ، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، الأولى سنة ١٣٧٥هـ، السلفية بمصر.
- ١٢ - «الأربعون النووية»، للإمام يحيى بن شرف الدين النووي ت سنة ٦٧٦هـ، الثانية سنة ١٩٧٣م، مطابع قطر الوطنية.
- ١٣ - «إرشاد الطالب»، للشيخ سليمان بن سحمان ت سنة ١٣٤٩هـ، الأولى سنة ١٣٤٠هـ، مطبعة المنار، مصر.
- ١٤ - «أزمة العصر»، د. محمد محمد حسين، الأولى سنة ١٣٩٩هـ، دار عكاظ، جدة.
- ١٥ - «أساليب الغزو الفكري»، د. علي جريشة وزميله، الثانية سنة ١٣٩٨هـ، دار الاعتصام، القاهرة.
- ١٦ - «أسباب النزول»، لأبي الحسين علي بن أحمد الواحدي ت سنة ٤٦٨هـ، الثانية سنة ١٣٨٧هـ، مصطفى الحلبي، مصر.
- ١٧ - «الاستيعاب في أسماء الأصحاب»، لأبي عمر يوسف بن عبد البر، ت سنة ٣٦٣هـ، الأولى سنة ١٣٢٨هـ، مطبعة السعادة بمصر.
- ١٨ - «الأسس الأخلاقية»، لأبي الأعلى المودودي، ت سنة ١٣٩٩هـ، الأولى سنة ١٩٧١م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ١٩ - «الإسلام على مفترق الطرق»، محمد أسد، ترجمة عمر فروخ، الثامنة سنة ١٩٧٤م، دار العلم للملايين، بيروت.
- ٢٠ - «الإسلام في حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة»، د. محمد البهي، الثانية سنة ١٣٩٨هـ، مكتبة وهبة بالقاهرة.

- ٢١- «الإسلام وأوضاعنا القانونية»، عبد القادر عودة، الثانية سنة ١٣٨٦هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ٢٢- «الإسلام والطاغات المعطلة»، الشيخ محمد الغزالي، الثانية سنة ١٣٨٣هـ، دار الكتب الحديثة، مصر.
- ٢٣- «الإسلام ومشكلات الحضارة»، للأستاذ سيد قطب، ت سنة ١٩٦٦م، دار الشروق.
- ٢٤- «الإصابة في تمييز الصحابة»، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت سنة ٨٥٢هـ، الأولى سنة ١٣٢٨هـ، السعادة بمصر.
- ٢٥- «الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار»، لأبي محمد بن موسى الحازمي الهمداني ت سنة ٥٨٤هـ، تحقيق راتب حاكمي، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٦هـ، الناشر: راتب حاكمي.
- ٢٦- «الاعتصام»، للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، ت سنة ٧٩٠هـ، المكتبة التجارية، مصر.
- ٢٧- «الاعتقاد على مذهب السلف»، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ت سنة ٤٥٨هـ، تحقيق: أحمد مرسي، الأولى سنة ١٣٨٠هـ.
- ٢٨- «الأعلام»، خير الدين الزركلي، الرابعة سنة ١٩٧٩م، دار العلم للملايين، بيروت.
- ٢٩- «أعلام السنة المنشورة»، للشيخ حافظ الحكمي، ت سنة ١٣٧٧هـ، الثالثة سنة ١٣٩٩هـ، إدارات البحوث العلمية بالرياض.
- ٣٠- «إعلام الموقعين»، لابن القيم، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ط ١٩٧٣م، تصوير دار الجيل، بيروت.
- ٣١- «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان»، لابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، الثانية سنة ١٣٩٥هـ، تصوير دار المعرفة، بيروت.
- ٣٢- «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، لابن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، الثانية سنة ١٣٦٩هـ، مطبعة أنصار السنة بالقاهرة.

- ٣٣- «أفضية الرسول ﷺ»، عبد الله بن محمد بن فرج المالكي، الناشر: حمد ابن فالح آل ثاني.
- ٣٤- «أمثال القرآن»، لابن القيم، تحقيق: د. ناصر الرشيد، الأولى سنة ١٤٠٠هـ، دار مكة للطباعة.
- ٣٥- «الأموال»، لأبي عبيد القاسم بن سلام، ت سنة ٢٢٤هـ، تحقيق: د. محمد خليل هراس، الثانية سنة ١٣٩٥هـ، مكتبة الكليات الأزهرية.
- ٣٦- «الإنسان بين المادية والإسلام»، للأستاذ محمد قطب، الخامسة سنة ١٣٩٨هـ، دار الشروق.
- ٣٧- «الإيضاح والتبيين» للشيخ حمود التويجري، الأولى سنة ١٣٨٤هـ، مؤسسة النور بالرياض.
- ٣٨- «الإيمان»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، الثانية سنة ١٣٩٢هـ، المكتب الإسلامي.
- ٣٩- «الإيمان: حقيقته . أركانه . نواقضه»، د. محمد نعيم ياسين، الأولى سنة ١٣٩٨هـ، جمعية عمال المطابع، الأردن.
- ٤٠- «الإيمان»، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، ت سنة ٢٣٥هـ، تحقيق: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، سنة ١٣٨٥هـ، المطبعة العمومية بدمشق .

ب

- ٤١- «بدائع الفوائد»، للعلامة ابن القيم، إدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة .
- ٤٢- «البداية والنهاية»، للدخافد إسماعيل عماد الدين بن كثير، ت سنة ٧٧٤هـ، ط سنة ١٩٦٦م، مكتبة المعارف، بيروت .
- ٤٣- «بضع رسائل في عقائد الإسلام»، للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب، ت سنة ١٢٠٦هـ، تحقيق: محمد رشيد رضا، الأولى سنة ١٣٤٩هـ، المنار بمصر.

- ٤٤- «بروتوكولات حكماء صهيون»، ترجمة محمد خليفة التونسي، الرابعة، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٤٥- «بيان النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك»، للشيخ حمد بن عتيق ت سنة ١٣٠١هـ، الطبعة الرابعة سنة ١٣٨٣هـ، دار الفكر، بيروت.

(ت)

- ٤٦- «تاريخ الأمم والملوك»، للإمام محمد بن جرير الطبري ت سنة ٣١٠هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الثانية ١٣٨٧هـ، دار المعارف، مصر.
- ٤٧- «البيان في أقسام القرآن»، لابن القيم، تعليق: طه يوسف شاهين، مكتبة القاهرة، مصر.
- ٤٨- «تحفة الإخوان بما جاء في الموالاة والمعاداة والهجران»، للشيخ حمود التويجري، الأولى سنة ١٣٨٣هـ، مؤسسة النور بالرياض.
- ٤٩- «التحفة العراقية»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، الثانية سنة ١٣٩٩هـ، المطبعة السلفية بالقاهرة.
- ٥٠- «تحكيم القوانين»، للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ت سنة ١٣٨٩هـ، طبع سنة ١٣٨٠هـ، مطابع الثقافة بمكة.
- ٥١- «التدمرية»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: زهير الشاويش، الطبعة الثانية سنة ١٣٩١هـ، المكتب الإسلامي .
- ٥٢- «تذيل على كشف الشبهات»، للشيخ عبد الرحمن الدوسري، الثالثة سنة ١٣٨٨هـ، مؤسسة النور بالرياض.
- ٥٣- «التشريع الجنائي»، للأستاذ عبد القادر عودة، الثالثة سنة ١٣٨٣هـ، مكتبة دار العروبة بمصر .
- ٥٤- «التصوير الفني في القرآن»، سيد قطب، الطبعة الشرعية الرابعة، سنة

- ١٣٩٨هـ، دار الشروق.
- ٥٥- «التطور والثبات في حياة البشر»، للأسناد محمد قطب، ط سنة ١٣٩٤هـ، دار الشروق.
- ٥٦- «تعجيل المنفعة»، لابن حجر، طبع هاشم اليماني.
- ٥٧- «التعليق المغني على الدارقطني»، عبد الله هاشم اليماني، ط. سنة ١٣٨٦هـ.
- ٥٨- «التفسير القيم لابن القيم»، جمع: محمد أويس الندوي، تحقيق: محمد حامد الفقي، تصوير لجنة التراث، بيروت.
- ٥٩- «تفسير كلام المنان»، للشيخ عبد الرحمن بن سعدى، تحقيق: محمد زهري النجار، المؤسسة السعدية بالرياض.
- ٦٠- «تف بر سورة النور»، لابن تيمية، الأولى سنة ١٣٩٧هـ، مكتبة المنار الإسلامية بالكويت.
- ٦١- «تفسير البغوي» المعروف بـ «معالم التنزيل»، لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، ت سنة ٥١٦هـ، الثانية سنة ١٣٧٥هـ، مطبعة الحلبي بمصر.
- ٦٢- «تفسير القرآن العظيم»، للحافظ ابن كثير، تحقيق: عبد العزيز غنيم وعاشور والبناء، مطبعة الشعب.
- ٦٣- «تفسير الخازن» المسمى «لباب التأويل في معاني التنزيل»، لعلاء الدين علي بن محمد الخازن، ت سنة ٧٢٥هـ، الثانية سنة ١٣٧٥هـ، مصطفى الحلبي بمصر.
- ٦٤- «تقريب التهذيب»، لابن حجر، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، طبع مصر.
- ٦٥- «تلبيس إبليس»، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، ت سنة ٥٩٧هـ، تحقيق: خير الدين علي، دار الوعي، بيروت.
- ٦٦- «تلخيص المستدرک»، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، ت سنة

- ٨٤٨هـ، مطبوع مع المستدرك.
- ٦٧- «التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع»، لأبي الحسين محمد بن أحمد الملطي، ت سنة ٣٧٧هـ، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، الثانية سنة ١٣٨٨هـ، مكتبة المثنى ببغداد.
- ٦٨- «تهذيب التهذيب»، لابن حجر العسقلاني، الأولى سنة ١٣٢٦هـ، بحيدر آباد، تصوير دار صادر، بيروت.
- ٦٩- «تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد»، للشيخ سليمان بن عبد الله ابن محمد بن عبد الوهاب، ت سنة ١٢٣٣هـ، ط إدارات البحوث العلمية في الرياض.

« ج »

- ٧٠- «جامع الأصول»، لمجد الدين أبي السعادات المبارك محمد بن الأثير، ت سنة ٦٠٦هـ، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، الأولى سنة ١٣٨٩هـ، مكتبة الحلواني والملاح ببيروت.
- ٧١- «جامع البيان عن تأويل القرآن» [تفسير الطبري]، لأبي جعفر محمد ابن جرير الطبري، الثالثة سنة ١٣٨٨هـ، مصطفى الحلبي.
- ٧٢- «الجامع الفريد»، مجموعة من علماء الدعوة، مطبعة المدينة بالرياض.
- ٧٣- «جامع العلوم والحكم»، لأبي المرح عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، ت سنة ٧٩٥هـ، الثالثة سنة ١٣٨٢هـ، مصطفى الحلبي.
- ٧٤- «الجامع لأحكام القرآن» [تفسير القرطبي]، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ت سنة ٦٧١هـ، تحقيق: أبي إسحاق أطفيش، تصوير عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٨٧هـ، دار الكتاب العربي بالقاهرة.
- ٧٥- «الجانب الآلهي من التفكير الإسلامي»، د. محمد البهي، الخامسة سنة ١٣٩١هـ، دار الفكر ببيروت.
- ٧٦- «جاهلية القرن العشرين»، للأستاذ محمد قطب، ط سنة ١٣٩٤هـ،

دار الشروق.

٧٧- «جنود البلاء»، للأستاذ عبد الله التل، الثانية سنة ١٣٩٨هـ، المكتب الإسلامي.

٧٨- «جريدة عكاظ»، العدد الأسبوعي، رقم ٤٧٢٨ في ١٦/٦/١٣٩٩هـ.

٧٩- «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تصوير مطابع المجد بالرياض.

٨٠- «الجواب الكافي»، لابن القيم، الأولى سنة ١٣٩٤هـ، المكتبة السلفية بالقاهرة .

« ح »

٨١- «حد الإسلام وحقيقة الإيمان»، للأستاذ عبد المجيد الشاذلي، مكتوب بالآلة الكاتبة.

٨٢- «حصاد الغرور»، للشيخ محمد الغزالي، الأولى سنة ١٣٩٠هـ، دار البيان بالكويت.

٨٣- «حصوننا مهددة من داخلها»، د. محمد محمد حسين، الرابعة سنة ١٣٩٧هـ، المكتب الإسلامي.

٨٤- «الحضارة الإسلامية . أسسها ومبادئها»، للمودودي، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٠هـ، دار العربية، بيروت.

٨٥- «الحكم الجديرة بالإذاعة»، لابن رجب (ضمن مجموع)، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة أنصار السنة.

٨٦- «حلية الأولياء»، للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، ت سنة ٤٣٠هـ، المكتبة السلفية.

٨٧- «الحوادث والبدع»، لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، ت سنة ٥٢٠هـ، تحقيق: محمد الطالبي، دار الأصفهاني بجدة.

٨٨- «حياة الصحابة»، للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي، دار المعرفة، بيروت.

« خ »

- ٨٩ - «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته»، للأستاذ سيد قطب، دار الشروق.
- ٩٠ - «خطرات جمال الدين الأفغاني»، اختيار عبد العزيز سيد الأهل، الناشر: دار حراء بالقاهرة.
- ٩١ - «دراسات قرآنية للأستاذ»، محمد قطب، دار الشروق.
- ٩٢ - «الدرر السنية في الأجوبة النجدية»، جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم، الثانية سنة ١٣٨٥هـ، دار الإفتاء بالرياض.
- ٩٣ - «درس النكبة الثانية»، د. يوسف القرضاوي، الأولى سنة ١٣٨٨هـ.
- ٩٤ - «الدفاع عن أهل السنة والاتباع»، للشيخ حمد بن عتيق، نشرها: إسماعيل بن عتيق. بدون تاريخ.
- ٩٥ - «دقائق التفسير»، لابن تيمية، وتحقيق: د. محمد السيد الجليلند، الأولى سنة ١٣٩٨هـ، دار الأنصار بالقاهرة.
- ٩٦ - «دمروا الإسلام أيّدوا أهله»، جلال العالم، الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ.
- ٩٧ - «دور الإسلام في حياة البشرية»، محمد قطب، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٩هـ، المختار الإسلامي بالقاهرة.
- ٩٨ - «رد ابن حزم على ابن النغيلة اليهودي»، تحقيق إحسان عباس، سنة ١٣٨٠هـ، دار العروبة بالقاهرة.
- ٩٩ - «ردة ولا أبا بكر لها»، لأبي الحسن الندوي، الثالثة سنة ١٣٩٨هـ، المختار الإسلامي بالقاهرة.
- ١٠٠ - «الردة بين الأمس واليوم»، محمد كاظم حبيب، الأولى سنة ١٣٩٨هـ، المكتبة العلمية بـلاهور باكستان.
- ١٠١ - «الرسائل المنيرية»، مجموعة من العلماء، المطبعة المنيرية بالقاهرة.
- ١٠٢ - «الرسائل المفيدة»، للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن،

تصحيح: عبد الرحمن الرويشد، ط سنة ١٣٩٨هـ، دار العلوم بالقاهرة.
١٠٣- «الرسالة النبوكية»، لابن القيم، الثانية سنة ١٣٩٤هـ، المكتبة السلفية
بالقاهرة.

١٠٤- «رياض الصالحين»، للنووي، تحقيق: الألباني، الأولى سنة ١٣٩٩هـ،
المكتب الإسلامي .

١٠٥- «زاد المعاد في هدي خير العباد»، للعلامة ابن القيم، تحقيق شعيب
الأرنؤوط وأخيه، الأولى سنة ١٣٩٩هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

« س »

١٠٦- «سبيل الدعوة الإسلامية»، د. محمد أمين المصري، الأولى سنة
١٤٠٠هـ، دار الأرقم بالكويت.

١٠٧- «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، محمد ناصر الدين الألباني، الثانية
سنة ١٣٩٩هـ، المكتب الإسلامي.

١٠٨- «سنن ابن ماجه»، للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ت
سنة ٢٧٥هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط سنة ١٣٩٥هـ،
تصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٠٩- «سنن أبي داود»، للإمام أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني،
ت سنة ٢٧٥هـ، تحقيق وتعليق: عزت الدعاس، الأولى سنة
١٣٩١هـ، الناشر: محمد علي السيد، سوريا.

١١٠- «سنن الترمذي»، الإمام محمد بن عيسى الترمذي، ت سنة ٢٧٩هـ،
تعليق: عزت الدعاس، ط سنة ١٣٨٥هـ، دار الدعوة، حمص.

١١١- «سنن الدارقطني»، الإمام علي بن عمر الدارقطني، ت سنة ٣٨٥هـ،
نشر: عبد الله هاشم اليماني، سنة ١٣٨٦هـ.

١١٢- «سنن الدارمي»، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، ت
سنة ٢٥٥هـ، طبع بعناية محمد أحمد دهمان، دار إحياء السنة المحمدية،

تصوير الناز بمكة.

١١٣- «السنن الكبرى»، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تصوير دار الفكر بيروت.

١١٤- «سنن النسائي»، للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، ت سنة ٣٠٣هـ، الأولى سنة ١٣٤٨هـ، تصوير دار الفكر، بيروت.

١١٥- «السنة»، للإمام أحمد بن حنبل، ت سنة ٢٤١هـ، تصحيح: الشيخ إسماعيل الأنصاري، إدارات البحوث العلمية بالرياض.

١١٦- «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي»، د. مصطفى السباعي، الثانية سنة ١٣٩٦هـ، المكتب الإسلامي.

١١٧- «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط سنة ١٣٧٩هـ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

١١٨- «سيرة الرسول ﷺ»، للأستاذ محمد عزة دروزة، الثالثة سنة ١٤٠٠هـ، مؤتمر السيرة الثالث بقطر.

١١٩- «السيرة النبوية»، للإمام عبد الملك بن هشام، ت سنة ٢١٨هـ، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، الأولى سنة ١٣٥٥هـ، مصطفى الحلبي.

« ش »

١٢٠- «شذرات البلاتين»، مجموعة من العلماء، تحقيق: محمد حامد افقي، الأولى سنة ١٣٧٥هـ، مطبعة أنصار السنة بالقاهرة.

١٢١- «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، عبد الحي بن العماد الحنبلي، ت سنة ١٠٨٩هـ، تصوير عن الطبعة الأولى، دار الآفاق، بيروت.

١٢٢- «شرح السنة»، للإمام الحسين بن مسعود البغوي، ت سنة ٥١٦هـ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، الطبعة الأولى سنة ١٣٩١هـ، المكتب الإسلامي.

١٢٣- «شرح الطحاوية»، لابن أبي العز الحنفي، ط ٤ سنة ١٣٩١هـ،

المكتب الإسلامي.

- ١٢٤- «شرح النووي على صحيح مسلم»، للإمام يحيى بن شرف النووي،
الثانية سنة ١٣٩٢هـ، تصوير دار الفكر، بيروت.
١٢٥- «الشریعة»، لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري، ت سنة ٣٦٠هـ،
تحقيق: محمد حامد الفقي، الأولى سنة ١٣٦٩هـ، مطبعة أنصار السنة.
١٢٦- «الشعوية الجديدة»، محمد مصطفى رمضان، الأولى سنة ١٣٨٩هـ.

« هـ »

- ١٢٧- «الصارم المسلول على شاتم الرسول»، لشيخ الإسلام ابن تيمية،
تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، الأولى سنة ١٣٧٩هـ، مكتبة تاج
بالقاهرة.
١٢٨- «صحيح البخاري»، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، ت سنة
٢٥٦هـ، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، الأولى سنة ١٣٨٠هـ،
السلفية بمصر.
١٢٩- «صحيح الجامع الصغير»، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الأولى
سنة ١٣٨٨هـ، المكتب الإسلامي.
١٣٠- «صحيح مسلم»، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري، ت سنة
٢٦١هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الأولى سنة ١٣٧٤هـ، دار
إحياء الكتب العربية، القاهرة.
١٣١- «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية»، لأبي الحسن
الندوي، الثالثة سنة ١٣٩٧هـ، دار القلم بالكويت.
١٣٢- «الصلاة»، لابن القيم، الثانية سنة ١٣٩١هـ، المكتبة السلفية بالقاهرة.
١٣٣- «صيد الخاطر»، لابن الجوزي، تحقيق: علي وناجي الطنطاوي، الثانية
سنة ١٣٩٨هـ، دار الفكر، بيروت.
١٣٤- «طبقات الحنابلة»، لأبي الحسين محمد بن أبي يعلى، ت سنة ٤٥٨هـ،

- تحقيق: محمد حامد الفقي، سنة ١٣٧١هـ، مطبعة أنصار السنة.
 ١٣٥- «طريق الدعوة في ظلال القرآن»، جمع: أحمد فائز، الثالثة سنة ١٣٩٧هـ.
 ١٣٦- «طريق الهجرتين وباب السعادتين»، لابن القيم، الأولى سنة ١٣٧٥هـ،
 المكتبة السلفية بالقاهرة.
 ١٣٧- «ضعيف الجامع الصغير وزيادته»، للألباني، الثانية، ١٣٩٩هـ، المكتب
 الإسلامي.

«ع»

- ١٣٨- «العبودية»، لشيخ الإسلام ابن تيمية، الرابعة سنة ١٣٩٧هـ، المكتب
 الإسلامي.
 ١٣٩- «العرب والإسلام»، لأبي الحسن الندوي، الثانية سنة ١٣٨٩هـ،
 المكتب الإسلامي.
 ١٤٠- «عصر المأمون»، د. أحمد مزيد رفاعي، الثانية سنة ١٣٤٦هـ، دار
 الكتب المصرية.
 ١٤١- «العقيدة الطحاوية»، لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة
 الطحاوي، ت سنة ٣٢١هـ، الرابعة ١٣٩١هـ، المكتب الإسلامي.
 ١٤٢- «العقيدة نبي الله»، للأستاذ عمر سليمان الأشقر، الأولى سنة
 ١٣٩٩هـ، مكتبة الفلاح بالكويت.
 ١٤٣- «العقيدة الواسطية»، لابن تيمية، بشرح: الشيخ خليل هراس، الطبعة
 الثالثة، سنة ١٣٨٦هـ، المكتبة السلفية بالمدينة.
 ١٤٤- «علماء نجد خلال ستة قرون»، عبد الله بن عبد الرحمن البسام،
 الأولى ١٣٩٨هـ، مكتبة النهضة بمكة.
 ١٤٥- «العلاقات الدولية في الإسلام»، محمد أبو زهرة، ط سنة ١٣٨٤هـ،
 الدار القومية للطباعة، مصر.
 ١٤٦- «العلمانية وآثارها في العالم الإسلامي»، للأستاذ سفر عبد الرحمن

- المحوالي، الناشر: مركز البحوث العلمي بجامعة أم القرى.
- ١٤٧- «الغارة على العالم الإسلامي»، ترجمة: محب الدين الخطيب ومساعد اليافي، الثانية سنة ١٣٨٧هـ، منشورات العصر الحديث.
- ١٤٨- «غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام»، للألباني، سنة ١٤٠٠هـ، المكتب الإسلامي.

« ف »

- ١٤٩- «الفتاوى السعدية»، للشيخ عبد الرحمن بن سعدي، الأولى سنة ١٣٨٨هـ، دار الحياة، دمشق.
- ١٥٠- «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، لابن حجر العسقلاني، الأولى سنة ١٣٨٠هـ، السلفية بمصر.
- ١٥١- «الفتح الرباني شرح مسند الإمام أحمد»، لأحمد بن عبد الرحمن السناعاتي، تصوير دار إحياء التراث بيروت.
- ١٥٢- «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد»، للشيخ عبد الرحمن بن حسن، ت سنة ١٢٨٥هـ، ط السابعة سنة ١٣٧٧هـ، مطبعة أنصار السنة.
- ١٥٣- «الفرق بين الفرق»، عبد القاهر البغدادي، ت سنة ٤٢٩هـ، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، ط محمد علي صبيح بالقاهرة.
- ١٥٤- «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، لابن تيمية، الرابعة سنة ١٣٩٧هـ، المكتب الإسلامي.
- ١٥٥- «فقه السيرة»، للشيخ محمد الغزالي، مطابع علي بن علي بقطر.
- ١٥٦- «الفكر الإسلامي المعاصر»، دراسة وتقويم، للأستاذ غازي التوبة، الثانية ١٩٧٧م، دار القلم، بيروت.
- ١٥٧- «فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام»، للأستاذ صالح العبود، الناشر: دار طيبة بالرياض.
- ١٥٨- «الفوائد»، لابن القيم، الثالثة سنة ١٣٩٦هـ، مكتبة الجامعة بالقاهرة.

١٥٩- «في ظلال القرآن»، للأستاذ سيد قطب، الطبعة المشروعة، دار الشروق.

« ق »

١٦٠- «القاموس المحيط»، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ت سنة

٨١٧هـ، الثالثة سنة ١٣٠١هـ، المطبعة الأميرية ببولاق.

١٦١- «قصص الأنبياء»، لابن كثير، تحقيق: د. مصطفى عبد الواحد،

الأولى سنة ١٣٨٨هـ، دار الكتب الحديثة، مصر.

١٦٢- «القصيدة النونية»، لابن القيم، ط سنة ١٣٩٨هـ، إدارة نرحمان السنة

بلاهور، باكستان.

١٦٣- «قطر الولي»، للعلامة محمد بن علي الشوكاني ت سنة ١٢٥٠هـ،

تحقيق: إبراهيم هلال، الأولى سنة ١٣٨٩هـ، الكتب الحديثة

« ك »

١٦٤- «كتاب التوحيد»، للشيخ محمد بن عبد الوهاب، طبع مع فتح

المجيد، تحقيق: محمد حامد الفقي، السابعة سنة ١٢٧٧هـ، مطبعة

أنصار السنة.

١٦٥- «كشف الشبهات»، للشيخ محمد بن عبد الوهاب، الثالثة سنة

١٣٨٨هـ، مؤسسة النور بالرياض.

١٦٦- «كفاح دين»، للشيخ محمد الغزالي، الثالثة سنة ١٣٨٥هـ، دار

الكتب الحديثة، مصر.

١٦٧- «الكفر والمكفرات»، أحمد عر الدين البيانوني، ط سنة ١٣٩٥هـ،

مكتبة الهدى بحلب.

١٦٨- «الكلمات النافعة»، للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، ت

سنة ١٢٣٣هـ، الثانية، المطبعة السلفية بالقاهرة.

١٦٩- «كلمة الإخلاص»، للإمام عبد الرحمن بن رجب، تحقيق: رهبر

- الشاويش والألباني، الرابعة سنة ١٣٩٧هـ، المكتب الإسلامي.
- ١٧٠- «لسان العرب»، محمد بن مكرم بن منظور، ت سنة ٧١١هـ، تصنيف: يوسف خياط والمرعشلي، سنة ١٣٨٩هـ، دار لسان العرب، بيروت.
- ١٧١- «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان»، للشيخ محمد قواد عبد الباقي، تصوير المكتبة الإسلامية، بيروت.

(م)

- ١٧٢- «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، لأبي الحسن الندوي، العاشرة سنة ١٣٩٤هـ، مطابع قطر.
- ١٧٣- «مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب»، نشرتها: جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولى، سنة ١٣٩٨هـ، الرياض.
- ١٧٤- «ما هي علاقة الأمة المسلمة بالأمم الأخرى»، للأستاذ أحمد محمود الأحمد، الأولى سنة ١٣٩٨هـ، المكتب الإسلامي.
- ١٧٥- «مبادئ الإسلام»، للمودودي، ط سنة ١٣٩٧هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ١٧٦- «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد»، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ت سنة ٨٠٧هـ، الثانية ١٩٦٧م، تصوير دار الكتاب، بيروت.
- ١٧٧- «مجلة رابطة العالم الإسلامي الشهرية»، العدد الخامس، جمادى الأولى سنة ١٤٠١هـ.
- ١٧٨- «مجلة العربي الكويتية»، العدد ٢٦٧، ربيع الأول سنة ١٤٠١هـ.
- ١٧٩- «مجلة المجتمع الكويتية»، العدد ٤٥٠.
- ١٨٠- «مجموع»، لابن تيمية، الطبعة الأولى سنة ١٣٤٩هـ، مطبعة المنار بمصر.
- ١٨١- «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»، جمع: عبد الرحمن بن قاسم، مطبعة الحكومة، سنة ١٣٨١هـ، الرياض.

- ١٨٢- «مجموعة التوحيد»، لابن تيمية وابن عبد الوهاب، ط سنة ١٩٧٨م، دار الفكر بالقاهرة.
- ١٨٣- «مجموعة التوحيد النجدية»، مجموعة من العلماء، ط سنة ١٣٨٤هـ، مطبعة الحكومة^(١).
- ١٨٤- «مجموعة رسائل ابن عتيق»، للشيخ سعد بن عتيق، ت سنة ١٣٤٩هـ، ط سنة ١٩٧٩م، دار الاعتصام بالقاهرة.
- ١٨٥- «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية»، مجموعة من علماء الدعوة، تحقيق: محمد رشيد رضا، الأولى سنة ١٣٤٦هـ، مطبعة المنار بمصر.
- ١٨٦- «محاسن التأويل»، للشيخ محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الأولى سنة ١٣٧٦هـ، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة.
- ١٨٧- «الحلى»، لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم، ت سنة ٤٥٦هـ، تحقيق: حسن زيدان طلبة، ط سنة ١٣٩٢هـ، مكتبة الجمهورية بمصر.
- ١٨٨- «مختار الصحاح»، محمد بن أبي بكر الرازي، ط سنة ١٣٦٩هـ، مصطفى الحلبي، القاهرة.
- ١٨٩- «مختصر سنن أبي داود»، للمحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، ت سنة ٦٥٦هـ، تحقيق: أحمد شاكر ومحمد حامد الفقي، الأولى سنة ١٣٦٧هـ، مطبعة أنصار السنة.
- ١٩٠- «المخططات الصهيونية» [محاضرة]، للأستاذ محمد قطب، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ، المختار الإسلامي بالقاهرة.
- ١٩١- «مدارج السالكين»، لابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، الأولى سنة ١٣٧٥هـ، مطبعة أنصار السنة.
- ١٩٢- «مذكرة المذاهب الفكرية المعاصرة»، إملاءات للأستاذ محمد قطب لطلاب السنة المنهجية بالدراسات العليا بمكة، سنة ٩٨ / ١٣٩٩هـ.

(١) هذه المجموعة والتي قبلها لا تتفقان إلا في خمس رسائل مكررة فيما وبقيت الرسائل مختلفة عن بعضها البعض.

- ١٩٣- «مسائل الإمام أحمد»، رواية إسحاق بن إبراهيم بن هانيء، تحقيق: زهير الشاويش، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ، المكتب المصري.
- ١٩٤- «المسائل الماردينية»، لابن تيمية، تحقيق: الشاويش، الثالثة سنة ١٣٩٩هـ، المكتب الإسلامي.
- ١٩٥- «المستدرک»، للإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، ت سنة ٤٠٥هـ، ط سنة ١٣٩٨هـ، تصوير دار الفكر، بيروت.
- ١٩٦- «المستقبل لهذا الدين»، للأستاذ سيد قطب، ط سنة ١٣٩٨هـ، دار الشروق.
- ١٩٧- «المسند»، للإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٨هـ، المكتب الإسلامي.
- ١٩٨- «المسند»، للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد شاكر، الطبعة الرابعة، سنة ١٣٧٣هـ، دار المعارف بمصر.
- ١٩٩- «مشكاة المصابيح»، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق: الألباني، الثانية، سنة ١٣٩٩هـ، المكتب الإسلامي.
- ٢٠٠- «المصباح المنير»، أحمد بن محمد المقرئ الفيومي، ت سنة ٧٧٠هـ، ط سنة ١٣٩٨هـ، دار الكتب العلمية.
- ٢٠١- «معارج القبول»، للشيخ حافظ الحكمي، ت سنة ١٣٧٧هـ، الطبعة الأولى، تصوير إدارات البحوث العلمية بالرياض.
- ٢٠٢- «المعارف»، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، ت سنة ٢٧٦هـ، تحقيق: ثروت عكاشة، الثانية سنة ١٣٨٨هـ، دار المعارف.
- ٢٠٣- «معالم السنن»، للإمام حمد بن محمد بن إبراهيم الخطاطي، ت سنة ٣٨٨هـ، تحقيق: أحمد شاكر ومحمد حامد الفقهي، الأولى سنة ١٣٧٩هـ، مطبعة أنصار السنة.
- ٢٠٤- «معالم في الطريق»، للأستاذ سيد قطب، دار الشروق..
- ٢٠٥- «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث»، ترتيب: لفييف من المستشرقين،

- الأولى سنة ١٩٣٦م، نشره: د. أي ونسك .
- ٢٠٦- «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»، محمد فؤاد عبد الباقي، تصوير: دار إحياء التراث العربي.
- ٢٠٧- «مصعب بن عمير الداعية المجاهد»، للأستاذ محمد بريغش، الثالثة سنة ١٣٩٥هـ، دار القلم، بيروت.
- ٢٠٨- «المغني»، لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة، ت سنة ٦٢٠هـ، تحقيق: طه محمد الزيني، ط سنة ١٣٩٠هـ، مكتبة القاهرة.
- ٢٠٩- «مفتاح الصحيحين»، للحافظ محمد الشريف بن مصطفى، الثانية سنة ١٣٩٥هـ، تصوير: دار الكتب العلمية.
- ٢١٠- «مفتاح كنوز السنة»، د . أ . ي فنسك، ترجمة: محمد فؤاد عبد الباقي، ط سنة ١٣٩١هـ، نشره: سهيل اكديمي لاهور.
- ٢١١- «المقاصد الحسنة»، للإمام محمد بن عبد الرحمن السخاوي، ت سنة ٩٠٢هـ، تعليق: عبد الله الصديق، ط سنة ١٣٩٥هـ، مكتبة الخانجي.
- ٢١٢- «مقالات الإسلاميين»، لأبي الحسن الأشعري، ت سنة ٣٣٠هـ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الثانية سنة ١٣٨٩هـ، مكتبة النهضة بالقاهرة.
- ٢١٣- «مكائد يهودية عبر التاريخ»، للأستاذ عبد الرحمن الميداني، الأولى سنة ١٣٩٤هـ، دار القلم، بيروت.
- ٢١٤- «النافقون في القرآن الكريم»، للأستاذ عبد العزيز الحميدي، رسالة ماجستير بالآلة الكاتبة.
- ٢١٥- «المنهاج في شعب الإيمان»، لأبي عبد الله الحسين الحسن الحلبي، ت سنة ٤٠٣هـ، تحقيق حلمي فودة، الأولى سنة ١٣٩٩هـ، دار الفكر، بيروت.
- ٢١٦- «منهج التربية الإسلامية»، للأستاذ محمد قطب، الجزء الثاني، ط سنة ١٤٠٠هـ، دار الشروق.

- ٢١٧- «منهج القرآن في التربية»، محمد شديد، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- ٢١٨- «موارد الظلمات إلى زوائد ابن حبان»، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، ت سنة ٨٠٧هـ، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة، تصوير: دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢١٩- «موافقة الصحيح المنقول لصريح المعقول»، لابن تيمية، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ومحمد حامد الفقي، سنة ١٣٧٠هـ، مطبعة السنة المحمدية.
- ٢٢٠- «موسوعة العقاد»، عباد محمود العقاد، ط سنة ١٣٩٠هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٢٢١- «الموطأ»، للإمام مالك بن أنس، ت سنة ١٧٩هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، تصوير: دار إحياء التراث، بيروت.

« ن »

- ٢٢٢- «نظرية التربية الإسلامية»، للشيخ محمد الغزالي، بحث مقدم لندوة التربية الإسلامية بمكة، في ١١/٦/١٤٠٠هـ.
- ٢٢٣- «النفاق وآثاره ومفاهيمه»، للشيخ عبد الرحمن الدوسري، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ، دار الأرقم بالكويت.
- ٢٢٤- «النهاية في غريب الحديث»، لابن الأثير، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، الأولى سنة ١٣٨٣هـ، دار إحياء الكتب العربية.
- ٢٢٥- «نيل الأوطار»، محمد بن علي الشوكاني، الطبعة الأخيرة، مصطفى الحلبي.
- ٢٢٦- «هداية الباري ترتيب صحيح البخاري»، عبد الرحيم الطهطاوي، الثالثة سنة ١٣٥٣هـ، المكتبة التجارية، القاهرة.
- ٢٢٧- «هداية الحيارى»، لابن القيم، نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

- ٢٢٨- «الهدية الثمينة»، للشيخ عبد الله السليمان بن حميد، الثانية سنة ١٣٧٤هـ، دار مصر للطباعة، القاهرة.
- ٢٢٩- «الهدية السنوية»، جمع الشيخ سليمان بن سحمان، تعليق: رشيد رضا، مطابع دار الثقافة بمكة.
- ٢٣٠- «هنا ديننا»، للشيخ محمد الغزالي، الثانية سنة ١٣٨٥هـ، دار الكتب الحديثة، القاهرة.
- ٢٣١- «هل نحن مسلمون»، للأستاذ محمد قطب، ط سنة ١٣٩٨هـ، دار الشروق.

الفهرس

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة بقلم فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي	٥
مقدمة الطبعة الأولى	٧
التمهيد	١٦
كلمة التوحيد تثبت أربعة أمور وتنفي أربعة أمور	٢٢
تعريف التقوى	٢٥
شروط لا إله إلا الله	٢٨
الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله	٤٠
الرد على من زعم أن كلمة التوحيد لفظ فقط، وبيان المذهب الصحيح في الأحاديث الواردة بخصوصها	٤٦
آثار الإقرار بلا إله إلا الله في حياة الإنسان	٥١
نواقض لا إله إلا الله	٥٥
نص قيم لابن القيم في قضية الإيمان والكفر	٥٥
تعليق لابد منه	٦٨
أنواع الكفر	٧٢
أنواع الشرك	٧٣
نواقض الإسلام العشرة	٧٦
تعريف الياسق	٨١
نص مهم للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ	٨٢

الباب الأول

مفهوم الولاء والبراء

٨٧	الفصل الأول: تعريفه وأهميته في الكتاب والسنة
٨٧	الولاء في اللغة
٨٩	البراء في اللغة
٨٩	الولاء في الاصطلاح الشرعي
٩٠	البراء في الاصطلاح الشرعي
٩٠	شرح التعريف
٩٣	أهمية هذا الموضوع في الكتاب والسنة ونصيبه من الدراسة والتأليف
	المقارنة بين طريقة القرآن والسنة في عرض العقيدة وبين أسلوب علم
٩٨	الكلام
١٠١	أسلوب العرض القرآني للعقيدة
١٠٥	طريقة القرآن والسنة في غرس عقيدة الولاء والبراء
١١٠	من لوازم محبة الله اتباع رسول الله
١١٢	الفصل الثاني: أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وطبيعة العداوة بينهما
١١٢	عداوة إبليس لآدم عليه السلام
١١٥	بعض صفات أولياء الشيطان
١٢١	طبيعة العداوة بين الفريقين
١٢٢	عداوة الشيطان للإنسان تتمثل في سبع مراتب
١٢٤	أسباب العداوة
١٣٤	الفصل الثالث: عقيدة أهل السنة والجماعة في الولاء والبراء
١٣٥	الناس في الحب والبغض ثلاثة أصناف
١٣٨	الولاء والبراء القلبي

الموضوع	الصفحة
موقف أهل السنة والجماعة من أصحاب البدع والأهواء	١٣٩
تنقسم البدعة إلى كفرية وغير كفرية	١٤٠
الفصل الرابع: أسوة حسنة في الولاء والبراء من الأمم الماضية	١٤٥
(أ) إبراهيم عليه السلام	١٤٥
(ب) أمثلة أخرى على طريق الحق والهدى	١٥٠
الفصل الخامس: الولاء والبراء في العهد المكي	١٥٩
الملتقى الأول وأولى خطوات الطريق	١٦١
صدق التحمل	١٦٤
موقف عظيم لأبي بكر الصديق رضي الله عنه	١٦٦
سمات العلاقة بين المسلمين وأعدائهم في العهد المكي	١٦٧
الحكمة في عدم فرضية القتال بمكة	١٦٨
بر الأقارب المشركين	١٧٤
كيف كانت صورة البراء في العهد المكي	١٧٦
لكم دينكم ولي دين	١٧٩
فرج من الله قريب	١٨٤
صيغة البيعة	١٨٦
الفصل السادس: الولاء والبراء في العهد المدني	١٨٩
نبذة تاريخية	١٩٠
وقفه عند المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار	١٩٢
سمات الولاء والبراء في العهد المدني	١٩٦
أصناف الكفار في العهد المدني	١٩٨
أولاً: كيد أهل الكتاب والتحذير من موالاتهم	١٩٩
ثانياً: النفاق والمنافقون	٢٠٤

٢١٣	أعدائهم
٢١٨	(أ) صور البراء من المشركين
٢٢١	(ب) البراء من أهل الكتاب
٢٢٣	(ج) البراء من المنافقين
٢٢٦	(د) قطع الموالاة مع الأقارب إذا كانوا محادين لله ورسوله
٢٣٠	الفصل السابع: صور الموالاة ومظاهرها
٢٤٧	ما يقبل من الأعذار وما لا يقبل في هذه الصور
٢٤٨	موقف المسلم تجاه هذه الصور
	الفصل الثامن: الرد على الخوارج والرافضة في عقيدة الولاء والبراء
٢٥٢	

الباب الثاني

من مقتضيات الولاء والبراء

٣٦٣	أقسام المحبة
٢٦٧	الفصل الأول: حق المسلم على المسلم
٢٧٠	الفصل الثاني: الهجرة
٢٧٠	(أ) الإقامة في دار الكفر
٢٧٤	المقيمون بدار الحرب ثلاثة أصناف
٢٧٧	المراد بإظهار الدين
٢٨٠	(ب) الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام
٢٨٢	الهجرة هجرتان
٢٨٢	تلخيص أنواع الهجرة

٢٨٩	الفصل الثالث: الجهاد في سبيل الله
٢٩١	أهداف الجهاد
٢٩٩	حكم التجسس على المسلمين
٣٠٤	الفصل الرابع: هجر أصحاب البدع والأهواء
٣٠٦	كيفية مخالطة الناس
٣٠٨	موقف المسلم من أصحاب البدع
٣٠٩	أنواع الهجر
٣١٢	من أقوال السلف في الاتباع والنهي عن الابتداع
٣١٤	الفصل الخامس: انقطاع التوارث والنكاح بين المسلم والكافر
	الفصل السادس: النهي عن التشبه بالكفار والحرص على حماية
٣١٩	المجتمع الإسلامي
٣٢١	أصل المشابهة
٣٢٧	متى تكون الموافقة ومتى تكون المخالفة
٣٢٨	تفصيل مخالفة أهل الكتاب كما ذكر ذلك ابن تيمية
٣٣٠	ما بين التشبه والولاء من علاقة
٣٣١	مثال واحد من مشابهة اليهود والنصارى (العيد)
٣٣٥	صورة مشرقة من صور التميز في المجتمع الإسلامي الأول
٣٣٩	نواقض عهد الذمة
٣٤٣	الأمكنة التي يمنع أعداء الله من دخولها والإقامة فيها
٣٤٤	اعتراض وجوابه
٣٤٦	الفصل السابع: تعامل المسلمين مع غير المسلمين
٣٤٦	المبحث الأول: الفرق بين الموالاة وحسن المعاملة

الموضوع	الصفحة
كلمة حول ما يسمى بزمالة الأديان	٣٤٦
الفرق بين الموالاة والمعاملة بالحسنى	٣٥٢
المبحث الثاني: التعامل مع الكفار	٣٥٦
في البيع والشراء	٣٥٦
الوقف عليهم أو وقفهم على المسلمين	٣٥٨
عيادتهم وتهنئتهم	٣٥٩
حكم السلام عليهم	٣٦٦
المبحث الثالث: الانتفاع بالكفار وبما عندهم	٣٦٤
شروط عمل المسلم عند كافر في أرض الحرب	٣٦٧
حكم استئجار المشرك في الغزو	٣٦٨
نصوص تاريخية تثبت خيانة اليهود والنصارى في ولايات المسلمين	٣٦٩
مراعاة الفرق بين استخدام الكافر كفرد وبين كونه صاحب سلطة ونفوذ	٣٧٢
التقية والإكراه	٣٧٢
متى تكون التقية	٣٧٣
الإكراه	٣٧٥
شروط الإكراه	٣٧٦
أنواع الإكراه	٣٧٨

الباب الثالث

الصورة التطبيقية للولاء والبراء في الماضي والحاضر

الفصل الأول: كيف طبق السلف الولاء والبراء	٣٨٥
موقف كعب بن مالك رضي الله عنه	٣٨٧

٣٨٨	موقف عبد الله بن حذافة السهمي
٣٨٩	موقف عبد الله بن عبد الله بن أبي
٣٨٩	موقف أبي عبيدة عامر بن الجراح
٣٨٩	موقف زيد بن الدثنة
٣٩٠	موقف أنس بن النضر
٣٩٣	الفصل الثاني: صورة الولاء والبراء في عصرنا الحاضر
٣٩٧	الكواكبي وما قام به
٣٩٧	محمد عبده
٣٩٨	عباس محمود العقاد
٣٩٨	كلمة قيمة للأستاذ الدكتور محمد محمد حسين
٣٩٩	طه حسين
٣٩٩	خطط أعداء الإسلام وأساليبهم
٣٩٩	(١) في التربية والتعليم
٤٠٠	الابتعاث
٤٠٣	رفاعة الطهطاوي
٤٠٤	صورة من صور الولاء الفكري المعاصر
٤٠٧	(٢) وسائل الإعلام
٤١٢	(٣) نشر كتب المستشرقين
٤١٧	(٤) المذاهب اللادينية
٤١٧	خطورة إحياء الحضارات الجاهلية
٤١٩	القومية والوطنية
٤٢٥	العالية
٤٢٦	مقال معروف الدواليبي حول العالمية

الموضوع	الصفحة
مقالان لفتحى عثمان وفهمي مويدي حول العالمية	٤٢٧
كلمة حول هذه المذاهب	٤٢٩
الخاتمة	٤٣١
الإسلام طريق الخلاص وسبيل النجاة	٤٣١
فهرس الأحاديث والآثار	٤٣٩
فهرس الأعلام	٤٤٩
فهرس المصادر والمراجع	٤٥٣
فهرس الموضوعات	٤٧٧